

ما كانت تعرفه ميّزي
هنري جيمس

- ♦ المؤلف: هنري جيمس
- ♦ العنوان: ما كانت تعرفه ميزي
- ♦ ترجمة: د. نظمي لوقا
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2019
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٢٠١١٠

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 189 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هنري جيمس

ما كانت تعرفه ميزي

رواية

ترجمة

د. نظمي لوقا

مراجعة

علي أدهم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جيمس، هنري.

هنري جيمس : ما كانت تعرفه ميزي

ترجمة: نظمي لوقا

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

480 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2018 / 20110

الترقيم الدولي 9 - 189 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - جيمس، هنري

كلمة عن المؤلف

هنري جيمس أحد أبناء الفيلسوف الأمريكي الكبير وصاحب البحوث المشهورة في الإلهيات هنري جيمس الكبير، وشقيق الفيلسوف العبقري وليم جيمس. كانت ولادته بمدينة نيويورك في سنة ١٨٤٣.

وقد تلقى الشقيقان تعليمهما في المنزل في فترة صباهما، ثم بعث بهما أبوهما إلى معاهد العلم في إنجلترا وفرنسا وسويسرا في سن مبكرة جدًا. والتحق هنري بعد ذلك بجامعة هارفارد الأمريكية ليدرس القانون، بيد أن الأدب استهواه فهجر كتب القانون وراح ينشر أقاصيصه القصار في المجلات الأدبية الكبرى ابتداء من سنة ١٨٦٥، ولا سيما في مجلة الأطلنطي الشهيرة، التي كان رئيس تحريرها من أصدقائه المقدرين لمواهبه.

وثابر هنري على ذلك أربع سنوات، ثم رحل إلى إنجلترا في سنة ١٨٦٩، فاستقر هناك في الريف ونشر عددًا كبيرًا من الروايات الطويلة ومجموعات الأقاصيص والدراسات النقدية وكتب الرحلات والسير.

ومن أعاجيب المفارقات أنه وجد عناءً كبيرًا في «الوصول إلى الشهرة» -على حد تعبير كبار النقاد فيما بعد- برغم امتيازه الفني الفائق. أو على الأصح كان ذلك الامتياز الفائق في المستوى الفني والأسلوب

الأدبي هو العائق الذي أوصد أمامه أبواب الشهرة العريضة، فلم يحرز أول نجاح مذكور إلا بروايته «ديزي ميلر» التي نشرها سنة ١٨٧٨. وبعدها «انفجرت» شهرته بين خاصة المثقفين والقراء، واعترف به الجميع رأس مدرسة خاصة به، وهي مدرسة تتسم بالترفع عن المناهج السهلة والموضوعات الضحلة.

إن فن هنري جيمس القصصي لا يستمد تقاليده وموضوعاته من مدرسة «ديكنز» أو «ثكري» التي تُعنى بوصف الناس وما يجري في حياتهم اليومية. وما أبعد الشبه بينه وبين أدباء من طراز «ديماس» أو «ولتر سكوت». فهو في قصصه لا يعني بما يسميه البعض «حبكة» تتعقد فيها الأحداث، بل همه متجه إلى تحليل ما يجري في داخل أبطاله من أزمات ومراجعة وصراع وشكوك. فهو تحليلي في المنهج الذي يتبعه في رسم شخصوه. معنيٌ بما ينطوون عليه قبل عنايته بما ينبرون له أو يتعرضون له من الأحداث. فعالم السريرة والوجدان هو عالمه المخصوص بالعناية والاهتمام.

وقصته «ما كانت تعرفه ميزي» من النماذج البارزة للمستوى الرفيع الذي ارتقى إليه ذلك الأديب القاص الممتاز. وتحتل على صغر حجمها النسبي موضعاً مرموقاً بين غرره اللوامع، من قبيل «صورة سيدة»، و«جناحي اليمامة»، و«الوعاء الذهبي».

كانت وفاة هنري جيمس بإنجلترا سنة ١٩١٦، حيث استقر به المقام، وكان قد تجنس بالجنسية الإنجليزية عقب نشوب الحرب العالمية الأولى) في سنة ١٩١٥.

مقدمة المؤلف

(ظهرت هذه المقدمة في الطبعة الكاملة لأعمال وليم جيمس التي صدرت في نيويورك، وقد صدر بها المجلد الحادي عشر الذي ضم قصة «ما كانت تعرفه ميزي»، وقصتين قصيرتين معها. وقد حذفت من هذه المقدمة المنشورة هنا جميع الإشارات إلى القصتين الآخرين).

أعترف ها هنا مرة أخرى بأن هذه القصة مثل آخر من أمثلة نمو «البلوطة الضخمة» من الجوزة الصغيرة. فإن «ما كانت تعرفه ميزي» -بأدنى اعتبار- شجرة فاق نموها كل مدى كانت بذرتها الصغيرة حريّة في بداية العهد بها أن تصل إليه. وكان قد نما إليّ عَرَضًا ذكر ما آل إليه حال طفلة منكودة على أثر افتراق أبويها بالطلاق. وقد رأى مَنْ أبلغني نبأها بعينه ما جره عليها زواج أحد والديها مرة أخرى -وقد نسيت؛ أيهما الذي تزوج. ولما كان الزوج الجديد لا يرحب بوجود الطفلة معه، فما كان في الوسع ترتيب حياتها على أساس المعيشة لدى أبيها، ثم لدى أمها على التوالي. وكان كلٌّ من هذين في البداية قد بذل جهده لاحتجازها عن الطرف الآخر على سبيل النكاية. ثم تغير الوضع وانقلب الطرف الذي تزوج إلى السعي للخلاص منها؛ أي في تركها أطول مدة ممكنة، إلى مدى يتجاوز الفترات والأزمات المقررة عبثًا على

خصمه. وهو خطأ يستهجنه ذلك الخصم ويعدّه حثّاً عن سوء النية، ويرد عليه بطبيعة الحال، ويثار له بما يعادله من الختل.

وهكذا ألقت الطفلة المسكينة نفسها وقد بُذت عملياً، وراحت تتقاذفها مضارب الطرفين ككرة التنس أو الكرة الطائرة. وهي صورة لا بد أن تهز المخيلة حتى الصميم، وأن تبدو للمرء بداية قصة. قصة تتطلب أطوارها قدرًا من العناية كبيرًا. وأذكر أنني فكرت على الفور فيما يستلزمه التماثل القديم من وجوب زواج الوالد الآخر أيضًا - وهو ما كان مرجحًا أن يحدث بعد زمن وجيز في القصة التي رويت لي. وهذا على كل حال ما يقتضيه النمط النموذجي للموقف. ولا يبقى إلا أن نجعل الزوج الجديد للطرف الثاني يضيق أيضًا بالالتزامات إزاء ذرية سلفه المكروه؛ كي تصبح محنة الضحية الصغيرة نموذجية في بابها على وجه التمام. وذلك خليك أن يجعل الموضوع شديد الكآبة. بيد أنني لست واثقًا بأنه كان عسيّا بذلك لو لم أشعر لساعتي أن تلك الوقائع البشعة - كما رويت لي أو كما تصورتها - ليست بحال من الأحوال كل قوام ما لذلك الموضوع في مجموعه من سحر.

إن أضواء المخيلة التي هزتها هذه الأحداث البشعة لم يكن في وسعها إلا أن تلقي بمزيد من أشعتها، وبفضل امتداد تلك الأشعة، أمسى من الواضح الجلي أن فرصة السعادة وتحسن الأحوال ليست أقل من فرصة الشقاء وتدهور الأحوال بالنسبة للطفلة، وأن حياتها حينئذ حريّة أن تعجنح في تعقدها صوب الرفاهة والثراء، وأنه ما إن تجري الأمور ذلك المجري حتى ينتهي الأمر بتلك المخلوقة الصغيرة إلى الأمن

واليسر. وكان لتجمع هذه العناصر في هيئتها المحملة ذلك الوهج التصويري الغامض الذي هو قوام السحر الأول للموضوع الحي لدى وجدان الرسام. ثم ازداد ذلك اللاألاء شدة عندما تقدمت في التحليل خطوة أخرى. والإمعان في التحليل في هذا الصدد هو في الأغلب الأعم المشعل الذي ينير الطريق للنشوة والنصر، وقد استولى الفنان بيد ثابتة على ناصية التحليل وراح يضطلع به. وما أعنيه هنا بالطبع هو النشوة المكظومة والنصر المستتر اللذان ينعم بهما ويحتفل لأعلى قارعة الطريق، بل أمام محراب قائم في دخيلة السريرة. وتلك ثمرة يكاد يبلغ الترجيح في أمرها مبلغ اليقين الجازم أنها لا تصل عند الممارسة لدى أول معالجة يسيرة إلى لباب الحقيقة الأمثل. وكان هذا عقلاً هو سحر الصورة كما تبدت لي بهيئتها الغامضة في البداية. ثم لم تلبث عناصرها أن أينعت حتى أديمها الظاهر بفعل ضرب من السخرية نابع من أعماق أبعد مسرباً مما يبدو للعيان. سخرية كامنة بين طوايا الفرض الأولى كما يكمن العطر، وكلما حام حولها الوعي، زاد تنبهه إلى شذاها. وربما جاز لي أن أزيد على هذا، أنني كنت كلما أمعنت في احتقار السطح الخارجي وأوغلت إلى الداخل، زاد إحساس خياشيمي العقلية بشدة ذلك العبير. وما إن وصلت في النهاية إلى ما أسميته باللباب، حتى ألفت نفسي أمام شرارة مأسوية حمراء تتوهج أمام بؤرة نظري. وما إن نفخت فيها برفق، حتى ازدادت تضرماً واتضحاً. وكانت هذه الشرارة الثمينة هي الحقيقة الساخرة بتمامها، وهي العنصر الأجدر بنا أن نتبينه في موقف الطفلة. ولا بد من إرضاء للعقل -بعبارة أخرى- أن نبقي على ذلك الإحساس

الصغير النامي؛ كي نقدمه في صورة سجل للانطباعات. والإبقاء عليه عن طريق بعض المزايا وبعض المنافع وشيء من الثقة المكتسبة أولاً من إخماد جذوته وتشويهِه وإلحاق العقم به عن طريق الجهل والألم. فذلك التحسن في الأحوال بالنسبة لحياة ناشئة لا بد أن يجد له مصدراً فعالاً غير ما تحدثه في أنانية الوالدين من تفسخ. وذلك ما كان ينتظر الطفلة إذا أخذنا بالنظرة السطحية للأمور، ووجهنا همنا كله إلى انتقاد ما بينهما من شقاق. فصار من المستحسن استبدال علاقة لاحقة بالعلاقة السابقة، بحيث لا تخضع الفتاة خضوعاً صريحاً للرابطة الموروثة وما تفرضه عليها من تعقيدات تسبب لها العذاب. وفتاتنا الصغيرة صانعة الأعاجيب يمكن أن تخلق -من غير تدبير سابق- عناصر جديدة من هذا النوع. بمعنى أن تسهم في تكوين رابطة جديدة في مقدورها عندئذ أن تجني منها نفعاً جزيلاً، حتى كأنما قد هدتها إلى ذلك بصيرة سحرية.

ومؤدى ما تقدم: أن الضوء الذي نمت فيه الرؤية ذلك النمو الطيّع حتى تم لها الاكتمال إنما هو زواج كل من الوالدين زواجاً آخر، فإن الأب وقد نال حريته بالطلاق لم يكن أمامه إلا أن يتخذ لنفسه زوجة أخرى. وكذلك الأم صار من حقها، ولديها مثل تلك الرخصة، أن تتخذ زوجاً آخر. وهكذا تشرع القصة على الأقل في النهوض على قدميها باتزان. وبذلك يمكن أن يكون ثمة منطق محكم لما يمكن أن يحدث ولو عن طريق نسبة شيء من الحساسية (وأن في حدود الرهافة النسبية في الإحساس) إلى كل من الطرفين الجديدين. فالعلة الأولى لما يديه هذا الجانب أو ذاك أو كلاهما معاً من محاولة مستميتة للانتقاص من

نصيبه المقرر من العبء الذي كان ينبغي أن يحمله هي عجز أساسي في كل من الوالدين عن القيام بأي مقدار من ذلك العبء وضيق وضع به. وبذلك يتوفر لدينا الدافع لعدم تطلب شيء من الشذوذ الخارق في زوج الأم وزوجة الأب، فلنا عن ذلك محيص غناء. فالطفلة إذ نراها تنشئ بتأثير ما ترزح تحته من النبذ علاقة بين زوج أمها وزوجة أبيها -علاقة كلما اشتد توثقها كان ذلك أفضل من وجهة النظر المأسوية، وإذ نراها بما للإهمال الذي تعانيه من جاذبية وما تستشعره من الارتياح تنسج فيما حولها بإيمان صادق خيوط التمرس بحقائق الحياة، وإذ تغدو مركزاً وتعلو لنظام جديد من سوء السلوك، نظام من طبيعته فضلاً عن هذا أن ينمو ويتشعب: تقدم مغزى السخرية كاملاً، وبذلك يزدهر الموضوع الموعود الذي استقيت مصدره من تلك اللمحة الأولى ازدهاراً منطقيًا. وما من موضوعات تباري في صبغتها الإنسانية تلك الموضوعات التي تبرز أماننا من أمور الحياة المضطربة تلك العلاقة الوثيقة بين الفرح والترح. أو بين مصادر العون وأسباب الأذى. فتلوح أمام نواظرنا على الدوام بذلك النوط اللامع من الصلب- نوط صيغ من معدن غريب يختلط فيه الغث بالثمين، أحد وجهيه تتراءى فيه رفاة امرئ ونعماؤه، وفي وجهه الآخر تتراءى آلام امرئ سواه وأخطاؤه. فالدور الذي سيكون على بطلي الصغيرة أن تضطلع به هو أن تحيا بأقصى ما في استطاعتها من عمق الإحساس والحيرة والتنعم في عالمها الصغير المختلط أعنف الاختلاط، جامعة بين أشخاص كان الأولى -على الأقل- أن يظلوا متباعدين رعاية للياقة، مفرقة بين أشخاص كان الأولى

-على الأقل- أن يجتمع شملهم، مزدهرة إلى حد ما على حساب كثير من أصول المواضعات المرعية واللياقة والاحتشام، محتفظة بشعلة الفضيلة متوهجة وسط ريح تعمل دأبة على إخمادها، وقصارى القول أنها في الواقع تزيد من اضطراب الأمور واختلاطها بإدخال عبير شارد من شذى مثل من المثل العليا إلى صميم رائحة الأنانية، وبما تبذره بمحض وجودها فوق الشيطان القاحلة من بذور الحياة الأخلاقية.

ومعنى هذا أنني أدركت على الفور أن ذلك الزورق الخفيف من الوعي الذي يتأرجح في مثل ذلك التيار لا يمكن، فيما يستسيغه العقل، أن يكون غلامًا صغيرًا فقط. ذلك أننا إن غضضنا الطرف عن الحقيقة القائلة بأن صغار الغلمان لا يتمتعون على الإطلاق بما تتمتع به الفتيات الصغيرات من إحساس الناس بـ «حضورهم»، بقي لدينا أن حساسية الأنثى الصغيرة في بواكير الصبا أعظم بلا مرء من حساسية صغار الذكور. وخطتي ستطلب من بطل روايتي حساسية لا حد لها. وسيكون في مقدوري أن أعزو ذلك القدر من الحساسية إلى بنية صغيرة ستعاني مداركها قسطاً كبيراً من الاهتزازات من غير أن أكون قد ركبت بذلك متن الشطط. بيد أنني ينبغي أن أعتمد على تصرف الفتاة كي أبقى لقصتي على وضوحها، ولذا ينبغي أن أظهرها بما لا يدع مجالاً للشك في مظهر الفتاة ذات المراس بطبيعتها. وسعيًا وراء هذه الغاية ينبغي بطبيعة الحال أن أفترض لبطلتي ألواناً من الاستعدادات الواعدة. وينبغي قبل كل شيء أن أجعل لها من فطنة الإدراك نصيباً يطرد في نموه اطراداً حثيثاً يكاد لا يقف عند حد. أما وقد تمت تهيئتها على هذا النسق الوافي، وعلى

نهج لا يصدم حدود الإمكان صدمة عنيفة، ففي مقدورها أن تكفل لي إنفاذ خطتي عن آخرها. وهي خطة تزداد خلابتها في نظري كلما قلبتها؛ ويزيد من قدرها عندي ما يكتنفها من المشقة المستطابة. وتقوم هذه الخطة على اتخاذ وجدانها المحدود جدًّا ميدانًا لصورتني، في الوقت الذي أحرص فيه على الاحتفاظ في عناية شديدة بما ينبغي للأمور التي أعالج تصويرها من سلامة واكتمال. وما إن أشرق سحر إمكان ذلك المنحى، حتى تبلور مشروع «ميزي» وتبلج تبلجًا بعيد المدى. وإني أرى لزامًا عليّ في هذا المقام أن أقرر أن كل موضوع يبدأ تبلجه على نطاق واسع في ذلك الصدد منذ اللحظة التي يستولى فيها على المرء سلطان التعبير المكتمل. وقد أشرت فيما أعتقد آنفًا، في موضع آخر إلى أن ذكرى عملي الخاص لا تحتفظ لي بموضوع لم يستعص بصورة واضحة على التظامن في فترة من فترات نموه، ولم يكن على الدوام متربصًا لسنوح الفرصة الموازية لذلك الاستعصاء، حتى (أو لعل الأوفق أن نقول وعلى الأخص) عندما يكون تخيري وتعلقي بذلك الموضوع بسبب تظامنه المحسوس الذي لا حيلة فيه. وما إن «ينطلق» كأنه في انطلاقة كلب من كلاب البيوت لا يطيق الحبس بحكم مزاجه، حتى ليتحدى دعوة صاحبه إياه بالصفير، ويروح هائمًا على وجهه يقنص وينقب و«يرى» الحياة، فلا يتسنى إلا بقبضة اليد كي ينال عقوبة الجلد العقيمة. وما كان، على كل حال، لفكرة تراءت لي في ذلك الضوء الذي أنظر إليه هنا أن تكون مفتقرة إلى بيئة دامغة عن قيمتها. فكيف لقيمة مشروع ينتظره هذا التحقق البديع ألا تكون قيمة ذات قدر؟ إن السجل

الذي تتمثل فيه الصورة المتراكبة ينبغي أن يكون نشاط فطنة الطفلة إلى ذلك التراكب المعقد فطنة مشوشة غامضة. ومع هذا ينبغي كما قلت أن يبدو الموضوع برمته بطريقة لا لبس فيها وعلى مستوى مشرف من خلال ذلك الذكاء الغض، أو ينبغي على الأقل أن يعزز حضورها الذي لا وزن له، بيد أنه ينبئ عن معنى ذلك الكل في شموله.

وأذكر أن أول تصور تمثل لي فيه هذا الاتجاه الأنيق الممكن حدث في الوقت الذي أخذت معضلة الصورة المتصلة بذلك الاتجاه الممكن تنكمش داخل حدود ما عسى أن تتصوره الطفلة وتفهمه، ويكون في وسعها أن تتأوله وتقدره (وقد ساق انكماش الصورة في تلك الحدود كما قلت اتجاهها صوب التمام والتناسق): فلما أمعنت في المراجعة لتلك الفكرة وللتجربة تبين لي أن موضوعي يكاد يختنق بتلك الصرامة المفرطة، فعقل الطفلة عصيٌّ على أحسن التقديرات أن يترك ثغرات وفراغات جسيمة، فإذا بنا وإن تأتى لنا سطح خارجي منتظم ربما كان لا تثريب عليه تفتقر إلى وضوح المغزى. فسوف يتعين على أمد الموضوع إلى ما رآته شاهدي المتعجبة رأي العين، ولم يكن لها من رؤيته مناص. وجانب كبير من ذلك الذي رآته إما أن تكون عاجزة عن فهمه إطلاقاً، أو حريّة أن تسيء ذلك الفهم. وعلى قدر هذه الحدود وحدها لا بد أن يفصل ثوب مهمتي. وعلى هذا عندئذ قراري، وهو أن أقدم «كل شيء». أن أقدم الموقف المحيط بها برمته. بيد أنني أقدمه من خلال المناسبات والاتصالات التي تنجم عن ملامستها لها وتوجه انتباهها إليها فحسب. وكما هو حريٌّ أن يحدث أمامها ويسترعى انتباهها فحسب. وكما هو

عسي أن يهزها ويؤثر فيها، إن خيرًا وإن شرًا، من حيث ما يحصل لها من فائدة ملموسة أو خسران محسوس: بحيث نشعر نحن الشهود الذين لم ندع الشهادة وإن كنا نقادًا خبراء فحسب أننا نملك ناصية ذلك الكل امتلاكًا قويًا. ونبدأ فنقول إن ذلك نهج محدد تمام التحديد صالح للتطبيق المتزن، وهذه علامة تدل دائمًا في حد ذاتها على الجمال. وقد اتضح لي عند معاودة التمعن في العمل أن شيئًا من ذلك البهاء المهيمن يسيطر عليه سيطرة موفقة. وما من شيء يمكن أن يكون أجود من هذا «طهوا» فيما أظن، إذا ما نظرنا إليه في ضوء أوفق غاياته. وإن كان المظهر في بعض الأحيان يثبط مثابرتي. فصغار الأطفال لديهم من المدركات أكثر مما يملكون ناصية الترجمة عنه بالألفاظ فبصيرتهم في كل وقت أغنى وفهمهم أقوى مما تحت يدهم من قدرة متأهبة للتعبير. فلئن كان ما هممت به من حبس نفسي في تلك القضية داخل حدود ألفاظ الطفلة وتجربتها يبدو لأول وهلة طريفًا ممتعًا، إلا أنه تبين على الفور أن ذلك العزم حريٌّ أن تكتب له الخيبة. إن ألفاظ «مزي» تؤدي دورها في ذلك الإطار. لأن استنتاجاتها الساذجة تتوقف على تلك الألفاظ. أما تعليقنا نحن فلا بد أن يأخذ مداه من العناية والتجسيم. وهذا يجعلنا نبدو في بعض الأحيان كما لو كنا «وراء» وقائع نشهدها بقصد تهويل أثر صلاتها بتلك الوقائع. والفارق ها هنا جد طفيف: فعلاقاتها ونشاط ذهنها هما اللذان يستأثران باهتمامنا كله. وقصارانا أن نستغل تلك الأشياء خيرًا من استغلالها لها. ومع أن اهتمامنا بما هو العامل الأساسي في اهتمامنا به، إلا أننا نراعي لا محالة ذلك في الصور

التي لن تدخل بعد في تناول إدراكها، ولا بد مع هذا منها حينما تكون تلك الصور متعلقة بها أو بجوانب من تجربتها مفهومة لديها بيد أنها مطموسة بين طوايا تجارب أخرى يفوتها إدراك مغزاها فواتاً أليماً. وقد زودني هذا كله بمنطق صارم سام لا بد لي من إتباعه، وأمدني بالقوة التي يحمد لها من تخرجه من مأزقه حين يعمل؛ وبالقدرة على جذب الخيوط التي تستحق ذلك العناء. وإنها لقدرة وافية في بأسها وافية في زكاتها وافية في شمولها.

وبطبيعة الحال كان وراء ذلك سحر آخر يكاد يضاهي ذلك السحر الأول. يضاهيه مع أنه يكاد يكون مستقلاً عن مسألة البناء الصارم والتعبير الذي لا ينتهي إلى غاية. وذلك هو سحر مسألة مختلفة تمام الاختلاف خاصة بذلك اللون المعين من صدق المقاومة التي يتسنى لي أن أعزوها إلى شخصيتي الرئيسة. فلا بد من شيء من الكثافة، وشيء من اتصال المقاومة باعتبارهما عنصرين طبيعيين في جوهر ذلك الموضوع والفلاح في المقاومة (مقاومة ضغط الملاحظة وإغارة التجربة) ماذا عساه يكون من جانب طفلة حديثة السن، اللهم إلا بمعنى أن تظل ساذجة، مقيمة على سذاجتها، وأن يكون لها من سطوة السذاجة ما تفيضه على الآخرين؟ وهذا الأمر في صدد «ميزي» إنما يكون الغرض منه أن تطعم أصدقاءها من أطايب مشاهدتها الغنية اليافعة للأمور المذخورة في طوايا عجبها. وعجبها يمتد بعبارة أخرى حتى النهاية. حتى الموت -موت طفولتها، بالمعنى الصحيح للفظ الطفولة. ولا بد بعد ذلك (مع التبديل الذي لا مناص منه إن عاجلاً أو آجلاً في وجهة نظرها) من تغير موقفها، بحيث

يمسي خاضعاً لمقاييس أخرى ويتخذ له محوراً آخر تماماً. فرد الفعل الخاص الذي أدى بها إلى هذا، وكان من الطريف الشائق أن ندرسه فيها، وقد استنفذ أغراضه. وبعدئذ سيكون ثمة محيط آخر، ومجال آخر للرؤية، وأفق آخر. ومهمتنا في هذه الأثناء أن نستخرج من استجاباتها الجارية كل ما عساه أن يكون ذا قيمة. ونعترف لاستجاباتها الجارية في هذه الخصوص بأسمى قدرة استعراضية. والحقيقة فيما أظن أن الموضوع لو لم تكن له من أسباب الجمال غير ذلك لظلت له تلك الفتنة النادرة الممتازة التي تستمد قيمتها من ذلك الإفصاح عن تنوع ما للطفلة من قيم. فهي ليست المحور الساخر الخارق للعادة الذي أشرت آنفاً إليه فحسب، بل ترجع أهميتها العجيبة أيضاً إلى ما تلقى من ضوء يتجاوز حدود فهمها بآمد كثيرة، وإلى أنها تُضفي على الأشخاص والأشياء التي تعاني من الهزال عنصراً ثميناً من عناصر الاعتبار لا شيء إلا لأنهم مرتبطون بها أو بحكم المحيط الخاص الذي تخلقه لهم وأنا في الحق لأخرج عن طوري في تقدير موضوعي حينما أبرز ما تفعله «بسذاجتها» بتلك المظاهر المبتذلة الفارغة في حد ذاتها. فتلك المظاهر تضحي حين تتناولها هي مادة للشعر والمأساة والفن. فليس عليها كما قلت إلا أن تعجب من المسألة بسذاجتها، فإذا بها تنبض بالمعاني والمعالم والتماسك والعلاقات.. العلاقات التي ترتبط بما هو «كلي». وذلك مدى ما كانت تلك المظاهر لتطمح إليه. فهذه «أيدا فارانج» مثلاً على حدة، أو «بيل» على حدة، وكل منهما له ارتباطات أخرى -أي عمق، وأي «موضوعية» (وذلك أقصى درجات نمو الكينونة التي تخطر بالبال

في خصوصهما على كل حال) يمكن أن تكون لهما؟ وكيف كان ممكناً لهما أن يردا لنا ما أوليناها من الجميل بتوجه اهتمامنا إليهما.

و«ميزي» تجعلهم جميعاً تحت تأثير استقامتها المخلصة أشخاصاً مفزعين. وتجعل أمها فوق كل شيء تبدو في نظري - ما لم أكن قد أخفقت كل الإخفاق في تبين ذلك - امرأة ذات طابع حسي عملي. امرأة هائلة مروعة. بحيث نجني بطريقة في السياق تتسم بالقصد تصويراً محكماً للشخصية إدراكاً للرمز الذي ينطوي عليه ذلك التصوير الأخاذ وأحسبني تبينت في موضعين على الخصوص استمتاعنا إلى أقصى حد بثمرة ذلك السحر المزدوج، والفقرة التي أقدم فيها أبوها برعونة مزرية على خطفها لترى في ساعة متأخرة من الليل معالم علاقته بتلك السيدة اللمزة غريبة الأطوار العاطلة من الجاذبية، مثل بارز لنهج لا يمكن توقعه تقريباً في إقامة دعائم الاهتمام الخاصة. والمستفاد من تلك الفقرة أن «بيل فارانج» شخص دنيء، وأن الصديقة التي يقدم إليها ابنته امرأة حقيرة. وأنه يجعل بنا أن نشيح بوجوهنا عن العلاقة التي بينهما، في حد ذاتها. بيد أن هذه المسألة ما إن تغدو جزءاً مما يثير لبال الطفلة، حتى تتساقط عنها هذه الصغائر العقيمة، وإذا «المشهد» يبرز ويتجلى أمامنا حياً يتميز بالخصوصية، متين الحبك بحيث لا يمكن لتلك المتانة أن يطويها النسيان. وهو المشهد بعينه الذي ما كان لبيل وأيدا ومسز كادون، بل ولا للسير كلود ومسز بيل، أن يفلحوا ولو بلحظة واحدة في جعل أقدارهم الهزيلة الضامرة تبدو محل اعتبار محسوس لو أنهم رأوه. وثمة مثل آخر هو واقعة التقاء «ميزي» على غير أهبة، وهي تتمشى

في البستان مع السير كلود، بأمها وبذلك المخدوع المرافق لها، ألا وهو الكابتن المتسم بالجاذبية وبث روح العزيمة والإقدام. وقد احتالت تلك السيدة على تفويض أمرها إليه مدة عشرين دقيقة تفرغ فيها للتفاوض مع زوجها الثاني. والمادة الإنسانية ها هنا كانت حُرِيَّةً أن تبدو غير صالحة تقريباً بفراط هزلها للتناول: فالشخصيات الثلاث «الناضجة» حظها من التألق جد ضئيل، وغباوتهم مفرطة (فما كان أغبى السير كلود إذ تزوج من أيدا)، وغرورهم مفرط، وذلك كله بالإضافة إلى خوائهم الشديد، يجعلهم غير صالحين للمعالجة الواضحة. ولكن أهمية شأن الطفلة تنمو فجأة وعلى الفور تنقل إليهم عدوى تأثيرها الناشط، فإذا بها تجعل للقيمة «الكلية» شأنًا آخر. وفي الوقت نفسه ما من شيء بطبيعة الحال أوغل في القدم بالنسبة لمن يراقب أحوال الناس ويصور الحياة من تلك الحتمية الجازمة الفجة التي تبدى في استخدام ألفاظ من قبيل «أليم» و«مستهجن» و«مقزز» في وصف النتائج التي يصل إليها. وقد بلغ هذا التقليد للأسف الحد الذي جعل استخدام هذه الألفاظ جزافاً بمثابة ترجيح حاسم يقوي المرة بعد المرة من تقدير الحاسة النقدية في الدوائر التي تنمو فيها هذه الألفاظ بصورة بعيدة عن الفن. وقد كان من نصيبي بالطبع تحت تأثير ذلك الاعتقاد الخرافي أن يلقي عليّ بانتظام درساً في أن «إقحام» طفلة في أي أمر مستهجن لا بد أن يؤدي إلى زيادة وطأة موجبات الاستهجان. وأنه ما من شيء أدعى للتعزز من أن أعزو إلى «مين» «معرفة» وثيقة إلى هذا الحد بالأمور الفاضحة المنافية للآداب التي تجري حولها.

وكل ما يقال في شأن تلك التدقيقات أن المرء مهما هوّن من شأن تأثيرها العام مقدّمًا وبصورة قاطعة، لا يسعه إلا أن يأسف لأنه ما لم تكن نهاية التدقيق في هذه الأمور قد حانت فستبقى أماننا عناصر لا مفر - لأشد الفلاسفة انزعاجًا من إدخالها في تقديره. ومصور الحياة تواجهه في عمله صعاب كثيرة حينما يكون جانب لا يستهان به من الحياة متمثلًا على هيئة تلك الفطنة. فالجهد الذي يبذل للرؤية الحقّة وللأداء الحقّ ليس بالشيء الهين في مواجهة القوة التي تعمل دائبة على زيادة اختلاط الأمور. وأهم ما في الأمر حقيقة أن حالة الاختلاط من أبرز الحقائق وأدعاها للاهتمام؛ لأنها ذات لون أيضًا وكيان وطابع. وكثيرًا ما تتصف بالمقاومة العريضة الغنية التي تستثير الفكاهة، وتتوفر لها علائم كثيرة وقيم كثيرة تستحق الاعتبار. ولذا كان لا بد مثلاً - فيما يخيل إليّ - أن يكون المبدأ الأساسي لجاذبية «ميزي» وسذاجتها المنيعّة، وبعبارة أخرى ذلك الذكاء المتوقد الذي تنبض به في ذلك الجو الموبوء ويزداد ازدهارًا في عالمها اللا أخلاقي حرّياً (إن نحن سائرنا أولئك المتمزتين) أن يذهب سدى على اعتبار أنه شيء عقيم خال من المعنى، أو على أحيان الفروض كم هو مهمّل. لأنه ما من إنسان تتراءى لديه الحياة على سعتها جديرة بالاهتمام «في سر» يقدم على تحويل الاختلاجات الصغيرة المتلهفة الحية الدقيقة (وهي متلهفة وحيّة ودقيقة بفعل العاطفة التي تسبق المعرفة) إلى كمّ مهمّل. وهذا بلا مرأى سبب من الأسباب الكثيرة التي تجعل الفقرة التي تدور بين الطفلة والسيد القبيح الودود العطوف وهو جالس معها في حدائق كنجستون تحت شجرة وارفة يدافع أمامها

عن أمها كما لم يدافع عنها أحد قط، بحيث هز مشاعر البنوة والأخلاق لديها بما لم تهتز به قط، فقرة تبرز غاية الإبراز - في حساباني على الأقل - جانب القوة في الموضوع؛ فهي لذلك فقرة نموذجية - وثمة يقيناً مزايا أخرى إلى جانب ذلك كما يتراءى لي للتعبير عن جماله. والعجب الناشط المسعف الدائب كما سميته هو الخاصة التي حفظت للطفلة ذاتيتها وأبقت لها عليها. وهو الخاصة التي جعلت قضيتها تتميز على وجه الدقة بما أُلقي عليها من عبء فادح. فذلك العبء هو الذي أمدّها بالامتياز وأمدّها بالحيوية والتنوع. وما من شك أن ذلك العبء ما كان ليسدي إلينا ذلك النفع كله لو لم يكن فادحاً، ومن أسف لنا أننا حرمانا من هذه الخاطرة السديدة؛ لأن «ميزي» يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٠٧.

هنري جيمس

ما كانت تعرفه ميزري

بدا النزاع القضائي كأنه لا يؤذن بانتهاء. وكان نزاعًا معقدًا في الواقع. بيد أن قرار محكمة الاستئناف أيد الحكم الذي أصدرته محكمة الطلاق بصدد مآل الطفلة. وتأسيسًا على هذا النصر، عُهد بها إلى الأب الذي استطاع -على ما به من وصمات تمتد من فرعه إلى قدمه- أن يكسب الدعوى. لم يكن ذلك لأن خُلِقَ الأم أرجح كفة بالمثالب؛ بل لأن لألاء أديم أي سيدة (وكان أديم هذه السيدة في المحكمة ملحوظ التآلق إلى حد كبير) قد يجعل ما به من كلف أشد وضوحًا. وقد اقترن هذا الحكم الثاني مع ذلك بشرط انتقص من حلاوته في نظر «بيل فارانج»، ألا وهو إلزامه بأن يرد إلى زوجته السابقة مبلغ ألفين وستمائة جنيه كانت قد دفعتها وخصصتها قبل ذلك بنحو ثلاث سنين لنفقات معيشة الطفلة على أساس الاتفاق الثابت ألا يعتمد إلى اتخاذ إجراءات قضائية. وقد انفرد منذ ذلك الحين بالإشراف على هذا المبلغ الذي لا يستطيع أن يؤدي عنه أي حساب مقبول. فلم يكن هذا الإلزام الذي فرض على خصمها مصدر شفاء هين لغليل «أيدا»؛ لأنه أخرج جزءًا من الحمة التي نالتها بالهزيمة، وأرغم «مستر فارانج» على أن يخفف من غلوائه تخفيفًا ملموسًا، إذ لم يكن في وسعه أن يؤدي المال أو يحصل عليه من

أي وجه. فكان المخرج الوحيد له من هذا المأزق، بعد عراق لا يكاد يقل في علنيته ولا يكاد يزيد في احتشامه على صدمة المعركة الأصلية، اقتراحُ تقدم به مستشاروه القضاة بالوصول إلى تسوية ودية، وقد قبل مستشاروها القضاة ذلك الاقتراح.

بمقتضى هذه التسوية تجوز عن دينه، واتفق على التصرف في الفتاة الصغيرة بأسلوب جدير بمجلس قضاء سليمان، فقد شطرت نصفين، وألقي بكل شطر منها إلى أحد الطرفين المتنازعين بلا تحيز. فلهما أن يضمهما على التوالي، بحيث يختص بها كل منهما ستة أشهر في كل مرة، فتقضي نصف العام مع كل منهما. وقد بدا هذا القرار عجيباً في نظر أولئك الذين لم تزل أعينهم تطرف من شدة الضوء المنبعث من المحكمة. وهو ضوء تراءى فيه كلا الوالدين أقل ما يكونان جدارة بالقدوة الصالحة لدى الصبا وبراءته. فما كان منتظراً على أساس ما ثبت من الوقائع هو تعيين ما يقوم مقام الوالدين في صورة شخص ثالث مناسب، كأن يكون صديقاً محترماً أو على الأقل ذا مظهر لائق. ولكن يبدو أن محيط أصدقاء آل فارانج فر عبثاً بحثاً عن درة لها هذه الصفة. فأمسى الحل الوحيد الذي يتغلب مع هذه الصعوبات - فيما عدا إرسال «میزی» إلى دار الكفالة - هو تقسيم مسؤوليات القوامة عليها على الوجه الذي أسلفناه. وكان لدى والديها من الأسباب للاتفاق على هذا ما ينيف بكثير على ما لديهم من أسباب الاتفاق على أي أمر عداه. فهما الآن يستعدان بمعونتها للاستمتاع بذلك التميز الذي تخطى به السوقية حين تتوفر لها أسباب الاستقرار. وكان فراقها قد أحدث دويّاً. فبعد أن

كانا مغمورين وشملهما مجتمع صار شأنهما ملحوظاً بصورة واضحة وشملهما مفترق. ولكن ألم يحدثا في الناس من الأثر ما يحدوهم إلى التطلع في الصحف إلى كلمات الاستغاثة لإنقاذ الفتاة الصغيرة، مما يعتبر صدًى وسط الضجيج العام للفكرة القائلة بأن خطوة ما ينبغي أن تتخذ، أو أن شخصاً كريماً ينبغي أن يتقدم لانتشالها. لقد تقدمت بالفعل سيدة طيبة خطوة في هذا السبيل أو خطوتين. وهي تمت بصلة قرابة بعيدة «لمسر فارانج»، فاقترحت عليها - بما أن لديها أطفالاً وحجرات حضانة تامة المعدات - أن تسمح لها بإيواء الفتاة موضوع النزاع. وهي بذلك حريّة حين تدخلها في نظامها ونهج معيشتها أن ترفع العبء عن أحد الوالدين على الأقل. وذلك من شأنه أن يتيح لميزي في كل مرة مزيداً من التغيير بعد الشهور الستة التي لا مفر من تمضيّتها مع بيل. فصاحت أيداً:

- مزيداً من التغيير؟ أليس حسبها أن تفارق ذلك البهيم الوضع إلى كنف أشد الناس في الدنيا بغضاً له؟
- كلا. لأنك تبغضينه بحيث لا تكفين عن التحدث إليها عنه. فتستبقينه ماثلاً أمامك بدأبك على رميهِ بالمثالب.

وحملت «مستر فارانج» وهي تجيب:

- أترين إذن أنه ينبغي عليّ ألا أصنع شيئاً لإحباط ما يرميني به هو من ثلب غادر؟

وكفت السيدة الطيبة عن الجواب لحظة. فكان صمتها حكماً صارماً على الموقف كله. ثم قالت آخر الأمر:

- يا للقردة الصغيرة المسكينة.

فكانت هذه الكلمات هي المراثية التي نُقشت على قبر طفولة ميري. فقد تركت المسكينة لمصيرها المقدور. وكان من الواضح لكل مَنْ يلقي النظر أن الصلة الوحيدة التي تربطها بكل من أبويها أنها للأسف الشديد وعاء حاضر لتلقي مرارتها، فهي فنجان صغير عميق من الخزف تختلط فيه أحماض لاذعة. فهما لم يريداهما لما قد يكون في وسعهما أن يسديا إليها من الخير، بل لما في وسع كل منهما أن يصيب به الآخر من الأذى عن طريقها وهي لا تعي. إنها قمينة أن تكون أداة لحنقهما تمكن لانتقامهما. فالزوج والزوجة قد أنزلت بهما يد القضاء بوطأتها الشديدة ما أعطبهما على السواء، حين جاء حكم المحكمة العليا دامغاً للطرفين منكرًا عليه ما يطالب به من الحصول على كل شيء، فلئن كان لكل منهما أن يحصل على النصف فحسب، فبمقتضى ذلك أن كلا منهما ليس من الحطة كما يزعم الطرف الآخر. أو بعبارة أخرى يصمم كلا الطرفين بأنهما في السوء سواسية، ما دام كل منهما نذًا للآخر. وكانت الأم قد رغبت في منع الأب -على حد قولها- من «مجرد رؤية الطفلة». وكانت دعوى الأب أن أهون لمسة من الأم كافية أن «تدنس» الفتاة. وهذان هما الأساسان المتقابلان اللذان ستتلقى ميري تربيتهما على مقتضاهما. وعليها أن تلائم بينهما حسبما يتسنى لها ذلك. وما من شيء أشد تحريكًا للمشجن في البداية من فشلها في إدراك المحنة التي تنتظر نفسها الطاهرة. وكان ثمة أشخاص أفرعهم التفكير فيما سيصطلح الوصيان على صنعه بها. ولم يطفُ بتصور أحد

سلفاً أنهما لن يصنعا بها شراً.

كان ذلك المجتمع شغل أفراده الغالب عليهم الثروة فحسب. ولكنّ الزوجين المنفصلين توفرت لديهما الأسباب لتوقع فترة نشاط حامية الوطيس. فقد شمرا عن ساعديهما، وأحسا كأن المعركة بينهما توشك أن يندلع أوارها. والحق أنهما شعرا وكأنهما أشد انغماساً في الزواج من أي وقت مضى، من حيث إن كل ما أوحى إليهما الزواج به أنه مناسبة لعراك لا ينقطع. لقد كان ثمة معسكران من قبل. ولم يزل ثمة معسكران كذي قبل. وبدا لكل منحاز أن هناك وقائع مرتقبة أخذت تتكشف في صورة موضوعات لا حصر لها للأحاديث المختلطة المتناثرة. وتجمع أصدقاء آل فارانج الكثيرون ليختلفوا في أمرهما، وتجدد تعارض الآراء حول فناجين الشاي والسيجار؛ فكل امرئ لا يفتأ يؤكد لكل امرئ آخر أن ثمة شيئاً مزعجاً للغاية. ولم يكن من الممكن أن يطرب أحد لو لم يرتكب الفحش أحد. فغدا الاثنان متمتعين ببروز اجتماعي لا يخبى إلا في اعتبار كل منهما للآخر، فقد كان شيئاً ذا بال حقاً أن يقال عن أيدا أنه ما من أحد يتعطش إلى دمها غير بيل. وأن يقال عن بيل أنه لا يتعرض لاقتلاع عينيه ما لم يكن هذا بيد زوجته. ونبدأ بالقول أن الشعور السائد عنهما أن كليهما وسيم بصورة مفرطة. ولم يحاول أحد أن يحللها لينفذ إلى ما هو أعمق من ذلك من دخيلة أمرهما. فطولهما معاً مثلاً يبلغ اثني عشر قدماً وثلاث بوصات. ولم يختلف الناس على شيء اختلافهم على قسمة تلك الكمية بينهما. والعيب الوحيد الذي يلحق بجمال أيدا هو طول مدى ذراعيها، ذلك الطول الذي يسر لها أن تتفوق على زوجها

مرارًا كثيرة في لعبة البلياردو. وهي لعبة أظهرت فيها تفوقًا تزعم أنه مسؤول عن حنق زوجها عليها حنقًا وجد مصرفه في عنفه البدني معها. فالبلياردو هو موطن قدرتها البارزة والسمة المميزة التي يثيرها في الذهن ذكر اسمها لأول وهلة على الدوام. فإذا غضضنا النظر عن بعض الخطوط المسرفة في الطول في تكوينها وكان ينبغي أن تكون عريضة. وهي في كثير من النساء موضع إعجاب بصغر حجمها فيما عدا شيئًا واحدًا. وهذا الشيء الواحد هو عيناها اللتان كان من الممكن أن تكونا في حدود الحجم المنشود المنتظم، لولا أنهما تجاوزتا حدود التواضع التي رسمتها الطبيعة. وكان فمها من جهة أخرى لا يكاد يبين. أما خصرها فكانت المراهنة تأخذ غاية مداها حول حقيقة مقياسه. كانت شخصية تثير حين تخرج -إنها لدائمة الخروج- في كل مكان إحساسًا بأن الناس قد رأوها كثيرًا. وهو إحساس يدل على سوء استغلالها لحدود التعرض للأنظار. بحيث صار من المبتذل في الأماكن المألوفة لها أن يعجب الناس من وجودها. فلم يكن ينظر إليها بعجب إلا الغرباء. ولكن هؤلاء كانوا يسرفون في ذلك الأمر الذي كان يطرب له ألافها -لأنها وسيلة لا تخيب للدلالة على عادة أجنبية. وكانت كزوجها تحمل ثيابها. تحملها كما يحمل القطار الركاب. وكان المعروف أن الناس يقارنون بين ذوقهما ويختلفون على الأدوات التي يستخدمانها في زيهما. وإن كان الاتجاه في مجموعه إلى امتداح أيدا؛ لأنها أقل من زوجها استكثارًا ولا سيما من الحلبي والأزهار. وكانت لبيل فارانج أدوات زينة طبيعية، هي نوع من الكسوة يتمثل في لحيته الفيحاء الشقراء اللامعة كأنها درع

ذهبية، ويتمثل في لمعان أسنانه لمعاناً متصلاً. وقد درب شاربه على ألا يحجب ذلك اللمعان الذي يضيف عليه في شتى المواقف الممكنة هيئة الفرح بالحياة. وقد أُريد له في صباه أن يتجه إلى السلك السياسي، والتحق بصفة وقتية من دون مرتب بإحدى القنصليات، الأمر الذي أتاح له أن يقول في كثير من الأحيان: «في أيام خدمتي في الشرق...»، بيد أن التاريخ المعاصر لم يكن بحاجة إليه لسبب ما، فتجاوزه مهرولاً وخلفه إلى الأبد في بيكاديللي. وكان كل إنسان يعرف ما في حوزته، وهو لا يتجاوز ألفين وخمسمائة جنيه. وكانت أيدا المسكينة التي عانت كل شيء لا تملك الآن سوى عربتها وعمها المشلول. وكان ذلك الحيوان العجوز، كما كان يُسمّى، يكتنز قدراً كبيراً من المال، فيما هو مفروض. وكانت الطفلة مكفولة النفقات بفضل «شبينة» أربية؛ وهي عمّة ليل متوفاة تركت لها أشياء بحيث لا يستطيع والداها الاستيلاء إلا على الدخل الذي يغله.



الفصل الأول

كفلت للطفلة حاجات معاشها، بيد أن التسوية الجديدة كانت بلا شك مصدر ارتباك وحيرة لذهن غض يحس إحساسًا عميقًا أن شيئًا ما قد حدث، وأن هذا الشيء على جانب كبير من الأهمية، فراح هذا الذهن الغض يتطلع بقلق منقبًا عن نتائج مثل هذا السبب الجسيم. وكان مكتوبًا لهذه الفتاة الصغيرة الصابرة أن ترى أكثر مما تطيق فهمه في البداية بكثير، بل وأن تفهم في البداية أيضًا أكثر مما تستطيع أي فتاة صغيرة بالغًا ما بلغ صبرها أن تفهم بكثير كذلك. فلا يمكن أن يكون أحد منغمسًا في وطيس المعركة مثل انغماسها، اللهم إلا الفتى حامل الطبله في الروايات الشعرية والأقاصيص. فقد نفذت إلى أسرار عواطف ثبتت عليها، كأنها تحرق في صور تتوالت عبر الحائط من سريحة فانوس سحري. فعالمها الصغير كان أشبه بخيال الظل لما فيه من ظلال غريبة تتراقص فوق شاشة. وكأنما ما يحدث كله إنما أُعدّ من أجلها، وهي تلك الطفلة الضئيلة غاية الضآلة ينوشها الفزع في مسرح معتم ضخم. وقصارى القول أنه تم تقديمها إلى الحياة تقديمًا سخيًا لعبت فيه أنانية

الغير دورًا هامًا. وأنه ما من شيء يمكن أن يجنبها مصير الضحية إلا
تطامن سننها الصغير.

وكانت مدتها الأولى عند أبيها الذي لم يبقَ عليها في شيء إلا منعه
رسائل أمها الطائشة أن تصل إلى يدها. فكان يرفع تلك الرسائل في يده
ويلوح بها أمام عينيها كاشفًا عن أسنانه، ثم يدخل التسلية على نفسها
بطريقته في الرمي بها عبر الحجرة إلى حيث تستقر في وسط ألسنة نار
المدفأة. وفي تلك اللحظة كانت تشعر بيوادر من الفزع والإجهاد، ويتتابها
إحساس بالإثم؛ لأنها ليست كفئًا للموقف العصيب. وتشعر في الوقت
نفسه بسحر ذلك العنف الذي تقذف به في الهواء، فتصفر كأنها القذائف
تلك الأغلفة الصلبة التي لم تفضَّ، وقد علتها طغراء كبيرة كانت تتمنى
أن تنظر إليها - وما أكثر ألوان الطغراء التي كانت أيدا تدجج بها نفسها.
فكانت النتيجة الكبرى للسبب الكبير هي ازدياد أهميتها الخاصة؛ تلك
الأهمية التي تكشف لها على الخصوص في المعاملة الجزافية التي
تلقاها. فهذا أو ذاك يجذبها إليه ويقبلها، وهي مضطرة أن تظهر مزيدًا
من اللطف يتناسب مع تلك الزيادة في الإغداق. وكانت ملامحها قد
ازدادت بروزًا بعض الشيء، فلا يفتأ أولئك السادة الذين يأتون لزيارة
أبيها يقرصونها ودخان سجائرهم يكتنف وجهها. وكان بعض أولئك
السادة يحملونها على إشعال أعواد الثقاب لسجائرهم، وبعضهم الآخر
يضعونها على ركبته ويهزونها هزًا عنيفًا ويقرصون باطن ساقها إلى
أن تصرخ - وكانوا يستطيعون صراخها كثيرًا! - وينعتون ساقها بأنهما
كالمسواكين. فالتصقت هذه الكلمة بعقلها، وأسهمت في إحساسها

منذ ذلك الحين بافتقارها إلى شيء كان حريراً أن يلقي رغبة لدى الكافة. وقد اكتشفت ما هو هذا الشيء. فإذا هو استعداد في التكوين لإبراز شيء تطلق عليه حاضنتها «مودل» اسمًا قصيرًا قبيحًا، اسمًا يقترن اقترانًا أليماً على مائدة الغذاء بشريحة من الموضع الذي لا تحبه من اللحم. فقد خلفت وراء ظهرها ذلك الزمن الذي لم تكن تشغل نفسها فيه بمواجهة الرغائب، اللهم إلا رغبة «مودل» التي كانت دائماً تحتل مكانها على المقعد الخشبي في حدائق كنجستون عندما تعود لتتأكد من أنها لم تمنع في الابتعاد وهي تلهو. ولم تكن رغبة «مودل» تتجاوز ألا تمنع في الابتعاد حين تلهو. وكان هيناً عليها جداً أن تواجه هذه الرغبة، حتى إن الشوائب الوحيدة التي تخللت تلك الفترة المشرقة الطويلة هي اللحظات التي كانت تتساءل فيها ماذا عسى أن يؤول إليه أمرها إن هي لم تجد لمودل أثراً على المقعد الخشبي حين تندفع عائدة إليها. وإنهما لتذهبان بعد إلى الحدائق. إلا أن ثمة فارقاً واحداً: فهي الآن تجد من نفسها على الدوام دافعاً للنظر إلى سيقان الفتيات الصغيرات الأخريات، ثم تسأل مربيتها أهى كالمساويك. وكانت «مودل» تصدقها الجواب بصورة مفزعة، فتقول لها دائماً:

- إنكِ يا عزيزتي لن تجدي ساقين كساقيك!

ويبدو أن ذلك كان وثيق الصلة بشيء آخر، حتى إن «مودل» كثيراً ما قالت لها:

- إنكِ تشعرين بتوتر. وهذا هو الموضع. وسيزداد إحساسك به سوءاً.

وهكذا كانت ميري لا تشعر منذ البداية فحسب، بل وتعرف أيضاً أنها تشعر به. ويرجع ذلك جزئياً إلى أن أباهما أخبرها أنه يشعر به أيضاً. وأمر «مودل» في حضورها أنه ينبغي أن تُعنى بتفهمها هذه المسألة جيداً. فكانت وهي في سن السادسة على دراية بأن كل شيء قد تغير بسببها، وأن كل شيء قد رُتب بحيث يسمح له بتوجيه اهتمامه كله نحوها. وكان عليها أن تتذكر دوماً تلك الكلمات التي تدخل بها «مودل» في روعها أنه يوليها كل عنايته:

- إن أباك يريد منك ألا تنسى مطلقاً ما أدخل على حياته من تحول هائل.

ولئن كان جلد وجه «مودل» يبدو في نظر ميري مشدوداً شداً أليماً بغير مقتضى، فهو لم يبد لها بهذه الصفة على درجة أشد مما يبدو لها في الأحيان الكثيرة التي تنتهزها للتفوه بمثل هذه الكلمات. وكانت الطفلة تتساءل ألا تسبب لها هذه الألفاظ ألماً أكثر من المعتاد. ولكن بعد فترة من الوقت استطاعت أن تربط بصورة آلام أبيها، وعلى الأخص بصورة مسلك مربيتها بإزاء آلامه؛ ذلك المعنى الذي كانت تلك الأمور مفتقرة إليه. فقد غدت مع الوقت أحد ذكاء، على حد تعبير السادة الذين كانوا يتتقدون بطن ساقها. وألفت في ذهنها مجموعة من الصور الأصدقاء ارتبطت بها معان. وهي صور وأصدقاء حُفظت لها في غسق الطفولة وفي خزائنها المعتمدة وأدراجها العالية، كأنها لعب لم تبلغ بعد من الكبر مبلغ اللهو بها. وكان العبء الأكبر في تلك الأثناء هو كيف تفهم على وجهها الصحيح ما يقوله أبوها عن أمها - وما يقوله عنها في الغالب

أمور متى لمحتها «مودل» فكأنما لمحت لعباً معقدة أو كتباً صعبة تنتزعها من يدها وتخفيها عنها داخل الخزانة. وهي أمور غريبة في تنوعها ستكتشفها فيما بعد مختلطة بأشياء ملقاة معها في وعاء واحد من حصيلة ما كانت تقوله أمها عن أبيها.

وكانت تعلم أنها في ميقات معين يدنيها منه مرور كل يوم من الأيام ستأتي أمها إلى باب الدار لتصرف بها. وكان هذا حريّاً أن يصبغ جميع أيامها بالسواد، لولا أن «مودل» الحاذقة كتبت لها على ورقة في كلمات كبيرة سهلة جداً طائفة هائلة من المسرات التي ستنعم بها في البيت الآخر. وكانت هذه الوعود تتراوح من «حب الأم المشبوب» إلى «بيضة لطيفة مقلية في ماء مغلي تُقدّم لك مع الشاي». وراودها التطلع أيضاً إلى السهر إلى ساعة متأخرة كي ترى السيدة المذكورة مكتسية بالحرير والمخمل، مزدانة بالماسات واللالئ استعداداً للخروج. فكان سنداً حقيقياً له يزري عند حلول الساعة الحاسمة أن تشعر بتوجيه من «مودل» بتلك الورقة وقد دفعت إلى داخل جيبتها وهناك تكورت في قبضتها. وقد زودتها الساعة الحاسمة بذكرى متوقدة هي ذكرى ثورة غريبة انفجرت في حجرة الاستقبال من جانب «مودل» إذ صرخت بصوت عال ردّاً على شيء كان أبوها قد قاله لها لتوه:

- ينبغي أن تخجلي من نفسك. ينبغي أن يحمر وجهك، يا سيدي من النهج الذي تنهجه!

وكانت العربة التي بداخلها أمها واقفة بالباب. وضحك السيد الذي كان موجوداً هناك - وكان على الدوام موجوداً هناك - ضحكة عالية

جداً. أما أبوها الذي كان يضمها بين ذراعيه فقال لمودل:

- سأسوي موضوعك حالاً يا امرأة!

ثم كرر على مسامعها - وهو يكشف لميزي عن مزيد من أسنانه وهو يحتضنها - تلك الألفاظ التي أثارت عليه سخط المربية. ولم تستطع ميزي في ذلك الحين أن تدرك تلك الألفاظ تمام الإدراك مثلما أدركت ما كان من خروج «مودل» عن جادة الاحترام فجأة ذلك الخروج العجيب وأن وجهها صار إلى لون القرمز. ومع هذا وسعها أن تعيد تلك الكلمات في مدة خمس دقائق عندما قالت لها أمها في العربية وهي تغرقها في قبلاتها وأشرطتها ونظرات عينيها وإحاطة ذراعيها وأصواتها الغريبة وعطورها المستعذبة.

- وهل حمّلك أبوك البغيض يا ملاكي الغالي أيما رسالة إلى أمك

المحبة؟

وحينئذ عثرت على الألفاظ التي تفوه بها أبوها البغيض لتستقر في أذنيها الصغيرتين المبلبلتين. ومن هناك انتقلت - بناء على طلب أمها إلى شفثيها الصغيرتين البريئتين مباشرة، فقالت بصوتها الجلي الحاد ناقلّة الكلام بكل أمانة:

- قال إنه ينبغي عليّ أن أبلغك عنه أنك خنزيرة قدرة بشعة.



الفصل الثاني

في ذلك الإحساس المتوقد بالحدث المباشر - ذلك الإحساس الذي يعتبر الجو السائد في عقل أي طفل - غدا الماضي في جميع المناسبات بالنسبة لها غير متميز كالمستقبل سواء بسواء، فأسلمت قيادها للزمن الحاضر في ثقة كان ينبغي أن تؤثر في نفس كلا الأبوين. وبالغا ما بلغ تقديرهما من الفجاجة فقد كان لهما في البداية ذريعة من كونها الكرة المريشة الطائرة الصغيرة التي يسعهما أن يمضيا في تقاذفهما فيما بينهما بتوحش. والشر الذي أوتي كل منهما وهبة التفكير فيه أو كان كل منهما يتظاهر بالتفكير فيه تجاه الآخر كانا يصبانه في نفسها الصغيرة التي تحملق بصرامة فيما يُروى لها وكأنما يصبانه في وعاء لا قرار له. ومما لا شك فيه أن كلا منهما كان مستريح الضمير غاية الراحة من جهة قيامه بواجب تلقينها الحقيقة الكالحة التي ستكون وقاء لها من شرور الطرف الآخر. وكانت في السن التي تعتبر جميع الأقاصيل حقائق وجميع المدركات أقاصيل.

فالواقع هو المطلق والحاضر وحده هو الذي يتميز بالحيوية. فالتعنيف الذي شرعت فيه أمها في العربية مثلاً بعد أن أفضت إليها بما أمرها أبوها أن تؤديه بدقة كان بمثابة رسالة استقرت في ذكرياتها محدثة ذلك الصوت الجاف الذي ينجم عن سقوط خطاب في صندوق البريد. وكالخطاب أيضاً حين تضمنه حقيبة بريد مكدسة، تم تسليم تلك الرسالة على حسب السياق المرسوم إلى العنوان الصحيح. وبإزاء هذا الفيض الذي استمر عامين، شَعَرَ خلطاء كل من الطرفين أن شيئاً ما ينبغي أن يصنع لما أسموه «الخير الحقيقي» للطفلة. ومع هذا كان الشيء الوحيد الذي تم على العموم هو ما حدث عندما لوحظ في تنهد أنها لحسن الحظ لا تقضي العام كله حيث اتفق أنها كانت موجودة في تلك الآونة الحرجة، وأنها فضلاً عن هذا لا تحسن فيما يبدو إدراك الأشياء، إما من فرط مكر فيها أو فرط غباء.

وتتصل نظرية غبائها التي اعتنقها أبواها أخيراً بتاريخ له خطره في حياتها الصغيرة الساكنة، ألا وهو تبيينها التام تبييناً حاسماً وإن كان مستتراً للمهمة الغريبة التي تضطلع بها. فكان ذلك حرفياً بمثابة ثورة أخلاقية حدثت في أغوار طبيعتها. فأخذت الدمى المتصلبة القائمة فوق الرفوف المعتمة تحرك أذرعها وأرجلها، وأخذت أشكال وعبارات عتيقة تتخذ مغزى ريعت له. لقد انتابها إحساس جديد، إحساس بالخطر، وانبرى للقاء هذا الإحساس إجراء جديد، هو صورة الذاتية الباطنة؛ أو بعبارة أخرى التمويه. لقد حلت اللغز برموز غير تامة لكن بزكاة هائلة، فأدركت أنها كانت محوراً للكراهية ورسولاً للإهانة، وأن كل شيء

بلغ مبلغه من السوء؛ لأنها استُخدمت في الوصول به إلى ذلك الدرك. فانطبقت شفتاها المنفرجتان، وقد عزمت على ألا تستخدمهما من بعد. ستنسى كل شيء، ولا تعيد شيئاً سمعته. ولما وصمت عند نجاحها في تطبيق هذا النظام بأنها بلهاء صغيرة، وجدت لذلك النعت لذة ذات مذاق جديد ثاقب، وعندما أعلن كل من والديها على التوالي في مواجهتها حين كبرت شيئاً ما، أنها غدت بليدة الذهن بصورة مذهلة، لم يكن ذلك الإعلان نتيجة نقصان حقيقي في مجرى حياتها الصغير. ولئن أفسدت عليهم سرورهم، فقد استطاعت أن تزيد من سرورها بصورة عملية. فهي ترى المزيد بعد المزيد. بل وترى فوق ما ينبغي. وكانت الآنسة «أوفر مور» مربيتها الأولى وهي التي بذرت في نفسها في إحدى المناسبات الهامة بذور التكم. لم تبذرهما بما قالت، بل بدرجة من هاتين العينين اللطيفتين اللتين كانت ميري تُكِنُّ لهما الإعجاب. وكانت «مودل» قد غدت في ذلك الحين - بعد تبديلات في محل الإقامة لم تعد الطفلة تذكرها بوضوح - صورة باهتة تقترن بتذكرها لنوبات اختفائها تحت تأثير الجوع من حجرة الحضانة، وبزلات مكربة في الحروف الأبجدية؛ وعلى الأخص بارتباكات محزنة عندما كانت تُدعى للتعرف على شيء كانت حاضتها تنعته بأنه «حرف الهاء الخطير الشأن». أما الآنسة «أوفر مور» فلم تكن تختفي إطلاقاً مهما بلغ من جوعها. وقد جعلها ذلك تبدو على نحو ما أعلى مقاماً. وقد عزز فيها هذا الطابع الخلقي جمالاً كانت ميري تراه خارقاً للمعتاد. وكانت مسز فارانج قد وصفتها بأنها تكاد في ملاحظتها تتجاوز الحد اللائق. وسألها بعضهم عن

أهمية ذلك ما دام بيل غير موجود. وسمعت ميزي أمها تجيب قولها:
- سواء كان بيل موجودًا أو غير موجود، فأنا أستخدمها لأنها
سيدة، بيد أنها على فقر مدقع. أناس طيبون. ولكن البيت يضم سبع
أخوات. فماذا يروم الناس؟

ولم تدرِ ميزي ماذا يروم الناس، ولكنها سرعان ما عرفت أسماء
جميع الشقيقات، وصار في مقدروها أن تسرد تلك الأسماء خيرًا مما
تسرد جدول الضرب. وكانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها فضلًا عن
هذا - وإن لم تتفوه بالسؤال مطلقًا - عن الفقر المدقع الذي لم تكن
رفيقتها تخوض في حديثه إطلاقًا. وكان الطعام على كل حال يأتي على
حسب قوانين غامضة. ولم تكن الآنسة «أوفر مور» ترتدي مرولة كالتي
كانت ترتديها «مودل» قط. وعندما كانت تأكل تمسك بشوكتها وأصبعها
الخنصر معقوف نحو الخارج. وكانت الطفلة التي تعودت أن ترقبها في
أوقات كثيرة ترقبها على الخصوص في ذلك الوقت. وكثيرًا ما قالت لها:
- ما أبهاك! حتى ماما - وهي أيضًا ذات بهاء - لم تُؤت هذا
الأسلوب في استخدامها للشوكة.

وكانت ميزي تربط بين وجود هذه الشخصية النظرانية وبين كونها
أصبحت «كبيرة». وهي تعرف بالطبع أن المربيات لا يُكنُّ إلا للفتيات
الصغيرات اللواتي لسن - على حد قولها - صغيرات حقًا. وكانت تعرف
بصورة غامضة أيضًا أن المستقبل أكبر منها، وأن من العناصر التي تضفي
على المستقبل هذه الصفة عدد المربيات اللاتي يأتين ثم يرحلن. وكل
شيء حدث لها عندما كانت صغيرة حقًا كان هاجعًا، فيما عدا اليقين

الجازم الذي أورثته إياها «مودل» عن بعد بأن النهج الطبيعي بالنسبة للطفلة أن يكون أبواها متفرقين ومتعاقبين، شأنهما في ذلك شأن نصيبها من لحم الضأن ونصيبها من «البودينج». أو شأن حمامها وغفوتها بعده. وكان السؤال الذي ألقته بحرارة على الآنسة «أوفر مور» في تلك المناسبة التي كان من شأن أن تؤدي إلى تغير حاسم في حياتها:

- أهو يعلم أنه يكذب؟

فحملت «الآنسة أوفر مور» وقالت:

- أهو يعلم...؟

وكانت قد شدت فوق يدها جوربًا تخزه بإبرة تحرص على توازنها في العمل. وكان ما هي بصدده عملاً مألوفًا، بيد أن حركتها في أدائه رشيقة شأن سائر حركاتها.

- أعني أبي.

- «يكذب»؟

- هذا ما طلبت إليّ ماما أن أقوله له: أنه يكذب ويعلم أنه يكذب.

فتضرج وجه الآنسة «أوفر مور» بحمرة شديدة؛ وإن كانت قد ضحكت إلى أن سقط رأسها إلى الوراء. ثم راحت تخز مرة أخرى بالإبرة الجورب المشدود على يدها بعنف، حتى إن ميزي تساءلت كيف لها بإطاعة ذلك الوحز واستطردت الطفلة:

- هل ينبغي أن أخبره؟

وعندئذ وجهت إليها رفيقتها الخطاب بلغة عينيها الرماديتين

الحالكتين العميقتين تلك اللغة التي لا خفاء فيها، فقالت لها بأفصح ما تستطيعه هاتان العينان:

- لا أستطيع أن أقول لا، لأنني أخاف والدتك. ألا ترين؟ ولكن كيف لي بأن أقول نعم بعد الذي أبداه أبوك من اللطف معي، وقد أطل الحديث إليّ منذ أيام، وهو يتسم كاشفاً لي عن لآلاء أسنانه الجميلة عندما التقينا به في البستان. ذلك اللقاء الذي بلغ من فرحته بمرآنا أنه ترك السيد الذي كان في صحبته واستدار فمشى معنا، ولبث في صحبتنا نصف ساعة؟

وبطريقة ما عاد ذلك الحدث إلى ذاكرة ميري في ضوء نظرة عيني الآنسة أوفر مور الفاتنتين، وقد اكتسى سحراً لم يكن له في حينه. مع أن مربيتها لم تشر إلى ذلك الحدث بعد انقضائه إلا مرة واحدة، ففي طريقهما إلى البيت بعد أن غادرهما والدها أعربت عن أملها ألا تذكر الطفلة ذلك اللقاء لأمرها. وكانت ميري تحبها جداً ويفتنها إحساسها بأنها محبوبة لديها؛ فقبلت منها هذه الملاحظة باعتبارها ختاماً للموضوع؛ وتحرت إنقاذها بصورة عجيبة. وها هو العجب تتقد جذوته مرة أخرى وينبني عن وجوده في تذكرها لقول أبيها للآنسة «أوفر مور»:

- بحسبي أن أنظر إليك لأبين أنك الشخصية التي أستطيع مناشدتها العون في إنقاذ ابنتي.

ولم يقلل جهل ميري بما يراد إنقاذها منه من سرورها بالتفكير في أن الآنسة «أوفر مور» تعمل على إنقاذها. فكأنما جعلهما هذا الخاطر تشبث كل منهما بالأخرى كما تفعلان في لعبة جامحة من ألعاب «الدوران».

الفصل الثالث

وكان هذا عاملاً فعالاً على زيادة جفولها عندما قالت لها أمها بخصوص شيء ينبغي أن يسمع قبل هجرتها التالية:

- أنتِ مدركة طبعاً أنها لن تذهب معكِ.

فشحب وجهه ميري شحوباً شديداً وقالت:

- كنت أظنها ذاهبة معي.

فأجابتها مسز فارانج بصوت عال:

- ليس مهمّاً على الإطلاق ما تظنين. ومن الخير لكِ حقاً في المستقبل يا آنسة أن تتعلمي استبقاء ظنونكِ لنفسكِ.

وهذا بالضبط ما كانت ميري قد تعلمته. وكان هذا هو سر غضب أمها. فنظامها في صمتها نظام نقدي فظيع تنحو به صوب الحكم على من هم أكبر منها سناً. وهذا ما ارتابت فيه السيدة وهي التي تحب فيما يخصها أن تكون الطفلة بسيطة صريحة الإفضاء. وكانت تحب أيضاً أن تسمع تبليغات عن صدى الضربات التي توجهها إلى طباع مستر فارانج

وإلى ما يدعيه من راحة البال، فكان ارتياحها لتوجيه تلك الضربات يتناقص حينما لا تظفر لها بصدى. فسارت ترى اليوم الذي ستشعر فيه بمزيد من السرور للإلقاء بميزي إليه أكثر من سرورها بانتزاعها منه، وقد بات قريباً. وقد بلغ من شدة هذا الإحساس لديها أن ضميرها أجفل حين جابهتها صديقة صريحة بأن النهاية الحتمية لكل هذا التجاذب أن كل واحد من الأبوين سيجتهد أن يجعل من الفتاة عبئاً على الآخر. وهي لعبة من الواضح أنها لا تظهر الأم المحبة على خير وجه. وقد أحدث التخوف من عدم ظهورها على خير وجه -وهي مزية كانت تعتقد أنها لم تخفق فيها قط- ضرباً من ضيق الصدر لدى أيدا فارانج، ضيقاً أحس بوقوعه عدة أشخاص. وقررت أن تشعر به بيل أيضاً على أي حال. وعادت التفكير في وجوب عدم التخلي عن بحث أنجع الوسائل لتنغيصه. وما من شيء يكدره كما يكدره عدم الاستفادة -لصالح الطفلة- من مرافقة كيسة مشغوفة بها. ومما قالته أيدا لتلك المرافقة أن بيت بيل من البيوت التي تأبى أي امرأة محترمة أن يراها فيه أحد. وكانت الآنسة «أوفر مور» نفسها هي التي أوضحت لميزي كيف خامرها الأمل في السماح لها بمصاحبتها إلى بيت أبيها، وكيف قُضي على هذا الأمل بسوء وقع الفكرة لدى أمها:

- وهي تقول إنني إن أقدمت على الدخول في خدمته، فلن يكون مطمئناً في إظهار وجهي في هذا البيت بعد ذلك. ولذا وعدتها ألا أحاول الذهاب معك. فإن أنا صبرت إلى أن تعودني إلى هنا، اجتمع شملنا مرة أخرى حتماً.

وقد بدا لميزي أن هذا الانتظار الصابر إلى أن تعود إنما هو علالة طويلة المدى، ذكرتها بسائر الأشياء التي قيل لها أولاً وأخيراً أنها ستظفر بها إن هي التزمت جادة الحكمة، وعلى شدة التزامها للتعقل لم تظفر بها في النهاية على الإطلاق.

- ومن الذي سيتولى رعايتي في بيت أبي؟

فأجابتها الأنسة «أوفر مور» وهي تعانقها بحنان:

- الله وحده أعلم يا حبيبتي الغالية.

ولم يكن ثمة شك فعلاً في مكانتها العزيزة لدى هذه الصديقة الحسنة. وأي برهان على هذا أقوى من أنه لم ينقض أسبوع -وعلى الرغم من افتراقهما المؤسي وتحريم أمها القاطع وتحرج الأنسة «أوفر مور»، وتقيد هذه الأنسة بوعدها- حتى كانت الصديقة الجميلة قد وفدت على غير انتظار على بيت أبيها؟ وكانت السيدة الصغيرة التي استؤجرت بالساعة، قصيرة سمراء بدينة محنية الجسم قذرة الأصابع، ترتدي على الدوام قلنسوة أضفت عليها في البداية جواً خادعاً -سرعان ما تبدد- يوحي بأنها لا تطيل المكث في البيت، فضلاً عن توجيهها إلى تلميذتها أسئلة لا علاقة لها بالدروس. أسئلة اعترف بيل فارانج نفسه عندما أعيد على مسامحه سؤالاً أو ثلاثة منها بأنها في منتهى الانحطاط. بيد أن هذه الصورة العجيبة كسفت أمام إشراق هذه المخلوقة الوضيئة التي تحدث كل شيء في سبيل ميزي. وأخبرت المخلوقة الوضيئة تلميذتها الصغيرة في صراحة بما حدث، وهو أنها لم تستطع بالفعل الثبات أمام بعادها، فنكثت عهدها لمسز فارانج. وأنها ظلت تقاوم ثلاثة

أيام، ثم جاءت فوراً إلى والد ميري، وقالت له الحقيقة المجردة، وهي أنها تعبد ابنته ولا تستطيع التخلي عنها، وأنها مستعدة أن تقدم على أي تضحية في سبيلها. وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على وجوب بقائها. وبذلك لقيت جزاء شجاعتها. ولم تدع لدى ميري أدنى شك في مقدار الشجاعة التي تقاضاها هذا الموقف إياها. وكان لطائفة مما قالته لها وقع خاص على الطفلة. ومن ذلك مثلاً تصريحها بأن تلميذتها عندما تكبر ستدرك خيراً مما تدرك الآن كيف ينبغي لسيدة شابة أن تكون «مسرقة في جرائها»؛ كي تقدم على ما أقدمت هي عليه بالذات.

وكان مما قالته أيضاً الأنسة «أوفر مور» بإلحاح ملفت للنظر على «التمييز» - ومن حسن الطالع أن والدك يقدر ذلك. يقدره تقديرًا «هائلاً».

ولم تكن ميري نفسها أقل تأثراً بما تعرضت له هذه الشهيدة - ولا سيما بعد أن سمعت بالخطاب الفطيع الذي ورد من لدن مسز فارانج. فقد بلغ من غضب «ماما» أنها - على حد تعبير الأنسة «أوفر مور» نفسها - حشته بالإهانات. وهذا وحده دليل كاف في الواقع على أنه لا ينبغي لهما أن تطمحا مطلقاً إلى وجودهما معاً مرة أخرى تحت سقف «ماما». بيد أن سقف «ماما» بدا للطفلة هذه المرة شيئاً عارضاً طفيفاً، حتى إنه لم تكد تكون برفيقتها حاجة إلى الإفضاء لها بسر خطير، وهو احتمال عدم عودتها إلى أمها إطلاقاً. فقد كانت الأنسة «أوفر مور» مقتنعة اقتناعاً خاصاً أفضت به بين ما أفضت به إليها، بأنه في حالة إظهار ابنة مسز فارانج أنها تفضل البقاء معه تفضيلاً واضحاً، فسوف تجد تعضيداً من «الرأي العام» في التشبث به. ولم يكن يسيراً على ميري

المسكينة أن تدرك ذلك الحافز، بيد أنها أسلمت نفسها لما يأتي به الزمن. وقد استطاعت أن تدرك أول هوى لها. وكان موضوعه مربيتها. ولم يواجهها أحد، ولا كان في مقدورها أن تواجه نفسها بأنها تحب الأنسة أوفر مور أكثر مما تحب أباه. ولكن كان حرياً أن يعزز موقفها وهي واقعة تحت ظل هذا الاتهام شعورها بأنها مستطبعة أن ترد على ذلك بأن أباه أيضاً يحب الأنسة أوفر مور مثلما تحبها هي بالضبط. وقد أخبرها بذلك بصورة جلية. يضاف إلى هذا أنها كانت قمينة أن تتبين ذلك بنفسها من غير عناء..



الفصل الرابع

ذلك كله دفع بها في سبيلها قدمًا؛ بيد أنها جلبت عليها مصيرها كذلك، حتى اليوم الذي ستأتي فيه أمها إلى باب البيت في عربة لم تعد يميزي تركبها الآن في غير تلك المناسبات. فلم يكن ثمة بحث في هذه المرة في عودة الأنسة أوفر مور معها. إذ كان المعروف للكافة أن خصامها مع مسز فارانج بلغ في حدته مبلغًا لا يسمح بذلك. وقد شعرت الطفلة بهذا منذ البداية. فلم يكن ثمة احتضان أو جیشان عاطفة عندما انطلقت بها تلك السيدة. بل ساد صمت مروع لم تخفف من حدته حتى ولا تلك الاستفسارات الناضحة بالبغضاء التي كانت تتميز بها السنوات السابقة. وقد بلغت المحنة ذروتها - بمقتضى سياقها الصارم - في صورة سيدة عجوز أشد ترويعًا، كانت تنتظرها على عتبة الباب. وقالت لها أمها:

- ستكونين تحت رعاية هذه السيدة.

ثم وجهت الخطاب إلى السيدة قائلة في نفاد صبر:

- خذيها يا مسز ويكس.

ثم دفعت بالطفلة دفعة أدركت منها ميزي أنها تريد أن تقدم لمسز ويكس قدوة للنشاط المطلوب منها. وأخذتها مسز ويكس. وشعرت ميزي في اليوم التالي بأنها لن تتركها تفلت منها. وكان وقعها لديها في البداية -بعد أن غادرت الآنسة «أوفر مور» مباشرة- وقعاً فظيماً.. بيد أن شيئاً في صوتها استطاع بعد مضي ساعة أن يلمس من الفتاة الصغيرة موضعاً لم يصل إليه أحد من قبل، وقد عرفت ميزي فيما بعد ما هو هذا الشيء. وإن كانت بالتأكيد عاجزة عن التعبير عنه بوضوح. فتلك أمور تكفلت بضعة أيام من الحديث مع مسز ويكس بإلقاء الضوء عليها. وأهمها مسألة كانت مسز ويكس لا تنفك تذكرها من تلقاء نفسها: فقد كانت لها يوماً ما فتاة صغيرة تخصصها. وقد لقيت هذه الفتاة الصغيرة مصرعها بغير إمهال. ولم يكن لديها في الدنيا بأسرها شيء سواها. فحطم الثكل قلبها. واستقر الوضع فيما بينهما على أن قلب مسز ويكس محطم. وشعرت ميزي أن هذه السيدة كانت يوماً ما أمّاً مشغوفة وامقة. وهي صفة لم تؤتها الآنسة أوفر مور. ومن عجب باعث على الحيرة أنها أيضاً صفة حظ أمها منها أدنى وأيسر.

وفي مدى فترة وجيزة للغاية ألفت نفسها غارقة في صورة الصغيرة الراحلة «كلارا ماتلدا» التي دهمتها وهي تعبر طريق هارو مركبة سحقته سحقاً. وهو استغراق لم تعهده في نفسها في محيط الأسرة، وها قد استأثرت به فتاة في السابعة أذكت جذوته. وانتهت مسز ويكس إلى قولها لميزي:

- إنها أختك الصغيرة الراحلة.

ومنذ هذه اللحظة وميزي تخصص تلك القنية الصغيرة التي تقبلتها
بخشوع خاص صادر عن رجفة فضول وحنان. بيد أنها لم تكن أختًا
حقيقية على نحو ما. إلا أن ذلك زادها سحرًا. وأسهم في تعزيز هذه
النظرة أنه لم يكن من الجائز إطلاقًا أن تتحدث عنها بهذه الصفة إلى أي
إنسان آخر، ولا سيما إلى مسز فارانج التي لم تكن حَرِيَّةً أن تكثر بها أو
تعترف بقرابتها. فلا بد أن تظل سرًّا صغيرًا مكنونًا لا انقضاء له فيما بينها
وبين مسز ويكس. وعرفت ميزي عنها كل شيء يمكن أن يُعرف. عرفت
كل شيء قالته أو فعلته في حياتها الصغيرة المبتسرة. وإلى أي مدى
كانت محببة المنظر، وإلى أي حد كان شعرها متموجًا وكانت أثوابها
حسنة الهندام. كان شعرها ينسدل إلى ما تحت خاصرتها. وكان ذا بريق
ذهبي رائع، كشعر مسز ويكس تمامًا في أيامه الخوالي. والحق أن شعر
مسز ويكس لم يزل محتفظًا برونقه إلى حد كبير. وشعرت ميزي في
البداية أنها لا ينبغي أن تمضي في الاحتفاظ به، فقد لعب دورًا كبيرًا في
المظهر الغريب -مظهر امرأة ذات شعر أشيب زلق- الذي بدت به مسز
ويكس عند وصول الطفلة. وكان ذلك الشعر في مبدأ أمره أصفر اللون،
بيد أن الزمن حول أناقته إلى رماد، فصار لونه أبيض بياضًا شاحبًا عكرًا
غير وقور. إلا أنه لم يزل غزيرًا غزارة مسرفة، وكانت تصفقه على نسق
يبدو أن السيدة المسكينة لم تدرك بعد انتهاء عهده، فهي تعقسه بجديلة
ثقيلة أشبه بإكليل عريض يعلو قمة رأسها، وتجعله من الخلف وردة
فوق القفا حائلة اللون أشبه بزر كبير. وكانت تضع على عينيها نظارة
كانت تسميها -وهي تشير في تواضع إلى حول منفرج في بصرها-

المثبتات. وثوبها عبارة عن كساء قبيح بلون النشوق، مزين بشرائط من الستان على شكل محارات مروحية. وقد اكتسى الثوب بحكم القدم لمعاناً كلمعان الزجاج. وأوضحت لميزي أنها تلبس المثبتات رعاية للآخرين؛ لأنها في اعتقادها تساعدنهم على معرفة اتجاه نظرها. ولولا ذلك لكانوا في شك منه. أما بقية بزتها الكثيرة فلا يمكن أن يكون ارتداؤها لها إلا رعاية لأمر نفسها. وكانت تذكر تلميذتها وهي لابسة عويناتها بالصدفة اللامعة أو بالدرع الذي تتميز به الخنفساء البشعة. وقد بدت لها في أول الأمر متجهة إلى درجة تكاد تبلغ حدود القسوة. إلا أن هذا الأثر لم يلبث أن تبدد عندما ازداد إدراك الطفلة لحقيقة كونها في أنظار العالم صورة يضحك منها قبل كل شيء. فهي مضحكة كأنها أحجية أو حيوان قارب الطور النهائي من أطوار «التاريخ الطبيعي». شخصية يصفها الناس بعضهم لبعض ويحاكونها ليعثوا حيوية المرح في أحاديثهم. وكان كل امرئ يعرف المثبتات. ويعرف الإكليل والزر. ويعرف المحارات المروحية وشرائط الساتان. بل إن كل امرئ كان يعرف أيضاً «كلارا ماتلدا» وإن كانت ميزي لم تبج بسرّها قط.

وبسبب هذه الأشياء جميعاً استطاعت «أمها» أن تستأجرها بذلك الأجر الزهيد. بلا شيء في الواقع. وكان المبلغ كذا، فقد حدث ذات يوم عندما صحبتها مسز ويكس إلى حجرة الاستقبال وتركتها هناك، أن سمعت الطفلة إحدى السيدات الموجودات -وهي سيدة ذات حاجبين مقوسين كحبال النط، وعلى قفازها الأبيض الجميل غرز سوداء غليظة أشبه بخطوط الأوراق التي تكتب عليها الأدوار الموسيقية- تذكر المبلغ

لسيدة أخرى. وكانت تعلم أن المربيات فقيرات. ولكن الآنسة أوفر مور كان فقرها مستتراً، أما مسز ويكس فققرها علني. إلا أن هذا الاعتبار لم يستطع، لا هو ولا ثوبها البني العتيق، ولا الإكليل ولا الزر، أن يغير شيئاً بالنسبة لميزي من ذلك السحر الذي بثته مسز ويكس في كل شيء. ومصدر هذا السحر أن مسز ويكس على ما بها من قبح وفاقه كانت مأمونة الجانب بصورة بارزة تسكن إليها النفس. فهي من حيث هذا الأمان تفوق كل من في الدنيا، بما فيهم «بابا» و«ماما»، والسيدة ذات الحاجبين المقوسين، بل والآنسة أوفر مور - وإن تكن أقل منها بكثير من حيث الجمال - مع أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر شعوراً غامضاً أنه لا يمكن التعويل على بهائها أن يشعرها حين تدسها بين أغطية الفراش وتقبلها قبله «طابت ليلتك» بما تشعرها به «مسز ويكس» في ذلك الحين. فمسز ويكس مأمونة الجانب مثل كلارا ماتلدا المقيمة في السماء، وهي مع هذا موجودة أيضاً بصورة مربكة - في «كنسال جرين» حيث ذهبنا معاً لزيارة قبرها الصغير الذي يكاد يطمس معالمه تزامم القبور. وقد استمدت ميزي من شيء ما في نبرة صوت مسز ويكس - الذي ظل رغم المحاكاة الساخرة مستعصياً على الوصف والمحاكاة - ذلك الإحساس بالسند الذي يركن إليه، وكأنه حاجز بارتفاع الصدر في المواضع التي يُخشى فيها التردى - وإنه لسند راسخ لا يخذل من يلوذ به. ولئن كانت تعلم أن معلمتها فقيرة غريبة الأطوار، فهي تعلم أيضاً أنها لا تقارب الآنسة أوفر مور من حيث الأهلية. فالآنسة أوفر مور في وسعها أن تسرد على مسامعك قدراً كبيراً من التواريخ بلا

توقف (وأنت ممسك بالكتاب في يدك) وأن تحدد موقع مالا بار، وأن تعزف ست مقطوعات من غير الاستعانة «بالنوتة»، وأن تضيف بغاية البراعة الأشجار والبيوت والأجزاء الصعبة إلى رسم تخطيطي. أما مسز ويكس؛ فميزي نفسها تستطيع أن تعزف مقطوعات أكثر منها. وهي فضلاً عن هذا تبدي خجلاً واضحاً من بيوتها وأشجارها، ولا تستطيع مع الاستعانة بسبابتها الملوثة التي يُشك في نسبتها الشرعية إلى ميدان الفن إلا أن ترسم الدخان خارجاً من المداخن.

وكانت المربية وتلميذتها تشتغلان بطائفة من «المواد»، بيد أن المربية كانت تؤجل الكثير منها من أسبوع إلى أسبوع، ثم لا يصل الأمر إلى تناول هذه الموضوعات مطلقاً. وكان من مألوفها أن تقول:

– ستتناول هذه المسألة في ترتيبها الطبيعي.

وكان ترتيبها للمسائل دائرة تضاهي في اتساعها كرة الأرض التي لم تجبها فلم تكن لديها روح المغامرة. وكان في مقدور الطفلة أن تتبين بجلاء كم من الموضوعات كانت تفرق منها، فتلوذ بأرض التخيل الصلدة التي يتخللها في الواقع نهر الحقيقة الأزرق بمجره المتعرج. وكانت تعرف أكداً من الحكايات، معظمها مستقاة من الروايات التي طالعته، فكانت تقصها عليها بذاكرة لا يعتريها الوهن، وبشراء في التفاصيل يبعث البهجة في نفس ميزي. وكانت كلها تدور حول الحب والجمال والكونتسات وخبث الطوية. أما حديثها في الواقع فكان سرداً لا ينتهي، وبستاناً للسحر العاطفي مترامياً، تتكشف فيه فجأة مشاهد من حياتها الخاصة وينابيع دافقة من الألفة المتبسطة. وكانت

هذه الجوانب هي التي تظيلان فيها التلكؤ، فتجعل الطفلة تعيد معها كل خطوة من خطوات سيرها الأعرج. وهي تخاله شيئاً يفوق روعة السحر أو الضواري الخرافية. فاكسبت تلميذتها رؤية نابضة بالحياة لكل شخص وقع منه -على حد تعبيرها- أنه ارتطم بها. وما كان أقسى ذلك من بعضهم. وكانت هذه الرؤية تشمل كل إنسان حرفياً اللهم إلا زوجها مستر ويكس التي لم تذكره بشيء سوى أنه مات منذ أجيال؛ فكان بعيداً بصورة واضحة عن مجرى حياة زوجته. ولم يحدث أنها أخذت ميزي قط لزيارة قبره.



الفصل الخامس

لقد كان الفراق الثاني للآنسة أوفر مور شديد الوطأة حقًا. ولكن هذا الفراق الأول لمسز ويكس كان أشد منه وطأة بمراحل. وكانت الطفلة قد ترددت في الفترة الأخيرة على طبيب الأسنان، فصار لديها إحساس تقارنه بما كان في مشهد ذلك الفراق من توتر أليم. كان مشهدًا ساكنًا سكونًا رهيبًا، كذلك السكون الذي ساد عند اقتلاع ضرسها. وكانت مسز ويكس قد قبضت في ذلك الحين على يدها، وتشبثت كل منهما في إصرار جنوني على ألا تصرخا. وقد تحلت ميزي وهي عند طبيب الأسنان بسكينة بطولية. ولكن عندما بلغ قلقها غايته أحست بصرخة مسموعة تنطلق من جانب رفيقتها، وبانقباضة مشاركة عاطفية كظيمة. وقد تكرر ذلك بعد شهر، فكان هذا هو الصوت الوحيد الذي شق عناقهما الأخير، عندما قامت «التسوية» - كما كان انتزاعها الموسمي يدعى - بدور الكلابة المروعة. أما وهي بعيدة الغور في فطرة مسز ويكس كما كان ضرسها غائرًا في لثتها، فقد كان الأولى بعملية انتزاعها

أن تحتاج في الحق إلى مخدر. ولم يترك العناق لحسن الحظ شيئاً يقال؛ لأن افتقار المرأة المسكينة إلى الكلمات في مثل الساعة كان مجانساً لافتقارها إلى كل شيء. وكان والد ميري واقفاً في الدهليز الخارجي - فقد كان يحب سلاطة اختراق مثل ذلك المدى من عتبة دار زوجته السابقة - يطل عليهما وساعته منفرجة، وابتسامته أشد انفراجاً. وفي الوقت نفسه كانت الطفلة ترمق من طرف عينها فحسب - وهو الطرف الذي لم يكن شيئاً من أشياء مسز ويكس يخيم عليه - العربية المقفلة الواقفة بالباب، وبدخلها الأنسة أوفر مور في الانتظار أيضاً. وتذكرت الفارق عندما انتزعت منذ ستة أشهر من أحضان تلك الراعية المتوقدة. فقد كانت الأنسة أوفر مور واقفة حينئذ في الدهليز أيضاً - ولكنه بالطبع الدهليز الآخر - وكانت مسموعة الصوت للغاية ذلقة اللسان وهي منطلقة بالاحتياج في بسالة معلنة أن شيئاً ما - لم تدر تلميذتها ما هو بالضبط - أمر شديد الشين طافح بالشر. وقد أذكرها ذلك في حينه بصورة غامقة لحظة انفجار مودل البعيدة انفجاراً هائلاً. إذ يبدو أن ثمة دائماً ألواناً من الأمور الشائنة ترتبط - بوجه أو بآخر - بدورات هجرتها. وقد تذكرت في اللحظة الراهنة - وذراعاً مسز ويكس يشددان من ضمها إليها، ورائحة شعرها القوية تفغمها - كيف استخدم أبوها في تهدئة روع الأنسة أوفر مور قوله لها - أيتها البطة العزيزة الأثيرة.

وهو تعبير التصق لغرابته بعقلها الغض. حيث وجد مستقراً مهيناً له هناك لما كانت تعرفه عن المربية التي أمست الآن تميزها في ذهنها بوصف المليحة. وتساءلت تُرى لم يزل الإعزاز عظيمًا كذي قبل. فذلك

حرِيَّ على كل حال أن يتسق مع الملاحاة التي كان في استطاعة ميزي أن تراها مشعة من المحيا المطل في إشراقه من نافذة العربة.

وكانت العربة المقفلة آية تنبي عن الوفاق وعلى الظروف الرخية التي يسع أباهما أن يوفرها لها هذه المرة. فقد كان من عادته قبل ذلك أن يأتي في طلبها مستقلاً مركبة صغيرة، ومن خلفها عربة ذات أربع عجلات لحمل الأمتعة. وكانت العربة ذات العجلات الأربع وفوقها الأمتعة قائمة هناك فعلاً. ولكن «ماما» كانت هي السيدة الوحيدة التي تستقل تلك الوسيلة من وسائل التنقل من النوع الذي كانت «مودل» تطلق عليه دائماً في ذلك الوقت الغابر اسم المركبة الخاصة. ومركبة «بابا» -وقد صارت له الآن مركبة- أشد خصوصية على نحو ما من مركبة «ماما». ولما ألفت نفسها أخيراً تسنمت -كما صور لها إحساسها- نزلاء المركبة وهي تدرج أخيراً في طريقها في أبهة؛ وجهت إلى الأنسة أوفر مور (بعد ضمة أخرى حافلة بالكلام المنطلق) سؤالاً كان الدافع إليه رغبتها في استطلاع الحقيقة بصدد استمرار عاطفة معينة:

- هل أحبك «بابا» كسابق العهد أثناء غيابي؟

سألتها هذا السؤال وهي مملوءة الحس بمدى ما كانت عليه حظوتها الملحوظة عنده من رسوخ أثناء وجودها. وقد عَنَّ لها أن هذه الخطوة -شأنها شأن حضورها وكأنما هي متوقفة على ذلك الحضور- ربما كانت متقطعة النوبات لا تدوم إلا الفترة الموقوتة، وانفجر أبوها -وهي مقتعدة ركبته- بإحدى ضحكاته العالية تلك التي كانت تبدو لها دائماً -بالغاً ما بلغ تأهبها- وكأنها خدعة في لعبة مخيفة تحملها على

الوثب إلى الأمام والقفز من موضعها. وقبل أن يتسنى للآنسة أوفر مور أن تتكلم أجابها قائلاً:

- عجباً لأمركِ أيتها الأتان الصغيرة. فماذا بقي لدي أشغل به وأنت بعيدة عني سوى أن أنصرف إلى حبها؟

وعندئذ أخذتها الآنسة أوفر مور منه على الفور. وحدثت عليها بينهما مناوشة صغيرة مرحة لمحت ميزي ما أثارته من الدهشة في النظرة المحملقة التي رشقتها بها سيدة عجوز وعبرت بهما في عربة من العربات التي تتسع لراكبين. ثم قالت لها صديقتها الحسنة بجد واهتمام:

- سأفهمه أنه إن عاد إلى قول كلام فظيع كهذا مرة أخرى لك؛ فسوف أحملك على الفور وأذهب بك لنعيش معاً في مكان ما؛ حياة فتاتين صغيرتين عاقلتين طيبتين.

ولم تستطع الطفلة أن تظن تماماً إلى ما جعل كلام أبيها فظيلاً، ما دام هذا الكلام لم يتجاوز التعبير عن التقدير الذي كانت رفيقتها نفسها تصفه قديماً بكلمة «هائل». ورغبة منها في النفاذ إلى حقيقة الموضوع توجهت إليه مرة أخرى بالكلام مباشرة، وسألته هل كانت الآنسة أوفر مور طيلة تلك الشهور معه على نحو ما كانت من قبل وعلى نحو ما هي حرية الآن، فصاح بيل فارانج:

- طبعاً كانت كذلك أيتها الفتاة الأثيرة. فأين كانت العزيزة المسكينة حرية أن تكون ما لم تكن معي؟

وقد أثار هذا الرد استنكارًا أشد لدى رفيقتها، فاحتجت متوعدة إياه ما لم «يسحب» أكذوبته الخبيثة القذرة، فلن تكتفي هذه المرة بتركه وحده بل ستترك طفلته أيضًا وبيته ومتاعبه المزعجة وسائر الأمور التي لا تطاق التي أفلح في إلقائها على كاهلها. ولم يسحب بيل تحت هذا الوعيد الهزلي شيئًا على الإطلاق. بل كان في الواقع واضحًا أنه على وشك تكرير نزقه، لولا أن الآنسة أوفر مور أصدرت أمرها إلى تلميذتها الصغيرة بالألا تصغي لمزاحه الرديء، وأن عليها أنه ليس لسيدة أن تقيم مع سيدة على هذا النحو من غير أن يكون ثمة سبب وجيه غاية الوجاهة. ونقلت ميزي نظرها بين مرافقيها. فقد كانت هذه أندى بداية استمتعت بها وأشدّها مرحًا. بيد أن خوفًا حييًّا انتابها ألا تصدقهما تمام التصديق، فسألتهما في تفكر:

- وما السبب الذي يكون وجيهاً؟

- فتاة لعبوب صاخبة طويلة الساقين كالعصا. فما من سبب كهذا السبب في وجاهته.

وكان أبوها مستمتعًا بهزلها وهوله، فحاول مرة أخرى أن يستولي عليها، فقبول هذا الجهد باستنكار من رفيقتها، وأدى ذلك كرة أخرى أخرى إلى شيء من التناوش العلني. وصرحت الآنسة أوفر مور للفتاة بأنها كانت طيلة الوقت مع أصدقاء أفاضل، فعلق بيل فارانج على ذلك بقوله:

- إنها تعني بذلك أفاضل عن أصدقائي أنا؛ أصدقاء رائعين من أصحابي أنا. فقد كان ثمة عدد لا حصر له منهم. هذا شيء يسعني أن أقوله بالنيابة عنها!

فانتابت ميزي الحيرة، وظلت بعد ذلك شاعرة بغموض أورثها شيئاً طفيفاً جداً من الحرج بصدد كل هذا المرح وبصدد المكان الذي كانت مربيتها مقيمة فيه حقيقة. ولم تحس أنها أبلغت بحقيقة الحال بصفة جدية. ولم يمدّها شيء مما حدث بعد ذلك بإحساس من هذا القبيل. وقد ارتبط حرجها - وهو حرج مبعثه نضج غريزي مبكر - بفكرة مؤداها أن هذا الموضوع من بين الموضوعات التي لم يكن لها - على حد تعبير أمها المعتاد - أن تخوض فيها. ولذا لم تحاول وهي تحت سقف والدها في المدة التي تلت ذلك أن تبدد الغموض الذي استشعرته عن طريق التقرب من خادومات البيت. ومن الغريب أن هذا الغموض نفسه لم ينتقص شيئاً في الحقيقة من البهجة المنعشة التي وعدت بها؛ إذ تجدد اتصالها بالآنسة أوفر مور. وكانت الشقة التي تطلعت إليها هذه السيدة الشابة من ذلك الطراز الراقي الذي لا يزيده التفسير حسناً. ثم إنها شخصياً على كل حال فوق مستوى أي بلبلّة. ولم يكن التستر فضلاً عن هذا أمراً يبدو بالضرورة خداعاً على الإطلاق في نظر ميزي. فقد نشأت وسط أمور كان مبلغ معرفتها بها أنها لا ينبغي أن تسأل عنها إطلاقاً. فلم يكن جديداً عليها أن تكون أسئلة الصغار موضع تسلية خاصة للكبار. ففيما عدا دميّتها «ليزت» لم يكن ثمة تقريباً على شيء في بيت أمها تجد له تفسيراً يقال لها بأسلوب جاد. فلم يكن أيسر عليها من أن تبعث السيدات المجتمعات هناك على إطلاق الصرخات الضاحكة. وكانت حريّة أن تمارس فيهن هذه القدرة لو أنها كانت أشد ميلاً إلى تدبير الخطط في سلوكها. فكل شيء وراءه شيء آخر. فكانت الحياة أشبه

بدهليز مسرف في الطول، على جانبيه صفان من الأبواب المغلقة. وقد تعلمت أن الحكمة تقتضي ألا تفرع هذه الأبواب؛ ففرعها يبدو أنه يبتعث مما بداخلها أصوات الاستهزاء. ومع هذا فقد استطاعت أن تفهم المزيد شيئاً فشيئاً، إذا اتفق لها أن تحظى بتوضيحات عن طريق أسئلة «ليزت»، تلك الأسئلة التي كانت تحدث من الأثر ما تحدثه أسئلتها الشخصية لدى أولئك اللواتي تجلس لهن في مثل جهالة «ليزت» تمامًا. ألم تكن هي نفسها تهتز لمثل هذه البراءة؟ ما أكثر ما كانت تحاكي السيدات في صراخهن. وكانت ثمة -على كل حال- أشياء لا تستطيع في الحقيقة أن تقولها حتى لدمية فرنسية. فلم يكن بوسعها إلا أن تنثني إلى دروسها وتستذكرها لتدخل في روع «ليزت» أن في حياتها أسراراً، وهي تتساءل في الوقت نفسه أتراها أفلحت في اتخاذ أسلوب التعمية مثل أمها. فلما أعقب سلطان الأنسة أوفر مور سلطان مسز ويكس اتخذت لنفسها خطة جديدة، فراحت تجاري مربيتها وتحتال على اجتياز تلك الفترة بإظهار التوقع الساذج للثقة من جانبها. أجل كانت هناك أمور لا يسع المرء أن يخوض فيها مع تلميذته. وكانت تجيء أيام مثلاً ترقبها فيها «ليزت» بعد غيبة طويلة وهي تنضو عنها ثيابها، وتحاول جاهدة أن تكتشف أين كانت. وكانت تكتشف بعض الأمور، ولكنها لم تكتشف قط كل شيء. وحدث ذلك مرة حين زاد فضولها بشكل ملحوظ أن ردت عليه «ميزي» -وكان السؤال خاصاً بالتحديد بالبائع على اختفائها- بمثل ما ردت به مسز فارانج ذات مرة على ميزي نفسها:

- استبينني ذلك بنفسك!

وقلدت حدة أمها. إلا أنها شعرت بخجل واضح بعد ذلك، وإن لم يكن من الواضح هل كان خجلها لما أظهرته من الحدة أو لما أقدمت عليه من التقليد.



الفصل السادس

وبمضي الوقت، أدركت أن هذه الفترة ما كانت لتشرق بما تتلقاه فيها من الدروس، وقد أصبحت العناية بتعليمها واجبًا واحدًا فحسب من الواجبات الكثيرة التي أُلقيت على عاتق الأنسة أوفر مور وهو تغيير شهدت بصده مناقشات كثيرة بين تلك السيدة ووالدها. وهي مناقشات تدل من كلا الجانبين على خلاف في وجهات النظر، بل وعلى استياء. فاستخلصت من هذه المشاهد أن في الموقف شيئًا ما يخول لأمرها أن «تنحي» عليهم جميعًا. وإن كانت هذه الملحوظة ترد دائمًا على لسان الأب تقابل في واقع الأمر من جانب رفيقته بالمناقضة الصريحة. وكان النزاع يصل إلى ذروته إذ تتساءل الأنسة أوفر مور - في فظاظة لا تبدي مثلها في صدد أي موضوع آخر - عن الموقف الذي عسى أن تجد امرأة مثل مسز فارانج نفسها فيه إذ تنحي عليهم. وازدادت تأويلات الفتاة الصغيرة غزارة مع تعاقب الشهور. وقد مكن لها من ذلك أن هذه الفترة كانت أطول فترة إقامة متصلة عرضت لها. وألفت الاعتقاد بأن أمرها لسبب ما - لم تكن في عجلة من أمرها كي تستردها. وكان أبوها يجد

نفسه مضطراً للإعراب عن هذه الفكرة كلما ضيّقت عليه الآنسة أوفر مور الخناق -وهي تخالفه الرأي في تصميم- في صدد موضوع إرسالها عاجلاً إلى المدرسة؛ وكان أبوها يلح في ضرورة ذلك الإجراء. وكانت الآنسة أوفر مور تخالفه الرأي بصور يدهشها أن تصدر من مربية. فهي تربي في ذلك كثيراً على ما يمكن أن يخطر برأس مسز ويكس المنكس. وكثيراً ما كانت تصرح لميزي بما تستشعره من تقصيرها في حقها، وأن مستر فارانج يدرك ذلك ويأسى على هذا النقص. ومرجع ذلك أنها تنهض بمسؤوليات غامضة تعوقها عن إيفائها حقها. وكانت الآنسة أوفر مور تعزو هذه المسؤوليات إلى مستر فارانج نفسه وإلى البيت الصغير الصاحب المضيف ومن يتوافدون عليه. وكان العلاج الذي يصفه مستر فارانج لكل هذه المنغصات هو وجوب إدخال الطفلة المدرسة. وكان ثمة كما يعلم الجميع مدارس كثيرة راقية في برايلون في المنطقة كلها. وعلمت ميزي أن هذا بالذات من شأنه أن يثير ثائرة أمها؛ لأنه منذ اللحظة التي يعهد فيها إلى الآخرين إيواء الصغيرة لن يكون له في موقفه سند واحد أمام القانون. أو ليس قد أبعداها عن أمها لشيء، إلا لأن مسز فارانج واحدة من أولئك الآخرين؟

وكان ثمة حل آخر هو استخدام مربية ثانية شابة تأتي لتقضي معها النهار وتقوم بالعبء كله. إلا أن الآنسة أوفر مور لم تشأ أن تصغي لهذا الرأي لحظة واحدة، محتجة على ذلك بصورة علنية سائلة كل من تلقاهم -بل إنها وجهت السؤال إلى ميزي نفسها- أفلا يرون كيف يؤدي ذلك إلى هتك سرها:

- ألا ترون أنه ليس مفروضاً فيّ أن أكون هنا بأي حال من الأحوال ما لم يكن ذلك للإشراف عليها؟

فوضعها شاذ، وهي تسترعي الأنظار بأعلى صوتها غير مقتصدة إلى ما في موقفها من شذوذ حتى كاد ذلك يمسي مصدرًا للفخر.. وكان المخرج الصحيح بالطبع أن تنصرف لأداء واجبها الواضح. بيد أن ذلك للأسف ما كان يعوقها عنه بأنانيته التي تلاحقها بمطالبه المسرفة المتطرفة، الأمر الذي يبدو أن كل إنسان كان يدركه تمام الإدراك. ولم يصبح بيل فارانج بالنسبة للآنسة أوفر مور في ذلك الوقت سوى «هو». وكان البيت مملوءاً كالعادة بالسادة أهل الحبور والرهج، فكانت تحدثهم عنه هازلة فتذكره دائماً بهذا الرمز. وكانت ميزي في غضون هذه الأحاديث موضوعاً للثرثرة المألوفة فيما عسى أن يصنع بها، فكانت تترك وشأنها أوقات كثيرة، فسنحت لها ساعات من التفكير القلق في النظام الفضفاض الطلق على عهد مسز ويكس. لكنها مع ذلك كانت تشعر تحت سقف أبيها بعنصر امتياز؛ لأن زائريه لم يكن بينهم سيدات. وقد عزز من هذه الطمأنينة الغريبة أنها سمعت ذات مرة سيداً يقول لأبيها - كأنما الأمر مزحة هائلة - وهو بداهة إلى الآنسة أوفر مور:

- لأشئقن نفسي إن هي سمحت لامرأة أخرى أن تدنو منك. فهي حَرِيَّةٌ أن ترميها بعضا كما يفعل الناس بالقطط الغريبة!

وكانت ميزي تفضل مخالطة الرجال كثيراً، مع أن لهم أسلوبهم أيضاً في الضحك منها. فضحكهم أعلى من ضحك السيدات، لكنه أقصر مدى. ثم هم يجذبونها ويقرصونها ويغيطونها ويدغدغونها. بل

إن بعضهم كانوا -على حد تعبيرها- يرشقونها بالأشياء. وكانوا كلهم يجدون فكاهتهم في ندائها بأسماء لا وجه للشبه بينها وبين اسمها. وكانت السيدات في المعسكر الآخر ينادينها دائماً «أنتِ أيتها المدللة المسكينة»، وكلما كُنَّ يلمسنها أو يقبلنها، إلا أنها كانت من السيدات أخوف.

وها هي ذي قد بلغت الآن من العمر ما يؤهلها لإدراك ما انتاب فترة إقامتها حتى الآن لدى أبيها من امتداد جاوز الحد. ويؤهلها أيضاً للدخول شيئاً ما في ذلك الغموض الذي يكتنف ذلك الامتداد المسرف. وكان ذلك يثقل عليها بوجه خاص كلما أثّرت هذه المسألة في حديثها مع مربيتها. وما أكثر ما كانت الأنسة أوفر مور تقول لها عند الإثارة إلى خوفها من استياء أمها لهذا الاستبقاء المتطاول:

- لا حاجة بكِ إلى القلق: فهي لا تبالي. فلديها أناس آخرون تفكر في أمرهم سوى شخصك الصغير المسكين، وقد سافرت معهم إلى الخارج. فليست بكِ حاجة إلى أدنى الخوف هذه المرة من تشبثها بحقوقها.

وكانت ميزي قد عرفت بسفر مسز فارانج إلى الخارج من قبل؛ لأنها تلقت منها قبل ذلك بأسابيع وأسابيع خطاباً بدأته بقولها: «يا مدلّتي الغالية» وفيه ودعتها لفترة غير محدودة. ولكنها لم تتبين فيه نبذاً أو كراهية أو شيئاً من سياسة الكاتبة في تأكيد ذاتها؛ لأن أشد انطباعاتها عنفاً هو ما كانت تراه من أن أمها لا تهتم بشيء اهتمامها بتعذيب مستر فارانج. فما كان يحيرها في هذه المناسبة ويفزعها بعض الشيء هو بزوغ

شك لديها في أن أمها وجدت طريقة لتعذيب مستر فارانج أنجع من حرمانه من عبئه الدوري. وهذا ما أقلق بال سيدتنا الصغيرة قلقاً زاد من غموضه ما كانت تفضي به الأنسة أوفر مور من تصريحات وملاحظات كثيرة على مخدومها. وثمة تناقض بين ما يجول بذهنها من ميل أيدا إلى التخلي عن الحقوق التي أبدت في أول الأمر حماسة شديدة في التثبت بها كي تحول بين زوجها السابق واحتكار الوصاية، تلك الوصاية التي ناضل باستماتة أمام محكمة أول درجة للاستثثار بها. ولكن كلما أقدمت ميري في كياسة تفوق سنها على تحسس هذا الأساس الجديد لم تظفر بأكثر من سماع الشائعات تنهال على أمها بمزيد من الحدة. وكانت الأنسة أوفر مور نادراً ما حادت عن التحفظ المحتشم حتى الآن، ثم جاء اليوم الذي عبرت فيه عن رأيها في حجة لا تقل عن حدة بيل نفسه، في موضوع تلك السيدة التي هربت إلى القارة لتتملص من مسؤوليتها تملصاً وضيعاً. وفهمت ميري أن هذه السيدة تستحق جزاءها الوفاق على صورة ابنة شبت عن الطوق تشحن على ظهر السفينة في ثيابها الهزيلة بحيث توضع تحت قدميها وهي غارقة في تبذلها الفاضح.

وكانت صورة هذه الملاحظات هي الملاذ الذي تلجأ إليه الأنسة أوفر مور حينما تحاول الطفلة على استحياء أن تتأكد إن كان والدها يحس بالضيق لطول بقائها عنده، فتروغ من الجواب وتشير حول المسألة غبار الحديث عن قسوة قلب أيدا وطيشها. ويبدو أن الدليل الأكبر على ذلك هو اصطحابها في رحلتها سيداً تنعته في وضوح مؤلم بأنها «تصيدته». والأساس الوحيد على حد تعبير الأنسة أوفر مور -الذي

يجيز للسيدات والرجال - ما لم يكونوا متزوجين - أن يجوبوا الآفاق معها هو الأساس الذي عرضت نفسها هي ومستر فارانج لإمكان إساءة تصويره. وكانت كثيرًا ما شرحت ذلك من قبل بقولها لميزي:

- لست أدرى أنا وأبولك يا عزيزتي ماذا كان بوسعنا أن نصنع من دونك.. لأن وجودك هو الفيصل الذي يحفظ لنا كما قلت لك سميت اللياقة.

وتقبلت الطفلة المهمة التي أسندت إليها في إعزاز، وشعرت بالراحة شعورًا أعانها على الإحساس بالأمان في مواجهة تخلي أمها عنها. ومع ألفتها لما يقابل معنى اللياقة، إلا أنها شعرت لدى مربيتها وأبيها بدافع قوي يمنعها من مقاومة ذلك الفصم الحاسم. وكانت قد سمعت في الوقت نفسه بفتيات صغيرات - من ذوات المكانة العالية حقيقة - يقوم على تعليمهم مثقفون من الجنس الآخر. وأحست أنها إن ذهبت إلى المدرسة في برايتون سيكون من حظها أن يتعدها المعلمون بصورة ما. فقلبت هذه الأمور في ذهنها، ثم قالت للآنسة أوفر مور أنها إن ذهبت لدى أمها فلعل السيد يصبح مثقفًا لها.

- السيد؟

وكانت الفكرة من التعقيد بحيث جعلت الآنسة أوفر مور تحملق.
- السيد الذي مع «ماما». أفلا يجوز أن يكون ذلك سببًا في جعل الموقف سليمًا. مثلما يجعل كونك مربيتي بقاءك مع أبي سليمًا؟
وفكرت الآنسة أوفر مور، ثم تورد لونها قليلًا وعانقت صديقتها

البارعة، وقالت لها:

- ما أطفك. ولكني مربية حقيقية.

- أو ليس في استطاعته أن يكون مثقفاً حقيقياً؟

- كلا بالطبع فهو جاهل ورديء.

فردت ميري في دهشة:

- رديء؟

فضحكت رفيقتها ضحكة يسيرة غريبة من لهجتها ولم تزد على قولها:

- إنه أصغر سنّاً بكثير جداً؟

- أصغر سنّاً منك؟

فضحكت الآنسة أوفر مور مرة أخرى. وكانت هذه أول مرة تراها ميري تكاد تقهقه. ثم استطردت في منطق غير مترابط:

- أصغر سنّاً من.. لا يعني ممن. فأنا لا أعرف عنه شيئاً، ولا أريد أن أعرف. فهو ليس من طرازي. وأنا واثقة يا عزيزتي أنه ليس من طرازك.

ثم كررت تلك المداعبة السخية التي تُفضي إليها على الدوام تقريباً مجادلاتها مع ميري، وهي مداعبة تشعر الطفلة أن محبتها ضمان على الأقل للأمان، فقد انتهى الأمر بالوالدين إلى خفاء أمرهما. أما المربيات فقد أثبتن جدارتهن بالثقة. فإيمان ميري بمسز ويكس لم يوهن منه أن كل اتصال بها قد توقف مؤقتاً. وكانت والدتها كلارا ماتلدا قد كتب إليها في الأسابيع الأولى من فراقهما رسائل متتالية تفيض أسى.

وكانت ميزي ترد عليها في حماسة لا تجد منها إلا شكوكًا في صواب هجاء الكلمات. بيد أن التراسل خضع في أوانه لإشراف الأنسة أوفر مور مما أدى إلى صدور قرار أخير بعدم رضاها عنه. وكان رأي هذه السيدة أن مستر فارانج لا يرضى عن هذا التراسل إطلاقًا. ثم انتهت إلى الاعتراف تحت ضغط تلميذها أنها شخصيًا لا ترضى عنه. وقالت أنها شديدة الغيرة، وأن هذا الضعف دليل جديد على تعقلها النزيه بها. ونعتت رسائل مسز ويكس الضافية بالأمية وعدم الجدوى. ولم تتورع عن التصريح بأن امرأة تملك زمام عقلها تتركب خطأ فظيماً؛ إذ تعهد بتكوين عقل ابنتها إلى مثل هذه المخلوقة السخيفة. وكانت ميزي تدرك تمامًا أن صاحبة الرداء البني العتيق وكسوة الرأس الغربية العتيقة أقل في المستوى الدراسي من الأنسة أوفر مور. ولكنها الآن أفهمت بجلاء وبصورة مؤلمة أنها لا تصلح للتعليم إطلاقًا. فدفنت في الوقت الحاضر تحت حكم قاطع أصدره نقادها:

- إنها حقيقة مزحة تجاوزت كل حد!

وقد قيلت هذه العبارة الأخيرة وتلك المرأة الفاتنة تمسك في يدها بآخر خطاب كتب لميزي أن تتلقاه ومن مسز ويكس. وعززت بقرار يقضي على هذه الصلة غير المعقولة بالإعدام. فسألت الطفلة في حيرة وقد اكفهرت لبشاعة ما وجدت نفسها مرغمة على قوله:

- ألا ينبغي أن أكتب إليها لأخبرها بذلك؟

فصاحت الأنسة أوفر مور:

- لا تحلمي بهذا يا عزيزتي. سأكتب أنا إليها. ولك أن تنقي بي.

وبالفعل كتبت إليها بحيث نزل على مسز ويكس المسكينة صمت،
كنت تسمع فيه صوت سقوط الإبرة. وانقضت أسابيع وأسابيع من غير
أن تبدر منها بادرة تدل على الحياة. فكأنما قضت رسالة الأنسة أوفر
مور عليها، مثلما قضت المركبة الفظيعة على ابنتها في طريق هاو. وغدا
هذا الصمت بعد ذلك من أهم عناصر وجدان ميزي، إذ أتاح جَوًّا دافئًا
مأنوسًا، أوغلت فيه الطفلة إلى أبعد مما تجاسرت على ذكره لرفيقها.
وفي أعماقه كانت ترى المثبتات المعتمدة مسيطرة عليها. وفي مكان ما
-بعيدًا عن التيار الصغير المضطرب- كانت مسز ويكس تنتظرها في
توتر.



الفصل السابع

ومما يتفق وهذا التوتر: أن ميزي عند عودتها ذات يوم من نزهة على الأقدام مع الخادمة وجدتها في البهو جالسة على مقعد بغير ظهر، يشغله عادة سعادة البرق الذين يرودون باب بيل فارانج ويضطرون لإزجاء الفراغ إلى أن ينتهي في حجرته من صياغة ردوده على رسائلهم مستعينًا بنفثات الدخان والزمجرة. وكان قد خيل إليها عند افتراقها أن مسز ويكس بلغت أقصى حدود الاعتصار، فإذا بها الآن تشعر بها وقد تجاوزت تلك الحدود، بحيث كانت المدة التي استغرقتها احتضان زائرتها لها ردًا مباشرًا على اعتراض الأنسة أوفر مور. وفهمت في ومضة واحدة كيف أمكن هذه الزيارة أن تتم. فمسز ويكس لا بد أنها -وهي التي تترقب فرصتها- تسلت في حماية ما تعلمه من أن أباه -وهو الذي ظل يعاني على الرغم من المجدالات بخصوص موضوع المدرسة- قد أصر في غضون رحلة مدتها ثلاثة أيام في برايتون على حضور خصمها. والحق أن ميزي عندما شرحت لها غيابها والدافع الهام لهما على ذلك الغياب،

اكتسى وجه مسز ويكس تعبيراً غريباً جداً، لا بد أن مصدره هو الدهشة. بيد أن هذه التناقض ما إن ظهر حتى تلاشى؛ لأنها في اللحظة التي ارتمت فيها مرة أخرى على صديققتها الصغيرة تحت تأثير ما سمعته، إذا بعربة مكللة بالأمثلة الأنيقة تدرج حتى الباب، وتقفز منها الأنسة أوفر مور. وكانت صدمة التقائها بمسز ويكس أقل عنفاً مما خشيت ميري من حدوثه عندما تراها. ولم تتدخل إطلاقاً باللهجة الودية التي شرحت بها تحت أنظار منافستها كيف أنها عادت لسبب خاص قبل الموعد الذي حددته لعودتها بيوم واحد. وأنها تركت أباهما في مسكن أنيق ببرايون، ولكنه سيعود إلى بيته الصغير العزيز في اليوم التالي. أما بخصوص مسز ويكس فقد زودت مرافقة «بابا» ميري في حديث جرى بينهما فيما بعد للكلمة الصائبة في وصف موقف تلك الشخصية، وهو أن مسز ويكس وقفت لها بصورة شعرت الطفلة نفسها في ذلك الحين بالعجب منها. وقد حدث ذلك في الواقع بعد أن أبدت الأنسة أوفر مور اعتراضها على الانتقال إلى حجرة المائدة؛ وحيث إنه لم تصدر أي دعوة للجلوس لم يكن الوقوف إلا أمراً طبعياً حتى بالنسبة لمسز ويكس المسكينة. واستفسرت ميري على الفور عن موضوع ذهابها إلى المدرسة في برايتون وهل تمخض عن جديد في هذه المرة. وكم كانت دهشتها إذا أجابتها الأنسة أوفر مور التي كان من دأبها أن تقاوم هذه الفكرة أشد المقاومة - وكان مسز ويكس غير موجودة:

- ربما تمخض الأمر عن شيء يا عزيزتي. إذ ينبغي أن أخبرك أن العقبة قد أزيلت تماماً من الطريق.

وكان أدعى لدهشتها أن تسمع مسز ويكس عندئذ تعرب عن رأيها بحزم كبير:

- لا أظن أنك سمحت لي أن أقول هذا - أنه من الممكن أن يكون ثمة أي تدبير كفيل أن «يزيل» العقبة. فما جاء بي إلى هنا اليوم إلا أنني أحمل رسالة لميزي من العزيزة مسز فارانج.

فخفق قلب الطفلة خفقة عظيمة وقالت:

- هل عادت «ماما»؟

فقالت مسز ويكس:

- لم تعد بعد يا حبيبتي الحلوة، ولكنها عائدة. وقد أرسلتني - وهذا اهتمام كبير من جانبها كما تعلمين - إليك كي أمهد ذهنك.

فسألته الآنسة أوفر مور وقد بدأت نعومتها الأولى في التقلص تحت تأثير هذا النبأ:

- لتمهدي ذهنها لأي شيء من فضلك؟

فسلطت مسز ويكس مثبتاتها على جمال الآنسة أوفر مور المتوهج من فرط الاحمرار:

- حسنًا يا آنسة - أمهد ذهنها لتبليغ هام جدًّا.

فسألته السيدة الشابة:

- أليس في استطاعة العزيزة مسز فارانج - كما سميتها أنتِ تلك التسمية الغريبة - أن تقوم بذلك التبليغ بصورة مباشرة؟ أليس في وسعها أن تعجشم الكتابة إلى ابنتها الوحيدة؟ إن في وسع ميزي نفسها أن تخبرك

بانقضاء شهور وشهور منذ تلقت آخر كلمة من لدنها.

فصاحت الطفلة كأنما هذا يمكن أن ينهض عوضاً عن ذاك:

- أوه. ولكنني من جانبي كنت أكتب إلى «ماما»!

فصاحت المربية المتولية أمرها معلنة رأيها:

- وهذا من شأنه أن يزيد معاملتها لك شيئاً.

فقالت مسز ويكس في تمكن مما تقول:

- إن مسز فارانج تدرك غاية الإدراك ما ينتهي إليه مصير خطاباتنا في هذا البيت.

وعندئذ تدخل ما لدى ميزي من حس الإنصاف لنصرة زائرتها:

- أنتِ تعلمين يا آنسة أوفر مور أن «بابا» لا يحب شيئاً يمت بصلة لماما.

فقالت الآنسة أوفر مور:

- ما من أحد يا عزيزتي يحب أن يكون هدفاً لتلك اللغة التي تتضمنها خطابات أملك.

وقالت لمسز ويكس:

- لم يكن من اللائق أن ترى الطفلة البريئة هذه الخطابات.

- إذن لست أدرى ممّ تشكين وأنتِ ترين من الأفضل لها ألا تتلقاها. وإنه لمما يتفق وجميع الأغراض أن أكون موضع ثقة مسز فارانج.

فأرسلت الآنسة أوفر مور ضحكة هادئة:

- إِذْنُ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونِي مُخَالَطَةً لِّجَانِبٍ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ الشَّاذَّةِ!
- فصاحت مسز ويكس وقد امتقع وجهها امتقاعاً شديداً:
- إنها ليست من الغرابة كالتفوه بأشياء فظيعة عن الأم في مواجهة ابنتها التي لا حول لها!
- فأجابتها الأنسة أوفر مور:
- ولكنها أمور ليست أفظع إطلاقاً فيما أعتقد من تلك التي يدو يا سيدتي أنكِ جئت لتقوليلها عن الأب!
- ونظرت مسز ويكس برهة صوب ميري نظرة قوية، ثم التفتت ثانية صوب تلك الشاهدة، وقالت بصوت مرتجف:
- لم آتِ لأقول شيئاً عنه. وينبغي أن تغفري لمسز فارانج ولي أننا لا نبارى في سمونا فوق الملام رفيقته في أسفاره.
- وحملت المرأة الشابة الموصوفة بهذه العبارة مأخوذة بذلك النعت العريض. واقتضى الأمر منها لحظة كي تستوعبه. ومع هذا لاحظت ميري -وهي تنظر بجذ من إحدى المتلاحيتين إلى الأخرى- أن الرد انفرجت عنه في حينه شفتان باسمتان:
- قد يكون من المناسب كذلك ولا شك أن تتحدثي عن مؤهلات مرافق مسز فارانج!
- فانفجرت مسز ويكس في ضحكة غريبة خُيِّلَ لميري أنها محاكاة غير موفقة للصهيل، وقالت:
- هذا بالضبط ما جئت هنا لإعلانه -فما أبرع السيدة المسكينة في

التعرف على ذلك بنفسها.

ثم رفعت رأسها وخاطبت الطفلة قائلة:

- ينبغي أن تتلقي رسالة أملك يا ميري. وينبغي أن تشعرى بما تدل عليه رغبتها إليّ في الحضور إليك حاملة هذه الرسالة على هذا النحو من اهتمامها ومحبتها. وهي تبعث إليك بحبها الفائق، وتعلن إليك خطبتها إلى السيد «كلود».

فرددت ميري الاسم متعجبة:

- السيد كلود؟

ولكن بينما كانت مسز ويكس توضح لها أن ذلك السيد صديق عزيز لمسز فارانج قدم لها عوناً كبيراً في الوصول إلى فلورنسا وتوفير الراحة لها في إقامتها هناك مدة الشتاء؛ لم يصدمها صدمة عنيفة أن تلمح سرور صديقتها القديمة بتأثير هذا النبأ على الأنسة أوفر مور، فقد فتحت السيدة الشابة عينيها على سعتهما، وأبدت على الفور تعليقها بأن مسز فارانج سيضع بالطبع حدّاً لأي مطالبة من جانبها في المستقبل لاسترداد ابنتها. فسألته مسز ويكس بدهشة لماذا يكون الأمر بها على هذه الصورة: فعلمت لها الأنسة أوفر مور المسألة على الفور بأن الأمر كله لا يعدو أن يكون حيلة أخرى في سلسلة الحيل، فهي تريد أن تتملص من الاتفاق المعقود. وإلا فلماذا تركت الآن ميري على عاتق أبيها أسابيع وأسابيع بعد انقضاء المدة التي كان من دأبها في البداية أن تحدث حولها ضجة هائلة؟ وذهبت عبثاً محاولات مسز ويكس للتأكيد بأن كل هذا الوقت سيتم تداركه بمجرد عودة مسز فارانج. فالآنسة

أوفر مور وإن كانت لا تعرف شيئاً -ولله الحمد- عن حليفتها، إلا أنها واثقة تمام الثقة بأن أي شخص قمين بإنشاء مثل تلك العلاقة مع السيدة الموجودة في فلورنسا حريٌّ أن يوافق بسهولة على المعارضة في وجود ثمرة ارتباط سابق تحت سقف بيته، ذلك الارتباط الذي ينبغي أن يتجاهله رعاية لكرامته. فهي لعبة كغيرها من الألاعيب. وزيارة مسز ويكس من الواضح أنها أول حركة فيها. ووجدت ميزي في هذا التبادل للعبارات الجارحة استفزازاً جديداً للقدرية المبهمة التي لاذت بها منذ زمن طويل إحساساتها في صدد مصيرها، وهي فاتحة لنذير أعمق بأنها -على الرغم من توقد قريحة الأنسة أوفر مور وانفعال مسز ويكس- ستشهد تغييراً في طبيعة الصراع الذي يبدو أنها أتت إلى الدنيا لتثيره. ومن الحتم اللزام أن يكون ما ستشهده صراعاً أيضاً، إلا أن هدفه هذه المرة سيكون التنصل منها.

ووجهت مسز ويكس على أثر عبارة الأنسة أوفر مور الأخيرة إلى الفتاة الصغيرة وحدها، وأخرجت من جيب كسائها الخارجي العتيق القدر لفافة صغيرة مسطحة نزعت عنها غلافها، وأبدت رغبتها في أن تعرف هل يبدو «هذا الشكل» سيداً لا ينتظر أن يكون لطيفاً مع كل إنسان، ودعي عنك إنساناً ما أحراه أن يكون واثقاً من لطفه الشديد. وكانت مسز فارانج في سذاجة سعادتها المستحدثة قد أرسلت داخل الغلاف إطاراً به صورة شمسية مما يستخدم في زينة المكاتب تمثل السير كلود، واستغرقت ميزي في الإعجاب بالوجه الأشقر الناعم والملامح المنتظمة والعينين الرقيقتين والظل والخفيف والملاسة

العامة والأناقة التي يتمتع بها زوج أمها المنتظر. وإن كانت قد أحست بحيرة غامضة إذ تجد نفسها الآن ذات أبوين في وقت واحد. وكانت حتى ذلك الحين تدل على أن الإصابة بأب أو أم من جنس معين للمرة الثانية يجب أن يسبقها في العادة فقدان من سيحل محله. وسألته مسز ويكس التي كانت اعتماداً على قوة سحر صورته قد أقنعت نفسها بأن السير كلود وعدها بمستقبل مستقر:

- أليس جذاباً؟ إنني لأرجو أن تكوني قد تبينت أنه سيد مهذب إلى حد الكمال!

ولم تكن ميري قد سمعت قط من قبل كلمة «جذاب» في وصف محيا أي إنسان، فوق سماعها وقعاً مستحباً لديها؛ ومنذ تلك اللحظة لصقت بذهنها. وبرهنت على قوة إدراكها إذ أرسلت زفرة يسيرة ناعمة استجابة للعينين اللطيفتين اللتين كأنهما تنشدان التعرف إليها ومخاطبتها بصورة مباشرة، ثم أعلنت لمسز ويكس رأيها قائلة:

- حقاً. إنه ظريف!

ولما واصل السير كلود رغبته في التأخي، وهي لم تزال ممسكة بالصورة، انفجرت تقول في لهفة لا سبيل إلى كبحها:

- أوه. ألا أستطيع أن أحتفظ بها؟

وما إن قالت ذلك، حتى رفعت بصرها عن الصورة إلى الأنسة أوفر مور متوجهة بتوسل غريزي مفاجئ إلى السلطة التي فرضت عليها منذ زمن طويل ألا تطلب شيئاً من أحد، فأدهشها أن ترى الأنسة أوفر

مور تبدو شاردة مترددة مما سمح لها بالالتفات مرة أخرى صوب مسز ويكس. فرأت ميري وجه هذه السيدة الطويل يزداد طولاً ويبدو عليه الذهول إلى حد يقارب الفرع، كأنما صديققتها الصغيرة تطلب منها شيئاً يفوق ما تستطيع أن تعطيه. وكانت الصورة الفوتوغرافية قد عريت من غلافها بين يديها المتشبتين بها. فمرت لحظة صراع رهيب بين ذلك التشبث الواثق وبين استعدادها لكل تضحية في سبيل تلميذتها المقلقة. وأدركت ميري أن افتتانها بالصورة سيكتب له النصر، فرفعتها إلى الأنسة أوفر مور كأنما هي فخورة بأمرها، وسألته في حين راحت مسز ويكس المسكينة تتناوح مسلطة مثبتاتها على الصورة وهي تستجمع رداءها الطويل حول جسدها بشدة أرهقت خيوطه العتيقة:

- أليس ظريفاً للغاية؟

وقالت الزائرة:

- إليّ أنا يا عزيزتي أرسلت أملك بمنتهى الكرم هذه الصورة. ولكن بطبيعة الحال إذا كانت ستتيح لك سروراً خاصاً..

وكانت تتلعثم وهي تعرب عن تنازلها لاهثة. وظلت الأنسة أوفر مور نائية بذهنها كل النأي وهي تقول:

- إن كانت هذه الصورة ملكاً لك يا عزيزتي، فسوف يسعدني أن أرضيك بالنظر إليها في مناسبة قادمة. ولكن يجب أن تعذريني إذ أرفض أن ألمس شيئاً يخص مسز ويكس.

وفي هذه المرة احمر وجه السيدة احمراراً شديداً، وردت عليها قائلة:

- من الخير لك أن تريح بهذه الطريقة يا آنسة؛ لأنك يقيناً فيما أعتقد لن تريح بطريقة أخرى. وأنت يا عزيزتي الغالية لك أن تحتفظي بالصورة الجميلة على كل حال. فالسير كلود سيسعدك شخصياً أن يعطيني صورة أخرى وعليها كلمة إهداء رقيقة.

ولم يذهب وقع هذا التفاجر الباسل الذي قيل بصوت مؤثر متقطع سدى لدى ميزي، التي ألفت بنفسها في عرفان كبير للصنيع على عنق محدثتها، بحيث شعرت عندما انتهى عناقهما أن ذلك الحنان العلني عوضها عن تضحياتها. وكانت رفيقتها قد وجدت فسحة من الوقت لتستولي على السير كلود بسرعة. وسواء ألفت عليه نظرة أولاً، أخفته ببراعة عن الأنظار. ولما تخلصت مسز ويكس من ذراعي الطفلة بحثت بعينها عن الصورة، ثم رشقت الآنسة أوفر مور بتحديق قاس، وأخيراً حولت نظرها إلى الفتاة الصغيرة مرة أخرى، وافتر فمها عن أشد الابتسامات عبوساً وقالت:

- ليس لشيء أهميته يا ميزي؛ لأن والدتك كتبت إليّ في موضوع آخر ائتمنتني عليه.

وحتى بعد عناقها المخلص شعرت ميزي بشيء من حقارة التسلسل، وهي تنظر صوب الآنسة أوفر مور، تستأذنها في فهم هذا الكلام. ولكن مسز ويكس لم تتركهما في شك مما تعنيه:

- فقد ألحقتني بخدمتها بصورة حاسمة تمهيداً لعودتها وعودتك. وعندئذ سترينه بنفسك.

واعتقدت ميزي على الفور أنها ستستطيع ذلك. بيد أن ذلك الأمل

انتابه الاضطراب فجأة بهجوم غريب من جانب الأنسة أوفر مور. إذ قالت هذه السيدة الشابة:

- لدى مسز ويكس سبب غير معروف يدعوها إلى اعتبار سلطان والدتك عليك وقد اشتد بأسه بإزماعها الزواج. وإني لأتساءل إذن ماذا عسى أن تقول زائرنا - على هذا الأساس - في صدد زواج أبيك.

وكانت كلمات الأنسة أوفر مور موجهة إلى تلميذتها، بيد أن وجهها - الذي أشرق بالتهكم فازداد جمالاً على جماله - كان في اتجاه المرأة ذات الثوب الزري التي كانت قد شدت قامتها تأهباً للرحيل. وكان نظام تأديب الفتاة يورثها الحيرة؛ لأنه نظام يتأرجح تأرجحاً واسع المدى بين الإيعاز إليها ووجوب الرد حين يوجه إليها الكلام وبين التجربة الحافلة بالعقوبات القاسية حين تستجيب لهذا الإيعاز. ولكنها في هذه المرة شعرت بالجرأة على المجازفة، وخصوصاً أن إحساسها الباطن حدثها بالحذر من العلاقات بين الأمور. فنظرت إلى الأنسة أوفر مور على نحو ما تنظر إلى الأشخاص الذين يمازحونها ممازحة الكبار.

- أتعنين بذلك سلطان أبي عليّ.. أتعنين أنه «يزمع الزواج؟».

- أبوك ليس مزماً أن يتزوج. بل إن أباك «قد» تزوج يا عزيزتي. تزوج أول أمس في برايتون.

وأشرق وجه الأنسة أوفر مور بالبهجة، فخطر ببال ميري وقد زاغ بصرها أن مريبتها الأنيقة عروس.

- إنه زوجي من فضلك. وأنا زوجته الصغيرة. و«الآن» سنرى من هي أملك الصغيرة!

وضمت تلميذتها إلى صدرها بصورة تفوقها ضمات رسول سالفها. وبعد بضع لحظات -وقد عادت الأمور إلى مستقرها- لاذت السيدة المسكينة بالفرار في صمت وقد هزمت في الجولة الأخيرة.



الفصل الثامن

وبعد انسحاب مسز ويكس، بدا على الآنسة أوفر مور وكأنها تبينت أنها ليست بالضبط في موقف يسمح لها بالتنديد بأيذا فارانج لإقدامها على الزواج مرة ثانية. بيد أنها استخرجت من درج مائدة صورة السير كلود، ووقفت قبالة ميزي تتفحصها فترة من الزمن، فسألتها الطفلة ببساطة:

- أليس جميلاً؟

وترددت مرافقتها، ثم أجابت ميزي بحدة أدهشتها:

- كلا.. إنه بشع.

ثم تروت في الأمر دقيقة ردت إليها الصورة بعدها، فبدت لميزي وكأنها تنفث سحراً جديداً، واضطربت لأنها لم تعرض لها من قبل مناسبة لاختلاف الرأي بينها وبين صديقتها الحبيبة، فلم يسعها إلا أن تسأل - ما دام الأمر كذلك - ماذا ينبغي أن تصنع بها. هل تقصّيها عنها في مكان ما حيث لا تثير التأذي؟ وفكرت الآنسة أوفر مور في الأمر مرة أخرى منقبة عن الجواب السديد، ثم قالت ما لم يكن منتظراً منها:

- ضعيتها على رف مدفأة حجرة الدراسة.

وانتاب ميري شعور بالخوف، فسألته:

- ألا يسوء أبي أن يراها هناك؟

فردت الآنسة أوفر مور بلهجة ذات مغزى غريب استغلق على تلميذتها:

- بل يسوءه جدًّا في الواقع. ولكن هذا ليس ذا بال «الآن».

فخاطرت ميري بسؤالها:

- بسبب الزواج؟

فضحكت الآنسة أوفر مور وأدركت ميري أنها، على الرغم من الإثارة التي سببتها مسز ويكس، تضج بالسعادة والحيوية:

- أي الزواجين تعنين؟

فلما فوجئت الطفلة بالسؤال أدهشها أنها لا تدري، حتى لقد أحست أنها تبدو بلهاء، فلجأت إلى سؤالها:

- وهل سيكون الأمر بالنسبة إليك مختلفًا؟

فكان ذلك إيماءً ضمنيًا واضحًا إلى أن عروس السير كلود ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة إليها مختلفًا. فأجابته الآنسة أوفر مور:

- باعتباري الزوجة التي اقترنت بأبيك؟ كل الاختلاف!

وبدأ الاختلاف بطبيعة الحال بتوجيه الخطاب إليها - حتى من ميري - من ذلك اليوم فصاعدًا بناء على طلبها الصريح بلقب «مسز

بيل». وقد انتهى الأمر في الواقع عند هذا الحد من حيث الجوهر. وظل كل شيء يبدو كسابق العهد، فيما عدا أن الطفلة تسنى لها أن تجيل بخاطرها فكرة أنه صار لها الآن أربعة أشخاص في مقام الوالدين. وأنه بعد انقضاء ثلاثة أشهر جعل السلم الذي تجثم الفتاة الصغيرة عند حاجزه العلوي يصعد حفيفاً أعمق لازدياد عدد من يرتقونه. فقد صارت لمسز بيل أثواب بديعة جداً، وإن كانت للأنسة أوفر مور أثواب في نفس المستوى. ولئن كان شغف «بابا» بزوجه الثانية أشد كثيراً من شغفه بزوجه الأولى، فقد تنبأت ميري بذلك الشغف؛ لأنها تابعت نموه عن كثب لا يكاد يقل قرباً عن الشخص الذي يمسه هذا الشغف مباشرة. ولم يكن لما بين رفيقها من مخالطة إلا أقل القليل حقاً مما تعجز خبرتها الناضجة قبل الأوان عن تفسيره. وإذا كانا قد أدهشاها لما ينقصها بعد كل شيء من علائم شهر العسل التي كثيراً ما سمعت بتفصيلاتها المسهبة من مسز ويكس مثلاً، فمن الطبيعي أن تتحكم على الحالة في ضوء ما برهن عليه أبوها من ميله إلى التحرر من نير الرابطة الزوجية. فعندما عاد من برايتون - ولم تكن عودته غداة زيارة مسز ويكس، بل تأخرت عودته بصورة عجيبة بضعة أيام - كان شهر العسل بالنسبة له قد شاب به بشكل ملحوظ فجر مرحلة تالية من مراحل الحياة الزوجية. وصارت هناك أشياء أدركت الطفلة أن كراهيته لها لا يمكن أن تكون ذات بال الآن لدى مسز بيل، وقد أخذ عدد هذه الأشياء في الزيادة بحيث توارى إلى جانبها أمر تافه مثل كراهته لصورة السير كلود. وقد وجدت تلك الصورة المبهجة مكاناً بارزاً لها في حجرة الدراسة،

التي قلما كان يدخلها المستر فارانج، وحيث صار الإعجاب الصامت في الفترة التي أتحدث عنها هو التمرين المدرسي الوحيد تقريباً بالنسبة لتلميذة مسز بيل.

ولم يطل بميزي الوقت، حتى رأت ما عنته زوجة أبيها بالضبط بالفرق الذي سيظهر في شخصيتها الجديدة. فاعتبارها زوجة أبيها لم تعد مريبتها الخاصة. ولئن كان حضورها في سابق العهد ينبغي أن يكون منتظماً على أساس قيامها بأعباء وظيفية متواضعة؛ فهي الآن ذات مقام يعفيها من جميع الأسس ويتنافى مع سائر صنوف العبودية؛ وهذا ما كانت ترمي إليه بزوال الاعتراض على التحاقها بالمدرسة؛ لأن مرافقتها الصغيرة لم يعد وجودها في البيت مطلوباً لتكون -على حد تعبير مسز بيل الطريف- بمثابة قهرمانه صغيرة. ولكن معارضتها في الإتيان بخليفة للآنسة أوفر مور ظلت قائمة. وكان مضمون حجتها في ذلك ما عبرت عنه مسز بيل في صراحة، وأكدت بطلان ذلك التفكير وسخافته؛ لأن شغفها المفرط بابتنة زوجها يجعلها لا تطيق أن تراها بين أيد سوقية مرتزقة. وشجعت لهجة الكلام عن ذلك الخطر المعين ميزي على أن تقول كلمة لصالح مسز ويكس قد أقدمت منذ البداية على هذا التعبير المتواضع عن تعلقها بأبيها؛ بيد أن مسز بيل تخلصت مرة أخرى وبهزم من مرشحة لا بد أنها ستعمل بطريقة غادرة فظيعة لما فيه مصلحة أبداً. ثم إنها فضلاً عن ذلك بغیضة شخصياً وأجهل من دابة. ولم تكتم أيضاً الحقيقة المحرجة وهي أن المدرسة الراقية باهظة النفقة، ولم تخف الظرف المشدد الذي يبدو أنه يضع حدًا لكل شيء، ألا وهو

أن «بابا» -على الرغم من تحمسه الصاخب آنفًا- يبدي أسوأ الخلق متى تطلب الأمر بذل المال. بل إن مسز بيل أسرت إلى تلميذتها الصغيرة بهذا السؤال:

- أتصدقين أنه يقول عني أنني أكلفه الآن أكثر من ذي قبل بكثير؛ وأن الابنة والزوجة عبء يفوق طاقته؟

وهكذا تلاشت المدرسة الفخمة في برايتون بين طوايا مسائل أضخم منها؛ وكان الخوف من استثارة هذا الأمر لأيدا لاستغلال ذلك الإخلال بالاتفاقية قد تضاعف بالاختفاء المتطاوّل بلا حياء. وهكذا تركت ابنتها وخليفتها تحمّلان في شروء يجمع بينهما، وإن كان لا حيلة لهما في بسبب كل ما يفوت ميري أن تتعلمه.

وكان مقدار هذا الشروء من الضخامة بحيث يملأ أيام الطفلة بالإحساس بالتفتر: إحساسًا لا تستطيع حتى ولا ليزت الفرنسية أن تدخل عليه شيئًا من التلوين، وقد استنفدت ألعابها وظلت أسئلتها بغير أجوبة والفرع يتابها من الاختبارات، وقد تعودت فوق هذا كله وهي تنقب عن أي تغيير أن تطل من فوق إفريز السلم كلما رن جرس الباب. فقد كان هذا العمل هو ملاذ ضيقها الكبير، إلا أن ما كانت تسمعه في تلك الأوقات هو رنين البهجة في الطابق السفلي، ذلك الرنين الذي كون لديها منذ طفولتها الباكرة اعتقاد بأن أوقات الكبار هي أوقات التسلية الحقيقية، وهي فوق هذا كله أوقات الألفة الحقيقية. فما كانت ليزت قط، ولا كانت مسز ويكس قط -على الرغم من ضماتها ودموعها؛ تشعرها بأنها حميمة الألفة بها ألفة أشخاص كثيرين بمسز بيل في

الوقت الحاضر، وألفة كثيرين غيرهم جدًا فيما مضى بمسز فارانج. فجو المرح الصاخب يؤلف بين الناس أكثر مما يؤلف بينهم جو الأسى، وهو الجو الوحيد الذي تشيعه مثلاً مسز ويكس المسكينة. وكانت ميزي في تلك الأيام تفضل مع هذا أن تتراءى لها أفانين المرح البيتي عن بعد؛ لأنها كانت تحس بنفسها ولا سند لها للأسف لمواجهة ما ينتظرها في حجرة الاستقبال من تحقيقات رهيبة. وكان هذا سبباً أدعى لإفادتها إلى أقصى حد ممكن من «سوزان أش» التي كانت -بصفتها مساعدة خادمة البيت- تدور في فلك مختلف، وكانت مع هذا موضع اعتماد كبير في قضاء الحوائج خارج البيت. فهي دليل عند التجوال، وجولاتها لا تشبه إلا في أقل القليل الخروج لتنسم الهواء حسب خطة محدودة. ذلك الخروج الذي ترك لدى الطفلة ذكرى حية لذهن مودل المنظم. فلم يكن ثمة سبيل في ظل نظام مودل إلى إهدار الوقت عبثاً أمام واجهات المتاجر، أو لكزات في شارع أكسفورد وهي تقول:

- يا إلهي! انظري إليها!

وكان فيما مضى أيضاً أسلوب متزمت عند عبور الشوارع وتجنب رصين للخطر الذي كان يورد ذهن الخادمة، ولا سيما عند الأركان التي كانت مع هذا، مغرمة بها بعض الشيء، وهو الخوف الذي كانت تعبر عنه في توجس من أن «يكلمها» أحد. فمخاطر المدينة وما فيها من تنوع وانحراف كانت تزيد من إحساس ميزي بأنها بغير موجه أو رقيب.

ولكن الموقف اعتراه الالتواء عندما واجهها انفعال آخر إثر عودتها وهي في غاية الإجهاد إلى جوار سوزان من إحدى النزعات التي اكتنفها

كثير من التحويم؛ إذ قيل لها عند الباب أنها مطلوبة للمثول فوراً في حجرة الاستقبال، فاجتازت عتبتها وهي غارقة في سحابة من الخجل، وتبينت من خلال تلك الغشاوة مسز بيل جالسة هناك مع سيد أزاح عنها الغمة بوقوفه أمامها، فإذا به الأصل الحي لصورة السير كلود. وشعرت لحظة وقع نظرها عليه أنه صاحب أبيهى منظر يفوق جميع المناظر البهية التي حملتها أن تفغر فاهاً. وسرعان ما نبض سرورها بمرآه، وبأنه أمسك بها وقبَّلها بلون غريب من الزهو الحيّ به، وبإحساسها أنه عوضها عن تدهور حالها، وعن لكزات سوزان العلنية التي أصابتها بكدمات، وعن سائر الدروس التي أسأماها إلا أن تلقاها وهي في حجرة الدرس الميتة التي يتتابها الخوف أحياناً من المكث فيها وحدها. فكأنما هو قد أخبرها على الفور أنه ملك يمينها، بحيث تستطيع أن تتباهى بإظهاره للناس لترى الأثر الذي يحدثه فيهم. كلا، ما من شيء سواه بالغاً ما بلغ جماله يمكن أن يذكي فيها هذا الفرح الخاص. فلا مسز بيل تستطيع ذلك في هذه اللحظة بالذات، ولا أبوها حين يكون مرحاً، ولا أمها حيث تأخذ زيتنها، ولا ليزت حين كانت جديدة. وأوشك فرحها أن يفيض بالدمع من عينيها عندما وضع يده عليها وجذبها إليه وأخبرها بابتسامة تتألق بوعودها تألق شجرة عيد الميلاد أنه يعرفها عن طريق أمها معرفة جيدة جداً، ولكنه جاء ليراها الآن كي يعرفها معرفة مباشرة. واستطاعت أن تدرك مذهبه في هذا الضرب من المعرفة أن تخرج معه: ثم تبينت أنه جاء لهذا الغرض، وأنه قضى فترة من الوقت يرتب الأمر مع مسز بيل، وأنه أفلح في توثيق الصلة بهذه السيدة بطريقة لم يؤثر فيها على الإطلاق

ما كانت ترى من رأي سيئ فيه عند وصول صورته . فقد أوشكا أن يكونا أليفين حميمين -أو هذا ما يدل عليه ظاهر الأمر- في مناقشاتهما، ثم أدركت ميزي بعد ذلك أن مسز بيل لم تكتم عنه ما تتجشمه إذ تسمح لها بالذهاب . وقالت للطفلة:

- يبدو عليه الالهفة البالغة . حتى إنني أتمنى أن تدركي على الأقل إدراكًا واضحًا علاقة السير كلود بك . ولا يبدو أنه خطر له أن أتاح لك الطمأنينة اللازمة .

- أنت طبعًا «مقترن بها» . أليس كذلك؟

وبلبل هذا الكلام خاطر ميزي بلبلة يسيرة، فالتفتت بسرعة إلى صديقها الجديد قائلة، وقد وقع هذا التركيز المتلهف عليهما موقعًا مثيرًا للضحك . وذلك هو الصدى الذي تحدثه دائمًا وتتقبل حدوثه بإذعان، وكان ضحك السير كلود فضلًا عن هذا جزءًا غير متميز من عذوبة محضره:

- لقد مضى على زواجنا يا طفلي العزيزة ثلاثة أشهر . واهتمامي بك إنما هو -ألا ترين؟- نتيجة لمحبتتي العظيمة لأملك . وحضوري اليوم إلى هنا بطبيعة الحال بصفتي نائبًا عن والدتك .

فقالت ميزي بكل الصراحة المأثورة عنها:

- أعرف هذا . فهي لا تستطيع أن تأتي بنفسها إلا إلى أمام الباب فقط (وبعد لحظة تفكير استطردت) .. ألا تستطيع أن تأتي الآن ولو إلى أمام الباب؟

فهتفت مسز بيل قائلة للسير كلود وكأنها تجد حيرته مضحكة:

- أرايت؟

وبدا على وجهه العطوف في تردده أنه يعترف بذلك، ولكنه أجاب
الطفلة قائلاً بابتسامة صريحة:

- كلا. لا تستطيع ذلك تمامًا.

- لأنها اقترنت بك؟

فتقبل منها هذا السبب على الفور وأجابها:

- هذا الاعتبار له على كل حال دخل كبير في الموضوع.

ووجدت التحدث إليه يشيع السرور في نفسها، فاستطردت مизи
في ذلك السياق:

- ولكن «بابا» اقترن بالآنسة أوفر مور.

فتدخلت السيدة في الحديث قائلة:

- آه. وسترين أنه لن يذهب في طلبك إلى بيت أمك.

وسارعت مизи بالرد عليها قائلة:

- نعم. ولكن المدة لن تطول كثيرًا.

فقال السيرد كلود وهو يدينها منه:

- سوف نتحدث في هذا الموضوع الآن. فأمامك شهور وشهور
تقضيها هناك أولاً.

فقال مسز بيل وهي تبسط ذراعيها نحو ابنة زوجها:

- أوه. هذا ما يجعل التخلي عنها عسيرًا جدًّا!

ففارقت ميري السير كلود، واتجهت نحو هاتين الذراعين المفتوحتين لها، وأحست وهي في غمرة عناق أشد حنانًا من سابقه بما في امتداد أفاق السعادة من نشوة. وقالت زوجة أبيها:

- سأتي «أنا» لطلبك إذا ما استبقاك السير كلود مدة أطول مما ينبغي. ويجب علينا أن نفهمه هذا تمام الفهم.

واستطردت مخاطبة الزائر بألفة شديدة تكاد توحى بأنهما قد التقيا حتمًا من قبل:

- ولا تحدثني عن فخامة الليدي. فأنا أعرف فخامتها وكأنني صنعتها بيدي. يا لهما من أبوين!

وكانت ميري كثيرًا ما سمعتهم يوصفان بهذا الوصف، حتى إن تلك الملاحظة لم تصرفها إلا لحظة واحدة عن العجب المستعذب من هذه التكنية الجديدة الفخمة عن أمها. ثم لم يلبث هذا العجب أن أطلق سراحها لتتعلق - فيما يختص بنفسها - بإمكان قيام علاقة بين مسز بيل والسير كلود أوفق من العلاقة التي بين «ماما» و«بابا». وكان الشيء الذي حدث لها مع ذلك بعد هذا هو أن اهتمامها بقيام مثل تلك العلاقة جلب إلى شفيتها سؤالًا جديدًا وجهته إلى السير كلود:

- هل رأيت «بابا»؟

فكان ذلك إيذانًا بانطلاقهما بالضحك مرة أخرى؛ لأن «رواقيتها» الصغيرة اعتبرت ذلك أمرًا مسلمًا به. ولم تجد مسز بيل ما تعلق به على

ذلك كله سوى التهكم الظاهري المبهم:

- أوه.. «بابا»!

وأجاب السير كلود الطفلة بقوله:

- لقد أكدوا لي أنه ليس في البيت. ولو كان موجودًا لتطلعت إلى السرور بلقائه:

فسألته ميري، وكأنها بحاجة إلى معرفة هذا الأمر:

- ألا يسوؤه حضورك؟

فاحتجت مسز بيل ضاحكة:

- يا لك من فتاة صغيرة خبيثة!

ورأت الطفلة السير كلود وقد احمر وجهه قليلًا، وإن ظل على جذله المستثار. ولكنه قال لها بحنو شديد:

- هذا ما جئت لأتبينه. أي لأعرف إن كان أبوك من الجائز أن يستاء لحضوري. إلا أن مسز بيل تعتقد اعتقادًا راسخًا فيما يبدو أن هذا لن يسوؤه.

وسارعت هذه السيدة إلى تبرير وجهة النظر هذه لابنة زوجها، وبدت كأنها تكرر -ولكن في استسلام واضح- شكاتها التي أعربت عنها قبل ذلك ببرهة:

- إنه لأمر ظريف جدًا يا عزيزتي كما تعلمين أن يتمكن أحد اليوم من اكتشاف ما يمكن أن يبالي به أبوك. أنا واثقة «شخصيًا» أنني لا أعرف. فأبوك يا عزيزتي رجل غريب الأطوار حقًا.

ثم التفتت فقالت باسمه للسير كلود:

- ولكن لعلي لست مجاملة تمامًا لك إذ أقول هذا الكلام بصدد عدم اعتراضه على مجيئك «أنت» إلى بيته. فليتك تعرف بعض من يستقبلهم.

وكانت ميزي تعرفهم جميعًا. وليس فيهم فعلاً من تجوز مقارنته بالسير كلود. ورد السيرد كلود على مسز بيل بضحكة، فبدأ في تلك اللحظة شبيهًا تمام الشبه بما كانت تصفه به مسز ويكس دائمًا - في الحكايات الطويلة التي تقصها على تلميذتها - عشاق حسناواتها التعسات، من أن كل واحد منهم: «السيد المذهب الكامل ذو الحسن الباهر».. ونهض كأنه يهيم بالانصراف - الأمر الذي أسفت له الطفلة - وقال:

- أوه. أحسبنا سنكون على ما يرام!

ومرة أخرى ضمت مسز بيل تلميذتها الصغيرة إليها، وراحت وهي تحتضنها تنظر من فوق رأسها في تفكر إلى زائرهما، وقالت:

- إنه لجميل جدًّا من رجل من طرازك أن يرغب فيها إلى هذا الحد.

فضحك السير كلود وقال:

- وماذا تعرفين عن طرازي؟ أيًا كان ما تعرفينه فأنا أخالكِ مخدوعة؛ فحقيقة أمري ببساطة أنني أقل - ماذا تسمين هؤلاء الناس؟ - «الرجال الداجنين» حظًّا من التقدير. أجل أنا رجل داجن. أقسم بشرفي على ذلك!

فصاحت مسز بيل:

- إذن لماذا لم تتزوج من امرأة داجنة؟

فنظر إليها السير كلود نظرة قوية، وقال:

- أخالك تعرفين من الذين يتزوجهم المرء. ثم إنه لا وجود للنساء الداجنات. سحقا لي إن كان لهن وجود. ما من واحدة منهن تريد أن تنجب أطفالا. سحقا لي إن كن يردن ذلك!

وكان رأيه في الموضوع طريفا للغاية. فأخذت تحملق في هذه الصورة التي رسمها بكلماتها في شيء من الهلع كأنها نذير سوء لها. وفي الوقت نفسه شعرت عن طريق الذراعين اللتين تطوقانها بتردد راعيتها التي قالت:

- إنك لتخرج علينا بأشياء عجيبة. ولكنك تعني أن فخامة الليدي لا تريد أطفالا. أهذا صحيح؟

- لا تريد أن يقع ذكرهم على سمعها بكل بساطة. ولكن لا حيلة لها في الطفلة التي رزقت بها «فعلا».

واستقرت عينا السير كلود وهو يقول هذه العبارة الأخيرة على الفتاة الصغيرة بصورة خُيِّل إليها أنها تغلف موقف أمها بإحساسه بموقفه الخاص.

- إن عليها أن تتقبلها على أحسن وجه تستطيعه. ألا ترين ماذا أعني؟ ولو رعاية للمظهر. فالمرء يريد من زوجته أن تسلك الطريق القويم في معاملتها لطفلتها.

فصاحت مسز بيل معربة عن دراية لا شك في أنها تركت أثرها لدى
محدثها:

- أعرف ماذا يريد المرء في هذا الصدد!

- وما دمت قد استطعت أن تتحمليه - وأخالِك قد لقيت في ذلك
عناء كافيًا - فلماذا لا أواصل تحمل أيدا؟ إن ما يصلح للأثنى يصلح
للذكر، أو العكس. ألا تعلمين ذلك؟ إن في نيتي أن أصل بهذا الأمر إلى
قراراته.

ولبثت مسز بيل مدة دقيقة وعيناها عليه وهو متكئ إلى حافة المدفأة
وكأنها تقلب هذا الأمر على وجوهه، ثم قالت في النهاية:

- إنك لأعجوبة من أعاجيب الحنان. ذاك أنت. المفروض في أي
سيدة أن تكون لديها مشاعر طبيعية. أما «جنسكم» الفظيع!

وسألت ابنة زوجها وخدها على خدها:

- أليس جنسًا فظيعةً يا حبي الصغير؟

فأجابتها ميزي بلا مواربة:

- أنا أفضل الرجال.

فوقعت هذه الكلمة موقعًا مثيرًا للمرح. وهتف السير كلود بمسز
بيل:

- هذه ضربة طيبة «لك»!

فقالت تلك السيدة:

- كلا. فما عليّ إلا أن أتذكر طراز النساء اللواتي تراهن في بيت أمها.

فرد عليها السير كلود:

- آه. إنهن الآن لطيفات جدًّا.

- ماذا تعني بكلمة «لطيف»؟

- إنهن على ما يرام.

فقالت مسز بيل:

- ليس هذا جواب سؤالي. ولكنني أحسبك ستتولى شأنهن. وهذا يزيد من ملائكتك؛ إذ ترغب في الاضطلاع بهذه المهمة أيضًا.

وضربت رفيقتها الصغيرة على سبيل الدعابة. فقال السير كلود:

- أنا لست من الملائكة. بل أنا جدة عجوز. فأنا أحب الأطفال الصغار.. وكان هذا شأني دائمًا. فإن حدث أن رابطتنا انفصمت، فسوف أبحث عن وظيفة حاضنة أطفال مسؤولة.

وفوتت ميزي وهي في حالة السحر المستولية عليها ذلك التجريح لسنها، وهو تجريح كانت حريّة في وقت آخر أن تحس له بمرارة. بيد أن السحر لم يلبث أن تأثر تأثرًا محسوسًا عندما جعلتها مسز بيل تدور حول نفسها وراحت تحديق في عينيها بشغف، وقالت:

- أراغبة أنت في فراقي أيتها الصعلوكة؟

وتروت الفتاة في الأمر. فحتى هذا الرباط المقدس أمسى وكأنه حبل يتحتم عليها أن تقطعه فجأة. ولكنها قطعته بلطف شديد قائلة:

- أليست هذه نوبة إقامتي عند «ماما»؟

فأجابتها مسز بيل بقولها:

- يا لك من منافقة صغيرة فظيعة. وكلما قل حديثنا فيما أعتقد عن هذه «النوبات» الآن كان ذلك أفضل. أنا أعرف نوبة من هذه، ولكنك لا تكنين هيامًا شديدًا بوالدتك.

فاحتج السير كلود عن ذلك في ظرف قائلاً:

- انتبهي. انتبهي. الزمي جانب الحذر.

فاستطردت تقول:

- ما من شيء لم تسمعه من قبل. ولكن هذا ليس ذا بال؛ لأنه لم يفسدها.. آه لو تعلمين كم يكلفني الافتراق عنك!

وأخذ السير كلود يرقبها وهي تتعلق بالطفلة بصورة ساحرة:

- إنني لسعيد جدًا لتعلقك الصادق بها. وهو أدعى للخير.

ونهمزت مسز بيل على مهل ويدها على تشبثهما بميزي، وأطلقت زفرة ناعمة، وقالت:

- إن سرورك قد يكون عونًا لنا. فأنا أؤكد لك أنني لن أتخلي عن أي حق لي فيها اكتسبته بتضحياتي. وسوف أثبت غاية الثبوت بحقوقتي فيها. وما يبدو لي الآن أنها جمعت بيني وبينك.

فقال السير كلود:

- لقد جمعت بيني وبينك.

فأطال هذا التردد الطروب من عمر هذه الحقيقة السارة. وانفجرت
مimizi بما يكاد يبلغ حد الحماسة قائلة.

- لقد جمعت بينك وبينها!

وضحك رفيقاها بالطبع مرة أخرى، وهزتها مسز بيل في إعزاز
قائلة:

- أيتها الضارية الصغيرة. تدبري ما تصنعين!

ثم وجهت الكلام إلى السير كلود قائلة:

- ولكن هذا ما تصنعه فعلاً. وقد صنعه به أنا وبيل.

فقال لمimizi وهو يمد إليها يده مرة أخرى:

- إذن عليك أن تحاولي القيام بصنيعك هذا في «بيتنا». هل لك في
الذهاب معي الآن؟

فالتفتت في توسل حار إلى زوجة أبيها أن تتخطى بذلك جبل
«إصلاح الثياب» وهاوية حزم حوائجها وقد تبلج الجبل أمامها وفغرت
الهاوية فاهها:

- الآن. كما أنا؟ أوه. أستطيع ذلك؟

فوجهت مسز بيل موافقتها إلى السير كلود:

- سيان ذهابك هكذا أو على أي وجه آخر. سأرسل حوائجها إليها
غداً.

ثم جذبت معطف الطفلة لتصلح من هندامها، وصعدت فيها نظرها

بشيء من الأسى، ثم قالت:

- إنها ليست على ما كنت أرومه لها من الأناقة. وستمزقها والدتها
إربًا. ولكن ماذا كان باستطاعتنا وليست لدينا الوسيلة؟ إنها أفضل حالًا
منها يوم جاءتنا. ولك أن تقول هذا لأُمها. وإنه ليؤسفني أن أجد نفسي
مضطرة أن أقول لك ذلك. ولكن الطفلة المسكينة كان منظرها يثير
الإشفاق حينئذ.

فقال الزائر بإخلاص:

- سأتولى أمر هندامها بنفسي!

وبدا على مسز بيل أنها وجدت في ذلك ما يثير مرحها، فقالت:
- لكم أحب أن أرى كيف. يجب أن تأتي بها لتريني ما صنعتها بها.
ففي وسعنا أن نتدبر هذا الأمر. وداعًا أيتها المرعبة الصغيرة.
وكانت كلمتها الأخيرة للسير كلود أنها عازمة على شد أزره إلى
أقصى حدود طاقتها.



الفصل التاسع

ظلت فكرة ميري عما يجب عليها أن تعوضه وعن الجملة الهائلة التي بلغت هذه الأمور ماثلة أمام عينيها في بيت أمها. فقد كانت هذه الأمور هي شغل مسز ويكس الشاغل. وكانت قد وصلت إلى هناك عن طريق السلم الخلفي وهي تذرف دموع الفرح في اليوم التالي لوصولها. وكان لدى السيدة الطيبة الشيء الكثير لتقوله لها عن إجراءات ذلك التعويض، مما استغرق -في مراحل المتعاقبة- وقتاً طويلاً جداً مما أذنها بفترة من الإقامة توازي في امتدادها الفترة الأخيرة التي قضتها الطفلة مع أبيها. بيد أن هذه الفترة الجارية كان وقتها أغنى وأحفل وطاباً، فجعلت أيامها تتواثب قدماً على نغمات إلحاح مسز ويكس المتصل في وجوب بذل جهدهما معاً في العمل. وكانت ثمة حرارة مقترنة بالركة في الطريقة التي أعربت بها الطفلة عن موافقتها لمسز ويكس من حيث إنها لم تدرس شيئاً على الإطلاق على يد مسز بيل وسوزان آش، وكان جموح المنبوذة المستنقذة أحد العوامل التي ستساعد في الاتجاه إلى انتهاج خطة غزو تلك المجاهل. فاستدار العام وهو لا يعدو وعاء لما فاتها من المعلومات، أو فيجأناً طافحاً بالإحساس بأنها الآن على الأقل

ماضية في التعلم. وكانت مسز ويكس تغذى هذا الإحساس بما في مخازنها من أحاديث وبالانهماك الشديد في تذكيرها بأنهما يجب أن تنفيا من حياتهما الساعة التي تمضي هباء. فمن حولهما موضوعات يجب عليهما أن تقتحماها اقتحامًا، فكانتا على الدوام تتخذان هيئة الأهبة لهجوم ظافر، ولم تكن لديهما بالتأكيد أوقات لا جدوى منها. وكانت الطفلة تمضي إلى فراشها كل يوم متعبة كأنما قضت اليوم بطوله في اللعب المجهد. وقد بدأ هذا الحال منذ لحظة اجتماعهما. بدأ بكل ما كان لدى مسز ويكس مما تريد الإفضاء به إلى صديقتها الصغيرة عن أسباب سلوك فخامة الليدي الخارق للمألوف في بداية الأمر.

فقد كان هذا السلوك على صورة رفض فخامتها على مدى ثلاثة أيام أن ترى ابتها الصغيرة ثلاثة أيام كان السير كلود يندفع مرات كثيرة إلى داخل حجرة الدراسة ليهدئ الموقف الغريب قائلاً:

- إنها ستعرج عليكم كما تعلمان. أوكد لكما أنها ستعرج عليكم.

ويحاول أن يعوض ميزي بعض الشيء عن المهانة التي تسبب لها فيها، فلم يكن في حياة الطفلة من قبل إطلاقاً وبأي وجه من الوجوه مثل هذا القدر المبهج من الترضية. واتضح من اعترافه أن فخامة الليدي لم تكن على علم سابق بزيارته لبيت طليقتها، وبأنه جعل من بنت ذلك الشخص ذريعة لعقد صلة للتعارف بينه وبين المخلوقة البغيضة التي تقيم هناك. والله يعلم أنها كانت تريد استعادة طفلتها، وأنها أعدت خطأ خاصة بها لزحزحتها. ولكنها لا تستطيع في الوقت الحاضر على الأقل أن تغفر لأي شخص أن يعمل بطريق الخداع المتطفل على

إحداث تلك النقلة. وقد تحملت ميزي من عبء هذا السخط أكثر مما كان في مقدور مسز ويكس بحذقها المستور أن تخففه عنها، لا سيما وأن السير كلود نفسه لم يكن بارعًا على الإطلاق، وإن كان في الحقيقة بعيدًا كل البعد عن الانهيار. فقد كان هذه المسألة تستهويه، وكان على فتوره يبعث فيها الفزع أحيانًا. وألقى في روع رفيقته الصغيرة بصراحة هزتها إلى مدى أبعد كثيرًا مما يبدو أنه يعتمد عليها في ألا تدع أمها -حينما تقابلها- تستخلص منها شيئًا عن أي كلمة يمكن أن تكون مسز بيل قالتها له. وكان يدخل ويخرج ويعلن مازحًا أنه يتخذ احتياطات هائلة. ويظهر ميلًا واضحًا للمخاشنة. ويغيط بمزاحه مسز ويكس إلى أن يصطبغ محياها بلون القرمز من فرط السرور، ويذكر ميزي بالكتمان الذي ينتظره منها إلى أن تكز بأسنانها مثل أسرى الهنود الحمر. فكانت دروسها في تلك الأيام الأولى وإلى أمد طويل بعد ذلك في الواقع - وكأنها جميعًا تدور حول السير كلود. ومع ذلك لم تذكر لمسز ويكس في الواقع أنها كانت متأهبة تحت تأثير ما أوحاه إليها من النذر - لمواجهة تعذيب يذهب هباء. وكانت هذه السيدة قد صورت الموقف مع ذلك بدقة تدل على قلة حاجتها إلى التدريب. فكان تفسيرها لكل شيء يبدو غير سار تمامًا - ولئن كانت مكانتها مهددة بالخطر فهي تواجه ذلك الخطر أيضًا بتفسيرها ذاك - أن فخامة الليدي عاشقة مدنفة. وتقبلت منها ميزي هذا التلميح في فرع لا حد له، واعتمدت عليه كثيرًا عندما دُعيت في النهاية للمثول في حضرة أمها.

وهناك واجهت الأمور التي بدا أن وجودها في خضمها شعرها

بالحاجة إلى الاستعانة بمفتاح أو دليل يرشدها. فقد وجدت غرابة تكاد تكون مفزعة، لم تلبث أن فاضت بعد قليل بأصداء لما كانت تعهده لدى أيدا أنفًا من العنف في الملام كلما استردت ملكيتها. وها هما قد لبثتا في البيت بعض الوقت معًا، ثم جاء هذا الملام متأخرًا. ولما كانت ميري مشغولة النفس بذلك الإحساس الذي أوحاه السير كلود، وعلى علم فوق هذا -عن طريق حكايات مسز ويكس- بالتدمير الذي يمكن أن يحدثه مثل ذلك الإحساس بوجه عام، فقد تسنى لها أن تلتمس المعاذير لفخامة الليدي بصدد منظرها الذي يسترعي الأنظار، وتبرجها الصارخ، ولون شفيتها العجيب بل ونظرتها الجامدة -نظرة صنم هائل ورد وصفه في كتاب من كتب الحكايات- التي طرأت على عينيها نتيجة مزيد غريب من الغزارة فوق ما لمحيطهما من كثافة سالفة. وكانت أقوالها وتفسيراتها مختلطة بتحديات مندفعة وفترات هدوء مفاجئة. ووسط هذا كله وجدت ميري ما يذكرها بما تختزنه عن السنوات الماضية من صليل حليها وتخميشات تدليلها ورائحة الثياب والطفرات التي تعتور حديثها. ولم يزل لها أسلوبها القديم البارع بتمامه، ذلك الأسلوب الذي كانت مسز ويكس تقول عنه أنه أرستقراطي؛ إذ تغير الموضوع وكأنها تصفق الباب في وجهك. وأهم الفروق كان لون شعرها الذهبي الذي تغير إلى الأحمر النحاسي. وقد بدا ذلك الشعر والرأس الذي يكسوه بسخاء لعيني الطفلة، وكأنهما ازدادا علوًا. فأبدت هذه الأم المنظرانية لناظريها قامة أضخم ومحضرًا أنبل بصورة مجسمة. وهذان أمران -بالإضافة إلى أمور أخرى كان من الممكن أن تثير الحيرة- يفسرهما

تفسيراً مقبولاً ما يسيطر على عواطفها من الرومانسية. فعواطفها -فيما استطاعت أن تتبينه ميزي بسهولة- هي التي أدت بأيدا إلى الانطلاق في تلك الأسئلة عما جرى في البيت الآخر بين تلك المرأة الفظيعة والسير كلود. ولكن الفتاة الصغيرة استطاعت أيضاً في هذا المقام بالذات أن تتذكر أن التوفيق الذي أحرزته في أيامها الخوالي حين مارست فن الغناء المأمون. وأسرع هذا الفن مرة أخرى لنجدتها. وحين تخلصت منها أمها على أثر مقابلة وصلت فيها بالرياء إلى حد يجاوز عمرها، أفهمتها بجلاء أن مرور الأيام لم يزد لها قلامة ظفر من الفطنة.

وكان في مقدورها أن تتحمل هذا، وأن تتحمل أي شيء يعينها على الإحساس بأنها صنعت أي شيء للسير كلود. ولئن لم تصرح لمسز ويكس بمبلغ ما بدا على مسز بيل من الميل إليه، فليس في مقدورها يقيناً أن تصرح بذلك لليدي. وقد سبب لها انبعاث الحياة في ذكريات الماضي اختلاطاً غريباً. فما كانت تشد معرفة الأمور السيئة عن أبيها بدافع من كرهها له. ولكنها الآن تريد أن تعرف هذا النوع من الأشياء عن السير كلود لكن لعكس ذلك الدافع. واستولى عليها الفزع من الصورة التي يمكن أن تتأثر بها سيدة نتيجة للعاطفة التي أشارت إليها مسز ويكس، فحبست أنفاسها عازمة على تحسس مواطئ قدميها بين أمور الحياة الهائلة. وما أفضت به فعلاً الآن بعد انتهاء مقابلتها لأمها إلى مسز ويكس هو أن كلمات أمها الأخيرة لها -على الرغم من الأثر «الطيب» كما كانت تسميه، وهو الأثر الذي أحسنت دراسته، ألا وهو تصنع فراغ الرأس فراغاً لا ضرر منه- أن فخامتها ستؤدي واجبها نحوها

على أتم وجه. وأخذت المربية والتلميذة تنظر كل منهما إلى الأخرى في تعمق صامت مفكرتين في ذلك التصريح. ولكن مع مرور الأسابيع لم تظهر له ثمرة تغير تغييرًا خطيرًا من هرولتها الرخية في طريق تعويض ما فات. فواجب فخامة الليدي كان يتخذ في بعض الأوقات صورة عدم رؤية طفلتها أيامًا متوالية، فكانت ميزي تقضي حياتها في بحبوحة عظيمة بين مسز ويكس والسير كلود العطوف. واقتنت مسز ويكس ثوبًا جديدًا وصارت لها مرتبة أفضل - وكان أول من أعلن هذا - فبدا لميزي وجه الحياة براقًا حافلاً، وقد أصبحت مسز بيل وسوزان آش في الوقت الحاضر «مقصيتين» كأنهما طفلتان لم توجه إليهما الدعوة لحضور حفلة عيد الميلاد. ولكن رعبًا خفيًا كان يتتاب مسز ويكس. وكانت تتناقش فيه - شأنها في معظم مشاعرها الخفية - مع رفيقتها الصغيرة بجد كبير وبالساعات. وهذا الفزع مصدره احتمال انقضاخ الليدي عليهما في أسلوبها الراقي بقرار إرسال ميزي إلى المدرسة. وكان الترياق الذي لديها لهذا الخوف هو إيمانها بقوة سيطرة السير كلود على الموقف. فهو في غاية السرور - أو ليس هذا ما يقوله دوائيًا؟ - بالأثر الطيب الذي تحدثه تضحيات أيدا في محيط واسع من المجتمع. وكان كثيرًا ما يأتي إلى حجرة الدراسة ليلبغهما إحساسه القوي بحسن سير الأمور، وأن كل شيء سيظل على أحسن ما يرام.

وكان يختفي في بعض الأوقات بضعة أيام، فتفهم صديقتاه الصابرتان أن فخامة الليدي لا بد أن تكون قد استوعبته بطبيعة الحال. بيد أنه كان يعود دائمًا إليهما بأفكه الحكايات عن أين كان. ويرسم لهما

ثورة رائعة للمجتمع، وربما جاءهما بأحسن الهدايا التي تريهما كيف كان يفكر مدة غيابه في بيته. وقد قدم لمسز ويكس فوق ما منحها من الإحساس بأحدثه أنهما قد خرجتا بشخصيتهما إلى الدنيا فعلاً على وجه التقريب -ورقة نقد من ذات الجنيهات الخمسة وتاريخ فرنسا ومظلة ذات مقبض من معدن «الملكيت». وقدم لميزي شوكلاتة بالكريمة وكتباً للحكايات؛ فضلاً عن معطف بديع (أخذها معه بمفردها تماماً كي يشتريه لها) وكثيراً جداً من الألعاب داخل صناديقها ومعها إرشادات مطبوعة، وإطار أحمر لامع لصيانة صورته الشمسية المشهورة. والألعاب -على حد قوله- لإزجاء الوقت في المساء. وكانت فترة المساء كثيراً ما تُقضى في الواقع في محاولات عقيمة من جانب مسز ويكس لاستبانه ما «يقال» في الصحف. وكان كلما سأل الاثنتين عن مدى محبتهم للألعاب كان جوابهما على الدوام: «إلى درجة هائلة». ولكنهما كانتا تتنافسان فيما بينهما بصورة جدية في هل يستحسن أن تلجأ إليه صراحة ليساعدهما على فهمها، وهي خطوة كانت رقة شعورهما تنكص عنها؛ وإن لم يكن بوسعهما أن تقررا سبب ذلك النكوص بالضبط. إلا أن حنانهما من نحوه كان يدفعهما ألا تدعاه يخالهما في مشقة. وكان أشد ما يزيغ البصر من فعالة رفته مع مسز ويكس. لا الورقة ذات الجنيهات الخمسة في «عدم نسيانه» إياها فحسب؛ بل للتوقير التام الذي يبديه لها، على حد تعبيرها عنه بلهجة يضيفي رنين ألفاظها على تلك السيدة هالة العظمة الوحيدة التي رأتها ميزي تتحلى بها، اللهم إلا في مناسبة معينة سيأتي ذكرها فيما بعد، وهي

مناسبة كانت فيها تلك السيدة المسكينة أعظم منهم كافة مجتمعين. إنه يصافحها ويعترف بوجودها - على حد تعبيرها - ثم إنه فوق هذا أخذها معه أكثر من مرة هي وابنة زوجته لمشاهدة التمثيل الصامت، وفي ساعة الخروج وسط الزحام قدم إليها ذراعه على رؤوس الأشهاد. وعندما قابلهما في ميدان بيكاديللي المشمس أشاع فيهما المرح واستدار فسار معهما كايحًا في بطولة إحساسه بوقع تلك الصحبة. وهي بطولة لم تكن الليدي - ولا حاجة بمسز ويكس إلى سبر غور تلك الكلمات - على ما هناك من وشيجة القربى جديرة بالإقدام عليها. وكان في تباهي مسز ويكس على هذه الصورة بمثل هذا السلوك الإنساني ما يشعر قلب الطفولة الصلد بعنصر المأساة، فأحست ميزي في قرارة نفسها بالنهج الذي كتب على هذه الرفيقة المتواضعة أن تشق به طريقها في زحام الحياة حسيرة ذليلة. بيد أن هذا حسم موضوع مبلغ ما عليه السير كلود من شمائل السيد المهذب: فهو في هذا المدى أطول باعًا من أي امرئ على وجه الدنيا. وكثيرًا ما كانت مسز ويكس تكرر قولها:

- لست أبالي بمن تلتقين في المجتمع الراقى! بل ولا بمن تربطين بالزواج. ولكن ثمة أسئلة لم تجسر ميزي على توجيهها، ولذا أعفيت مربيتها من حرج تعريفها هل هو أحظى شيء بشمائل السيد المهذب من أبيها. ولم يكن ذلك على إفقار إلى الفرصة المواتية للسؤال؛ لأنه لم تكن ثمة أوقات بينهما يعتبر فيها أي موضوع غير مفضٍ إلى شيء. ولا كان هناك موضوع تخوضان فيه - ولو كان التواريخ الهامة والأفعال المساعدة - لم يكن ليشغل ذهنيهما إلى أبعد من تقليب الصفحة.. وكان

الحل في ليالي الشتاء لألغاز ألعاب البطاقات والإحصاء والكتيبات الصغيرة المحيرة للعقل إنما هو عندهما الاقتراب من النار والاسترسال في الحديث عنه. ولئن كان الصدق هنا ضربة لازب فهذه المداولات الثقيفية كانت في ذلك الوقت جل قوام ما تتلقاه الفتاة الصغيرة من التعليم.

وينبغي أيضًا أن نعترف بأنه مضى بهما إلى مدى قد يكون أبعد مما يبيحه ضمير معلمة ميزي الساذجة بنمطه العتيق واحتشامها المتمزمت، وكانت تأتي ساعات تقرأ فيها مسز ويكس وهي تنتهد بالهواجس التي تتنابها وتتخطاها؛ وكأنها تتساءل ماذا كان من الممكن أن تنتج ما لم تنتهج هذه الخطة مع صبية لها بالفعل هذه الخبرة غير العادية، وتعتبر السيدة الطيبة عن ذلك التبرير لدى نفسها ولدى تلميذتها لانطلاقها على السجبة في تلك الأحاديث المستحبة بمثل هذه العبارات:

- كأنك لا تعرفين كل شيء بالفعل يا حبيتي؟ وليس في مقدوري أن أجعلك أسوأ مما أنت. أليس كذلك يا عزيزتي؟

وكل ما تعرفه التلميذة يؤخذ مأخذ التسليم وإن لم يكن محل تعبير، إلا أنه يمثل عملية التجاوز المقيدة لسائر الكتب المقررة ويحل محل جميع الدراسات. وما دامت الطفلة لا يمكن أن تكون أسوأ مما هي، فسوؤها نفسه مصدر راحة حتى لها شخصيًا. راحة تتيح لها سندًا عريضًا متينًا في مواجهة الأزمة الحالية، ألا وهي وقوع أمها فريسة لغيرة مخيفة. وهذا هو الجانب الآخر لغرام «ماما». ولم يطل الوقت بالماكرتين المقيمتين بحجرة الدراسة، حتى توصلتا إلى إدراك هذه

الحقيقة، فإذا بهما وجهًا لوجه أمام معنى التنغيض الذي تعنيه أي سيدة تتزوج سيدًا له ما للسير كلود من تأثير ساحر على السيدات الأخريات. وكان عجز أولئك السيدات عن مقاومة الوقوع في غرامه مصدر ضيق طبيعي لزوجته. وحدث ذات يوم أن وقع شيء ما - قرعة باب صفق بشدة أو هرولة خادمة مروعة، جعل هذه الحقيقة تتجلى بصورة بارزة، فقالت ميزي اللماحة المنطوية على خواطرها الدفينة لرفيقتها فجأة:

- وأنت يا عزيزتي، ألسنت تحبينه كذلك؟

وكان مكرها يسمح بشيء من الفكاهة، فأجفلت قليلًا للمبادرة الجادة التي اندفعت بها مسز ويكس تقرر في صراحة:

- بل غارقة في حبه إلى قمة رأسي. وما دمت قد سألتني، فأنا لم أصل إلى هذا المدى من الحب في حياتي قط من قبل.

بيد أن هذه الجرأة لم يكن لها تأثير رادع بعد بضعة أيام، على أثر مرور عدة أيام من غير أن تحظيا بزيارة من السير كلود، عندما قلبت مريبتها المواقف وسألته:

- هل لي يا آنسة أن أسألك هل «أنت» أيضًا عاشقة له؟

وكانت مسز ويكس حين فاهت بهذا السؤال ترمي إلى المزاح، فأجابته الطفلة بقولها:

- طبعًا «جدًا».

وكانها تعجب من أن سريرتها لم تفتضح من قبل افتضاحًا كافيًا، وعندئذ ندت عن صديقتها زفرة تنبي عن رضى واضح. بل لعلها كانت

تنبي عن ارتياح تام؛ لأن كل شيء على ما ينبغي أن يكون.

ولم تكن الليدي حائقة عليهما -فهما على يقين تام من هذا- ولم يكن احتجابه أيامًا متوالية عنهما في مدى ستة الأشهر التالية؛ لأنها حرمت عليه الدنو منهما. فقد كان يقضي وقته خارج البيت، وكذلك أيدا. وقد يخرجان معًا في بعض الأحيان ومتفرقين أحيانًا أخرى. وكانت هناك فترات تخلو لهما الدار فيها، حتى كأن الخدم أنفسهم في «الخارج» أيضًا، بحيث أمسى الغذاء نوعًا من العلف حيثما اتفق من مخزونات حجرة حفظ الأغذية أو حجرة الطعام. وكانت مسز ويكس تذكر تلميذتها في تلك المناسبات -وهي لحظات الجوع التي تحتاج فيها إلى كل ما تستطيعه المعلمة من مساندة- أن «الحياة الحقيقية» التي يعيشها صاحبها؛ والمجتمع اللامع الذي يرتادانه بالضرورة والمسرات المعقدة التي يكاد يعجز العقل عن تقصيصها، لا بد أن تكون معالمها الحقيقية بعيدة عن متناول المخيلة ما لم يرها المرء رأي العيان. وفي إحدى المرات أدركت -رغم الصعوبات الكثيرة- أن مسز بيل أمست المبعث الأساسي لغيرة الليدي، ثم نما إلى علم الطفلة بطريقة ما أن زوجة أبيها كانت تبذل المحاولات كي تراها، وأن زوجة أبيها كانت تزعم أنها تنوب في تصرفها هذا عن أبيها، وأن أمها وقفت من هذا الأمر بأصرح عبارة موقفًا صارمًا جدًا. فالحالة -على حد قول مسز ويكس- بلغت متهى التعقد بلا شك. وقد أعاد تصويرها للموقف في ذهن ميزي تلك الصورة السعيدة التي تم بها التعارف بين السير كلود ومسز بيل. وهو أمر كانت تعود إلى الخوض فيه مع زوج أمها في أكثر من فرصة

خلال الأسابيع الأولى من إقامتها في بيت أمها، وإن لم تصرح بالكثير عنه إلى مسز ويكس. وكانت تكن شكرًا غامضًا لمسز ويكس لأنها لم تحاول كما حاولت أمها أن تستخلص منها ما حدث يوم جاء السير كلود لاصطحابها. وكان ذلك ما أسماه السير كلود إجراءات التحقيق عندما حذرها من البوح، وعندما قال لها فيما بعد أنها كانت «صديقًا» شهمًا إذا ثبتت للمحنة. ثم حدث أن سأله -لعلمها أن مسز بيل لم تتخل عنها في الحقيقة إطلاقًا- أن كان لم يزل على صلة بها، وأن كان كل شيء في الوقت الحاضر يجب أن يعتبر منتهيًا بينها وبين زوجة أبيها. وقد جرى هذا الحديث على أثر بروزه فجأة ذات يوم إلى حجرة الدراسة حيث وجد ميزي وحدها.



الفصل العاشر

كان يدخن سيجارة وهو واقف أمام النار يتطلع إلى ما في الحجرة من معدات هزيلة بطريقة جعلتها تشعر بالخجل منها. ثم قبل أن يدعها «تستدرجه» بخصوص مسز بيل أبدى ملحوظة مفادها أن «ماما» تتركهما في الواقع مفتقرتين جدًا إلى كل ما يدخل في باب الزخارف. و«الاستدراج» كلمة أخرى من كلماته، وكان مقدار ما تستوعبه من هذه الكلمات مدهشًا حقًا. وكانت مسز ويكس قد علقت مروحة يابانية ولافتين من لافتات النصوص تغلب عليهما الجهامة. وكانت تتمنى لو كانتا أوفر نصيبًا من البهجة، ولكنهما كل ما تيسر لها. ولولا وجود صورة السير كلود لكان المكان مع هذا -على حد تعبيره- في مثل سماجة الطعام البارد. وقال أيضًا إنهما ينبغي أن تحصلا على أشياء كثيرة جدًا. وكانت المربية والتلميذة منقسمتي الرأي -ولا بد من الاعتراف- بين مناقشة المواضيع التي تبدو فيها هذه الأشياء على أفضل وجه ممكن أن تيسر لهما أن تحظيا بها وبين الاعتراف بأن ما يعترى مجرى حياة الطفلة من التقلبات لا يسمح بطبيعة الحال بالاستكثار من تلك الأشياء. فهي لا تمكث في إقامتها إلا ما يكفي من الزمن لإحساسها بالافتقار إلى

أشياء معينة؛ ولكن هذه المدة لا تبلغ في طولها المدى الذي يجعلها أهلاً للحصول عليها. وكانت الطريقة التي قلب بها السير كلود ناظره في حجرة الدراسة قد أشعرتها بالضعف، كأنما هذه الحجرة لا تختلف كثيراً عن عليّة البناء الرثة التي زارت فيها شوزان آس. وبعد ذلك قال في إشارة مفاجئة إلى مسز بيل:

- أنتقدين أنها متعلقة بك حقاً؟

فأجابته ميزي:

- بدرجة هائلة.

- إن ما أعنيه هو هل تحبكِ لشخصكِ كما يقولون؟ هل هي مغرمة

بك الآن كمسز ويكس؟

وقلبت لطفلة الأمر في ذهنها، ثم قالت:

- أوه. أنا لست كل شيء في حياة مسز بيل!

وبدا على السير كلود الاستمتاع بهذه الإجابة، وقال:

- كلا. إنكِ لستِ كل شيء في حياتها.

واسترسل في الضحك بضع لحظات، ولكن هذا كان أمراً مألوفاً

لدى ميزي من قديم؛ فلم يعقها كثيراً عن الاستطراء قائلة:

- ولكنها لن تتخلى عني.

- ولا أنا أيضاً يا فتاي العزيز. فليس ذلك منها عجباً جداً؛ وهي لا

تنفرد به؛ ولكن إن كانت كلفة بك إلى هذا الحد، فلماذا لا تكتب إليك؟

- بسبب «ماما».

وكان ذلك بديهيًا؛ فأوشكت أن تبدي الدهشة لسذاجة سؤال السير كلود الذي أجابها بقوله:

- فعلاً. هذا صحيح تمامًا. ولكن في وسعها أن تحتال للوصول إليك، وثمة وسائل كثيرة جدًا لذلك. ولكن مسز ويكس عقبة في الطريق طبعًا.

فوافقته ميري على ذلك القول بلا مواربة:

- هناك فعلاً مسز ويكس. ومسز ويكس لا تطيقها.

فبدأ على السير كلود الاهتمام وقال:

- أهي لا تطيقها؟ ماذا تقول إذن عنها؟

- لا تقول عنها شيئاً مطلقاً؛ لأنها تعلم أنني لن أستسيغ هذا. أليس ذلك لطفًا منها؟

- قطعًا. لطف زائد. ولكن مسز بيل ما كانت لتحبس لسانها لاعتبار

من هذا القبيل. أليس كذلك؟

وتذكرت ميري أنها قلما تخرجت من ذلك فعلاً، بيد أنها رغبت في حماية مسز بيل أيضًا، فكانت الحماية الوحيدة التي تسنى لها أن تفكر فيها هي العذر التالي:

- أوه. إنهم في بيت أبي كما تعلم لا يبالون بهذه الاعتبارات.

فلم يزد السير كلود على أن ابتسم وقال:

- كلا. أحسبهم لا يبالون. أما هنا فنحن نبالي. أليس كذلك؟ إننا نلزم الحيلة فيما نقول. ولا أخال هذه المسألة مما ينبغي لي أن أملأ بها تفكيرك بحيث تجنحين إلى التحامل. ولكنني أعتقد أننا لا بد أن نكون على الجملة أكثر رقة هنا من بيت أبيك. ولكنني لا ألح في هذه المسألة، لأنها من قبيل المسائل التي يحررك جداً الكلام فيها. لا تقلقي على كل حال، فإني أؤكد لك أنني سأؤيدك.

وبعد لحظة ثاب وهو يدخل إلى موضوع مسز بيل وإلى استفسار الطفلة الأول، فقال:

- أخشى ألا يكون في وسعنا أن نفعل لها شيئاً كثيراً في الوقت الحاضر. وأنا لم أرها منذ ذلك اليوم، أقسم بشرفي أنني لم أرها.

وفي اللحظة التالية تخرج وجه الشاب قليلاً وهو يرسل ضحكة أقل ما تكون بلاهة، فلا بد أنه شعر بما في إعلان براءته إلى ميري من تطرف. وكان لا بد له مع هذا أن يصارحها بأن أمها بطبيعة الحال تبغض سيدة البيت الآخر، فليس في وسعه أن يذهب إلى هناك مرة أخرى برضى زوجته. وليس هو بالرجل الذي يذهب إلى هناك بغير رضاها. وتوسل إليها أن تصدقه. فتردى مرة أخرى رغم أنفه في فرط الاهتمام بالتأكيد للفتاة أنه لا يختلس الزيارة، وكان يجنح في حديثه معها إلى اتخاذ لهجة تشي بأنه «رجل خبير بأمور الحياة» مثله تماماً.. فلئن كان قد ذهب إلى بيت مسز بيل ليأتي بميري، فالوضع في هذه الحالة مختلف كل الاختلاف. أما الآن وهي في بيت أمها فأى تعلقة يتذرع بها لأمها كي يزور زوجة أبيها؟ ولا تستطيع مسز بيل بالطبع أن تأتي إلى بيت أيدا؛

فأيدا حَرِيَّةً أن تمزقها إربًا. وتذكرت ميزي بهذا الحديث عن التعلات إلى أي مدى بعيد جدًا جعلت منها مسز بيل ذريعة طيبة؛ وكيف أنه كتب عليها من هذه الناحية إما أن تكون موضع اعتماد كبير أو مصدر إحساس بالافتقار إليها. واعترف السير كلود في هذه المناسبة أن الأمور ربما أخذت وجهة أخرى فيما بعد، واختتم بقوله:

- إني واثق أنها مخلصة في تعلقها بك؛ إذ كيف يمكن أن تكون لها عن هذا مندوحة؟ فهي صغيرة السن جدًا وجميلة جدًا وبارعة جدًا. وأعتقد أنها فاتنة. بيد أننا ينبغي أن نسير في الطريق المستقيم، وأنت تعلمين أنك إن ساعدتني سأساعدك.

فانتهى من كلامه بهذا الأسلوب اللطيف من التآخي وخطاب الند للند، الذي لا يشبه في شيء الأسلوب المستشرف، مما جعل الطفلة مستعدة أن تواجه أيما شيء في سبيله. وكان جمال هذا الأسلوب - كما أحست به إحساسًا غامضًا - أنه أقرب إلى التغاضي عن حادثة سننها منه إلى النزول الخادع إلى مستوى هذه الحادثة.

وأورثها هذا لحظات من النشوة الخفية. لحظات آمنت فيها أنها تستطيع أن تساعد فعلًا. وكان ما استغلق عليها وحده في ذلك كله هو تلك الفترة الخطيرة من العمر التي يسميها من هم أكبر منها في أحاديثهم باسم حادثة السن أو الشباب. فها هو السير كلود يعتبر مسز بيل «حديثة السن»، على نحو ما تعتبر مسز ويكس السير كلود صغير السن، وهي صفة من بين المزايا التي تمتدحها فيه مسز ويكس. فماذا يكون إذن من أمر ميزي نفسها، ومماذا يكون - إذا نظرنا إلى المسألة

من جانب آخر - من أمر «ماما»؟ واستغرقت بعض الوقت كي تدرك مستعينة بتجربة أو اثنتين - أنه لا يستحسن الكلام عن شباب «ماما». بل ذهبت ذات يوم إلى حد أنها تساءلت وهي في حضرة لون تلك السيدة الكثيف وخطوطها الواضحة - هل من الممكن أن يخطر لأحد سواها أن يتكلم عن شبابها. ولكنها إن لم تكن شابة، فهي إذن عجوز. وقد ألقى عليها زوجها من رجل ينتمي إلى جيل غير جيلها ضوءاً غريباً، ومستر فارانج أسن منها أيضاً. فهذا أمر تعرفه ميزي تمام المعرفة، وقد أدلا بها ذلك تأدياً طبعياً إلى إدراك مبلغ كبير «بابا» حتماً في السن بالنسبة لمسز بيل، ما دامت مسز بيل أصغر سنّاً من السير كلود. وكان من شأن هذه الاكتشافات أن تبلبلها وتذهلها بعض الشيء: فهؤلاء الأشخاص فيما يبدو ليسوا في السن التي تنبغي لهم. وكان هذا على الخصوص بالنسبة لماما. مما جعلها تحس بشيء من الارتياح؛ لأنها لن تخوض مع مسز ويكس في موضوع ارتباط السير كلود بزوجته. وشعرت أنهما - ولا سيما مسز ويكس - إذ تقصران انتباههما على مشاعر الليدي الخاصة إنما تسيطر على زمامهما الكياسة بل والحرص. وكانت خاتمة محادثتها مع زوج أمها في حجرة الدراسة قولها:

- فإن لم يكن من المباح لنا أن نرى مسز بيل على الإطلاق، فذلك يتنافى مع الظاهر من اعتقادها عندما جئت لاصطحابي.

فبدأ عليه خلو ذهن وسألها:

- وماذا كان الظاهر من اعتقادها؟

- أنني جمعت بينكما!

فسألها السير كلود:

- وهل كانت تعتقد ذلك؟

وعجبت ميزي لسرعة نسياته هذه المسألة، وقالت:

- كما جمعت بين أبي وبينها. ألا تذكر أنها قالت هذا؟

فتذكر السير كلود وانطلق في عاصفة من الضحك:

- أوه. نعم. هذا ما قالته!

فاستطردت ميزي تقول بصراحة:

- و«أنت» أيضًا قلت هذا!

فاسترجع في مرح متزايد تلك المناسبة برمتها، ورد عليها وكأنهما يتلهيان بلعبة:

- و«أنت» أيضًا قلت هذا!

- إذن هل كنا جميعًا مخطئين؟

وتروي قليلاً ثم قال:

- لا. لم نكن مخطئين على الجملة. وأحسب أن هذا ما صنعه أنتِ فعلاً.. فنحن معاً. وهو أمر في منتهى الغرابة حقيقة وهي تفكر فينا أنا وأنت - وإن كنا لا نلتقي. ولا شك عندي في أنك ستجدين كل شيء على ما يرام عندما تعودين إليها.

فقالت ميزي لاهثة وكأنما تشبث فجأة بالحاضر السعيد:

- وهل أنا موشكة أن أعود إليها؟

ويبدو أن هذا السؤال ثابت بالسير كلود إلى الجد برهة. ولعله قد أشعره بعبء الوعد الذي أعرب عنه، ثم قال:

- أحسبك ستذهبين يومًا ما! أمامنا فسحة من الوقت.

فقلت ميري وقد انتابها إحساس عظيم بالجرأة:

- أمامي قدر هائل؛ كي أعوض به ما فاتني.

- قطعًا. ويجب أن تبدلي كل ساعة من الوقت في ذلك. وسوف «أتولى» ضمان تحقيقه!

وكان كلامه هذا مشجعًا، فقلت لتظهر له سرورها بهذه الطمأنينة:

- هذا ما تتكفل به مسز ويكس أيضًا.

فقال السير كلود:

- أوه. نعم. أنا ومسز ويكس متآزران.

فأمعنت ميري النظر قليلًا في هذه الصورة القوية، ثم هتفت:

- إذن صنعت أنا بك وبها ذلك أيضًا: جمعت بينكما!

فضحك السير كلود وقال:

- هذا ما صنعتِه ولا مرأء! وقد أفلحت في هذا غاية الفلاح. لقد

فعلت «لنا» الكثير! والآن لعلك تستطيعين - كما اقترحت فيما تعلمين

ذلك اليوم - أن تدبري أمري والدتك!

وتعجبت الطفلة قائلة:

- أجمع بينك و«بينها»؟

- ليس أمرنا جميعاً على الإطلاق. ولكن ما كان ينبغي لي أن أفضي إليك بمثل هذه الأمور، ولا سيما أنه لن يكون في وسعك أن تصلحي الأمر. ليس ذلك في مقدورك يا فتاي العزيز.. فلسوف يعضلك هذا. ولكن لا بأس.. سنواصل شق طريقنا. وأهم ما في الأمر أننا أنا وأنت على ما يرام.

فرددت ميزي عبارته بإخلاص جم:

- «نحن» على ما يرام!

ولكن في اللحظة التالية سألته في ضوء ما قاله لها:

- ولكن كيف يتسنى لي أن أتركك؟

وكانها ينبغي أن ترعاه على نحو ما. فكافأها على قلقها بابتسامة وقال:

- لا حاجة بكِ إلى تركي! لن يصل الأمر إلى هذا.

- أتعني أنني حين أذهب ستذهب معي؟

فراوغ السير كلود في رده قائلاً:

- ربما ليس «معكِ» بالضبط، ولكنني لن أكون بعيداً عنكِ؟

- أعترف أنني لست أدري!

- ولكن من أين لك أن تعرف إلى أين قد تأخذكِ «ماما»؟

فضحك مرة أخرى وقال:

ثم خطرت له فكرة وإن كانت متطرفة في هزلها شيئاً ما:

- سيكون عليك أن تتكفلي.. بأنها لا تأخذني إلى أبعد مما يجب.

فتساءلت ميزي في دهشة:

- وكيف أستطيع ذلك؟

ثم قالت ببساطة شديدة:

- إن «ماما» لا تبالي بأمرى مبالاة حقيقية.

وكانت قصتها الصغيرة برمتها، رغم طفولتها؛ في هذه الكلمات.
وكان من المستحيل أن يناقضا وكأنها من ذوي السن:

وجاء صمت السير كلود إقرارًا بذلك الذي قالت. وكانت لهجته
أدل على هذا حين أجابها بعد قليل:

- هذا لن يمنعها - بين الحين والحين - من أن تتركني معكِ.

فسألته بلهفة:

- إذن سنعيش معاً؟

فأجابها السير كلود باسمًا:

- أخشى أن هذه ستكون الفرصة الحقيقية لمسز بيل.

فهبطت لهفتها شيئًا طفيفًا عندما سمعت ذلك، وتذكرت قول مسز
ويكس أن المسألة كلها معضلة خارقة للعادة، وقالت:

- فرصتها الحقيقية كي تستردني؟ ولكن أليس في وسعك أن تأتي
لتراني هناك؟

- ربما.

ومع أن ميزي كانت قد فقدت بعض عناصر طفولتها، إلا أنها

احتفظت بتفضيل الطفولة الكامل للوعود المحددة فألحت عليه في القول:

- إذن «سوف» تأتي.. ستأتي كثيرًا. أليس كذلك؟

وفيما هي تقول ذلك فتح الباب وعادت مسز ويكس. وعندئذ لم يجبها السير كلود بل رمقها بنظرة أسكتتها وأشعرتها بالحرج.

ولما وجد خلوة أخرى مناسبة - وقد اتفق أن استغرق ذلك بعض الوقت - استأنف حديثه من حيث انقطع بالضبط قائلاً:

- الواقع يا عزيزتي أنه إن كان أن أذهب إليك في بيت أبيك، فليس الوضع كذلك بالنسبة لقدم مسز بيل إليك هنا.

ووافقت ميزي وهي غارقة في التفكير على هذا الرأي، وإن كانت رغم شعورها بالفرق عاجزة عن أن تحدد بالضبط كنه هذا الفرق. وشعرت بمدى ما جنبها زوج أمها - على حد قوله بدعابته المألوفة - من مؤونة الاهتداء إلى هذا الفرق إذ قال:

- ربما تسنى لي أن أذهب لدى مسز بيل من دون علم والدتك.

وحملت ميزي لما أثارته هذه العبارة فيها من عناصر «الدراما» وقالت:

- ولكنها لا تستطيع أن تأتي إلى هنا من غير أن تكون «ماما»..؟

وعجزت عن نطق الكلمة التي تعبر عن مرادها بشأن «ماما».

- ذلك أن مسز ويكس يا طفلي العزيزة حريّة أن تخبرها.

فاحتجت ميزي قائلة:

- ولكنني كنت أحسب مسز ويكس وأنت..

فسايرها السير كلود في القول:

- رفيقي سلاح؟ نعم، في كل شيء إلا فيما يتصل بمسز بيل. وأن كنت بصدد أن تقترحي عليّ أن تخفي زيارتها المسترقة على نحو ما عن مسز ويكس..

فقاطعته ميري بدورها في حزم قائلة:

- أنا لست أقترح «هذا»!

فتطلع إليها السير كلود وكأنه يدرك حقاً سبب ذلك، وقال:

- كلا. فهذا سيكون مستحيلاً حقاً.

وعندئذ عَنَّ لها من هذه النظرة إلى ما قد يستطيعان إخفاءه أول إدراك استشفت به أول لمحة صغيرة من خلة لم تكن تتوقع أن تكون فيه، وقد مرت عليها أوقات كانت تبذل فيها قصارى جهدها لتتحمل إحساسها بأنها مخادعة شخصياً. ولكن لم يبدر منها على الإطلاق التفكير في إخفاء شيء يتجاوز مجال الخواطر. وهي الآن بطبيعة الحال قد أخفت ذلك الخاطر الذي يدور حول دهشتها من رؤيتها «له» يخفي شيئاً. وفيما هي مشغولة النفس بهذا الأمر؛ استطرد قائلاً:

- ثم إنني كما تعلمين لا أخاف أباك.

- وتخاف أمي؟

فأجابها السير كلود قائلاً:

- جداً يا صاحبي العزيز!

الفصل الحادي عشر

ولا ينبغي أن يسبق إلى ذهننا أن فترات صمت فخامة الليدي لم تكن مقرونة بحملات من نمط آخر، ألا وهي الدخول بهيئة الظافر، ثم السكوت الذي تحتبس فيه الأنفاس وهي تلقي نظرة فاحصة على كل شيء في الحجرة ابتداء من حالة السقف إلى حالة مقدم حذاء ابنتها، وكانت نظراتها تلك حافلة بالنيات. وكانت تجلس في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تجوس أنحاء المكان جائشة النفس، ولكن سلوكها في الحالتين كان يتخذ السمة العملية المتعالية. وكانت تجد الشيء الكثير مما تأسى له وتخلف وراءها شعورًا بتوقع الشيء الكثير، وتموج بالتقديرات والتدبيرات حتى يبدو أنها تنشر الإصلاحات والتعهدات. لقد كانت زيارتها بمثابة عتاد؛ وأسلوبها - كما قالت مسز ويكس عنه - بمثابة ستارين، بيد أنها كانت ميالة بطبعها للتطرف: تكتفي في بعض الأحيان بالتحدث إلى طفلتها؛ وفي أحيان أخرى تضم عودها الغض إلى صدر لاحظت مسز ويكس أيضًا أن فتحة ثوبه شديد الانحسار. وهي على الدوام على عجلة مخيفة من أمرها. وقد لوحظ أنه كلما

زاد انحسار فتحة الصدر كان ارتباطها بسرعة الذهاب أشد إلحاحاً عليها. وكان حضورها المفاجئ في العادة بمفردها، ولكن السير كلود كان يصحبها أحياناً. ولم يكن في هذه الزيارات في مدتها الأولى ما يشير الحبور بمظهره مثل ما كان يبدو على الليدي - كما قالت مسز ويكس - من أنها كالمسحورة. وكانت ميري تصيح مثيرة في تأمل إلى ذلك التعليق المألوف بعد أن يكون السير كلود قد جرف «ماما» ليخرجها وهما يطلقان ضحكات طبيعية مجلجلة:

- أليست حقاً مسحورة؟! -

فلم يسبق لها أن سمعت ولا حتى في الأيام الخوالي على عهد السيدات المختلجات، أمها تضحك بهذه الطلاقة كضحكتها في لحظات انقيادها الزوجي هذه، وفي مرح استطاعت حتى الفتاة الصغيرة أن تبين حقها فيه آخر الأمر، تلك الفتاة الصغيرة التي كان كل تفكيرها الآن منصباً على تأمل البشائر والمرح الذي تنتظر سنوحه في أنانية قريبة. وفي الأوقات التالية حين تأتي بمفردها كانت أيدا تتخذ لهجة محيرة ومقتضبة في ظاهرها - رغبة منها في تغيير سلوكها لمواجهة ما طرأ على الظروف من تغير - لهجة من نزلت نزولاً كلفها ثمناً باهظاً عن كل شيء للسير كلود وتريد من الآخرين أن يعلموا أنه إن لم يكن كل شيء على ما يرام؛ فلأن السير كلود غامض غاية الغموض.

وفي إحدى المناسبات قالت لميري:

- لقد أثار في أول الأمر شجاراً هائلاً بسببك، حتى إنني قلت له أن يتولى أمورك بنفسه، ويرى إلى أي حد سيروقه هذا. أترين؟ لقد

غسلت يدي من وزرك. لقد تخلّيت له عنك. فإن كان هناك ما يسخطك فعليه هو من فضلك ينبغي أن تنحى بالملام. فلا تتجهي باللوم إليّ «أنا» المسكينة. فلديّ -أوكد لك- من المكدرات ما يكفيني.

وكان واضحًا من بين هذه المكدرات تعرض ذلك السحر الذي كان موضع استمتاع كبير حول نار حجرة الدراسة لخطر التحطيم. ومنها أيضًا أنها صارت مجبرة في النهاية على الاعتراف بعدم جدارة زوجها بمواجهة المسؤوليات الحقيقية. ثم جاء اليوم الذي عرفت فيه سامعتها المذهولتان وقد حبستا أنفسهما أن خطبه الحقيقي ببساطة هو افتقاره للأسف إلى الجد. وبكيت ميري على صدر مسز ويكس بعد أن سمعت أن السير كلود نزق كالفراشة. وراحت إلى جانب هذا تفكر فيما خرجت عليها مربيتها في غضون بضعة الأيام التالية من تبرير جزئي قائلة إنه مما يتفق و«مقامه» أن يكون طليقًا غير مكترث. وهما صفتان توافقان مقام كل إنسان التقت به حتى الآن، فيما عدا مقام مسز ويكس نفسها. ومزية السير كلود البارزة أنه كان يبدو مختلفًا عن سائر الناس. وبمرور الوقت راحت تتحدث إليه بحرية تامة عن أمها، فهي تشعر في هذا الصدد معه بانتفاء الخوف الذي كان يلزمها الصمت أمام أبيها، ألا وهو الخوف من نقل الأقاويل وزيادة الأمور سوءًا على سوء. وأبدى إقراره لمساءلة اضطلاعها بشؤونها وجعلها -على حد قوله- خدينه الخاص الأثير لديه. ووافق أيضًا على أنه غشاش فظيع وحيوان تافه كسول شديد الحماقة. ولم يقل لها مطلقًا كلمة واحدة ضد أمها. بل ظل متبذلًا ثابت الهمّة في مواجهة حدة الليدي البالغة الجد. وكانت ثمة مناسبات كان يتحدث

فيها وكأنه انتزع ربيته الصغيرة انتزاعاً من بين ذراعي شخص ناضل في سبيلها بالظفر والناب.

وكان هذا هو المغزى الصحيح لمشهد شجار اندلع لظاه ذات يوم، عندما كان الأربعة مجتمعين بالصدفة، وليس معهم أحد في حجرة الاستقبال، ووجدت ميزي نفسها وقد ضمت بشدة إلى صدر أمها التي راحت تتحب بحرقة وتصرخ فوقها، وقد صارت موضوعاً لحملة لا بد أنها جاءت على أثر مناوشة حادة وقعت لتوها. وقد اقتضاها المنطق في هذا الموقف أن تقول عن الطفلة وهي بين أحضانها كلاماً فظيماً يوغر الصدر وهي تندد بالسير كلود، وترميه بأنه سبب هذا الانتهاك، فتصرخ قائلة:

- لقد أخذك مني. لقد غرس فيك العداة لي. واستطاع أن يكسبك لجانبه وتسمم عقلك الصغير الشع! لقد انحزت إليه وصرت في صف أعدائي تضرمين لي بغضاء. فأنت لم يحدث منك إطلاقاً أن فتحت فمك معي -وأنت تعرفين هذا جيداً-، ولكنك تثرثرين معه كأنك سرب كامل من طيور العقعق. لا تكذبي في هذا الخصوص فأني أسمع صوتك في كل مكان. وتعلقين به وتلازمينه بطريقة تكاد تتنافى مع الاحتشام. ففي مقدوره أن يصنع بك ما يشاء. ليكن له ذلك، ما شاء له هواه. لقد كان متلهفاً على الاستيلاء عليك، وسنرى إلى أي حد يروقه أن يحتفظ بك. وإنها لطيبة قلب مفرطة من جانبي أن أحطم فؤادي كمدًا عليك وأنت لا شعور لك من نحوي يزيد عن شعور سمكة صغيرة لازجة!

وفجأة دفعت الطفلة بعيداً عنها في حركة اعتراف متقزز بالفشل.

فاندفعت الفتاة عبر الحجرة إلى أحضان مسز ويكس التي لاحظت
ميزي في تلك اللحظة -بل وهي وسط دوامة عبور الحجرة- أنها
محمرة الوجه جداً، وتتبادل مع السير كلود نظرة سريعة.

وبقي لديها أثر هذه النظرة التي رفعت عنها بما تحمله من نقد
لانفجار غضب أمها -حتى لقد تضاعل إحساسها بالخزي لما تجشمتها
من تعنيف مقرون بالنبذ. لقد رماها أبوها ذات مرة بأنها حيوان صغير
لا قلب له. وها هي الآن -على الرغم من فزعها الواضح- متصلبة
الأوصال باردة كأن هذا النعت منطبق عليها حق الانطباق؛ فلم يبلغ من
ارتياحها أن تبكي، وكان البكاء حرياً أن يكون الضريبة التي تستحقها
إساءات أمها. ولكن الصفة الغالبة عليها كانت الفضول إلى معرفة
الرأي الصامت الذي عبر عنه رفيقاها. وقد انتهزت أول فرصة سنحت
لها، فسألت مسز ويكس في ذلك الصدد، فحصلت منها على الإجابة
الغريبة التالية:

- إنها يا عزيزتي لعبة فخامة الليدي التي تتلهى بها. فيجب علينا أن
نثبت مستميتين في المقاومة.

وكان في مقدور ميزي أن تتأول هذه الكلمات المنذرة بالشر على
مهل. وكانت خواطرها في الواقع في تلك الفترة تتكاثر تكاثراً حثيثاً.
ومن هذه الخواطر تأكد لديها أن مربيتها تتبادل سرّاً أحاديث جادة غير
قليلة مع زوج أمها المفترى عليه. وفطنت في ضوء حادث آخر أن شيئاً
ما بعيداً عن متناول علمها وقع في البيت. والأشياء التي تتجاوز نطاق
علمها -وما أكثرها في الحقيقة- لم تكن حتى الآن تعتقد أنها أقرب

الأشياء إليها؛ إذ كانت فيما مضى تعتقد اعتقاداً متيناً أن في يدها طرف الخيط دائماً وسط هذا التيه العائلي. وقد استطاعت أن تكتشف هذا الأمر أخيراً بمساعدة مسز ويكس لها مساعدة مستورة: فقد سحبت منها فجأة رعاية السير كلود لها. إذ كان تعقيبه على لعبة الليدي هو إقدامه في الحال على السفر بمفرده إلى باريس. ولا بد أن الدافع له على هذا رغبته في إظهار التحدي بعد أن اتهم بسوء السلوك. وشعرت ميزي أنه قد يكون مغرماً بابنة زوجته، ولكنه لا يريد أن يلقي بها على كاهله بهذا الشكل. فمن الواضح أن غيبته كانت احتجاجاً على هذا الإلقاء بها عليه. وفي غضون امتداد هذه الغيبة استطاعت فتاتنا الصغيرة أن تكتشف أخيراً أن ما حدث في البيت هو أن أمها لم تعد عاشقة.

لقد صح لديها أن أمها وصلت في شغفها بالسير كلود إلى نهايته قبل اليوم الذي دخلت فيه فخامتها مندفعة فجأة إلى حجرة الدراسة ببضعة أيام كي تقدم مستر «بريام» الذي لم يصدق أذنيه -وهي تعلن مقدمه إلى ميزي وهي واقفة عند الباب- إذ سمع أن لها ابنة كبيرة بهذا الشكل. وكان مستر بريام قصيراً ركيناً -وقد قالت مسز ويكس بعد ذلك أنه «لا تسمح له بدانته المفرطة بالسير الحثيث»-، وكان من العسير أن يقرر المرء أيهما أظهر للعين صلته أم كثافة شاربه. وكأنما كان له أيضاً شاربان فوق عينيه. ولكن هذين الشاربين لم يحولا على الإطلاق بين هاتين الكرتين الصغيرتين اللامعتين والدوران في الحجرة كأنهما كرتا بلياردو دفعتهما إحدى ضربات أيدا المشهورة. وكانت تزيد يد مستر بريا التي يجذب بها شاربه ماسة يخطف بريقها الأبصار. وبسبب هذا

البريق الخاطف وثقل وزنه عمومًا وخفاء أمره قالت فتاتنا الصغيرة عند انصرافه أنه لو كان معتمًا بعمامة لكان صورة مطابقة لتصورها لرجال الأتراك.

فأجابتها مسز ويكس:

- إنه صورة طبق الأصل لفكرتي عن اليهود.

فقالت ميزي:

- إني أعني على كل حال شخصًا قادمًا من الشرق.

- لا بد أن يكون قادمًا من هناك. إنه من رجال حي الأعمال.

وبعد برهة استطردت قائلة وكأنها تعرف كل شيء عنه.

- إنه من أولئك الذين هبط عليهم الشراء أخيرًا فجأة. إنه سيكون

فاحش الغنى.

فسألتها الطفلة باهتمام:

- على إثر وفاة والده؟

- لا يا عزيزتي. ليس غناه عن طريق الوراثة. إن ما أعنيه أنه جمع

مالًا طائلاً.

فسألتها ميزي:

- كم يبلغ ذلك في رأيك؟

ففكرت مسز ويكس، ثم قالت بصورة مجاملة:

- ملايين كثيرة.

- مائة مليون؟

ولم تكن مسز ويكس واثقة من العدد، ولكن كان هناك من الملايين حسبها للتدفئة في الوقت الحاضر في حجرة الدراسة الفقيرة، ولكي يتخلف هناك وهج خافت من بقايا ذلك النور القوي الذي صبه في الحجرة مستر بريام. وهذا النور من جانبه بلا شك ثمرة من ثمار الاستمتاع بالحياة، ذلك الاستمتاع الذي لمستته ميري لدى مَنْ هم أكبر منها منذ سنواتها الباكرة. وهو علامة على النضج السعيد وعلى روح الألفة التي تبدو في فيض من البشر. وضحك الرجل وأوماً برأسه إلى المخلوقتين المأخوذتين قائلاً:

- كيف حالك يا سيدتي؟ كيف حالك أيتها الأنسة الصغيرة؟

واستطرد موجهاً الكلام إلى ميري:

- لقد أتت بي إلى هنا لألقي نظرة سريعة. فالحق أنني ما كنت لأسلم بوجودك من غير مشاهدة. فهي لا تكف عن الكلام عنك، ولكنها لا تظهرُك أمامنا إطلاقاً. فتحدثتها اليوم أن تريني إياك على الفور. وإني أسلم بأنك لستِ حديث خرافة يا عزيزتي. وإن كان من الممكن طبعاً أن تكوني أسطورة بكل تأكيد!

فقالت أيدا:

- لقد أضجرت به حديثي عنك يا عزيزتي. وأضجرت كل إنسان. وقد أخبرته لأثبت أنك لطيفة ومخيفة في آن واحد أنه يستطيع أن يحكم على ذلك بنفسه. وها هو الآن يري فيك مخلوقة هائلة فظيعة، ويرى في

أملك المسكينة عجوزًا في الستين على الأقل!

ورشقت فخامتها مستر بريام بابتسامة تقطر بذلك السحر الذي سمعت ابتتها وهي في بيت أبيها أولئك السادة المرحين الذين كثيرًا ما حاولوا أن يغرروا به ويعزونه إليها. وكانت هيئتها في تلك اللحظة قد أتاحت للطفلة لمحة أشد حيوية مما سنع لها أن تحظى به حتى الآن من قوة هذا السحر الذي كان والدها ينفي دائمًا - في لغة بارعة - أنها تستطيع استخدامه:

ومع هذا يبدو أن مستر بريام أقر لها به في إجابته المرحية عليها:

- أنا لم أقل مطلقًا أنك لست رائعة. هل قلت ذلك مطلقًا؟

واستشهد في ثقة لطيفة بحجرة الدراسة التي لا بد أنه شعر بأنه مطالب بأن يقول عنها شيئًا، فقال وهو ينظر حوله نظرات غامضة:

- هذه إذن حجرتهما الصغيرة؟ بديع. بديع. بديع!

فتشبث كل واحدة منهما بالأخرى كأنهما مستهدفتان شخصيًا للفحص، ولكن أيدا خفت ما بهما من حرج بهزة من كتفيها العاليتين. وكانت الابتسامة التي وجهتها هذه المرة إلى مستر بريام يقطر جمالها بأسى مفاجئ:

- وماذا في وسع امرأة فقيرة أن تصنع؟

وازدادت حركة ملامح الزائر وضوحًا وهو يواصل النظر، وازداد إحساسهما بأن حجرة الدراسة الصغيرة قد تحولت إلى قفص في معرض للوحوش. وعاد مستر بريام يقول في إلحاح:

- بديع . بديع . بديع !

ولكنَّ القوسين الذين فتحهما أغلقا فجأة بصوت مسموع . وقالت
الليدي :

- ها أنت قد رأيت . إلى اللقاء !

وقد وجهت إليه هذه الكلمة الأخيرة بحدة ، وفي اللحظة التالية كانا
يهبطان السلم . ووقفت مسز ويكس ورفيقتها في فرحة السباب تتبادلان
النظر في صمت تتراعى إليهما أصوات التيار الاجتماعي العريض الذي
حمل الزائرين عائداً بهما إلى حياتهما .

ولعله كان عجباً أن ميزي لم توجه قط بعد هذه الأسئلة سؤالاً عن
مستر بريام . وكان أعجب من ذلك أنها عرفت في مدى أسبوع كل ما
لم تسأل عنه . وأهم ما وصل إلى علمها - وقد أتاها نبوءة مباشرة من
غير أن تطلبه من مسز ويكس - أن السير كلود ليس حراً أن يكثرث
على الإطلاق لزيارات مليونير يكثر من التردد على الحجرات العليا .
وكان مدى عدم اكترائه ثابتاً من أن تكتم مسز ويكس بخصوص تلك
الزيارات أنهار تماماً . وهي الكفيلة أن تنقل ولاءها ، وأن تضحي تضحية
يائسة بالليدي على مذبح اللياقة . وكم من مرة أعلنت أنها مستعدة أن
تبذل أقصى جهدها لمؤازرتها ضد مسز بيل أما ضد السير كلود فليس
في وسعها أن تقدم على شيء إطلاقاً . وكان خارقاً للمألوف عدد الأمور
التي استطاعت أن تعرفها ميزي من غير أن تسأل عنها عندما وصل زوج
أُمها عائداً من باريس ، حاملاً إليها جهازاً بديعاً للرسم بالألوان المائية ،
وحاملاً إلى مسز ويكس - بسهولة من سهوات الذاكرة كان يمكن أن

تكون مضحكة لولا ما أحدثته من بلبلة يسيرة مظلة ثانية أكثر أناقة من الأولى، فقد نسي كل شيء عن تلك المظلمة الأولى التي لفت حولها من الأغطية ما جعلها أشبه بمومياء فرعونية، وكانت تأبى مهما كان الإغراء أن تدنسها باستعمالها. عرفت ميزي فوق كل شيء أن مسز ويكس - وأن كانت تعتبر الآن بتواطؤ غير رسمي منحازة إلى «جانب» السير كلود - لم تبح لها بكلمة واحدة عن مستر بريام. فأضحى ذلك السيد لونا من السر المزدهر الذي تتبادل المربية والتلميذة النظرات بخصوصه محاذرتين منذ عاد إليهما صديقهما. وقد عاد في إقبال شديد، ولوحظ أنه وإن كان قد تخلى عن حاجته إلى الوقوف بوقف المعارضة من تحميل كاهله بذرية سواء، إلا أنه في هذه المدة عرض نفسه أكثر من ذي قبل للظن بأنه صار يتوقع تحسناً واضحاً في أحواله.

ولئن كان قد وصل الأمر الآن بالمسألة إلى حد تحديد «الجوانب» فهناك على الأقل دليل واضح على الجانب الذي يقفون فيه جميعاً. وميزي بطبيعة الحال في مثل هذا الموقف الدقيق ليست في جانب أحد، أما السير كلود فيبدو عليه جداً أنه في جانبها. وإذا كانت مسز ويكس في جانب السير كلود، فالليدي في جانب مستر بريام، ومستر بريام - تخميناً - في جانب الليدي. ولا يبقى إلا تحديد وضع مسز بيل ومستر فارانج. ومسز بيل من الواضح أنها - شأنها في ذلك شأن السير كلود - في جانب ميزي. أما «بابا» فالمفروض أنه في جانب مسز بيل. وهنا في الواقع موضع لبس يسير: لأن وجود «بابا» في جانب مسز بيل لا يبدو أنه يجعله في جانب ابنته بالضبط. فبدت المسألة في نظر فتاتنا الصغيرة

وهي تقلبها في ذهنها أشبه شيء بلعبة معقدة. ولم يكن في وسعها سوى التساؤل هل توزيع الجوانب من شأنه أن يؤدي إلى الاندفاع جيئة وذهاباً وتغيير المواضع. وأحست أنها بإزاء تغير لا ينقطع. ولم يكن حسبها من عدم الاستقرار أن أمها وزوج أمها صاروا بالفعل في جانبين مختلفين؟ وهذا هو الشيء الهام الذي حدث في محيط الأسرة. يضاف إلى هذا أن مسز ويكس بدت في مظهر جديد. إنها لم تكن قط مرحلة بمعنى الكلمة، بيد أن تجهمها صار الآن خطة سافرة مثل الإعلانات المصققة في الشوارع. فكأنها وهي جالسة في ثوبها الجديد وتفكر في كياستها الضائعة التي أصبحت ذكرى مؤسية تكاد تلحق في تلك الصفة بذكرى المسكينة كلارا ماتلدا. وكثيراً ما قالت لرفيقتها:

- إنه لأمر شديد الوطأة عليه.

وكان من العجيب أن ميزي شعرت أن لديها الخبرة في هذه المسألة بالقدر الذي يتيح لها الاتفاق معها في هذا الرأي. كانت الوطأة شديدة حقاً، بيد أن السير كلود أظهر منتهى التجمل في تحمل هذه الوطأة بأسلوبه الاجتماعي السمو الذي ابتعث من مسز ويكس عددًا هائلاً من عبارات الارتياح؛ لأنه لم يسمح لهذه المحنة أن تملأ نفسه بالمرارة. وصار في المدة الأخيرة يكثر من التردد على حجرة الدراسة حيث بدأ يدرك بوضوح أنه وقد عهدت إليه بمهمة تقويم الطفلة البريئة فمن حقه كذلك على الأقل أن يجد في تلك المهمة تسليته. ولم يكن يدخل ذلك المكان إلا ويقول لشاغليه أنهما أطفاهل البيت. وهي ملحوظة كانت تحملهما على أن تقول كل منهما للآخرى «مستر بريام»! بأعلى صوت

يمكن أن تفصح عنه الشفاه المطبوقة والأعين المحملقة. وحمل ميزي على أن تتذكر ما قاله من قبل لمسز بيل من أن لديه طبيعة الحاضنة المجيدة، وتورطت إلى أبعد مما كانت تحب أمام مسز ويكس في إفشاء الحكاية كلها؛ إذ قالت له ذات مرة أنه ما من حاضنة من حواضنها المجيدات دخنت بهذه الكثرة في حجرة الأطفال، ولم يكن لهذه العبارة من الأثر في سجائره أكثر مما قصد منها، فظل يدخن باستمرار؛ ويؤكد على الدوام أن حرمانه من الحياة العائلية يوشك أن يقتله.

وكان بعد كل شيء يحيا نوعاً من الحياة العائلية في حجرة الدراسة. وكانت ميزي في ساعات متأخرة من المساء تعلم أنه يجلس بعد ذهابها إلى الفراش ليتحدث هناك مع مسز ويكس في الكيفية التي يواجه بها مشكلاته. وكان تقديره لتلك المرأة عاترة الجدد وهو في معمعان مشكلاته يظهره بمظهر السيد المهذب الكامل؛ فهو يرتفع بمن وجه إليها مجاملاته إلى ذروة عالية من ذرى الغبطة تضطرب فيها كبرياؤها باللهفة الصامتة، وكان حسبها أن تقول بين الحين والحين:

- إنه يتكئ عليّ. إنه يتكئ عليّ!

وقد كانت دهشتها أكبر من استرواحها عندما اكتشفت بالصدفة فيما بعد أنها أوحى إلى تلميذتها عن طريق هذه العبارة بأن شخصها كان سنداً مادياً لها. فقادها هذا اللبس إلى الإيضاح الصريح، فبسطت أمام الطفلة - في حزن حزن ظاهر حقاً على مثل ذلك النزول إلى مستوى العامة - أن ما يتحدثان فيه حتى ساعات الصباح الأولى كما يقولون هو موضوع استيلائه على ناصية الحياة استيلاء صائباً. والحياة التي تريد له

هي أن يحسن الأخذ بناصيتها هي الحياة العامة. وأبادر فأقول أنها «هي» في هذا المقام ليست سيدة مصيرة بل مسز ويكس نفسها. وكانت لها عبارات في حديثها عنه يسيرة الفهم، بيد أنها حافلة بالحكمة الخلقية: - إن له طبيعة رائعة، ولكنه لا يستطيع أن يعيش كالزنابق. وهو على ما يرام كما تعلمين، ولكن لا بد له من اهتمامات عالية.

وقد قالت لها أكثر من مرة إن أموره شديدة الارتباك، لكن يجب عليها - أي ميزي وهي معًا على ما يظهر - أن توصلاه إلى عضوية البرلمان. وأخذت منها الطفلة مأخذ التسليم وبانتفاضة أهمية زائدة أن البرلمان هو مجاله الطبيعي. وكان استعدادها لإدراك العقبات أقل من ذلك لأنها لم تسمع في حياتها قط عن أمور لأي إنسان خالية من الارتباك. فهي قد سمعت ذات مرة في الأيام الخوالي أن أمورها الخاصة مرتبكة. ولما كان هذا القول قد أنعشها؛ لأنها أدركت منه أن لها «أحوالاً»، فهي لذلك لم تشعر بالضيق على الإطلاق. والحقيقة التي قد تكون مفزعة بعض الشيء أنها لم تسمع بعد ذلك بشيء في هذا الخصوص. وكان البرلمان مطمئنًا حافلًا بالسحر على أي حال إذ تفكر في وصول السير كلود إليه يومًا من الأيام، ولا سيما بعد أن ذهبت مسز ويكس - على أثر مزيد من المناقشات في منتصف الليل - إلى حد القول بأنها تعتقد أن هذا هو كل ما يلزم لإنقاذه. فكأنما كانت محدثتها وقد خرجت عليها بهذه الكلمة غائصة، ثم طفت على السطح في موضع آخر على نحو ما تفعل «ماما» في كلامها. فحملت الطفلة وكأنها تنظر إلى كنغر وثب أمامها فجأة، وسألته:

- إنقاذه من ماذا؟

ففكرت مسز ويكس، ثم غاصت إلى مسافة أبعد، وقالت:

- من الفاقة الفظيعة بالطبع.



الفصل الثاني عشر

ولم تكن قد شرحت في حينه حديثها الحافل بالندر، بيد أن هدوء الأحداث البارزة سرعان ما أتاح لرفيقها أن تتبين فحواه. فقد يحق لنا أن نقول إن تلك الأيام تسببت في إذكاء ما أوتيته ميزي من قدرة على الإدراك المباشر ومن إحساسها بحريتها في تفهم الأمور بنفسها، وقد أعانها على ذلك شعور لا يمكن أن يوصف في حد ذاته بالعدوثة، ألا وهو الشعور ببوادر الخطر التي كانت تحتل جانبًا كبيرًا من خواطرها. فلم تكن بحاجة إلى مَنْ يقول لها - كما قالت لها مسز ويكس غداة تكشف الخطر المحدق بالسير كلود- إن أمها تزداد لهفة بمضي الوقت على معرفة السبب الذي عاق -بحق الشيطان- أباهما عن الإرسال في طلبها؛ لأنها منذ زمن طويل جدًا كانت تتوقع أن يفصح فضول أمها في هذا الصدد عن نفسه بشدة. وكان في استطاعة ميزي أن تواجه مثل هذا الضغط ما دامت مواجهته لها أن تعجب بكلمات من وحي اللحظة بأن والدها يفضل أن يُشنى قبل أن يسمح بإلقائها على كاهله. وتبينت عندئذ وجه تلك الساعة التي كثيرًا ما رأتها قبل حلولها بوقت طويل في لمحات مضطربة، ألا وهي الساعة التي تذكر أن التعبير عنها صدر من

مسز بيل، وفيها تجد نفسها ولها أبوان وأمان وبيتان، وعدة هؤلاء الرعاة
لشأنها ستة، فلم تعد تدري «أيان» تذهب. ولم يقلل من الخوف الذي
استشعرته بإزاء ذلك الخطط أن مسز ويكس نفسها انتابها الفزع فجأة،
مما جعل ميزي تدرك بمزيد من اليقين أن تلك السيدة ينتابها الرعب على
مصير نفسها أكثر مما ينتابها على مصير تلميذتها، فالمربية التي ليس
لديها إلا ثوب واحد ليس من المحتمل أن يكون لها أبوان وأمان. فلتن
كانت ميزي مهددة ولديها هذه الموارد أن يلقي بها في عرض الطريق؛
فماذا يكون - بحق كل ما هو فظيع - مآل مسز ويكس المسكينة؟ لقد
وقع فيما يظهر بينها وبين أيدا احتكاك هائل، انتهى بأن طلبت إليها أن
تفضل على الفور بحزم متاعها، وهكذا تمت فجأة آية السوء التي كانت
تخشأها. وتكاشفت الرقيقتان بمخاوفهما التي كانت كل واحدة منهما
تخفي في نفسها أسوأ وجوهها، بيد أن مسز ويكس كانت أحسن حالاً
من حيث إن لديها خطة دفاعية أثبت في الواقع أن تفضي بها إلى أن يكتمل
لها النضج؛ إلا أنها في الوقت نفسه سارعت إلى الإفصاح عن رسوخ
أقدامها في حجرة الدراسة؛ بحيث لا يمكن اقتلاعها إلا قسراً: فهي
ربما «رحلت» انصياعاً لتدخل الشرطة، ولكنها لن ترحل تحت ضغط
الإساءة فحسب؛ لأن ذلك من شأنه أن يخدم أغراض الليدي؛ فحملها
على التخلي عن عزيزتها يحتاج إلى جهد يفوق ما حدث بالفعل أضعافاً
مضاعفة. وكانت حملة الليدي بالغة العنف، وذلك عرض من أعراض
كثيرة تنبئ عن توتر الموقف - على حد قول مسز ويكس:

- بينهم جميعاً. ولا سيما بين الاثنين.

توتراً الله وحده يعلم مداه وإلى أي شيء يؤدي.

ولكن وصفها هذا للأزمة جعل الطفلة تتأرجح في تفكيرها:

- بين أي اثنين؟ بين بابا وماما؟

- كلا بالطبع. بل أعني بين ماما وبينه «هو».

ووجدتها مизи فرصة سانحة للمكر فقالت:

- «هو»؟ مستر بريام؟

فدفعت هذه الكلمة منها بحمرة الحياء إلى الوجه المرتاع.

- لا بد لي يا عزيزتي أن أقول لك إن ما «لا» تعرفينه لا يستحق

الخوض فيه. وإن الحال لن يدوم إلى الأبد مع مستر بريام. ثم - ما دام لا

بد من إجابتك - مَنْ الذي يدري؟ إنما عنيت عزيزنا السير كلود.

وكان شعور مизи بتصحيح تفكيرها أكثر من شعورها بالردع.

- فهمت. ولكنه غاضب بسبب مستر بريام؟

وتريثت مسز ويكس قبل أن تقول:

- إنه يقول إنه ليس غاضباً بسببه.

- ليس غاضباً؟ هل قال لك هذا؟

فنظرت إليها مسز ويكس نظرة قوية وقالت:

- ليس غاضباً «بسببه».

- إذن فهو غاضب بسبب شخص آخر؟

وازدادت نظرة مسز ويكس إليها قوة وهي تقول:

- بسبب شخص آخر.

فهتفت الطفلة على الفور:

- «اللورد أريك»؟

فازداد اضطراب مربيتها فجأة، وقالت:

- ولماذا أيتها الصغيرة التعسة نتناقش في أسمائهم الكريهة؟

وألقت بنفسها للمرة المليون على عنق ميزي. ولم يستغرق الأمر من تلميذتها سوى لحظة كي تشعر بأنها ترتجف من فرط التوجس، فأدى التلامس بين فرعيهما بالاثنتين إلى الانتحاب بعد لمحة واحدة، وكل منهما تحتضن الأخرى. فلما هدأت أعصاب مسز ويكس تمامًا، وقد أصابها من الوهن في روحها ما لم يصبها قط من قبل، سمحت لجرحها أن ينزف دمه ولاستيائها أن تتفجر يناييعه وكان أشد ما يحز في نفسها أن أيدا رمتها بالغش ونددت بريائها ونفاقها وتجسسها ونميمتها وكذبها على السير كلود وتزلفها إليه. وأخذت المرأة المسكينة تولول:

- أنا. أنا التي رأيت ما رأيت وتحملت كل شيء لأتستر عليها وأسري عنها وأهدئ من نائرتها؟ فلئن كنت مرائية، فلأني فعلت عكس ما رمتني به، إذا دعيت له ولها ولنفسي ولك ولكل إنسان أني «لم» أر شيئًا. وإنني لا أستحق ما حاق بي؛ لأنني عقلت لساني أمام هذه الفظائع. وأبت رفيقتها أن تضيق عليها في الاستفسار عن كنه هذه الفظائع؛ بل وأظهرت لها استعدادًا غير يسير لأخذها مأخذ التسليم، مما زاد في إحساس الاثنتين بأنهما -أكثر من أي وقت مضى- في زورق

واحد وسط هذا البحر المضطرب بحيث صار في مقدور ميزي وهي تشعر بوجود أفكار معينة في ذهن زميلتها في الملاحظة أن تجلس عن كذب وتنتظر. وفي اليوم التالي جاء السير كلود ليتناول الشاي معهما، وعندئذ تكشف تلك الأفكار. ومن العجيب أن وجود الطفلة أمد تلك الأفكار بكامل قوتها. وكانت الفكرة الرئيسة مثيرة للدهشة، ولكن ميزي قدرت شجاعة مربيتها في علاجها لها. وهي ببساطة عبارة عن اقتراح بأن يشاركهما السير كلود ملاذهما حينما وأيضا تضطربهما الظروف ليجاذب موئل آخر. ولما احتج بكل حرارة على هذه اللهجة المؤذنة بالانشقاق أجابته بأنه لم يبق سوى هذا أمامهما إن توقفت الليدي عن إمدادهما بما يعولهما، فقال صديقهما الحبيب:

- سحقا لتلك الموارد أيتها المرأة العزيزة! دعي أمر هذا لي. فسأتولى أنا إمدادكما.

فانبرت له مسز ويكس قائلة:

- ولأني أعلم أنك ستكون سعيدا بذلك، وضعت المسألة أمام نظرك فثمة طريقة لرعايتنا تفضل سائر الطرق الأخرى. ألا وهي أن تأتي معنا.

وارتسمت طريقة مسز ويكس أمام عيني ميزي، وكأنها صورة متلاثلة، فراحت تصفق بيديها في انتشاء وتقول:

- تعال معنا. تعال. تعال!

فراح السير كلود ينقل بصره بين ابنة زوجته ومربيتها، وقال:

- أتعنيان أن أعادر هذا البيت ويستقر قرارى معكما؟

فقال مسز ويكس وقد ارتفعت روحها المعنوية واشتد أزرها
فصارت واضحة في تعبيرها بغير خفاء:

- هذا هو السبيل القويم، إن كنت تشعر بما حدثتني أنك تشعر به.

وبدا على السير كلود أنه يحاول استرجاع ما حدثها به، ثم أشرق
وجهه بذلك الضياء الذي يزيده حسناً كلما أشرق:

- أهى فكرتك الموفقة أن أتخذ لكما مسكناً؟

- أن تتخذ مسكناً للطفلة المسكينة التى لا بيت لها، وأيما سقفاً
يظل رؤوسنا فهو حسبنا. أما بالنسبة لك أنت فلا بد بالطبع أن يكون
شيئاً أنيقاً حقاً.

وارتدت عينا السير كلود إلى ميزى بنظرة قوية -فيما خيل إليها-
وبدا لها فى ابتسامته نفسها ما يوحى إليها -وإن لم توح إلى مسز ويكس-
أن هذه المعدات المنشودة لا بد أنها تلوح له من الجسامة بمكان. ومع
ذلك أخذ فى اللحظة التالية يضحك بجذل واضح وقال:

- إنك يا سيدتى العزيزة تبالغين مبالغة هائلة فى تصور احتياجاتى
اليسيرة المتواضعة.

وكانت مسز ويكس قد ذكرت لصديقتها الصغيرة من قبل أن السير
كلود يستطيع أن يصنع بها ما يشاء عندما يناديها «يا سيدتى العزيزة»،
وشعرت ميزى بشيء من اللهفة إلى معرفة ما سيصنعه بها الآن. بيد أنه
لم يزد على أن وجه إليها ملحوظة كانت الطفلة نفسها مدركة لوجاهتها:

- خطتك تروقني إلى حد بعيد جداً. ولكن ألا ترين أنه يجب عليّ بالطبع أن أتدبر الموقف الذي أضع نفسي فيه إذ أفارق زوجتي؟
فأجابته مسز ويكس قائلة:

- وعليك أيضاً أن تتذكر أنك ما لم تأخذ حذرك، فلن تترك زوجتك لك وقتاً للتدبر، ففخامتها هي التي ستفارك «أنت».
فأجابها الشاب في حين مدت ميزي يدها من جديد إلى الخبز والزبد:

- آه يا صديقتي الطيبة إنني آخذ حذري! وإذا حدث ذلك بالطبع فسيكون عليّ أن أغير اتجاهي. ولكنني أتمنى من كل قلبي ألا يحدث ذلك.

واستطرد موجهاً الكلام إلى ابنة زوجته:

- وأستمحيك العفو لما يبدو علينا من مناقشة مثل هذا الاحتمال تحت أنفك الصغير الحاد. والحقيقة أنني «أنسى» نصف الوقت أن أيدا هي والدتك المقدسة.

فقالت ميزي وفمها ملاّن بالخبز والزبد لتؤيده فيما ذهب إليه:

- وكذلك أنا!

وما إن قالت هذا، حتى انقضت عليها حاميتها تحتضنها مرة أخرى:

- يا للصغيرة المنكودة المحبوبة.

وظلت بقية المحادثة وذراعا مسز ويكس تطوقانها. وأخذ السير كلود وهو جالس أمامها وفي يده فنجان الشاي ينظر إليهما وهما

متوشجتان في تفكير عميق. ومهما بلغ من محاولتهما للانكماش معًا لم يكن في وسعهما -فيما شعرت به ميري- إلا أن تبدو صورة مجسمة ضخمة جدًا لما تطالب به مسز ويكس رفاهته النحيلة. بيد أنها كانت تعلم أن تلك السيدة لم تخفف من الوطأة حين قالت بعد برهة:

- «نحن» بالطبع لا نحلم بالحصول على منزل بأكمله. فأني مسكن صغير بالغًا ما بلغ تواضعه سيكون في نظرنا نعمة جزيلة.

فقال السير كلود:

- ولكنه ينبغي أن يكون كافيًا لإقامتنا جميعًا.

فوافقته مسز ويكس قائلة:

- نعم. فالمهم كله هو وجودنا معًا. وأثناء انتظارك قبل أن تقدم على عمل إلى أن تتخذ الليدي خطوة ما، سيكون موقفنا هنا عسيرًا لا يطلق. فأنت لا تعلم ما تجشمتها منها بسببك بالأمس، وبسبب عزيزتنا المسكينة، ولكنه ليس بالشيء الذي أستطيع أن أعدك بمواجهته مرارًا كثيرة. فقد طردتني بلغة فظيعة، وأصدرت أمرها إلى الخدم ألا يقوموا بخدمتي.

فصاح السير كلود بحرارة:

- أوه. الخدم المساكين لا غبار عليهم.

- إنهم يقينًا أفضل من سيدتهم. وأنه لأمر فظيع للغاية أن أجلس هنا وأقول عن زوجتك يا سير كلود وعن أم ميري نفسها أنها أخط من الخدم. ولكن انزلاقي بمثل هذا الرأي سبب أدعى لوجوب رحيلنا. إنني

سأبقى إلى أن أطرده من هنا بالقوة الغاشمة. ولكن هذا شيء يمكن أن يحدث في أي يوم. والشيء الآخر الذي من الجائز جدًا أن يحدث - واسمح لي أن أكرر هذا القول - هو رحيلها كي تتخلص منا.

فضحك السير كلود وقال:

- آه لو فعلت ذلك! إذن لأسدت إلينا صنيعةً ضخمةً.

فناشدته مسز ويكس قائلة:

- لا تقل هذا. لا تقل! لا تتكلم في شيء مشؤوم كهذا. أنت لا تدري ماذا أعني. ويجب علينا جميعًا أن نشبث بالخير والصواب ولا ينبغي لك أن تكون رديئًا.

فوضع السير كلود فنجان الشاي من يده، وثاب إلى مزيد من الجد، ومسح على شاربه وهو مستغرق في التفكير، ثم قال:

- ألن يقول جميع الناس عني أنني رجل سيئ إن أنا تركت البيت قبل.. قبل أن تأبق هي؟ سيقولون إن فعلتي هذه هي التي جعلتها تأبق. واستطاعت ميزي أن تدرك وجهة منطقه، بيد أن هذا المنطق لم يكبح مسز ويكس، فمضت السيدة الطيبة تلح عليه:

- وما حاجتك إلى المبالاة بهذا؛ ما دمت قد أقدمت مدفوعًا بغرض سام. فكر في جمال هذا العمل.

- في جمال هروبي معك؟

فابتسمت ابتسامة واهنة. بل احمر وجهها احمرارًا يسيرًا وقالت:

- ما أبعد هذا عن إلحاق الضرر بك، بل إنه سيجدي عليك أفضل

الجدوى. إنه يا سير كلود سينقذك إن أنت أصغيت لما أقول.

- ينقذني من ماذا؟

وإذ سمعت ميري هذا السؤال، راحت تنتظر بلهفة متجددة جوابها الذي سيصل بالمسألة إلى نقطة أدق من النقطة التي أوصلها إليه رفيقهما من قبل، ولكن جاء جواب ويكس على العكس حافلاً بمزيد من الإبهام:

- من الأمر الذي تعرفه.

- أتعنين من امرأة أخرى؟!

- أجل.. من امرأة رديئة حقاً.

فالسير كلود على الأقل إذّن فيما تبين للطفلة -لم يكن الأمر مبهمًا بالنسبة له؛ حتى إن ابتسامة فهم ومضت من جديد في عينيه؛ وراح يرمق بهما ميري في عدم ارتياح غامض، وعندئذ ألفي في طريقة ملاقاتها لهما ما بعثه على مداعبتها تحت ذقنها. وبعد أن فرغ من هذا التفت إلى مسز ويكس في سماحة قائلاً لها:

- إنك تظنينني أسوأ مما أنا.

فردت عليه قائلة:

- لو كان ذلك صحيحاً لما لجأت إليك وناشدتك. وإني لأناشدك يا سير كلود -باسم كل ما هو طيب فيك- وبكل إخلاص! في وسعنا أن يعين كل منا الآخر. ولا حاجة بي إلى الكلام فيما ستسديه إلى صديقتنا الصغيرة الماثلة هنا. فليس هذا ما أريد أن أتحدث فيه الآن. بل الذي أريد أن أتحدث فيه هو ما ستحصل عليه -ألا ترى؟- من انتهاز مثل

هذه الفرصة خذ بناصرنا. خذ بناصرها. اجعل منها واجبك. اجعل منها حياتك. وستجزيك على هذا ألف ضعف!

وفي خلال هذه المناشدة انتقلت تأملات ميري إلى مسز ويكس. وكان مرجع ذلك إلى أنها - رغم أن قلبها كان في حلقتها من فرط الهلع - أحجمت حياء عن الظهور شخصيًا بمظهر من تلح عليه، وإلى أنها من جهة أخرى ذهلت لمراى مسز ويكس تتجلى كما لم يحدث لها أن تجلت من قبل، حتى ولا في يوم زيارتها لمسز بيل حاملة نبأ زوج ماما. فمسز بيل في ذلك اليوم فاقتها وقارًا، أما الآن فليس في مقدور أحد أن يتفوق عليها. والواقع أنها كانت مستولية في هذه اللحظة على تلميذتها بتلميحتها أن لديها مزيدًا من هذه المفاجأة ببقية إلى ما بعد. فإحساس الطفلة المرهف وتعلقها بالمشاهدة كانا عمادها الأول. وقد تعودت منذ البداية على أن ترى نفسها موضع جدل، فكانت تجد في اشتداد وطيسه - وكانت لديها لمحة عن لعبة كرة القدم - نوعًا من التعويض عما قدر لها من التزام السلبية المفرطة. وكان ذلك يضيفي عليها جوار غريبًا، فكانها تشهد تاريخها وهي منفصلة عنه كمن تختبر شيئًا عن طريق إلصاق أنفها بلوح من الزجاج. وكان هذا شعورها بالنسبة لاستخدام أنفها وهي في انتظار تأثير بلاغة مسز ويكس. ولم يتركها السير كلود وقتًا طويلاً في ذلك الوضع البعيد عن الرشاقة، بل جلس وفتح لها ذراعيه كما فعل يوم جاء في طلبها إلى بيت أبيها. وفيما هو ممسك بها هكذا ناظرًا إليها بحنو، وكأنما قد دفعت رفيقتهما بالندم دفعًا حثيثًا إلى محياه، وقال:

- إن عزيزتنا مسز ويكس رائعة. بيد أنها تضخم المسألة جدًا. أعني

أن الموقف بعد كل شيء ليس ميؤوساً منه إلى هذا الحد ولا بسيطاً إلى هذا الحد أيضاً. ولكنني أتعهد لك أمامها؛ وأتعهد لها أمامك بأنني لن أتخلى عنكما. أستمعين أيتها الرفيقة العزيزة؟ وهل تعينه؟ سأتمسك بك مهما كانت الظروف.

ووعت ميزي كلامه. وعته برجفة طويلة شملت كيائها الصغير كله. وبعد ذلك - كأنما أراد أن يؤكد ما قاله - ضمها إليه، فدفنت رأسها في صدره، وراحت تبكي بلا صوت وبلا ألم. وفيما هي منصرفة إلى ذلك فطنت إلى أن صدره مضطرب، استنتجت من هذا في سرور جارف أن عبراته تنهمر في صمت. وسرعان ما سمعت نشيجاً عالياً من مسز ويكس. فكانت مسز ويكس فقط هي التي صدر عنها صوت.

وكان هذا هو الصوت الوحيد الذي بدر منها إلى فترة من الوقت، ولكنها بعد بضعة أيام وصفت لتلميذتها في حديث لها معها ما جرى بينها وبين أيدا بأنه لا يقل عن التحطيم إلا شيئاً يسيراً. ولم يحدث حتى ذلك الحين ما يدل على محاولة إخراجها عنوة. وعرفت أن السير كلود وقف موقفاً لم يقفه من قبل، فاعترض بشدة وكتب له التوفيق في ذلك. وتذكرت ميزي - وكان تذكرها خالياً تمام الخلو من الازدراء - أنه كان قد أخبرها بخوفه من الليدي، فاعتبرت الفتاة الصغيرة ذلك العمل الحازم من جانبه دليلاً على أهبته الحقيقية لإنجاز ذلك العهد الذي أبرمه الجميع بدموعهم. وحدثتها مسز ويكس عن التضحية المالية التي اشترت بها شخصياً الاستقرار الهزيل الذي تتمتع به، وأن ذلك إن كان دفاعاً ضد القوة الغاشمة إلا أنه يتركها عرضة لفظاظة لا تصدق. أليست الليدي

تجد في كل ساعة من ساعات النهار حيلة بها في إذلالها وامتهانها؟ إن لها في ذمتها راتب ثلاثة أشهر - وهو اسم ضخم لشيء ضئيل كانت ميزي تدرك ضآلته - ولن تحصل عليه ما عاشت. بيد أن سكوتها عن ذلك جعل الليدي - بحمد الله - تحت رحمتها بعض الشيء. أما وهو يقوم الآن بأمور كثيرة؛ فلن يكن في وسعها أن تجسر على مطالبة السير كلود بهذا المبلغ. فهو قد أرسل إلى البيت للاستهلاك في حجرة الدراسة كعكة ضخمة مجمدة، عبارة عن جبل رائع لذيذ به طبقات جيولوجية من المربي، وسيكفيهما ذلك مع مراعاة الاقتصاد مدى أيام كثيرة من حصارهما. ولكن مسز ويكس لم تكن تجهل أن أحواله المالية تزداد ارتباطًا على ارتباطها. واسترجعت شريكها في حنان - على ضوء هذه الانكماشات - تعبير وجهه الذي استقبل به الاقتراح بتجهيز بيت آخر. وشعرت ميزي أن نفقتهما ما دامت معلقة بخيط واهن، فمن الواجب عليهما أن تزيدا من الضغط على نفسيهما بأقصى ما يمكن من الكياسة. فما يفعله على وجه الاستعجال إنما كان بوحى من صديقه المسنة، وفي حدود ما تسمح به ضائقته. وكان شهر مايو في ذلك الموسم رائعًا كأنه هداة التزمته الريح وسط نوء يورق الجفن. فجعل يصحب معه ابنة زوجته في حبور متجدد، فيطوفان أرجاء المدينة الكبيرة بحثًا عما تسميه مسز ويكس الجمع بين الترفيه والتثقيف.

كانا يركبان فوق أسطح المركبات العامة، ويزوران الحدائق النائية، ويذهبان إلى مباريات الكريكت حيث تستغرق ميزي في النوم، وجريا معًا مائة مكان بحثًا عن أفضلها لتناول الشاي. وكان هذا هو أسلوبه

المباشر في الانبراء للدرس العظيم الذي ألقته عليه مسز ويكس في جعل ربيته الصغيرة واجبه وحياته. وكانا يطرقان -تحت بواعث لا يستطيعان مغالبتها- الحوانيت التي يتفقان معًا على أنها أكبر مما ينبغي بحثًا عن أشياء يتفقان معًا على أنها أصغر مما ينبغي. وكان مسز ويكس في غضون تلك الساعات تبقى بمفردها في البيت، وإن كانا يذكرانها في أسف وهما يخلعان قفازيهما لتناول المرطبات، وتعتبر نفسها أقل حصانة من الضربات التي برعت الليدي في توجيهها إليها. وكانت تكرر المرة بعد المرة أنها ما كانت لتبالي باحتجاز «استحقاقاتها» للنكاية بها ولا بعلمها بكل ما هو منكر؛ لولا أنها وصمت بأنها «منحطة» من حيث السجايا ولهجة الحديث. ولم يكن ثمة في ذلك الحين أي محاولة من جانب أحد لإنكار الاستبشار بمبارحة الليدي عادة لمدينة لندن كل يوم سبت، وازدياد جنوحها للعودة في وقت متأخر كل أسبوع. وكان أمرًا ذائعًا أيضًا أنها كانت تعتبر مسلك زوجها ببقائه في لندن كي يرعى طفلة أتيحت لها كل لوازمها على أوسع نطاق؛ بمثابة تصنع منافٍ للطبيعة وإهانة مباشرة لها. وقد أفضى السير كلود إلى ميري أن أبغض من تبغضه أيدا هو الرجل الذي يشغل نفسه بالتوافه في المدينة أيام الأحاد، وذكر لها أيضًا أنها كم من مرة صارحته بأنه لو كانت لديه ذرة من الفطنة خجلة أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة الحقيرة بصدد ابنة مستر فارانج. وكانت الليدي تزعم أنه في خوف مقيم من سالفه، وإلا اعتبر من واجبات اللياقة السافرة أن يحمي زوجته من محاولات ذلك الشخص المنزلوع الحياء للاحتيال عليها. وكانت موضوع ذلك الاحتيال أن مستر فارانج ألقى

على كاهله العبء الباهظ برمته. وأكد السير كلود لصديقتة الصغيرة.
- وحتى عندما أدفع نفقاتك بنفسي يزيد اتهامها لي بالخنوع
والتزلف.

وكان من رأى مسز ويكس الذي توصلت إليه على أساس مستقل
كما يعلمان أن رحلات أيدا الأسبوعية كانت بمثابة تمهيدات لغيبة
أطول، فلئن كانت تعود في كل أسبوع متأخرة عن سابقه، فسيأتي حتمًا
ذلك الأسبوع الذي لا تأتي فيه على الإطلاق. وكانت هذه الظاهرة علاقة
وثيقة بالطبع بما تبديه مسز ويكس في الواقع من البسالة. فلو أنهم ثبتوا
مدة كافية فسوف يغدو البيت المريح الذي يضم معهما السير كلود أمرًا
محققًا بصورة غير رسمية



الفصل الثالث عشر

وكان هذا حريًا أن يعتبر المغزى المقصود من ملحوظة أدلى بها زوج أمها ذات يوم مطير غصت فيه الشوارع بالأووال، وكان استعمالهما لمظلتيهما عائقًا دون تدانيهما وتآلفهما فلاذ السائران بالمتحف القومي، وجلست ميزي إلى جواره تحملى وهي لا تكاد ترى شيئًا في حجرة ملأى بالصور التي حير ذهنها كثيرًا بنعته لها وهو يصعد زفرة سأم بأنها «خرافات بلهاء»، وكانت هذه الصور تمثل بلطخ من الذهب وشلالات من القرمز وقديسين متصلبين وملائكة بارزي العظام وعذارى قبيحات الشكل يحملن أطفالًا أقبح منهن شكلاً؛ تمثل صلوات وأنماطاً من الركوع عجيبة؛ بحيث إنها فهمت كلماته ولأول وهلة على أنها تعبير عن الاحتجاج على عبادة الأوثان، ولا سيما أنه كان يصحبها هي ومسز ويكس في المدة الأخيرة إلى كنيسة الصباح وهي مكان للعبادة اختارته مسز ويكس بنفسها وليس فيه شيء من هذا القبيل ولا هالات حول الرؤوس، بل هناك فقط على مدى العظات الطويلة قلانس ذات أظهر مسلية، وكان هو - كما كانت مربيتها تقول دائماً بعد ذلك - يبدل غاية انتباهه هناك. ثم سرعان ما اتضح لها أن إشاراته لم يكن يرمي بها إلا إلى

ما يديه الناس من التصنع في إعجابهم بمثل هذه الأعمال السخيفة. وقد
تلقت منه هذا التوجيه بالخضوع الذي تتلقى به كل شيء. ولا حاجة بنا
إلى سرد أثر هذه الملحوظة في توجيه حديثهما، فالتحول إلى حجرة
الدراسة التي لا لون لها وإلى مسز ويكس المنفردة بنفسها كان بلا شك
ثمرة لتراخي اهتمامهما بما هو مائل أمامهما. وأعربت ميزي بطريقتها
الخاصة عن إحساسها الحقيقي بأنها لم تعد في هذه الأيام تؤوب إلى
البيت إلا وهي تتوقع أن تجد محراب دراستها خاويًا وكاهنته المسكينة
قد تم طردها. واستتبع ذلك الإعراب عن التقدير التام لما يتهدها من
خطر. وكان على سبيل الرد أن أفضى السير كلود - مع اعترافه بمصدر
ذلك الخطر - بالعبارة المطمئنة التي ألمعت إليها:

- لا تخافي يا عزيزتي فقد سويت الأمر معها.

وكانت الحاجة ماسة إلى تذييل لهذه العبارة عندما وجدها غير
مفهومة لدى الطفلة، فقال:

- أعني أن أملك ستر كني أفعل ما أريد، ما دمت أدعها تفعل ما تريد
«هي».

وسألته ميزي:

- إذن فأنت تفعل الآن ما تريد؟

- تمامًا..

- وهل تفعل «هي» الآن ما تريد؟

- حتى الشمال!

وعادت للتفكير ثم قالت:

- وما عسى أن يكون هذا الذي تفعله إذن من فضلك؟

- ما كنت لأخبركِ بأي حال من الأحوال.

- فحدقت في صورة تمثل عذراء هزيلة شاحبة، ثم افترت عن

ابتسامة بطيئة وقالت:

- حسنًا، لست أبالي ما دمت تسمح لها بذلك.

فاستولت على السير كلود سورة مرح بعثته على الوقوف، وقال:

- يا لك من عفريته!

وفي يوم آخر، في مكان آخر - وهو مكان في شارع بيكر جلست

فيه معه في ساعة جوع لتناول الشاي والكعك الصغير - أثار موضوعًا منقطع الصلة بما كانا يتحدثان فيه قبل ذلك:

- قل لي ماذا ترين أباكِ فاعلاً؟

ولم يطل بميزي البحث عن مراده أو النظر متسائلة إلى عينيه اللطيفتين..

- في حالة ذهابك معنا بالفعل؟ إنه حريٌّ أن يجأ بالشكوى.

وبدا عليه أنه يستطرف اللفظ الذي استخدمته، وقال:

- ما كنت لأبالي بـ«الشكوى»!

- إنه حريٌّ أن يتحدث إلى كل إنسان في هذه المسألة.

- حسنًا. وما كنت لأبالي بهذا أيضًا.

فبادرت الطفلة ترد عليه قائلة:

- كلا بالطبع. فقد قلت لي إنك لا تخافه.

فقال السير كلود:

- المسألة هي هل تخافينه أنتِ؟

وفكرت ميزي في الأمر بجلاء ثم تكلمت بحزم:

- لا. ليس خوفي من «بابا».

- ولكن خوفك من شخص آخر؟

- قطعاً من أشخاص كثيرين.

- من أملك أولاً وفي الدرجة الأولى بالطبع.

- نعم قطعاً. أخاف ماما أكثر مما أخاف..

ولما وجدها السير كلود تردد في اختيار طرف آخر للمقارنة سألها:

- أكثر من ماذا؟

فراحت تفكر في سائر الأشياء المخيفة، ثم أعلنت أخيراً عن رأيها:

- أكثر مما أخاف فيلاً ضارياً.

ولما رآته يضحك ذكرته قائلة:

- وأنت كذلك تخافها.

- أوه. نعم، أنا أيضاً أخافها.

ومرة أخرى راحت تفكر، ثم قالت:

- لماذا إذن تزوجتها؟
- بالضبط لأنني كنت خائفاً.
- حتى حينما كانت تحبك؟
- كان هذا ادعى لأن يجعلها أكثر ترويعاً.
- ففتح هذا القول أمام ميزي نفسها آفاقاً جديدة من الجدل، مع أن رفيقها بدا عليه أنه يرى في الأمر ما يضحكه. وسأله:
- أكثر ترويعاً مما هي الآن؟
- بطريقة مختلفة. فالخوف لسوء الحظ، شيء جسيم جداً، وهناك أنواع متباينة جداً منه.
- وفهمت كلامه بفطنة تامة فقالت:
- إذن في اعتقادي أن لديّ سائر هذه الأنواع.
- فصاح صديقها:
- أنتِ؟ هراء! أنتِ أثيرة لدى الجميع.
- فاحتجت ميزي قائلة:
- أنا خائفة أشد الخوف من مسز بيل.
- أرفع حاجبيه الدقيقين وسألها:
- تلك المرأة الرقيقة الحاشية؟
- فأجابته قائلة:
- ليس في وسعك أن تفهم هذا لأنك لست في مثل وضعي.

وكانت بسبيل أن تقول على سبيل الاستدراك «ولكن» حينما مديده
عبر المائدة ووضعها على ذراعها واعترف لها قائلاً:

- بل «أستطيع» أن أفهم هذا. «إنني» في عين الوضع.

فقلت ميري على الفور:

- أوه. ولكنها تميل إليك جداً!

فاحمر وجه السير كلود احمراراً واضحاً، وقال:

- وهذا أيضاً له علاقة بالموضوع.

وتعجبت ميري مرة أخرى وسألته:

- علاقة بين ميلها إليك وخوفك منها؟

- نعم. حينما يصل الميل إلى حد العبادة.

- إذن لماذا لست خائفاً مني «أنا»؟

فقال مستبقياً يده على ذراعها:

- لأن الأمر في حالتك لا يصل إلى هذا! والذي يحول دون خوفي

منك أنكِ ألطف روح على وجه الدنيا. وفضلاً عن هذا..

ثم توقف عن الكلام.

- وفضلاً عن هذا..؟

فاستطرد الشاب:

- كنت حريّاً أن أشعر بالخوف لو كنت أسن مما أنت. هاك. ها

أنت قد حملتني بالفعل على أن أنطق لغواً. إن السؤال يتعلق بأبيك. هل

هو خائف كذلك من مسز بيل؟

فاستغرقت ميزي في التفكير، ثم قالت:

- لا أظن. وإن كان مع ذلك يحبها.

- أوه لا.. إنه لا يحبها. إطلاقاً!

وشعر السير كلود فيما يظهر على أثر ذلك من حملقة رفيقته أنه

ينبغي أن يوفق بين هذا الكلام الغريب وبين ذكرياتها القديمة:

- لم يعد ثمة شيء من هذا القبيل «الآن».

بيد أن ميزي لم يزدها ذلك إلا حملقة:

- هل تغيرا؟

- مثلما تغيرنا أنا وأملك.

وعجبت كيف عرف هذا، فسألته:

- إذن فأنت التقيت بمسز بيل مرة أخرى؟

فاعترض قائلاً:

- أوه لا. لقد كتبت إليّ.

ثم أردف على الفور:

- هي أيضاً لا تخاف أباك. فلا أحد يخافه على الإطلاق.. حقاً.

وفي حين كان ذهن ميزي الصغير (وقد أعفي ينبوع البنوة فيه منذ

زمن طويل من الشعور بالألم أمام ذلك النقص في الهبة الأبوية)، ينعم

النظر بين شجاعة بيل وبين السؤال عما يحدث على إثر اتخاذها ومسز

ويكس مسكناً أنيقاً مع صديقهما، استطرد هو:

- إنها لا تبالي مطلقاً أن يثير مستر فارانج ضجة.

- أعني حولنا أنا وأنت ومسز ويكس؟ ولماذا تبالين؟ إن ذلك لن يضيرها «هي».

فألقي السير كلود برأسه إلى الوراء وقد مد ساقيه ودس يده في جيب بنطلونه، وراح يضحك ضحكة خيل إليها أن زفرة تخالطها، وقال:

- يا ربييتي العزيزة ما أظرفك. اسمعي. يجب أن ندفع ثمن ما تناولناه. هل أكلت خمس كعكات صغيرة؟

فاحتقن وجهه ميزي تحت نظر الشابة التي خطت نحو منصدتها وقالت:

- كيف يمكن؟ لقد أكلت ثلاثاً.

وبعد ذلك بوقت قصير بدت على مسز ويكس علائم المرض حتى خشي أن تكون الليدي قد ابتلتها بمناوشة لا نظير لها، وسألها ميزي إن كان قد وقع شيء أسوأ من المعتاد، وعندئذ صرحت المرأة المسكينة في كمد لا حد له:

- لقد كان يقابل مسز بيل.

فتذكرت الطفلة ما قاله لها:

- السير كلود؟ أوه. لا.. إنه «لم يقابلها»!

ولكن مسز ويكس كانت قاطعة بقدر ما هي محزونة:

- عفوك. أنا موقنة من هذا تمام اليقين.

ومع ذلك جازفت ميزي بتحديها:

- وكيف من فضلكِ عرفتِ هذا؟

فترددت برهة ثم قالت:

- منها شخصيًا. فقد ذهبت لمقابلتها.

ولما رأت دهشة ميزي الظاهرة استطردت:

لقد ذهبت إلى هناك بالأمس عندما كنتِ أنتِ معه في الخارج. وقد تكرر التقاؤه بها.

ولم يكن واضحًا لدى ميزي تمام الوضوح لماذا تبتئس مسز ويكس في هذه الصورة لهذا الاكتشاف، بيد أن شعورها العام بالطريقة التي يمكن بها اقتراف الشيء واستهجانه في آن واحد كان يخفف على الدوام عنها شدة وقع هذا اللغز. وقالت:

- قد يكون هناك خطأ ما. فهو يقول إنه لم يقابلها.

فازداد اكفهرار مسز ويكس، وكأن هناك سببًا أدعى للارتياح:

- أهو يقول ذلك؟ هل ينكر أنه قابلها؟

فقالت ميزي متعللة:

- هذا ما قاله لي منذ ثلاثة أيام. فلعلها مخطئة.

- أتعنين لعلها كاذبة؟ أنا واثقة جدًا أنها تكذب كلما كان لها في

ذلك مأرب. ولكنني أعرف الناس حينما يكذبون. وما أحبه فيك أنك لا

تكذبين مطلقاً. ولكن مسز بيل لم تكن كاذبة بالأمس على الأقل. لقد قابلها.

فالتزمت ميزي الصمت برهة، ثم قالت:

- إنه يقول إنه لم يقابلها. وربما.. وربما..

ومرة أخرى توقفت عن الكلام.

- أتريدين أن تقولي ربما كان «هو» الكاذب؟

فصاحت ميزي:

- حاشا. لا!

ومع هذا عادت مرارة مسز ويكس إلى التدفق وصاحت:

- بل يقابلها. بل يقابلها. وهذا هو أسوأ ما في الأمر. سيأخذانك.

سيأخذانك. وماذا يصير بربك من أمري أنا؟

وألقت بنفسها من جديد على تلميذتها وراحت تبكي ففجرت دموع الطفلة من مكانها، بيد أن ميزي لم يكن في وسعها أن تخبرك هل كان بكاؤها لصورة فراقها أو لأن السير كلود كاذب. وقد اتفقت كلمتهما بخصوص هذا الانحراف على أنهما ليستا في موقف يسمح لهما بتفهيمة هذا الأمر. فقد كانت مسز ويكس تفرق من الإقدام على أي شيء يجعله -على حد تعبيرها- «أسوأ حالاً». وكانت ميزي متمرسه تمرساً كافياً لأن تفكر في أنه حين تكلم عنها بهذه الصورة إنما أراد أن يكون متلطفاً بمسز بيل. وكان يوافق سائر ميولها أن تفكر فيه بصورة المرتفق وتحاشت أن تدعه يعرف أن السيدتين أقدمتا على ما لا يمكن

أن تقدم عليه «هي» من فضح سره.

ولم يطل بها كتمان سرها، ففي اليوم التالي عند خروجها معه قال فجأة بصدد وجهة كان قد اقترحها في البداية:

- كلا. لن نفعل هذا. بل سنفعل شيئاً آخر.

وعندئذ -على قيد خطوات قليلة من الباب- استوقف مركبة وساعدها على أن تستقلها ثم تبعها وأمر السائق من فوق سقف المركبة بأن يتوجه إلى عنوان لم تتبينه، فلما جلس بجوارها سألته عن وجهتهما، فأجابها:

- سترين يا طفلي العزيزة.

وراحت تنظر وترقب وتعجب لاتجاههما صوب حديقة ريحنت. ولم تفهم لماذا يخفي عنها هذا. وما إن مرا تحت قوس جميل واقتربا من بيت أبيض يشرف على منظر لا بد أن يكون جميلاً حتى تشبثت به متحيرة وصاحت:

- هل سأرى باباً؟

فأطل عليها بابتسامة حانية وقال:

- لا. قد لا نقابله. فأنا لم آتِ بك لهذا الغرض.

- إذن بيت من هذا؟

- بيت أبيك. فقد انتقل إلى هنا.

وتلفتت حولها. فهي قد عرفت مستر فارانج في أربع دور أو خمس. ولم يكن في هذا البيت مما يشير دهشتها سوى أنه أفضل سكنه

حتى الآن:

- ولكنني سأرى مسز بيل؟

- إنما جئت بك لتريها.

فحملت وقد اشتد شحوبها ويدها على ذراعه تستبقيه جالساً في
المركبة على الرغم من وقوفها:

- لتتركني هنا. أهذا ما تعنيه؟

ووجد عناء شديداً في أن يجيئها:

- ليس لي أن أقول إن كان في «استطاعتك» البقاء. فلا بد لنا أن
ننظر فيما يكون من هذا الأمر.

- ولكن هل سأرى بابا إن بقيت؟

- بين الحين والحين بلا شك.

ثم استطرد السير كلود قائلاً:

- هل تشعرين حقيقة بارتياح شديد جداً من هذا؟

فوجهت ميزي نظرها إلى بعيد من فوق سياج المركبة وسرحت
الطرف برهة في خضرة حديقة ريجنت المترامية وقد احمرت حتى
منابت شعرها؛ وأحست باندفاع الحرارة الشديد الناجم عن انفعال أشد
نضجاً من أي انفعال عرفته حتى الآن. وكان مضمون هذا الانفعال هو
الخزي الغريب غير المتوقع من شخص قريب الصلة بها جداً مثل مستر
فارانج تحت ضوء يحط من قدره أمام سيد مهذب يتمتع بهذا الكمال
وهذا السحر كالسير كلود. وتذكرت مع ذلك قول صديقها لها إنه ما

من أحد يخاف أباهما خوفاً جدياً، فالتفتت وهي تهز رأسها هزة صغيرة وقالت:

- أستطيع أن أقول إن في إمكاني سياسته.

فابتسم السير كلود، إلا أنها لاحظت أن تغير لونها بتلك الصورة العنيفة قد صعد إلى وجهه تورداً خفيفاً ينم على الندم والحرَج، فكأنما هو قد لمح أول بارقة لإحساسه بالمسؤولية. ولم تبدُ من أي منهما حركة للنزول من المركبة. وبعد لحظة قال لها:

- اسمعي. إن كان هذا رأيك فلن ندخل على كل حال.

فقالت الطفلة في نواح خافت:

- ولكني أريد أن أرى مسز بيل!

- ولكن ماذا إن هي قررت استبقاءك؟ سيكون عليكِ عندئذ كما تعلمين أن تبقي.

فقلبت ميزي ذلك في رأسها وقالت:

- نهائياً.. وأتخلى عنك؟

- حسناً.. لا علم لي بالضبط فيما يتعلق بتخليكِ عني.

- أعني كما تخليت عن مسز بيل عندما ذهبت آخر مرة إلى بيت ماما فليس في استطاعتي أن أستغني عنك هنا مثل هذه المرة الطويلة.

وترأى لها كأنما انقضت مائة سنة منذ رأت مسز بيل التي كانت موجودة في الجانب الآخر من الباب القريب منهم جداً، ومع ذلك لم تقفز من مكانها حتى الآن لتضمها بين ذراعيها.

فقال السير كلود:

- أستطيع أن أقول إنك سترييني أكثر مما رأيت مسز بيل . فليس من رأيي أن أكون متحفظاً إلى هذا الحد . ولكني على كل حال أترك المسألة ما دمنا هنا الآن بين يديك برمتها . فعليك أن تفصلي فيها . ولن ندخل إلا إذا أعربت عن رغبتك في الدخول . وإن لم تعربي عن هذه الرغبة سندور على أعقابنا منصرفين .

- وفي هذه الحالة لن تأخذني مسز بيل ؟

- ليس على كل حال نتيجة خطوة من جانبنا .

فسألته مزي:

- وسيكون في وسعي أن أستمري الإقامة مع ماما ؟

- أوه . لست أقول هذا !

ففكرت ثم قالت:

- ولكني حسبتك قلت لي إنك سويت الأمر معها ؟

فراح السير كلود يعبث بعصاه في طنف المركبة، وقال:

- ليس إلى الحد الذي تتطلبه في الوقت الحاضر يا طفلي العزيزة .

- فماذا إذن إن هي طردتني ولم آت إلى هنا... ؟

فتلقف السير كلود على الفور ما ترمي إليه، وقال:

- إنك بالطبع تستفسرين عما أعرضه عليك عندئذ ؟ اعلمي يا

صغيرتي المسكينة أن هذا بالضبط هو السؤال الذي أوجهه إلى نفسي .

وأعترف لك أنني لا أرى هذه المسألة بالوضوح الذي تراه به مسز ويكس .

وحملت رفيقتها برهة فيما تراه مسز ويكس، ثم قالت:

- أتعني «أنا» لا نستطيع أن نكون أسرة صغيرة؟

- إنها لوضاعة صغيرة مني ولا شك. ولكني لا أستطيع أن أطرح
أملك بالكلية.

وعندئذ أطلقت ميزي زفرة خفيفة بيد أنها طويلة، فهي صوت
طفيف يدل على الإذعان على مضض. ولا شك أنه كان صوتاً حريّاً أن
يبدو طريقاً لمن يسمعه:

- إذن ليس هناك شيء آخر؟

- أقسم إنني لا أرى شيئاً.

وتريثت ميزي. فبدأ أن صمتها يدل على أنه ليس لديها أيضاً حل
آخر تقترحه، بيد أنها ناشدته مرة أخرى:

- هل تأتي لتراني إن أنا أقمت هنا؟

- لن تغيبني عن نظري.

- ولكن كم مرة ستأتي؟

فلما لزم الصمت ألحت عليه قائلة:

- مراراً كثيرة؟

فظل متردداً وشرع يقول لها:

- يا عزيزتي الأثيرة..

ثم توقف مرة أخرى ليستأنف الكلام بعد لحظة وقد غير من لهجته:

- ما أعجب أمركِ. نعم إذن: مرارًا وتكرارًا.

فقفزت مimizi نازلة من العربة وهي تصيح:

- وهو كذلك.

وكانت مسز بيل في البيت، ولكنها لم تكن في حجرة الاستقبال.

ولما ذهب رئيس الخدم ليبلغها انفجرت الطفلة تقول له فجأة:

- ولكن ماذا ستصنع مسز ويكس وأنا هنا؟

فقال رفيقها بأول نبرة خفيفة من الفظاظة سمعتها تخرج من فمه:

- آه. كان عليك أن تفكري في ذلك قبل الآن!



الفصل الرابع عشر

انقضت عليها مسز بيل تعانقها، وكان من أثر الساعة بأسرها أنها أبانت للطفلة إلى أي حد هي محبوبة حبًّا هائلًا. ومما زاد في هذا الأثر أن زوجة أبيها كانت قد تغيرت على ذلك النحو من التغير الذي طرأ على ماما تمامًا، حتى لقد بدت لها وكأنها شخصية تعرفت عليها لتوها، فكأنها تتقاضاها مزيدًا من الألفة أكبر مما يسع ميري أن تشعر به. لقد فُوجئت بإعزاز قوي التعبير يشب عليها باختصار في صورة مسز بيل، وقد ازدادت وسامة وفراهة وسنا، فكان ذلك أشبه بعقد صداقة مع شخص ذي رونق، وما انقضت دقيقة حتى شعرت بالزهو للطريقة التي استقبلت بها الاختيار الذي فرض عليها في العربة. فقد كانت ثمت مستقبل بأسره يعبر عنه هذا المزيج من جمال مسز بيل وضمات مسز بيل، وبدت لميري فاتنة المنظر. وكأنه لا صلة لها على الإطلاق بمن كانت ترتدي ثيابًا داخلية مرتوقة وتتناول غداءها في حجرة الأطفال. وكانت الطفلة تعلم أن إحدى زوجتي أبيها كانت امرأة ذات أناقة، ولكنها كانت على الدوام تميز هذا الفارق بصورة غير واضحة فلا تطبق هذا الوصف إلا بحذر على الزوجة الأخرى. وقد اكتسبت مسز بيل بعد افتراقهما جدارة

بارزة به، وكانت أول استجابة من جانب ميري لبهجتها الحاضرة، وقد صبغت بهاءها كله بمعانٍ تستطيب مذاقها في هذه المرة. وكانت قد قالت للسير كلود إنها تخاف السيدة المقيمة في حديقة ريجنت، ولكن كان لديها من الثقة ما حدا بها إلى أن تندفع على الفور معبرة عن تقديرها الصريح:

- أأنت جميلة؟ أليست جميلة يا سير كلود؟ أليست جميلة؟

فأجابها السير كلود بكياسة:

- إنها ببساطة أجمل امرأة في لندن، مثلما أنت خير فتاة صغيرة.

وأسلمت أجمل امرأة في لندن نفسها - في خطوات متألقة مبدية سائر أمارات التوله - لسعادة استولت أخيراً على ناصيتها مرة أخرى، وكان في نضجها ما يقارب ما في نضج ماما من ازدهار متقد. ولم يقتض منها إلا وقت قصير أن تظهر لصديقتها الصغيرة ما ينبى عن قوة حقيقية فيها. وكان إحساس الفتاة بذلك بمثابة بداية يوم طويل مشرق. فقد أدركت ميري أنه لا ماما ولا السير كلود ولا مسز ويكس بكل ما يتمتعون به من جاذبيات هائلة لكل منهم لونه الخاص منها، قد استطاعوا أن يذكوا لديها ذلك الإحساس بالضبط. وكان لهذا أثره الفوري عندما اتجه الحديث - كما حدث بسرعة فائقة - إلى الكلام عن أبيها. فمستر فارانج مصدر للتعقيد، ولكنها ترى الآن أنه لن يكون مصدر تعقيد لابنته. وهو بالتأكيد مصدر تعقيد جسيم بالنسبة لمسز بيل. فقد سارعت إلى التصريح بهذا. بيد أن مسز بيل قدمت نفسها لميري منذ تلك اللحظة باعتبارها شخصاً لديه موهبة كبرى. وهذه الموهبة هي

القدرة على معالجة التعقيدات. وأحست ميزي بمبلغ استهانتها بهذه التعقيدات عندما سمعتها تذكر السير كلود بمقابلة سابقة بينهما، فإذا به يجيئها بنبرة ذهول لا تخلو مع ذلك من الارتياح بأنه نفى لرفيقتها أنهما تقابلا منذ اليوم الذي جاء فيه لأخذها حتى هذه اللحظة. فأبدت مسز بيل أسفاً غامضاً، وقالت:

- ولماذا أقدمت على شيء سخي ف كهذا؟

- لأحمي سمعتك.

فبدأ التفكه على مسز بيل وقالت:

- من ميزي؟ إن سمعتي عند ميزي أقوى من أن تضار.

فسأل السير كلود الطفلة:

- ولكنك صدقتني أيتها الخبيثة. أليس كذلك؟

فنظرت إليه وابتسمت ثم قالت:

- لقد أسأت إلى سمعتها. فقد اكتشفت أنك كنت تأتي إلى هنا.

ولم يكن حزنه لهذا الكلام أقوى من أن يسمح له بالضحك فقال:

- يا للأسلوب يا عزيزتي الذي تتحدثين به عن هذا القبيل من الأمور!

فسألته مسز بيل:

- وكيف ينبغي أن تتكلم بعد كل هذا الوقت الفظيع الذي قضته مع أمها؟

فوضحت ميزي الأمر قائلة:

- لم تكن ماما هي التي أخبرتني. وإنما هي مسز ويكس.

وترددت في التصريح أمام السير كلود بالمصدر الذي استقت منه
مسز ويكس معلوماتها، بيد أن مسز بيل برهنت على عبث هذا التجريح،
إذ قالت للشاب:

- أتعلم أن هذه المرأة الشاذة جاءت لزيارتي منذ يوم أو يومين؟
وفي هذه الزيارة أخبرتها أنني رأيتك مرارًا.

فبدأ على السير كلود ما لم يكن يبدو عليه بسهولة من البلبلة، وسأل
ميزي:

- يا لتلك القطعة العجوز! إنها لم تخبرني بذلك قط. إذن فأنت كنتِ
تعتقدين أنني كاذب؟

فأعجبته هذه الكلمة التي نعتت بها صديقتها اللطيفة الرقيقة،
ولكنها أدركت أن الموقف يتطلب منها أقصى درجات المسايرة، فقالت
بقصد تحسين موقف مربيتها:

- أنا لم أبالِ بذلك. أما مسز ويكس فما كان أشد مبالاتها.

ولم يكن وقع هذا الكلام بالغ الحسن لدى مسز بيل التي أعلنت
رأيها قائلة:

- مسز ويكس في منتهى البلاهة!

وسأل السير كلود:

- ولكن ماذا كان لديها من كلام تقوله لك من دون جميع الناس؟

-إنها مثل مسز ميكوبر- التي لا بد أنها تشبهها كثيرًا فيما أعتقد- لن ولن تفارق الآنسة فارانج.

فرد عليها السير كلود بمرح قائلاً:

- سأسوي هذا الموضوع.

فقالت مسز بيل، في حين كانت ميزي تتساءل كيف سيتصرف:

- أرجو أن يتم لك هذا يا صاحبي العزيز.

وقبل أن يتسع الوقت أمام ميزي للسؤال استطردت مسز بيل:

- ولكن هذا ليس كل ما جاءت لأجله من فضلك. ولكنك لن تستطيع أن تخمن الباقي.

فقالت ميزي بصوت مرتجف:

- هل أخمن «أنا»؟

ومرة أخرى قالت مسز بيل في تفكه:

- بل أنت من تستطيعين ذلك على وجه التحديد. فلا بد أنه من قبيل ما سمعت في بيت أمك الفظيعة. هل رأيت هناك قط نساء يصحن بها أن «تُبقي على» الرجال الذين يحببنهم؟

وحاولت ميزي وهي متعجبة أن تتذكر، ولكن السير كلود قال:

- إنهم لا يعينن أنفسهن بأيدا. هل صاحت بك مسز ويكس أن تبقي عليّ «أنا»؟

- بل إنها ركعت أمامي على ركبتيها.

فصاح الشاب:

- يا للعزيزة العجوزة الحبيبة!

فكانت هذه الكلمات مصدر فرح لميزي؛ لأنها أست الجرح الذي أحدثه بنعته السابق بمسز ويكس، وسألت مسز بيل:

- وهل «سوف» تبقيين عليه؟

فأمسكت بها زوجة أبيها وقبلتها مرة أخرى وقد بدا عليها الافتتان بلهجة السؤال:

- لن أبقى على بوصة واحدة منه، سأتي عليه فلا أترك منه إلا العظام.

فألحت ميزي عليها قائلة:

- أتعنين أنه سيأتي مرارًا كثيرة حقيقة؟

فحولت مسز بيل عينيها الجميلتين إلى السير كلود، وقالت:

- ليس لي أنا أن أقول.. فهذا متروك له هو.

ولم يقل مع ذلك شيئًا على الفور، بل سار ويداه في جيبيه وهو يدندن دندنة غامضة لحنًا ما صوب النافذة - وكان في مقدور ميزي أن تتبين عليه علائم التوتر العصبي - وراح يطل على حديقة ريحنت، فقالت ميزي:

- لقد وعد بالحضور. ولكن ترى كيف سيستقبل أبي هذا؟

- تعنين ترده على البيت؟ هذه مسألة أصارحك يا عزيزتي أنها غير ذات بال. والواقع مع هذا أن بيل يجد متعة كبيرة في أن السير كلود

المسكين اضطر أيضًا إلى التشاجر مع أمك.

والثفت السير كلود وقال بجد وحنان:

- لا تخافي يا ميزي. فلن أغيب عن نظرك.

فتهللت ميزي وقالت:

- أشكرك أجزل الشكر. ولكن ما عنيته هو ماذا عسي أن يقول أبي

«لي».

فقالت مسز بيل:

- لقد تابحت معه في هذا الشأن، وسيكون مسلكه معقولاً.

فالصعوبة الكبرى أنه رغم تغير رأيه في كل شيء في الدنيا مرة كل ثلاثة أيام، إلا أنه لم يغير قط رأيه في أمك. فطريقة بغضه لها تنذر بالويل.

فأطلق السير كلود ضحكة قصيرة، وقال:

- ولكنها لا يمكن أن تفوق طريقة، بغضها «له».

فاستطردت مسز بيل متلطفة:

- حسنًا. ما من شيء يمكن أن يحل لديهما محل شعور كل منهما

تجاه الآخر. وخير وسيلة تطرأ على ذهنهما للتعبير عن ذلك الشعور هي أن يترك كل منهما أطول مدة ممكنة على كاهل الآخر. وتستطيعين أن تبيني بنفسك أنه ما من شيء يثير غضب كل منها كما يثيره هذا التصرف.

وليس هذا لأنك باهظة التكاليف أو مزعجة - فأنت لا تطلبين لنفسك إلا أقل القليل - بل لأنك تجعلين كلا منهما يحس بمدى ما يبدیه الآخر من خساسة. ولذا يمضي بيل في صب اشمئزازه على أمك بإفراط شديد لا

يسمح له ببقية من الغضب الشديد يصبها على أحد سواها. ثم إنني كما تعلمين سويت الأمر معه.

فصاح السير كلود بضحكة أعلى وهو يتحول مرة أخرى إلى النافذة:
- يا إلهي!

فبادرت ميزي تقول:

- «أنا» أعرف كيف سويت الأمر معه. لقد تركته يفعل ما يريد بشرط أن يدعك أيضاً تفعلين ما تريدين.

فأقبلت عليها تضمها ضمة أخرى وهي تقول وقد ألصقت خدها
بخد الطفلة:

- ما أظرفك يا مدللتي الصغيرة. كيف بالله استطعت أن أعيش كل هذه المدة من دونك؟ إنني لم أكن سعيدة يا حبيبتي.

فقالت ميزي وهي تختلج بحنان حيي:

- اسعدي الآن!

- أعتقد أنني سأسعد. فسوف تنقذيني.

فسألته الفتاة الصغيرة بلهفة:

- مثلما أنقذ السير كلود؟

وانتابت مسز بيل حيرة طفيفة، فلجأت إلى زائرها تسأله:

- أهـي تنفذك حقاً؟

فظهر عليه التفكير بسؤال ميزي، وقال:

- إنها فكرة العزيزة مسز ويكس. وهي فكرة قد لا تخلو من ظل للحقيقة.

فقالت ميزي لزوجة أبيها:

- إنه جعل مني واجبه، ويجعل مني حياته.

فقالت مسز بيل وقد جعلها إحساسها بأنها سُبقت إلى ما تفكر فيه تحمر احمرارًا شديدًا من فرط الدهشة:

- ولكن هذا ما أريد «أنا» أن أفعله!

- في وسعكما أن تفعلاه معًا. وعندئذ سيكون «عليه» أن يأتي.

وفي هذه اللحظة كانت مسز بيل قد وضعت صديقتها الصغيرة في حجرها ورفعت وجهها باسمه إلى السير كلود قائلة:

- هل نقوم بذلك معًا؟

وكان قد فرغ من الضحك، فحول وجهه الجاد الوسيم لحظة إلى ابنة زوجته لا إلى مضيفته، وقال:

- هذا شيء أليق من بعض الأشياء الأخرى. بل لعمرى إنه ل يبدو لي - على حسب ما تتجه إليه الأمور الآن - الشيء الوحيد اللائق!

وبدا عليه أنه يقيم البرهان على رأيه لميزي، ويصوره لها - بباعث من ضميره - على أنه وسيلة يشرفهما أن تشترك فيها، وإن كان تعلله بمحض «اللياقة» ربما فات إدراكها الوردي الصغير، وصاح:

- فإن لم نكن صالحين «لك» فلست أدرى لمن عسانا نصلح.

وزادت مسز بيل الطفلة إيضاحًا بقولها:

- أحسبك سوف «تنقذينا».. من بضعة أمور.

وأكد لها السير كلود بجلاء ذلك المعنى:

- أنا أعرف ما سوف تنقذني منه. وما أكثر ما سيكون ذلك طبعًا.

فبادرت مسز بيل تعقب على قوله:

- نعم. ولكنه سيكون بالنسبة لك لا شيء إذا قورن بما تثيره زوجتك في الوقت الراهن. وأنا أستطيع أن أتحمل ما أعانيه، ولكني لا أستطيع أن أتحمل ما تعانيه أنت.

واستطرد السير كلود يقول لميزي بلهجة الجد عيناها:

- إننا نفعل الكثير لك أيتها الصغيرة كما تعلمين.

فاحمر وجهها إحساسًا بالفضل ولهفة على إظهار أن ذلك الفضل لا يضيع لديها سدى:

- أعرف هذا!

فضحك هذه المرة وقال:

- إذن يجب عليك أن تحسني القيام على أمرنا.

فصاحت مسز بيل:

- يا له من أسلوب هذا الذي تكلمها به.

فأجابها في مرح:

- إنه ليس أسوأ من أسلوبك الذي تكلمينها به!

فأجابت بنفس الروح:

- المعول على الأفعال لا على الأقوال!

ثم استطردت وهي تفلت ميزي من حضنها:

- في وسعك أن تخلعي ثيابك.

فالت الطفلة وقد وقفت على قدميها وسيطر عليها الانفعال:

- هل يجب إذن أن أبقى هكذا؟

- سيان هكذا أو على أي وجه آخر. فسيأتي إليك السير كلود غدًا

بأمتعتك.

فوعدها السير كلود قائلاً:

- سأحضرها بنفسي. أعدك بأنني سأشرف على حزمها. تعالي هنا

وفكي أزرارك.

وكان قد استدعى بإيماءة منه مرافقته الصغيرة إلى حيث جلس

وأعانها على التخلص من دثاراتها، على حين راحت مسز بيل على

مسافة يسيرة تبتسم لما يفعل بيديه، وقالت:

- هاك ما يفعله لك زوج أملك. أراني ملزمة للاعتراف بأنه يعوضك

عن افتقارك إلى سواه من الناس.

فضحك السير كلود:

- إنه يعوضها عن افتقارها إلى حاضنة. ألا تذكرين أنني قلت لك

ذلك في أول مرة التقينا فيها؟

- أذكر؟ إن هذا بالضبط هو ما حملني على أن أحسن الظن بك إلى هذا الحد!

فقال الشاب لميزي:

- ولكن ما من شيء يمكن أن يغريني بأن أخبرك بما حملني على إحسان الظن بها «هي».

وكان قد انتهى من خلع دثارات الطفلة، فقبلها بلطف، ثم ربت عليها برفق ليبعدها قليلاً؛ واقرن هذا التربيت بزفرة غامضة عادت بها إليه هيئة الجد التي كان عليها منذ برهة، وقال:

- وعلى كل حال لو لم تكن لديك موهبة الجمال الفتاك...!

فسألته ميزي وهي تعجب لماذا لم يتم عبارته، فقد كانت هذه أول مرة تسمع فيها عن جمالها:

- إذن ماذا؟

- لما تسنى لنا أن يحسن كل منا الظن بالآخر.

وفسرت لها مسز بيل ذلك قائلة:

- إنه لا يتكلم عن الحلاوة الجسدية. فليس لك يا عزيزتي ذلك الجمال السوقي على الإطلاق. وإنما كلامه عن سحر السجاياء الواضح.

فقال السير كلود لمسز بيل:

- إن سجايها لهي أعجب شيء في الدنيا.

فقالت متشامخة بما تعرف:

- إني أعرف كل شيء عن هذا القبيل من الشمائل!
- فأحست ميزي على نحو ما إحساسًا مفاجئًا بالمسؤولية لاذت منه بقولها في حرارة:
- ولديكما أيضًا «هذا النوع من الشمائل». لديكما هذه الموهبة الفتاكة: كلاكما يتمتع بها في الحقيقة!
- فقال السير كلود محتجًا:
- جمال السجايا؟ ليس لدينا من ذلك يا فتاتي العزيزة شروى نقير.
- فبادرت مسز بيل تقول بخفة:
- تكلم عن نفسك يا سيدي. أما أنا فطيبة وماهرة. فماذا تريد فوق هذا؟ أما أنت فسأعفيك من حمرة الخجل فلا أتكلم في الصفات الشخصية، وحسبي أن أقول إنك وسيم إلى أبعد مدى.
- فقالت ميزي وقد أحست بحاجتها إلى المضي في توضيح مرادها:
- كلاكما جميل جدًا. ولا مناص لكما من هذا. فما أحلى أن يراكما المرء جنبًا إلى جنب.
- وكان السير كلود قد تناول قبعته وعصاه، فوقف ينظر إليها برهة ثم قال:
- كم فيك من تسرية للهم. بيد أنني ينبغي أن أعود إلى البيت؛ لأحزم متاعك.
- ومتى ستعود؟ غدًا. غدًا؟

فقال لمسز بيل:

- ها أنتِ ترين ما صرنا إليه!

- في استطاعتي أن أتحملة إن استطعت ذلك أنتِ!

فراحت رفيقتهما تنقل تحديقها من أحدهما إلى الآخر وهي تفكر في أنها وإن كانت سعيدة حقاً بين السير كلود ومسز ويكس فهي لا شك ستكون أسعد حالاً بين السير كلود ومسز بيل؛ بيد أن ذلك كان أشبه بامتطاء صهوة حصان متوثب؛ فأقدمت على حركة تريد أن تتعلق بشيء:

- أليس لي إذن أن أودع مسز ويكس؟

فقال السير كلود:

- سأسوي هذا الأمر معها.

وفكرت ميزي قليلاً، ثم قالت:

- ومع ماما؟

فضحك ضحكة حزينة، وقال:

- آه من ماما!

وبدا حتى للطفلة أن ذلك الرد يخلو من اللبس، بيد أن مسز بيل حاولت أن تسهم في توضيحه:

- كم ستنق أملك. ستملاً الدنيا صياحاً.

ولما وجدها السير كلود تبحث عن تشبيه قال:

- مثل طير البكور.

واستطردت مسز بيل تقول:

- ولن تكون بحاجة إلى ما يعزيها عن حمل أهلك على التجديف
الصاحب.

فحملت ميري وقالت:

- وهل سيحذف تجديفاً صاحباً؟

فقد كان التعبير قوي الوقع عليها، ولعله مقتبس من التوراة. فأثار
سؤالها هذا موجة جديدة من المداعبات التي اشترك فيها أيضاً السير
كلود، في حين راحت تتساءل - بعد استغناء عن مسز ويكس - من الذي
سيمثل في حياتها عنصر الجغرافيا والنوادر، وسرعان ما تغلبت على
الحرص الذي تستشعره من السؤال، فقالت:

- ألن يكون هناك أحد يقوم بتدريسي؟

وكانت مسز بيل متأهبة بإجابة لفتت نظرها بما فيها من أبهة بالغة:
- ستلقين من الدروس ما لم تتلقي مثله في حياتك من قبل.
ستذهبين لتلقي دراسات.

ولم تكن ميري قد سمعت بشيء كهذا من قبل:

- دراسات؟

- في معاهد.. في مواد معينة.

وواصلت ميري حملتها:

- مواد؟

وكانت مسز بيل رائعة حقاً وهي تقول:

- في أهم الموضوعات. الأدب الفرنسي والتاريخ المقدس.
وستشتركون في فصول مع أجمع الأطفال.
فقال السير كلود:

- سأنقصي هذا الأمر برمته شخصياً.
وبرقة بالغة أوماً إليها يطمئنها إيماءة مصحوبة بغمزة عين ودية.
ولكن مسز بيل مضت في كلامها قدماً:

- إنكِ يا طفلي العزيز ستحضرين محاضرات.
فغدا الأفق مترامياً أمام ميزي فجأة، وشعرت بازدياد ضآلتها فقالت:
- بمفردي تماماً؟

فقال السير كلود:
- لا. سأحضرها معكِ. وسأتعلم منها الكثير مما لا أعرف.
وقالت مسز بيل في جد:

- وكذلك سأتعلم منها أنا الكثير مما لا أعرف. سنذهب معها
كلانا. سيكون ذلك بديعاً.
واعترفت لميزي قائلة:

- لقد مضت حقب طويلة منذ سنحت لي فرصة للدراسة. وهذا
وجه آخر ستكونين فيه دافعاً طيباً لنا.
ثم اندفعت تقول للسير كلود بلا احتجاز:

- أليس ما ستسديه إلينا شيئاً جسيماً؟

فوزن المسألة ثم أجابها:

- هذه هي فكرتنا بالتأكيد.

ولم تكن هذه الفكرة بالطبع واضحة في ذهن ميزي، بيد أنها ألهمتها بحماسة تضاهي حماسها. ولئن كان هذا المخطط بالغ الإشراق حتى أنها لن تشعر بتطلعها إلى شيء آخر، فمعنى هذا أنها لن تشتاق إلى مسز ويكس. إلا أن إحساسها بموافقتها على غيبة هذه الشخصية الأثيرة جعل كلمتين طالما رنتا في أذنيها تعودان إلى الرنين في سمعها. فقد تبينت باختصار ما كان يعنيه أبوها دائماً إذ ينعت أمها بأنها «دنيئة منحة» وما كانت تعنيه أمها إذ ترمي أباهما بهذا الوصف نفسه. وتساءلت ألن تكون دنيئة منحة، حين تتعلم كيف تكون سعيدة من دون مسز ويكس.

وقبل أن تدري ميزي ما هي صانعة خرجت هذه الهواجس من بين شفيتها، وكان السير كلود قد صار عند الباب بسبيله للانصراف، فوقف زوج أمها برهة كافية للإجابة عنها، وصاح:

- سأسوي الأمر معها.

ثم انطلق، وبقيت ميزي وجهًا لوجه مع مسز بيل فصعدت زفرة ارتياح، وتلفتت حولها تنظر فيما بدا لها وكأنه فجر مستوى أرقى، ثم قالت في اطمئنان:

- إذن «الكل» ستسوي أمورهم.

وعندئذ انحنت زوجة أبيها عليها مرة أخرى بإعزاز.

الفصل الخامس عشر

كانت سوزان آش هي التي جاءتها بالنبأ:

- إنه في الطابق السفلي يا آنسة. وكم يبدو جميلاً.

وكانت ميزي جالسة إلى البيانو في حجرة الدراسة بيت أبيها ذات الستائر الزرقاء الجميلة، تحاول أن تؤدي بمشقة معزوفة صغيرة حلوة كانت مسز بيل تسميها «أمهودة نور القمر»، وكان السير كلود قد أرسلها إليها بطريق البريد؛ لأنه كان يعتقد أن تعليمها الموسيقى أهمل إهمالاً مؤسفًا، حتى إنه في الشهور الأخيرة من إقامتها في بيت أمها كان على وشك أن يقوم بالترتيبات اللازمة كي تتلقى دروسًا منتظمة في هذا الفن. ومنه عرفت أن النوع الحقيقي من هذا التعليم فاحش الغلاء على حد تعبيره، وأن ما عداه من الأنواع مضيعة للمال. ولذا فقد زاد ذلك من ابتهاجها بالتضحية التي تتمثل في هذا اللحن الذي كان ثمنه -وهو خمسة شلنات- مطبوعًا على غلافه، ولا بد أنه من النوع الحقيقي. ووثبت واقفة على قدميها وسألت:

- هل أرسلت مسز بيل في طلبي؟

فقالت سوزان آش:

- لا. ليس الأمر هكذا. مسز بيل في الخارج منذ ساعة.

- إذن فهو بابا!

- لا. ليس بابا. أنتِ على ما يرام يا آنسة فيما عدا هذه الشعرات
الثائرة.. أبوك لم يعد إلى البيت إطلاقاً.

فأجابتها ميزي وهي شاردة الذهن بعض الشيء من فرط التوفز
وراحت تمشط خصلات شعرها بيدها بعصبية:

- لم يعد إلى البيت من أين؟

- أما عن هذا يا آنسة فيؤسفني أن تضطريني لإخباركِ الحقيقة. أنا
أفضل أن أخفي لكِ هذا الشيء الأبيض الذي يطل من الخلف. وإن كان
هذا في الحقيقة ليس عملي.

فاستطردت ميزي بصبر نافذ:

- افعلي إذن من فضلك. أنا أعرف أين كان بابا.

- لو كنت في مكانكِ لما قلت أين كان.

- كان في المنتدى. في منتدى الأتقوان. هاك!

فصاحت سوزان آش:

- طوال الليل؟ إن الأزهار تغلق أكمامها في الليل كما تعلمين!

فقالت الطفلة وهي عند الباب:

- حسناً. لست أبالي. هل طلب السير كلود أن يراني «وحدي»؟

- كما لو كنتِ دوقة.

وأحست ميزي وهي في طريقها هابطة السلم أنها ليست في سعادة الدوقات. وبعد لحظة تعلقت بعنقه في حرارة لا يمكن أن تباريها فيها الدوقات. وكان في لهجتها شبه من لهجة الدوقات وهي تصحيح به في شيء يسير جدًا من الحدة:

- أهذا ما تسميه القدوم «مرارا»؟

واستقبلها السير كلود مهتللاً وبنفس الروح المرحّة:

- يا عزيزتي الأثيرة لا تجابهيني بالشجار. فهذا ما أؤكد لك أن كل امرأة أنظر إليها تفعله بي. هيا بنا نحظى بشيء من المرح؛ فاليوم يوم بديع. البسي بسرعة شيئاً أنيقاً وتعالى معي لنخرج ونتحدث في هذه المسألة بهدوء.

وبعد خمس دقائق كانا في طريقهما إلى هايد بارك. وما من شيء تحدثا فيه من قبل - حتى في أحسن الأيام التي تخللت مقامها في بيت أمها- كان أحفل بعذوبة الطمأنينة من هذه الإيضاحات التي بادرها بها الآن. فهو في خير حالاته حين يوضح شيئاً. ثم هو باستثناء مسز ويكس الشخص الوحيد الذي التقت به في حياتها من حيث الإقبال على التفسير. ثم إن هذا العمل من جانبه يتسم بسلطان يتجاوز ما تصل إليه عقلية المرأة. وارتدت إليها جميع الخطط التي كانت تفشل دائماً وجميع الهبات والرشاوى التي كانت تؤديها باستمرار وينتهي بها الأمر إلى خسارتها باستمرار أيضاً. فكل هذا الضغط الضخم الذي كان عليها أن تتحمله كان يؤدي بها في كل مناسبة جديدة إلى موضوع النقود. وكانت شخصياً تكاد تعرف أن سلطانه يصل إلى حد أن طرد إحساسها

بأنها خُدعت لم يكن يقتضي منه إلا أن ينفخ على هذا الإحساس من تحت شاربه الجميل. ومن طبيعة الخطط على نحو ما أن تكون باهظة التكاليف. ومن طبيعة ما هو باهظ التكاليف أن يكون مستحيلًا. و«الارتباك» من جوهر الأحوال المالية لكل إنسان. ومن شأن كل لحظة معينة أن تزيد من ذلك الارتباك. وكان هذا هو الحال مع السير كلود ومع بابا ومع ماما ومع مسز بيل ومع ميري نفسها في لحظة معينة طالت بضعة أسابيع، هي المدة التي انقضت منذ عادت سيدتنا الصغيرة إلى بيت أبيها. فلم يعد هنا «شلنان وبنس» لأي شيء أو لأي أحد. ولذا لم يتمخض عن شيء ما سبق أن قيل عن دروس الأدب الفرنسي التي كانت ستلقاها مع الفتيات الصغيرات اللامعات. وإنه لأمر محرج للغاية أن تحاول -من غير أن يكون رأس المال المحدود متوافرًا- أن تجعلها تتعلق بتلك الاستعدادات بعيدة المنال التي جعلت تتلأأ بعد ذلك أمام عينيها باعتبارها خاصة بأطفال الأغنياء. فصار إحساسها بعد ذلك وكأنها تضغط بأنفها على زجاج صلب في واجهة محل المعرفة. ولئن كانت تلك الفرق الدراسية الممتازة فادحة الأجر إلى درجة الاستحالة، فالمحاضرات في المعاهد -أو في بعضها على الأقل- تلقى مباشرة على الأذكياء الفقراء. ومع هذا كان من السهل إطلاعها في الحال على السبب في عدم أخذها إلى شيء من هذه المحاضرات. وهذا السبب -كما قال السير كلود- أنها بسبيلها الآن إلى هناك، وإن لم يكن اتجاه خطواتهما في تلك اللحظة إلى شواطئ «السربنتين» لم يكن له شأن بذلك. وكانت حديقة ميري الخاصة في الشمال أقرب إليهما، إلا أنهما

ركبا عربة أجرة اتجهت بهما صوب الغرب؛ لأن هذا هو الاتجاه الذي يمضي فيه أواخر أيام شهر يونية البديع جميع الأشخاص المرموقين. وأحسا لمدة ساعة قضياها عند جدول نزهة القوارب وعلى طريق العربات الإفادة من هذه الفرصة التي تبعث التفكه في كل من يرقبهما، وهي أيضًا فرصة لقيام أحدهما بالتعمية على الآخر في شيء غير قليل من الصخب، وقبل انقضاء الساعة طالبتة ميري بمزيد من الإيضاح بصدد غيبته الطويلة وفي شيء من التحدي، فأجابها:

- أتسأليني لماذا أخلفت وعدي لك بهذه الصورة الفظيعة، وكيف أعد هذا الوعد القاطع، ثم لا آتي إطلاقًا؟ الحقيقة يا عزيزتي أن هذا السؤال عن عدم رؤيتك إياي يومًا بعد يوم لا بد أنك وجهته مرارًا كثيرة جدًّا إلى مسز بيل.

فأجابته الطفلة:

- نعم. مرارًا وتكرارًا.

- وماذا قالت لك؟

- إنك رديء بقدر ما أنت جميل.

- أهذا ما تقوله عني؟

- بالفاظه.

وبدا السرور الواضح على السير كلود، وقال:

- يا للعزيزة الأثيرة!

وكانت ضحكته الصافية هي كل ما تقدم به من إيضاح. فكانت

كلماته هذه هي آخر ما سمعته ميزي يستخدمه في حديثه عن مسز ويكس. وتعلقت بيده التي كانت داخل قفاز لؤلؤي اللون مزين بخطوط عريضة سوداء. وكانت هذه الخطوط تلفت نظرها دائماً وهي في بيت أمها لارتباطها بطريقة السيدات الطويلات في حمل مظلاتهن مقبوبة وقد ثنين معاصمهن. وكان إحساسها بقبضته في قبضتها يغطي على الخسارة كما يغطي على الكسب. فوجوده معها أشبه بشيء وضع لصق وجهها بحيث يستحيل عليها أن ترى ما حول أطرافه. أما هو فظل يقوم لها بدور الدليل في تلك المشاهد حتى بعد أن خرجا من هايد بارك وشرعا تحت تأثير سحر المكان والزمان يدرجان في حدائق كنجستون. وما خلفاه وراءهما كان على حد قوله سرّاً رديئاً للغاية. ولما اخترقا بوابات جذابة واجتازا قنطرة وصلا بعد ربع ساعة -على حد تعبيره أيضاً- إلى مسافة مئات الأميال من لندن، فإذا أمامهما ممر أخضر كبير وأشجار عتيقة عالية، وتحت ظلال هذه الأشجار ارتسمت في العشب الناضر دروب متعرجة من أثر موطئ الأقدام. وقال السير كلود في ابتهاج:

- هذه غابة آردن، وأنا الدوق المنفي. وأنت -ماذا كان اسم الشابة؟- الصبية الريفية الساذجة. وهناك أيضاً الفتاة الأخرى -ما اسمها؟ روزالند؟- والشخص الذي كان يتودد إليها. لعمرى إنه يتودد إليها.

وكان يشير بذلك إلى اثنين كانا يسيران جنباً إلى جنب في نهاية الممر وفي نفس اتجاهاهما. وكانت صورتهم البعيدة في سيرهما المتمهل (الذي أبقاهما متدانيين جداً، حتى إن رأسيهما المطرقين

قليلاً إلى الأمام كادا يتلامسان) تمثل ظهر سيدة تبدو طويلة القامة، ومن الواضح أنها راقية جداً، وظهر سيد كانت يده اليسرى تبدو متعلقة تمام التعلق بذراعها في حين كانت يده اليمنى تقوم من وراء ظهره بحركات اهتزازية للعصا التي تمسك بها تلك اليد.

واستجاب خيال ميزي برهة لما تراءى لصديقها من هذا المنظر الرقيق. ثم وقفت فجأة وهتفت بكل ما لديها من وضوح:

- ما أشد عجبي إن لم تكن هذه ماما!

ووقف السير كلود محملاً ثم قال:

- ماما؟ ولكن ماما في بروكسل!

وتساءلت وعيناها على السيدة:

- في بروكسل؟

- ذهبت إلى هناك لتلعب مباراة.

- في البلياردو؟ إنك لم تقل لي ذلك.

فقال السير كلود:

- طبعاً لم أقل لك. هناك أشياء كثيرة أقولها لك. لقد سافرت يوم الأربعاء.

وكان الاثنان قد ابتعدا مسافة أخرى؛ بيد أن عيني ميزي كانتا أقدر على متابعتهما:

- إذن فهي قد عادت.

وجعل السير كلود يرقب السيدة ثم قال:

- بل الأقرب إلى الاحتمال جدًّا أنها لم تسافر قط!

وقالت الطفلة بإصرار:

- إنها ماما.

وكانا قد وقفا شابتين في مكانهما، ولكن السير كلود أحسن الاستفادة من فرصته إلى أقصى حد. واتفق في تلك اللحظة بالذات أن الاثنين الآخرين توقفا أيضًا في نهاية مرمى النظر بين الأشجار وراحا وهما موليان ظهريهما يتجاذبان الحديث فيما يبدو فهتف أخيرًا:

- أنتِ على حق يا بطتي. إنها بعينها زوجتي المليحة!

قالها وهو يضحك إلا أن لونه تغير وبسرعة أشاحت ميزي بنظرها وسألته:

- إذن من هذا الذي معها؟

فقال السير كلود:

- سحقًا لي إن كنت أعلم!

- أهو مستر بريام؟

- لا. لا.. بريام قُضي عليه.

- قُضي عليه؟

فابتسم السير كلود وقال:

- انكشف.. في المصفق. ولكن هناك كثيرون غيره.

وبدا على ميزي أنها تحصيلهم؛ وراحت تدرس ظهر الرجل ثم
قالت:

- إَدْنُ فهو اللورد أريك؟

وظل رفيقها لا يجيب برهة؛ ولما حولت عينيها إليه مرة أخرى كان
ينظر إليها فيما اعتقدت نظرة ظاهرة الغرابة. وسألها:

- ماذا تعرفين عن اللورد أريك؟

فحاولت ببراءة أن تبدو غامضة بدورها، فقالت:

- إني أعرف أكثر مما أظن! أهو اللورد أريك؟

- ربما. سحَقًا لي إن كنت أبالي!

وكان صاحبهما قد تباعدا بعض الشيء، ثم إذا بهما الآن والسير
كلود يتكلم يستديران فجأة فبدت فخامة الليدي في كامل أبهتها؛ وزال
الغموض عن زميلها. وحبت ميزي أنفاسها بعد أن قالت:

- ها هما قادمان!

وأخرج السير كلود سجائره وأشعل ثقابًا، وقال:

- دعيهما يقدمان.

- سنقابلهما!

- لا. بل هما اللذان سيلتقيان «بنا».

وثبتت ميزي في مكانها:

- إنهما يريانا. انظر.

وألقي السير كلود بعود الثقاب، وقال لها:

- هيا بنا قدمًا.

وبدا على الآخرين بوضوح أنهما بُوغتا، وكادا يتوقفان مرة أخرى

عن السير وتباعدا تمامًا؛ فاستطرد السير كلود:

- إنها في دهشة هائلة وتريد أن تروغ. ولكن فات الأوان.

وتقدمت ميري بجواره، وقد أدركت أن الليدي في مأزق، وقالت:

- إذن ماذا ستصنع؟

ونفخ السير كلود دخان سيجارته، وقد بدا عليه الاستمتاع بالموقف:

- إنه يفكر بسرعة.

وكانت أيدا لم تزد في ترددها على لحظة واحدة؛ ومن الواضح أن زميلها كان يشد من أزرها، وخيل لميري أنه يبدو شجاعًا فهو لا يشبه مستر بريام على الإطلاق؛ فوجهه النحيل الحاد ناعم. ولم تتبين إلا بعد أن اقتربا أن له شاربًا صغيرًا أشقر لطيفًا. واستطاعت أيضًا أن تتبين أن لون عينيه على أخف ما يكون من الزرقة. إنه أملح كثيرًا من مستر بريام. وكانت ماما تبدو مروعة عن بعد. ولكن فضول الطفلة حتى وهي تحت نيرانها تأجج ولجأت مرة أخرى إلى السير كلود تسأله:

- أهو.. أهو اللورد أريك؟

وكان السيرد كلود يدخن في هدوء تام، فقال:

- أظنه الكونت.

وكان هذا حلًا موفقًا؛ لأنه يوافق فكرتها عن أي كونت. ولكن أي فكرة تطابقها صورة ماما وهي مقبلة الآن في عظمة، ما لم تكن صورة ممثلة في موقف هائل تخطو نحو المصابيح الأمامية لخشبة المسرح وكأنها تريد أن تتخطاها قفزًا؟ وشعرت ميزي بالارتياح حقًا حتى إنها دست يدها وهي لا تدري في ذراع السير كلود، فجعله ضغط يدها يقف، ولما رأى الآخرين ذلك وقفا أيضًا، واندمجا برهة أخرى في الكلام، وهما على تلك المسافة القصيرة. ويبدو أن الحديث لم يتجاوز الاستئذان في ترك الكونت برهة كي يقوم بحركة التناف دائرية - لو أن ميزي كانت على علم بتلك الحركة العسكرية؛ ثم استأنفت الليدي زحفها؛ وتساءلت ميزي:

- ماذا عساها ستفعل الآن؟

وكان السير كلود قد صار في موقف أتاح له أن يقول:

- ستحاول أن تدعي أنني المخطئ.

- أنت؟

- إنني أنا الذي أكيد لها في الخفاء.

وبعد لحظة أخرى كانت أيدا المسكينة قد حققت هذه النبوءة، فوقفت أمامهما منتصبه كأنها شبح العدالة في كامل بزته. وكانت ثمة أجزاء من وجهها تزداد شحوبًا وميزي تنظر إليها؛ وأجزاء أخرى كان هذا التغير يؤدي إلى اصطباغها بألوان أغزر. وسألت زوجها:

- ماذا تصنع مع ابنتي؟

وعلى الرغم من لهجة الاستنكار، أحست ميزي إحساسًا أعمق من أي إحساس خامرها من قبل بأن شخصها ليس ذا بال. وخيل إليها أن السير كلود أيضًا اكفهر لونه نتيجة للتحدي الصاخب الذي كررت به أيدا هذا السؤال مرتين. وبدلًا من أن يجيبها، وجّه إليها استفسارًا من عنده:

- مَنْ ذا بحق الشيطان قد استحوذت عليه «الآن»؟

وعندئذ التفتت الليدي إلى الفتاة بصورة مفزعة وحدقت فيها كأنما هي شريكة في الإثم. فتلقت ميزي الارتياح الذي صبته عليها بكل قوتها عينا أمها الكبيرتان المكحولتان، فكأنهما مصباحان يابانيان يهتزتان تحت قوسين من أقواس المهرجانات. ولكن الحياة ارتدت إليها عن طريق لهجة طرأت عليها الرقة العجيبة فجأة:

- اذهبي فورًا إلى ذاك السيد يا عزيزتي، فقد طلبت إليه أن يصحبك بضع دقائق. إنه ظريف جدًا. اذهبي. فلدي شيء أقوله «لهذا» المخلوق.

وشعرت ميزي بالسير كلود يتشبث بها في الحال.

- لا. لا. شكرًا لك. هذا لا يمكن. إنها تخصني أنا.

- تخصك؟

وأذهل ميزي أن تسمعها تكلمه كما لو كانت تسمع بالسير كلود من قبل.

فقال السير كلود بلهجة أذهلت رفيقته، واستطاعت أن تلمس أثرها الشديد لدى أمها:

- تخصني. لقد تخليتِ أنتِ عنها. وليس لكِ أن تقولي كلمة أخرى بشأنها. لقد تسلمتها من أبيها.

وكان هناك على ما يظهر تأثير جعل أيدا تفكر. وراحت ترمق الرجل الذي تركته. وكان قد سار قليلاً ويده في جيبه إلى مسافة قريبة، ثم وقف هناك في غموض خال من الارتباك. فوجهت إليه محياها الذي يشبه حديقة مزينة بالأنوار بما فيها من باب حديدي دوار وما إلى ذلك كله؛ وكان لديه اشتراك الموسم الذي يخول له التردد على هذه الحديقة؛ ثم نظرت مرة أخرى إلى السير كلود، وقالت:

- لقد تخليت عنها لأبيها كي «يحتفظ بها»، لا ليتخلص منها ويتركها تجوب المدينة معك أو مع أي إنسان آخر. فإن كان لها ألا تبالي بي، فدعه «هو» يأتي إليّ ويقول لي هذا. وأنا أرفض أن أتقبل هذا من أي شخص آخر. وإنه ليستهويني أن تدعي أن لديك مبرراً لموقفك من هذا الاهتمام الخادع. أنا أعرف لعبتك. ولدي ما أقوله لك الآن عنها.

فضغط سير كلود على ذراع الطفلة، وقال:

- ألم أقل لك إنها ستقول شيئاً كهذا يا آنسة فارانج؟

واستطردت أيدا:

- ولكنك خائف من سماعه خوفاً غير عادي. فإن كنت تحسب أنها ستحميك مما سأقول، فأنت مخطئ أكبر الخطأ.

وتركت له برهة، ثم قالت:

- إنني سأمنحها التبرئة لعدم توفر الأدلة بمجرد النظر إليك. أتحب

لها يا عزيزي أن تعرف؟

وأحست ميزي أنها وجهت هذا السؤال بحيث أحدث أثره. ومع ذلك كانت فتاتنا الصغيرة تنطوي على أمل في أن يعلن السير كلود تفضيله لوجودها. وقد علمنا من قبل أنها صارت تحب من الناس أن يميلوا إلى «تعريفها» بالخفايا. وقبل أن يتسنى له الرد إطلاقاً كانت أمها قد فتحت ذراعين في منتهى الأناقة، ثم أحست بعدها بقبضته تخف عن ذراعها، وهمست أيدا بصوت خالطه رقة مفاجئة، حتى لقد خيل إليها أنها تسمعه لأول مرة:

- يا طفلي العزيزة!

ولم تتردد سوى برهة وقد هزتها هذه المناشدة المباشرة التي تختلف عن جذبة الأمومة المعهودة؛ وقد انطلقت هذه المناشدة من الشفتين اللتين طالما قذفتها بالقوارص في تلك السنوات الصاخبة. وفي اللحظة التالية كانت على صدر أمها وسط تيه من المصوغات، فشعرت كأنما قد أُلقي بها إلى واجهة محل لبيع المجوهرات فحطمت زجاجه؛ ثم فجأة أيضاً دفعتهما بعيداً عنها وهي تقول لها:

- الآن اذهبي إلى الكابتن!

ونظرت ميزي إلى ذلك الرجل بإذعان؛ إلا أنها أحست بحاجتها إلى مزيد من التعريف به:

- الكابتن؟

فانفجر السير كلود ضاحكاً، وقال:

- لقد قلت لها إنه الكونت.

فحملت أيدا وتشامخت، حتى بدت هائلة القامة، ثم صاحت:

- إنك لبغيض!

ثم أعادت أمرها إلى ابنتها قائلة:

- انطلقني!

فتراجعت ميزي إلى الورااء مجفلة ونظرا إلى السير كلود وأشارت إليه في ذهول:

- لحظة واحدة فقط.

ولكنه كان في حالة غضب شديد لم تسمح له أن يكثرث بها. كان غاضباً على زوجته. فلما استدارت لتبتعد سمعت غضبه ينفجر:

- أيتها الع... العجوز اللعينة!

ولم تستطع أن تسمع كل شيء بوضوح. ولكن ذلك كان كافياً، بل أكثر من كاف. ففرت أمام هذه الثورة المندفعة ولو إلى شخص غريب هربا مما أحدثه لديها تغير لهجته من صدمة عنيفة.



الفصل السادس عشر

ولما واجهت عيني الكابتن بزرقتهما الخفيفة حدثت أكبر أعجوبة،
فقد شعرت بالارتياح؛ إذ وجدتهما تذوبان بالقلق على الرعب المرتسم
على محياها.

- ماذا فعل؟

فهو قد وضع الوزر كله على كاهل السير كلود. فلم يسعها إلا أن
تقول:

- وصفها بأنها عبيطة عجوز ملعونة.

ففغر الكابتن فمه على سعته مما جعله على مستوى الليدي؛ ثم
بطبيعة الحال تشنج كأى إنسان آخر. بيد أنه تمالك نفسه على الفور
وردد صدى كلماتها الرديئة:

- والدتك.. عبيطة عجوز ملعونة؟

وكانت ميري قد صارت على وعي بحركتها التالية، فقالت له:

- أظنها حاولت أن تثير غضبه.

فكان ذهول الكابتن لذلك القول متسمًا بالركة:

- تثير غضبه.. «هي»؟ كيف هذا وهي ملك كريم!

وإذا قال هذه العبارة أسر محياه فؤادها على الفور؛ فقد كان في منتهى الإشراف والحنان وكانت عيناه الزرقاوان تفيضان بتألق غامض أذكته أمها فيه. وأعانتها حصيلتها من قوة الملاحظة على أن تحدد مكانه وهي تحديق فيه، فهو جندي بسيط صريح شديد الجدد - فيما ثاب إليه ذهنها - ولكنه ليس مفرغاً على الإطلاق. وهو على كل حال قد هز فيها وترًا كان جديدًا عليها مما جعلها تقول بعد لحظة:

- أتميل إليها كثيرًا جدًّا؟

فنظر إليها باسمًا وبدا عليه التردد وازداد ظرفًا على ظرفه، وقال:

- دعيني أحدثك عن أمك.

وبسط إليها يدًا عسكرية كبيرة، تناولتها على الفور، واستدارا معًا متجهين إلى حيث كان مقعدان تحت إحدى الأشجار. وقالت له ميري وهما سائران:

- لقد طلبت مني أن آتي إليك.

وسرعان ما كانت جالسة لصقعة على مقعد وأمامهما أبدع الصور - ألا وهو لألاء البحيرة من بين الأشجار الأخرى؛ ويصافح سمعهما صوت الأطيار وخريف الماء الذي تمخره الزوارق ولعب الأطفال تملأ أصداؤه الهواء. وأحنى الكابتن قامته العسكرية وجلس جلسة جانبية ليكون أقرب إليها وأحنى عليها. ولما كانت يدها فوق ذراع المقعد فقد وضع يده على يدها مرة أخرى ليؤكد شيئًا كان مقبلًا على الإفضاء به

إليها. شيئاً سيجدي عليها أن تسمعه. وكان قد أخبرها بالفعل كيف أن أمها منذ رأتها على غير انتظار وفي صحبة شخص.. حسناً.. شخص ليس على ما يرام إطلاقاً طلبت إليه على الفور أن يتولى رعايتها إلى أن تقوم هي بالانقضاء - كما قالت - على الآثم الحقيقي. وأوحى إلى الطفلة الإحساس بأنه في هذا الوقت الذي يمضيه معها إنما يفعل ما يوافق هواه. وقبل عشر دقائق لم تكن قد رآته إطلاقاً، إلا أنها تستطيع الآن أن تجلس هنا تلمسه ويلمسها ويدور بخاطرها أنه من المستحب أن يكون الرجل نحيفاً أسمر اللون سمره صافية الأعماق تجعل شاربه الذي يشبه لونه لون القش يكاد يبدو أبيض؛ وأن تكون عيناه أشبه بالأزهار الصغيرة الشاحبة. وأعجب ما في الأمر أنه لم يبدُ عليها في ذلك الوقت بالذات أدنى مبالاة بما يتعرض له السير كلود. ولم يكن شبيهاً به في شيء إذ كان الجانب العجيب في ظرف صديق ماما أن له وجهاً لمت أشتات ملامحه على غير الأصول المتعارف عليها بحيث صار الترفق الوحيد به أن تكتفي في وصفه بأنه غريب مضحك. وأعجب من هذا أيضاً أن سيدتنا الشابة قالت لنفسها وهي بصدد تحديد كنهه أنه أشد الناس في الدنيا تذكيراً لها بطريقة خفية للغاية بمسز ويكس. فهو لا يستخدم المثبتات ولا الإكليل وليس له - في نفس الموضوع على الأقل - زر. وقد لوحته الشمس تلويحاً شديداً، وصوته عميق ورائحة السيجار تفوح منه. ومع ذلك كله فهو بصورة عجيبة أشبه بمرييتها العجوز منه بزواج أمها الشاب. وما كان يريد أن يقوله لها مما سيجدي عليها سماعه هو أن أمها المسكينة (ألا تعلم هذا؟) أفضل صديقة عرفها

في حياته كلها على الإطلاق. وأضاف إلى ذلك قوله:

- لقد حدثتني عنك بالشيء الكثير. وأنا سعيد للغاية.

لم يسبق لها فيما تعتقد - أن خُوطبت بهذه الصورة باعتبارها سيدة شابة، حتى ولا من جانب السير كلود في ذلك اليوم الذي غبر عليه زمن طويل جدًا حين وجدته مع مسز بيل. وخطر لها أن هذا هو الأسلوب الذي لا بد أن السيدات الشابات يُخاطبن به في المراقص من جانب مراقصيهن المبهجين في الفترات التي تقع بين الرقصات. وحاولت أن تفكر في شيء يليق أن ترد به على هذا الكلام في مستواه العالي نفسه، بيد أن ذلك الجهد آدها، وكان أقصى ما قالته:

- لقد ظننتك في البداية اللورد أريك.

فنظر إليها الكابتن متحيرًا وقال:

- اللورد أريك؟

- وعندئذ قال السير كلود أنه يحسبك الكونت.

فضحك وقال:

- كيف هذا؟ الكونت لا يتجاوز طوله خمس أقدام. ولونه أحمر

مثل سرطان البحر!

فضحكت ميزي في تألق ردًا على ضحكته - والسيدة الشابة في المرقص حرية أن تفعل هذا قطعًا - وكانت على وشك أن تتابع ذلك الموضوع في عناية شديدة بإلقاء سؤال لطيف. ولكن قبل أن يتسنى لها الكلام بدأها رفيقها بقوله:

- ومن عساه يكون اللورد أريك؟

- ألا تعرفه؟

فقد عَنَّ لها أن السيدة الشابة التي في ذهنها حرية أن تقول ذلك في دهشة يسيرة.

- أتعنين به رجلاً بدينًا فمه مفتوح على الدوام؟

فكان لا بد لها أن تعترف أن معرفتها به محدودة جدًّا، فكل ما تستطيع أن تصف به حامل هذا الاسم أنه من أصدقاء ماما. ولكن بارقة تذكر ومضت في ذهن الكابتن الذي أسرع يقول بلهجة من عرف الرجل الذي تعنيه.

- أأمن تدعيته بهذا الاسم هو الشخص الذي كان يملك بوبولينك؟

ثم عارضها بصورة قاطعة، ولكن بكل ما لديه من رقة:

- لا. لا. أملك لم تعرف هذا الشخص إطلاقًا.

فغامرت الطفلة بقولها:

- ولكن مسز ويكس قالت ذلك.

- مسز ويكس؟

- مربيتي العجوز.

فبدأ ذلك أيضًا مصدر تفكر للكابتن، وقال:

- لقد اختلط أمره على مربيتك العجوز. فهو حيوان فظيع. ووالدتك

لم تنظر إليه قط.

وكان في لهجته حاسماً وودوداً في آن واحد. بيد أنه استغرق مدة دقيقة بعد ذلك في صمت أتاح لميزي -التي لم يقلل ارتباكها من حذقها- فرصة إصلاح الخطأ الذي بدر منها بادعائها أنها تعرف أكثر مما ينبغي، وذلك بإظهار التواضع ودعوته لتصحيح المزيد من معلوماتها. فسألته:

- ولكن أليست تعرف الكونت؟

- ربما. ولكنه حمار آخر.

وبعد ذلك وضع فجأة يده مرة أخرى على ظاهر يدها. وكان قد رفعها منذ برهة، وبدت عليه علائم التغير في نظرتة وسمياه، حتى لقد خيل إلى ميزي أن وجهه احمر قليلاً، وقال لها:

- لديّ رغبة هائلة في التحدث إليك. وينبغي ألا تعتقدي في أمك أي سوء.

فصاحت الطفلة وقد احمر وجهها حتى عينيها في موجة طاغية من الاستنكار لمثل هذا الخاطر:

- أوه. أوكد لك أنني لا أعتقد فيها السوء.

فأحنى الكابتن رأسه ورفع يدها إلى شفثيه بحنو جعلها تتمنى لو كان قفازا أفضل مما هو. وقال:

- أنتِ طبعاً لا تعتقدين فيها السوء، وأنتِ تعرفين مبلغ تعلقها «بك».

فقالت ميزي مبهورة الأنفاس:

- أهي متعلقة بي؟

- بصورة هائلة. ولكنها تظن أنك لا تحبينها. يجب أن يجيها. فقد

كانت الشيء الكثير جدًا.

فقالت مسرورة بأنها لم تنكر ذلك قط:

- نعم أعرف هذا.

واستطرد الكابتن قائلاً:

- ليس لي بالطبع الحق في الكلام عنها إلا باعتباري صديقًا خاصًا.
ولكنها امرأة رائعة. ولم تحظ إطلاقًا بأي لون من الإنصاف.

- حقًا؟

فأحس رفيقها لهذه الكلمات بهزة جديدة تمامًا، وقال:

- وقد لا ينبغي أن أخبرك. ولكنها قاست من جميع الوجوه.

وبادرت ميزي تهيب به:

- بل تستطيع أن تقول لي ذلك.

وسر هذا القول الكابتن، فقال:

- ولكن لا ينبغي أن تخبري أحدًا. فهذا الكلام لك «أنتِ». أترين؟

وصار همها وهي تبسم في جد أن تستدرجه للكلام:

- بيني وبينك! فما أكثر الأشياء التي لم أخبر بها أحدًا قط.

- احفظي هذا السر أيضًا مع بقية أسرارك. وأؤكد لك أنها قضت

أسوأ وقت جهنمي، مهما قال لك أحد عكس هذا. وهي أروع امرأة
رأيتها في حياتي كلها. وهي في منتهى الظرف.

وكانت نبرة صوته قد هزتها. أما الآن فقد أسندت ظهرها إلى

المقعد، وأحست بشيء يرتجف في داخلها وهو يقول:

- إنها لطيفة الصحبة للغاية. وتستطيع أن تفعل سائر الأشياء خيرًا مما رأيت أحدًا يفعلها. ولديها إقدام خمسين رجلًا؛ وأؤكد لك أنني واثق من ذلك. ولديها ثبات أعصاب وجسارة صيادي النسور. وإنني لأزكيها لذلك وإيم الحق. وهي صريحة جدًا وكريمة. ألا تعرفين هذا؟ مع أن من النساء من هن في منتهى الخسة. إنها مستعدة أن تصدى لأي مشقة في سبيل أي إنسان تستلطفه.

وبدا عليه أنه لبث برهة يرقب وقع هذا الكلام الحماسي على رفيقته؛ ثم صعد زفرة صغيرة أعرب بها عن أساءه لالتزامه حدود ما يجوز من الكلام فيه. ولكن نبرته كانت أشبه بتحد جديد حين اختتم بقوله:

- اسمعي: إنها «أمانة».

وكانت ميزي قليلة الرغبة في التصريح بعكس ذلك، حتى إنها وجدت نفسها وهي في تيار استجابتها له تختلج بسرور كان التعبير عنه أعسر أيضًا من التعبير عن جوهر إعجاب الكابتن. فقد أسكتها إحساسها بأنه يتكلم عن أمها كما لم تسمع أحدًا يتكلم عنها من قبل. وخطر لها وهي جالسة في صمت أن هذا الإعجاب يعد كل شيء وهذا الاحترام أنما هي كلمات جديدة تميزت بأنها بغير شبيه في كنهها بين كل ما خرج في أي مناسبة من بين شفتي أبيها أو مسز بيل أو السير كلود أو حتى مسز ويكس. وبدا لها أن هذه الكلمات تتمخض عن أول عطف حقيقي سمعت به فيما يتصل بموضوع الليدي، ولذا أثارت هذه الكلمات شيئًا غريبًا عميقًا مؤسيًا انبثق من أعماقها، وتكشف لها عن أمها - على ما

تعلمه - لم تحظَ فيما عدا هذه الكلمات إلا بالكراهية. وبدأ لها بيان مسز ويكس الأصلي عن عواطف السير كلود وكأنه أصبح الآن فارغاً، كأنه الكوارس في إحدى ألعاب الأطفال. فالزوجان في هذه اللحظة على قيد خطوات قليلة يواجه كل منهما الآخر بالبغضاء؛ ولم تزل ترن في الهواء النعوت البشعة التي أطلقها عليها. وبماذا نعتها الكابتن في مقابل ذلك؟ لقد أرادت ميزي أن تسمع هذا مرة أخرى. وملأت الدموع عينيها وانحدرت على خديها اللذين كانا يحترقان من تحت هذه الدموع بفيض من إحساسها بأن هذا الجمال الحي الشامخ كان بالنسبة لها قبل خمس دقائق مصدر فرع وهي تنتظر انقضاضه عليها. وعلى الفور أصبحت غير مكترثة بخوفها المألوف من إظهار ما يعتبره الأطفال شيئاً مهيناً للغاية، فحولت صوب رفيقها بلا صوت وجهها المتقلص المبلل بالدموع. وصاحت به في ألم كما لم تصح في وجه أي إنسان في حياتها كلها:

- أتهواها؟

قالتها وهي تشهق من أثر محاولتها كبت البكاء.

ولا شك أن ما رأيته من نظرة الحيرة الغريبة على وجه الكابتن ردّاً منه على سؤالها إنما كان أثراً آخر من آثار الضباب الكثيف الذي غشي عينيها. وتلعثم الرجل بيد أن صوته لم يخل من رنة إصرار متحرج:

- إنني بالطبع شغوف بها غاية الشغف. وأميل إليها أكثر مما أميل إلى أي امرأة رأيته من قبل. ولست أبالي إطلاقاً أن أقول لك هذا. بل إنني أعتبر نفسي حيواناً كبيراً إن أنا باليت بذلك.

ولكي يريها أن موقفه في أسمى درجات الوضوح جعلها -برقة

لم يستطع السير كلود نفسه أن يتفوق عليه فيها- ترتجف مرة أخرى
كما ارتجفت عند أول اندفاعه في الحديث؛ فقد ناداها باسمها، فأحدث
اسمها الأثر المنشود:

- يا عزيزتي ميري، إن أمك ملك.

فكان ذلك بلسماً يكاد لا يصدق؛ لطف غاية التلطيف إحساسها
بالخطر والألم، فغاصت إلى الخلف في مقعدها وغطت وجهها بيديها
وانتحبت:

- أمي. أمي!

وخالجه إحساس بأن الكابتن وهو جالس إلى جوارها لم يكن
على تزايد مودته نحوها خالياً من الشعور بالحرج. وبعد دقيقة حينما
انقشعت الغشاوة عن عينيها شيئاً ما رآته منتصب القامة أمامها وقد احمر
وجهه احمراراً شديداً، وراح ينظر في عصبية حوله ويضرب ساقه بعصاه
بشدة. وتوسلت إليه قائلة:

- قل إنك تهواها يا مستر كابتن. قلها. قلها!

فثبت مستر كابتن عينيه الزرقاوين فيها تثبيتاً شديداً، وقال:

- «طبعاً» أنا أهواها. ليكن ما يكون!

وعندئذ وثبت واقفة وكانت قد تصيدت من جيبتها منديلها، وقالت:

- وكذلك «أنا» إذن. أهواها. أهواها. أهواها!

وكانت متحمسة في الإدلاء بهذا التأكيد.

- إذن ستعودين إليها؟

وحملت ميري ووقفت يدها المضمومة على قطعة منديلها الصغير
في منتصف الطريق إلى عينيها، وقالت:

- إنها لن تقبلني.

- بل ستقبلك. إنها تريدك.

- أعود إلى البيت.. مع السير كلود؟

فنكل عن الإفصاح، وقال:

- ليس معه. بل في مكان آخر.

ووقف كل منهما ينظر إلى صاحبه بتوتر غير مألوف أن يحدث بين
كابتن وفتاة صغيرة، ثم قالت:

- وإنها لن تقبلني في أي مكان.

- بل ستقبلك إذا طلبت «أنا» ذلك إليها.

فاستطردت ميري بتوتر:

- أستكون أنت هناك؟

فقال الكابتن وقد استمر توتره أيضًا:

- نعم.. يومًا ما.

- إذن أنت لا تعني أن ذلك سيكون في الوقت الحاضر؟

فافتر عن ابتسامه سريعة وسألها:

- أتريد أن تأتي الآن وتقضي معنا ساعة؟

ففكرت ميري، ثم قالت:

- إنها لن تقبلني ولا حتى الآن.

واستطاعت أن تتبين أنه عند رأيها، إلا أن لهجتها أثرت فيه، فخبب ذلك ظنّها قليلاً، ولكنه بعد لحظة قال لها بجلاء:

- بل ستفعل إذا أنا طلبت إليها ذلك. وسأطلبه إليها في هذه الدقيقة. والتفتت ميزي عندئذ ونظرت حيث وقفت أمها وزوج أمها. وفي البداية لم تتبين أحداً بين الأشجار. ولكنها في اللحظة التالية صاحت بانفعال:

- انتهى الأمر.. ها هو ذا قادم!

وراح الكابتن يرقب دنو زوج الليدي الذي سار متمهلاً فوق العشب في هدوء، ولوح لميزي بإصبعه المقفلة في الهواء بإيماءة يسيرة. ثم قال:

- ليست لدي الرغبة في تجنبه.

فقالت ميزي:

- ولكنك ينبغي ألا تقابله.

- إنه شخصياً ليس في عجلة من أمره!

وكان السير كلود قد توقف ليشعل سيجارة أخرى.

ولم تكن واثقة من الشعور الذي يليق بها أن تحسه. ولكنها وجدت في ملحوظة الكابتن تعليقاً متحرراً، فقالت تجيبه:

-أوه. إنه لا يبالي.

- لا يبالي بماذا؟

- لا يبالى مَنْ تكون. لقد أخبرني بذلك. اذهب واسأل ماما.
- أسألها إن كان في إمكانك أن تأتي معنا؟ حسن جدًا. أتريديني حقًا أن أنتظر وصوله؟
- «أرجوك» ألا تنتظره.
- ولم يكن السير كلود قد زاد اقتربًا. وكان الكابتن قد أمسك بيدها في يسراه وراح يؤرجحها في ألفة. واستطردت هي:
- ولكن خبرني أولًا: هل أنت مزعم أن «تعيش» مع ماما؟
- وانفجرت نغمة الطرب المزمنة بفعل ما أبدته من الجد، وقال:
- يومًا ما.
- وتساءلت غير مضطربة على الإطلاق بسبب ضحكة:
- إذن أين سيكون السير كلود؟
- سيكون قد فارقها بالطبع.
- وهل ينوي حقيقة أن يفعل ذلك؟
- لديك كل الفرصة لتسأليه عن هذا.
- فهزت ميزي رأسها بحزم، وقالت:
- لن يفعل هذا. لن يكون البادئ.
- فجعلت كلمة «البادئ» الكابتن يضحك مرة أخرى، وقال:
- من المؤكد أنه سيكون دنيئًا! ولكني قلت لك أكثر مما ينبغي.
- فقالت ميزي:

- حسنًا. أنا كما تعلم لن أخبر أحدًا.
- لا. هذا الكلام لك وحدك كله. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.
- واحتفظت ميزي بيده مدة كافية لأن تردف:
- أنا أميل إليك أيضًا.
- ثم أخيرًا قالت له:
- أتهواها حقًا؟
- فاعوزت الكابتن الكلمات وهتف:
- يا طفلي العزيزة..
- إذن لا تجعل ذلك لأمد قصير فقط.
- أمد قصير؟
- كما فعل الآخرون جميعًا.
- فوقف يحملق فيها وسألها:
- الآخرون جميعًا؟
- فجذبت يدها من يده، وقفزت لتمضي إلى لقاء السير كلود وهي تقول:
- ليكن حبك لها دائمًا.
- وفيما هي تغادر الكابتن سمعته يجلجل في طرب واضح:

- أنا آخذ في هذا!

وحين لحقت بالسير كلود لاحظت أمها على مبعدة تتحرك منصرفة في بطة. ولما نظرت صوب الكابتن مرة أخرى رآته يطوح عصاه، ويتراجع في ذلك الاتجاه بعينه.

ولم تكن قد رأت قط السير كلود يبدو كما بدا في تلك اللحظة؛ متورد الوجه لكنه ليس متوفراً؛ فهو مستقر على حال لا تتغير من التقزز، يجمع بين الصلابة والغثيان. فلا ريب أن حديثه مع أمها قد أسال الدماء، وارتدت الطفلة إلى حالة فزعها القديم؛ التي أثمرت لديها على الفور ذلك الانقباض المعنوي الذي كان يرين عليها حينما كان والدها يتطلعان إليها كي تغذي حبهما للعراك. وكان أعظم خوفها في هذه اللحظة مع ذلك من أن يفطن صديقها إلى أنها كانت تبكي. وأول ما فطنت إليه بعد ذلك أنه رمقها بنظره وخطر لها على الفور أنه لا يريد أن تنظر إليه، وعلى الفور حولت نظرها عنه، وقال في شيء من الغلظة:

- من عساه يكون هذا المخلوق؟

فأحست بالحدزر يطغى عليها وقالت:

- هذا ما لم أصل إلى علمه.

فبدا من وقع هذه العبارة أن هذه المهمة كان الأخرى أن يقوم بها هو. ولم يكن بوسعها إلا أن تواجه بعناد ما في التظاهر بالسماجة من قبح؛ على نحو ما تعودت أن تواجه ذلك حينما كان أبوها ينعتها بسبب بلاهتها بأنها أنان قذرة صغيرة، وحينما كانت أمها تطردها بسبب

خداعها خارج الحجرة:

- إِذَنْ ماذا كنت تفعلين طيلة هذا الوقت؟

- أوه. لا أدري.

فمن طبيعة منهجها ألا تقف ببلاقتها عند منتصف الطريق؛ فقال
وقد وصلا إلى شاطئ البحيرة وراح يسيران بسرعة:

- ألم يقل ذلك الحيوان شيئاً إِذَنْ؟

- لم يقل شيئاً كثيراً.

- ألم يتكلم عن أمكِ؟

- أوه. نعم. قليلاً.

- إِذَنْ ما أسألكِ عنه من فضلك هو «كيف»؟

فلاذت بالصمت فترة طويلة إلى أن استطرد:

- ألا تسمعين ما أقوله لكِ؟

وعندئذ قالت:

- أخشى أنني لم أكن ملقية بالي إليه كثيراً.

فراح السير كلود يدخن بعنف، ولم يرد عليها على الفور، إلا أنه
صاح أخيراً:

- إِذَنْ يا عزيزتي لقد كنتِ -وأمامكِ مثل هذه الفرصة- مثلاً

للبلادة.

وكان محنقاً جداً -أو هكذا خيل إليه- حتى إنه لم يقل كلمة أخرى

بقية الوقت الذي قضياه في الحداثق. وامتنعت هي بكياسة عن محاولة تهدئة ثأثرته؛ لأن هذا من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من الأسئلة. وأمام بوابة الحداثق نادى عربية ذات أربع عجلات؛ وفي صمت؛ ومن غير أن تلتقي عيناه بعينيها وضعها في داخل تلك المركبة ولم يزد على أن قال لها وهو يقف إلى المقعد بنصف ريال:

- أعطه «هذا».

وحتى عندما أغلق الباب من الخارج وأخبر الرجل إلى أين يذهب لم يلتفت نحوها ففاته نظرة التوديع التي صوبتها إليه. ولم يسبق أن حدث لهما مطلقاً مثل ذلك. إلا أن هذا لم يقلل من حبها له. ولذا لم يكن في استطاعتها أن تتحمل ما حدث فحسب، بل شعرت والمركبة تبتعد بها أنها تستطيع أن تجد فيه لذة. فقد أعاد إليها ما حدث إحساسها بحلاوة النجاح منذ أجيال حين وقعت أزمة وهي عائدة من بيت أبيها إذ التقت على السلم بأمها، وقابلت سؤالا عنيفاً منها وجهته إليها ببلاهة كبلاحتها الليلة، فأوشكت أن تلقي بها مسز فارانج إلى قاع السلم حطاماً.



الفصل السابع عشر

لئن كانت لأسباب خاصة بها قد استطاعت أن تتحمل إحساسها باستياء السير كلود، فقد تعرضت قدرتها على الجلد لامتحان عسير: فقد توالى الأيام من غير أن يطرق باب أبيها. وكان ذلك الوقت حريًا أن يذهب سدى بصورة مؤسفة، لولا أن شيئًا طرأ بصورة بارزة فأحدث تغييرًا كبيرًا. وكان ما حدث هو تحول ملحوظ في موقف مسز بيل. تحولًا يبدو أنه جعل السير كلود رغم غيابه وكأنه موجود في البيت. وقد بدأ ذلك بحديث جرى بينهما يوم عادت ميري وحدها في العربة. كانت مسز بيل قد عادت حينئذ، وكانت أكثر توفيقًا من صديقتها في استخراج تقرير من سيدتنا الصغيرة عن المقابلة الغربية التي تمت بينها وبين الكابتن. وعادت إلى ذلك الموضوع مرارًا. وفي اليوم التالي مباشرة تبين للطفلة بأنها كانت على دراية تامة بما حدث في الوقت نفسه بين الليدي وبين السير كلود. وكان هذا هو منشأ إحساسها الحاسم بأنه لئن لم يحضر إلى البيت، فإن زوجة أبيها لديها سبب خفي يدعوها لعدم الظهور معه، وقد أدى هذا إلى مناورات قليلة مع مسز بيل، كان أكثرها استفزازًا ما حدث فيه تفجر عجيب للدموع. ولم يكن هذا التفجر من جانب ميري. ولم تكن مسز بيل كما قالت عن نفسها حليفة بكاء. فهي لم

تبك - على ما تعلم ميزي - منذ أيام اشتغالها بمهنة المربية الوضيعة التي كانت الفجر الأول لصلتهما. أما الآن فهي تبكي بحرقه وتعترف بصوت عال أن ذلك يفيدها، وتقول أشياء غريبة لريبتها. وهو أمر استفادت منه بإضافة هذا المدد الجديد إلى مخزونات حكمتها الاحتياطية. ولم ينتهك تلك الحكمة - على حسب ما شعرت به ميزي - أن تخبر مسز بيل بما لم تقله للسير كلود. من حيث إن التوتر الأكبر - من وجهة نظرها - لما يوجد فيما بين السير كلود وزوجته. وأن زوجته يتمثل فيها كل ما لا يتمثل لسوء الحظ في مسز بيل. وقد أرسل إلى ابنة زوجته بعد حادثة حدائق كنجستون بثلاثة أيام رسالة صريحة ورقيقة معاً. وبذلك تحتم على مسز بيل أن تعترف بأسلوب نصفه توسل ونصفه تحدّ:

- نعم. سحقاً لكل شيء. «إني» أقابله!

أما كيف ومتى وأين؛ فأمر ليس لميزي أن تعرفها. وهو حظر لم تحاول أن تناقشه في ضوء تلك المشاركة العريضة التي جعلته - إذ تشارك في الفراغ الرحيب الذي يمتد إليه استقلال مسز بيل - يلعب في عينيها المشتاقتين لمعان النافذة الوحيدة في حجرة مترامية معتمة. ولم تكن مثل تلك الساعات تجد ما يكدر صفوها من جانب أبيها. فكان واضحاً فيما بينهما أن كلاً منهما تفكر في الغائب، حتى أصبح الموضوع الذي تومئان إليه في كل ما تقولان أو تفعلان. وكانت الحقيقة المؤلمة - كما اعترف بها مسز بيل - أنها علقت أملها بالمحال - فمن المستحيل فعلاً على السير كلود أن يكثر من التردد على ريجنت بارك. أليس عليهم في النهاية أن يواجهوا الحقيقة؟ من البديهي للأسف الشديد أنه ما من

أحد بعد ذلك كله نال ما يصبو إليه، ولئن لم ينل أحد ما يصبو إليه فلأن الجميع كانوا أخساء. والمقصود بكل إنسان هو بالطبع بيل وأيدا. ولم يكن في وسع مسز بيل أن تدلي بالتفاصيل الدقيقة لمدى ما يمكن أن تصل إليه دناءتهما. فكان لا بد كي تسير الأمور -على حد قولها- أن تقوم تلك السيدة بتدبير خطة أخرى، وهي خطة كل ما تعرفه عنها ميزي أنها موجودة، وأنها تتسائل في تحرق عن كنهها ومن الواضح على أي حال أن من جوانب تلك الخطة ما يعتبر مسؤولاً عن انفعال مسز بيل المفاجئ واعترافها المفاجئ أيضاً. وهو مسلك لم يكن ما أجرى فيه من الدمع ليردع بطلتنا عن التفكير في مبلغ سعادتها لو أنها استطاعت أن تدبر خطة لنفسها وكانت خطة مسز بيل فيما يبدو تسير بانتظام وتؤدي ثمرها بكثرة. فما يمر يوم أو يومان إلا وتأتي ميزي برسالة أو تحمل منها رسالة. وكان انهيارها بالبكاء لما تبين لها أنه -على حد تعبيرها- فعله لأجلها. وقد ظلت هذه الصورة ماثلة أمام ميزي بما طرأ بعد ذلك من الزيادة لا على مرح صديقتها فحسب، بل وأيضاً على الحقيقة بما أضفاه من ازدهار على فضيلتها. ولم يكن ذلك الإحساس يبدو ضرباً من التخمين. فصديقتها كانت أول من نادى بهذا قائلة أنه شد من أزرها بصورة هائلة ورفع من روحها وغير اتجاه حياتها. وكانت تطلق عليه ألقاباً ساحرة، فهو جنيها الطيب وينوعها الخفي، وهو فوق هذا كله وجدانها «الأسمي». وكان هذا ما صرحت به وهي تذرف دموعها المذهلة. فهذا الرجل العزيز قد جعلها تحسن الظن بنفسها أكثر كثيراً من ذي قبل، فتكشف من هذا -لفرط دهشة ميزي- أنها كانت من قبل

أن تسيء الظن بنفسها على نحو ما. وأسعد ميزي أن تسمع بالبرء في الوقت نفسه الذي سمعت فيه بالعلة وألفت نفسها تفترض، بل وتتمنى على الرغم مما تستشعره من الحسد، أن مسز بيل كلما بارحت البيت، فإن السير كلود كان يجد في ذلك ما يرضيه على نحو ما. وقد أصبح خروجها كثير الحدوث، بصورة لم تقع من قبل، حتى إنها كانت حرة أن تعتبر أمها غائبة عن البيت بشكل مسرف لولا أن أباه كان من قبلها النموذج الأعلى لتلك السعادة. وكان ذلك رأي زوجته الحالية الذي تبديه الآن كثيرًا كما كان من قبل من بين ادعاءات سالفتها البارزة أمام محاكم بلدهما. ومفاد هذا الرأي أنه قلما يأتي إلى البيت ولو للنوم. ثم إن مسز بيل حينما تكون في البيت يبدو عليها الآن التشوق إلى تعويضها عن كل شيء. وكان الظل الوحيد الذي يعكر إشراق هذه الفترات - كما صورته ميزي لنفسها - أنها لا تستطيع أن تحصل على شيء بأسئلتها. فقد كان من طبيعة هذه الأمور ألا يكون لصغار الأطفال بها شأن، حتى حينما تكون الطفلة الصغيرة منذ البداية قد انغمست في تلك الأمور إلى درجة الخوف من أن تكون قد عرفت أكثر مما ينبغي. فالأمور إذن مطابقة كل المطابقة لطبائعها في تجربة ميزي من حيث إن الأسئلة تكاد تكون على الدوام غير لائقة. بيد أنها تعلمت من جهة أخرى أنها قد تستطيع أخيرًا في بعض الأحيان إذا تذرعت بالصبر الصامت والنظرات السريعة الذكية أن تحصل على لمحات صغيرة رائعة. وقد انقضت سنوات وكلمة «هو» ذات المقطع الواحد في بيت بيل فارانج تعني على الدوام - وبشيء من العنف - رب البيت. ولكن ذلك كله تغير في فترة

سادت فيها مزايا السير كلود جو الدار كله، فصارت هذه الكلمة رمزاً له.
فمسز بيل ربما قالت لرفيقتها:

- إنه يعضدني بصورة رائعة.. هو سندي يا حبيبتي الغالية.

أو ربما قالت إن الموقف في البيت الآخر قد وصل إلى درجة لا يصدقها المرء - إلى درجة أنه لم يقع بصره عليها منذ اثني عشر يوماً. و«هي» تنصرف بالطبع في بيت بيل فارانج إلى أيدا دون غيرها. وكل ما زاد عليها في هذه الحالة الآن هو مزيد من الكثافة. فمسز بيل - وما أعجب هذا - كانت في وضع من تنتقد بصورة متزايدة سلوكها الكريه، ومحصله كله ألا يبدو في سوء صلتها بزوجها وفي ضالة هذه الصلة ضالة مردولة. وكان هذا الفيض من المعلومات يصل إلى صديقنا، وإن كانت مسز بيل في الواقع لا تهتم شخصياً ببيتها أكثر من اهتمام أيدا بكثير. إلا أن ذلك كان من بين الخواطر التي تدور في رأس ميري من غير أن تسمح لها بتحطيم سحر عطفها الحالي. وكيف يمكن أن يكون ذلك السحر غير عميق وتأثير السير كلود عن بعد هو الذي يحتم استئناف ابنة زوجته لدراساتها؟

وتحمست مسز بيل لهذه الدراسات من جديد، وكان واضحاً جداً لميري أن هذا أهم شيء يرهاها به صديقها الغائب.

وكان هذا المصدر الثاني - وقد أُلْمعت إلى المصدر الأول منذ قليل - الذي استقت منه الصفة إحساسها بأن شيئاً ما وضعت لنفسها - وهي تعلق عليه الآمال الكبار - بأنه مرحلة جديدة. وبدا لها ذلك في الحماسة الجديدة التي تعود بها مسز بيل على الدوام في كل مرة،

فيجعل هذا الإشراق ميزي تحس بأنها لم تزل عزيزة جدًا لدى شخصين على الأقل. وأخشى أن تذكرها الضئيل في الوقت الحاضر لشخص ثالث يعزها يصور نسيانها الوقتي لمسز ويكس. وهي مسألة لا يفسرها إلا ما استولى عليها من توفز غير طبيعي. إذ ما هي الصورة التي اتخذتها حماسة مسز بيل وارتياحها إلى الظروف البتية المتبقية لها ما لم تكن صورة «القراءة» مع ربيتها الصغيرة في صفحات عيّنها لها السير كلود في كتب زودها بها في سخاء؟ وكانت مسز بيل قد قالت لها إنه وقع على قائمة طيبة للغاية «معظمها مقالات» وهي كلمة تبدو على الدوام مهيبة في نظري ميزي، ثم يخف وقعها بعد ذلك. وكانت تمر أسابيع يصلها في كل منها ما لا يقل عن تسع مجلدات. وكانت تفهم ضمناً من كلام مسز بيل أن اتصالاتها الغامضة التي تستمتع بها مع السير كلود لم تكن تتضمن وزناً ونقداً للدراسات فحسب، بل إن هذه الاتصالات كانت تتم تقريباً بقصد التبليغ والمشاورة. وإنها -كما كررت على مسامعها كثيراً- لأجل تعليم ميزي حرصت على إغلاق بابها في وجه السادة الذين تعودوا أن يتقاطروا في جموع كبيرة، وقد جعل هجر زوجها الفعلي بها من غير اللائق على الإطلاق أن تستقبلهم. وكانت ميزي على دراية منذ القدم بالمبدأ الذي يدعو المرأة الجذابة البرزة إلى أن ترعى المحافظة على «سمعتها» -على حد تعبير مسز بيل عن ذلك المبدأ- وقد تأثرت ميزي بصرامة زوجها أبيها في الحرص على هذه الاعتبارات. فلا أحد من الجنس الآخر تشعر بأن لها الحرية في مقابلتها بالمنزل. وعندما جازفت الطفلة بالسؤال على السيدات اللواتي كن يجئن فرادى

في فترة إقامتها السابقة ويجدن ترحيبًا صახبًا، سارعت مسز بيل إلى إفهامها أن أولئك الشيطانان جميعًا قد اتضح أنهن بغيضات. فإن كانت تريد أن تعرف المزيد عنهم فعليها أن تتصل في هذا الصدد بأبيها.

وكان لدى ميزي مع ذلك في وقت هذا الإيعاز بالذات أنواع من الفضول أشد حيوية؛ لأن حلم المحاضرات التي تلقي في معهد كان قد أمسى في النهاية حقيقة واقعة بفضل نشاط السير كلود غير المحدود حاليًا في اكتشاف ما ينبغي أن يعمل. ووضح أمامها في هذا الصدد أنك حين تنظر في الأشياء بروح الجد تلقي باستطاعتك تحقيق الشيء الكثير بما لا يكاد يكلفك أكثر من أجر المترو. وأصبح المعهد -وكان ثمة معهد فاخر في جانب من المدينة غير معروف تمام المعرفة للطفلة- في ضوء تلك الروح مكانًا مثيرًا، كما أصبح السير إليه من المحطة في شارع جلوور (ونطقه أثار ذات مرة ضحك مسز بيل من صديقتيها الصغيرة) طريقًا مفروشًا على الحقيقة «بالموضوعات». وكانت ميزي تتخيل نفسها تقطف منها وهي سائرة، إلا أن هذه المواد كانت تزداد غزارة في الحجرة الرمادية الكبيرة حيث تنفجر ينابيع المعرفة وسط الصمت الذي يسود صفوف وجوه مشرّبة كأنها الأباريق الخاوية، وكانت هذه الينابيع تتخذ في العادة شكل أصوات عالية خيل إليها في بداية الأمر أنها غاضبة. وقالت مسز بيل على الفور:

- «لا بد» أن تكون هذه المحاضرات مفيدة لنا. فما أبشعها.

فأبدت بتصريحها هذا من انعقاد العزم ما جعل تلك المناسبات تتميز بمنتهى التوافق على سائر الأوقات التي يقضيها الاثنان معًا. ولم

يسبق لميزي بالطبع أن شعرت بمثل هذا الإنهاض. ولا بما يفوقه من الانجراف اللذين كانت تشعر بهما في لحظات عودة مسز بيل لاهثة إلى البيت وصراخها من أسفل موجهة إليها الكلام وهي في الطابق العلوي لتعرف منها هل لم يزل أمامها ما يكفي من الوقت للوصول إلى المحاضرة في موعدها. وكانت ابنة زوجها تتأهب منذ الساعات الأولى، فتكاد تقفز من فوق سياج السلم لترد عليها، وتدفعان خارجتين معًا بحثًا عن المعرفة في مثل جدهما في الاندفاع راجعتين للتخيلة بين مسز بيل وشواغلها الأخرى. وقصارى القول أنها لم تشعر بانهماك يضاهي هذه الثوبات ذات الطابع الخاص بمجرد اندلاعها، فمنذ تلك الانتفاضة القصيرة التي انبرت فيها مسز ويكس لتعويضها عن كل ما فاتها سابقًا في بيت أبيها، وكأنها تقوم بتطهيرها.

وكانت هذه الأسابيع قليلة جدًّا، إلا أنها كانت تزخر بانفعالات جديدة ومن عناصر هذه الانفعالات الجديدة ما هو محتمل الحدوث من الوقوع يومًا ما على أثر السير كلود من خلال تلسكوب شارع جلوور الطويل، أو بين أعمدة المعهد، وهي من أهم الأشياء المهمة التي كانت تضي في ظن ميزي الهيبة على المعهد. وهذا ما قالت مسز بيل تحت ضغط أسئلتها، وبشيء لا شك فيه من نفاد الصبر:

- نعم. نعم. يومًا ما!

فانضمامه إليهما كان من الواضح أنه أقل بداهة مما فهم من إعلانه الأصلي عن رغبته في تحسين معلوماته في صحبتها. فكان هذا مما استحث سيدتنا الصغيرة على الحدس بأن شيئًا كريهًا قد وقع بعد

ذلك، أو أن شيئاً منشوداً لم يتيسر وقوعه. ولم تكن مسز بيل قد ألفت إلا ضوءاً جزئياً على المسألة حين قالت لها إن الموقف يتمخض عن حظوة أي أحد بما يتمناه. وكانت ميزي تتمنى على كل حال أن يظفر بعض الناس بما يتمنون. ومع أن ميزي ظلت كلما اقتربت من هيكल المعرفة تفتش بنظرها عبثاً عن السير كلود، إلا أنه لم يكن ثمة شك في أن صورته المحبوبة كانت تفعل فعلها كحافز وجزاء. فكلما بلغ المعهد أوج تأثيره فيهما، وبلغت الموضوعات أقصى عمق لها، وبلغت المحاضرات أقصى طول فيها، وبدا المستمعون في أقبح صورة، كانت الاثنتان تشعران أن راعييهما حريٌّ في مكمنه أن يبلغ سروره منهما أقصاه. وذات يوم قالت مسز بيل لرفيقتها فجأة وعيناها على ذلك المكن:

– سنذهب الليلة لنشاهد شيئاً في «إيرلز كورت».

وتبدى لها بريق هذا الإعلان على أشده عندما عرفت أنها تشير إلى المهرجان الكبير الذي افتتح من فوره في ذلك الحي، وفيه مجموعة من الغرائب الأجنبية في حدائق مترامية تزدان بأنوار وتحفل بالفرق الموسيقية والفيلة والزلاقات المتعرجة والاستعراضات والمشاهد الفرعية، وبحشود كبيرة من الناس ربما تسنى لهما أن تريا بينهم شخصاً تعرفانه. وبقفزة واحدة ألفت ميزي بنفسها على عنق صديقتهما عندما سمعت اسم السير كلود بعد أن اعترفت مسز بيل أنه ربما كانت هناك فرصة ضئيلة لاحتمال التقائه بهما هناك. فهو بالطبع يستطيع في موقفه العصيب أن يعرف ما يمكن أن يحدث بين ساعة وأخرى. وكان يرجو أن يجد فراغاً لذلك، قد نبه على مسز بيل قائلاً:

- أحضرها إلى هناك في السر، وسأجتهد أن آتي.

وهو كلام يوضح توضيحًا كافيًا ما أثارته لديه أسابيع كثيرة من الحرمان من رغبة في رؤية الطفلة. بل إنه قد ينم على أن لديه من اللفتة المتصلة على ذلك مثل ما لديها. وكان هذا من شأنه أن يحير ميزي مما جعلها تعبر عن دهشتها، لأنها لا تستطيع أن تفهم لماذا - ما دام كإحساسها - تحطمت بهذه الصورة تلك النظرية التي عادت بناء عليها إلى مسز بيل، ألا وهي نظرية اجتماع الشمل في مجموعة ثلاثية بديعة. ولم تزد مسز بيل على أن زادت بواغث التفكير لديها بقولها إن ما تعانيه من الإحباط إنما هو نتيجة لقيام فكرة معينة في رأسه:

- وما هي هذه الفكرة؟

فأجابتها بلهجة تقارب الحدة:

- الله أعلم! إنه شديد الحساسية بصورة فظيعة.

فبدأ لها هذا القول شديد الإبهام فتساءلت:

- شديد الحساسية؟

فأجابتها مسز بيل في تردد:

- بخصوص ما يفعل. ألا تعلمين؟ وبخصوص ما «نفعل»؟

وتعجبت ميزي:

- أنت وأنا؟

فصاحت مسز بيل في هذه المرة وهي تنفجر بالضحك:

- بل أنا و«هو» يا مغفلة!

فقال ميزي وقد تجدد عجبها:

ولكنكما لا تقترفان سوءاً. «أنتما» بريئتان من ذلك.

وقصدت أن يكون تركيزها على كلمة «أنتما» بمثابة إشارة محتشمة إلى ما يقترفه والداها، فردت عليها رفيقتها منتشية بقولها:

- طبعاً نحن لا نفترف سوءاً أيها الملك الكريم. وهذا هو رأسي في الموضوع. ولكنه يقول إنه لا يريد لك أن تُقحمي.

- أقحم في ماذا؟

- هذا بالضبط ما أريد «أنا» أن أعرفه: تقحمين في ماذا، وكيف يمكن أن يزيد إقحامك..؟

وتوقفت مسز بيل دون إتمام سؤالها. وختمت كلامها بعد لحظة بطريقة أخرى قائلة:

- كل ما يسعك أن تقوليه أن هذا ما يتوهمه.

وكانت لهجتها في هذه العبارة (على ما فيها من إظهار للإذعان الناتج لديها من الإعياء إذعاناً تطوي به صفحة ذلك الموضوع) أفهمت الفتاة إلى أي حد يتعارض ذلك الوهم مع تصور مسز بيل، مما جعل سيدتنا الصغيرة تصل من مجرد هذا اللمس العارض إلى إدراك لأشياء مجهولة لم يفصح عنها اللسان. فالعلاقة بين زوجة أبيها وزوج أمها تنطوي على لب غامض. وكانت هذه أول مرة يخطر لها فيها على الحقيقة أن العلاقة بينهما لا قيام لها إلا فيما يختص بها. فليس لهذه العلاقة من صورة

سوى ما يضيفانه عليها. وأدركت أيضًا أن هذا من دواعي تباعد السير كلود عنها. أليس يخشى عليها أن تتورط؟ وقد جعله هذا الإفراط في الحرص أعز عندها من ذي قبل. وومض في ذهنها أنها ربما بسطت كل شيء أن هي أظهرته على مبلغ استهانتها بمثل هذا الخطر. ألم تعش منذ عامها الثالث وعيناها عليه؟ لقد كان هذا هو الحال الذي تحتدم المناقشة حوله في الغالب في بيت آل فارانج؛ حيث كانت تلك الكلمة دائمًا في الجو وحيث استطاعت وهي في سن الخامسة أن تنطق بها وسط عاصفة من التصفيق. وكانت تعرف أيضًا بالاختصار أن الشخص يمكن أن يتورط مثلما يمكن أن يتلقى لكمة بفرشاة شعر وأن يترك وحده في الظلام. وقد صار مألوفًا لديها أن كل محنة من هذه المحن ليس لها على العموم إلا أقل تأثير. ولكن أول شيء يجب عليها أن تفعله هو التأكد التام من موقف مسز بيل. وقد فعلت ذلك بأن قالت لها في تفكر:

- إن كنتِ لا تبالين.. وأنتِ في الحقيقة لا تبالين. أليس كذلك؟

وفكرت مسز بيل قليلًا وقد انتابتها بواذر تفكره:

- بأن تقحمي؟ إطلاقًا. إذ ما معنى ذلك؟

فقال ميري:

- أيًا كان معناه، فأنا لا أبالي على الإطلاق بهذا الإقحام. وما دمت

لا تبالين وأنا لا أبالي، أفلا ترين عندما أقابله هذا المساء من الخير أن

أخبره أننا لا نبالي وأسأله لماذا ينبغي له «هو» أن يبالى؟

الفصل الثامن عشر

لم يكتب للطفلة أن تستمتع كثيرًا بالسير كلود في ذلك المهرجان؛ لأن الأمور اتخذت بالنسبة لهما وجهة مختلفة جدًا في الواقع. وكانت مسز بيل قد استحثتها على الفور في جلبه أن تقدم على الخطوة التي اقترحتها. بيد أنها فيما بعد، وهما في المهرجان، سحبت ذلك الترخيص وقالت لها بعد إعادة التفكير في الموضوع إن الرجل المفرط في الحساسية تزداد حالته سوءًا عند أي مفاجأة. ومن القسوة حقًا على السير كلود أن تغدو حالته أسوأ مما هي. وكان هذا ما جال بخاطر ميزي في الحداثق ووقت الزحام بعد أن خفت غشاوة الأضواء الباهرة على عينيها فراحت تنقب عنه بحثًا هنا وهناك. وكان أمامهما متسع من الوقت للتجول المعتدل، وكانا قد أصابا معًا في البيت من تلك الوجبة الغامضة التي تسميها ميزي «عشاء المربي»، وهي الوجبة التي كان عليهما أن يكتفيا بها حينما ينشد مستر فارانج مسراته في الخارج. وكان مستر فارانج ينشد هذا المثل الأعلى الآن في الخارج كلية. وكانت ابنته تعتقد مما سمعته من زوجته أنه استقل منذ ثلاثة أيام يخت صديق له في كاوس.

وكان المكان حافلًا بالاستعراضات الفرعية. التي لم يكن في

استطاعة مسز بيل للأسف أن تتيحها للفتاة الصغيرة بأكثر من الكشف لها عن تسميتها الخلافة الأسرة. فالاستعراضات الفرعية يتكلف كل منها ستة بنسات للشخص. وكان الوفاء الذي تتمتع به أسن الاثنتين قائماً منذ البداية على الرغم من ندرة قطع النقود ذات البنسات الستة، وكانت النقود الصغيرة تتساقط منها على مضض كما تخرج الإجابات من أفواه الأطفال الأرياء على دروس لم يلقوا عليها نظرة. وتباطأت ميري وهي تمر أمام الإعلانات الحائطية الملونة الكبيرة وراحت تتحسس بذراعيها المعقودة جيب صديقتها خلسة حيث تمت أن تسمع صليل الشلنات. إلا أن حصيلة هذا الاستطلاع لم تجد عليها إلا زيادة تشوقها. فلو أن السير كلود جاء لبدأت الشلنات في الرنين. ووقفت الرفيقتان أمام «أزهار الغابة» لافتقارهما إلى شلن، وكانت «أزهار الغابة» عبارة عن عرض لسيدات لونهن بني لامع، كل أجسادهن بنية، وسط إطار يوحي بالبذخ المداري. وهناك أعربت ميري في ألم عن اعتقادها أنه لن يأتي على الإطلاق. وعندئذ ذكرتها مسز بيل -على ما بها من خيبة أمل واضحة- بأن حضوره لم يكن وعداً قاطعاً. وهي ملحوظة جعلت الطفلة تحديق في الأزهار من خلال غشاوة جعلتهن أروع مظهرًا، وفي الوقت نفسه أشد اختلاطاً. ثم انتقل ذلك الاختلاط إلى مظهر سيد كان في تلك اللحظة خارجاً من الكشك المتألق في صحبة سيدة. وكانت تلك السيدة شديدة السمرة، حتى إن ميري حسبتها لأول وهلة إحدى «الأزهار». ولكن في الثواني القليلة التي استغرقها ذلك النظر المختلط -وهي الثواني القليلة التي انقضت على رأسها المحزن من حضور السير

كلود- سمعت صوت مسز بيل من خلفها يجمع في صرخة واحدة ثاقبة صغيرة بين الدهشة والألم.

- يا للدناءة.. «بيل».

وكان قد اتجه -من غير أن يتبينهما في كتلة المرتاضين- وجهة أخرى، ويبدو أن ذلك كان باقتراح من السيدة السمراء. وكان طريقها الذي تسير فيه ملحوظاً فوق الرؤوس والأكتاف بريشة قرمزية قائمة، كانت ميزي شديدة اللهفة على أن تعرف من صاحبها:

- من هي؟ من هي؟

وتابعتهما مسز بيل بنظرها برهة وصاحت:

- الكذاب.. الكذاب!

وفكرت ميزي قليلاً ثم قالت:

- لأنه ليس.. حيث كان نحسبه؟

لقد كان هذا هو الحال بالنسبة لأمها منذ شهر في حدائق كنجستون.

واستطردت تقول:

- لعله عاد.

- بل إنه لم يذهب إطلاقاً.. هذا الكلب.

لقد كان هذا -على ما قاله السير كلود- ما اقترفته أمها. وأحست

ميزي بما يشبه في نظر العقول الناضجة ما يسمى بنظرية «التاريخ يكرر

نفسه»، وسألت مرة أخرى:

- مَنْ هي؟

وبدا على مسز بيل وهي مسمرة في مكانها أنها متحسرة على فرصة ضاعت. وخرجت من بين أسنانها هذه الكلمات:
- آه لو أنه رأي. إنها جديدة تمامًا. ولكن لا بد إنه كان معها منذ يوم الثلاثاء.

وأدركت ميزي الموقف، ثم قالت:

- إنها تكاد تكون سوداء.

فقالت مسز بيل:

- إنهن على الدوام بشعات المنظر.

فصاحت ميزي محتجة على هذه الملحوظة بعد أن فكرت في مغزاها:

- أوه. هذا الوصف لا ينطبق على «زوجاته».

ولعل هذه الكلمات كانت حَرِيَّةً أن تبتعث ضحك صديقتها، ولكن مسز بيل كانت الآن تحت تأثير يقظتها المفاجئة فريسة للهم. وبعد قليل قالت ميزي:

- هل رأيت في حياتك مثل هذه الريشة؟

وبدا على هذه الحلية أنها وقفت على مسافة غير بعيدة. وعلى الرغم من جماعات الناس التي تفصلها عنهما استطاعا أن تنظرا إيهما:
- هذه هي طريقتهن في الري.. حثالة الحثالة.

وصاحت ميري في اللحظة التالية:

- ها هما عائدان.. وسيراننا.

وفيما كانت رفيقتها تجيبها أن هذا بالضبط ما تريده صاحبة الطفلة:

- ها هما.. ها هما!

كان الموضوعان غير الواعين لهذا الاهتمام الشديد قد عاد أدراجهما بسرعة بعد أن غيرا رأيهما في وجهتهما، فاقتربا على عجل من ناقديتهما.

وكان عدم وعيهما سبباً في إتاحة الفرصة لمسز بيل كي تقول بصوت خافت ما يدل على تعرفها على المرأة. ولكن الكلام طرق سمع ميري:

- لا بد أنها مسز كادون.

ونظرت ميري إلى مسز كادون بإمعان، وشفقتها ترددان الاسم.

وجرى كل شيء بعد ذلك بسرعة خارقة. فلم يحدث لبطلتنا على الإطلاق أن دارت حولها حرب أشد من هذه استغرقت دقيقة واحدة. وكانت الصدمة المكثومة - كيلا يلحظ الناس شيئاً - عنيفة. ولم تتبين إلا حين فكرت فيما بعد أن الخطوات مضت في سبيلها المرسوم، ثم إذا بها وهي في دوامة من الصمت لا من الأصوات تجد نفسها قبل أن يتسع أمامها الوقت للفهم أو تفسح الدهشة مكاناً للخوف؛ وقد أضحت عند باب المهرجان مع أبيها. ودفع بها إلى مركبة ثم ركب وراءها. وعندئذ تسنى لها والمركبة تسير بهما معاً أن تستعيد ما حدث بعض الشيء.

فحينما صار في مواجهتهما في الحداثق رأهما. وحدث اضطراب وقتي مكتوم، تعرفت أثناء مسز كادون عليهما بحملقة من عينيتها السوداوين وانتفاضة من ريشها الحمراء، وغمغمت بشيء ثم اختفت. وثمة لحظة أخرى فطنت فيها إلى وجود السير كلود واقفاً في دهشته الرزينة بعيداً عن نظر أبيها، كأنما قد وصله تحذير في تلك اللحظة من اللحاق بهما. وكان ذلك متفقا مع بقية ما سمعت مسز بيل تقوله لأبيها. ولكنها لا تذكر الآن هل ذلك الكلام قد صدر منها بصوت عال أو صوت منخفض، إلا أنه كلام يتعلق بأنه في هذه المرة يصاحب امرأة جديدة، فرد على ذلك بزمجرة مبهمة تنم لهجتها على أن الطفلة قد تعودت منذ سنواتها الأولى سماع هذا يقول لذاك بحدة أن شخصاً ما «مستحدث»، فقالت مسز بيل بوضوح:

– أما أنا فالتزم قديمي!

وكانت نبرتها لا تزال ترن في الهواء حتى عندما انطلقت العربة. ولم يكن مرافق ميزي المتسلط قد نبس بكلمة أخرى منذ جرفها معه سوى العنوان الذي كان لا بد وهو يصعد درج المركبة أن يذكره من فوق سقف المركبة للحوذي. ولما أعادت ميزي وضع هذه الأشياء جنباً إلى جنب، عَنَ لها أنها كانت حَرِيَّةً أن توجه إليه عندئذ سؤالاً، لولا أن الصمت الذي فرضه عليها بالسحر أو بالفرع – لا تدري أيهما – جعلها تشعر حين طوقها بذراعه فجأة واجتذبتها إليه أنه مضطرب بصورة لم يظهرها عليها من قبل. وخطر لها أنه يرتجف ارتجافاً يحول بينه وبين الكلام. وكان من أثر هذا أنها التزمت الصمت احتراماً لسكوته الرهيب،

مدفوعة بعاطفة لم تكن كلها رهبة خالصة، مع أنها لم تنبض إلا في تلك اللحظة. وكان ما أشعرها به من الامتلاك بضمها إليه على هذا النحو قد أرجع إليها بعد أطول فترة من فترات الانقطاع إلا إحساسها القديم بسلطانه عليها. وظلت المركبة منطلقة مسافة طويلة وهو يضمها إلى جنبه، فراحت تحملق أمامها مباشرة حابسة أنفاسها، ترقب شارعًا مظلمًا يتلو شارعًا مظلمًا، وقد خامرها الشعور بأن مغزى ذلك كله أن أباه لا يمكن إخراجه من الحساب كما خيل إليها. ولم يستغرق إذعانها لهذا الاكتشاف إلا دقيقة. ذلك الاكتشاف الذي أوحى إليه بهذه الضمة أن لديه غرضًا يسعى إليه، واقترن ذلك لديها بشقة غامضة. فلا علم لها بالضبط بما فعله ولا بما هو بسبيل فعله، وإنما قصارها أن تختلج مبهورة بأنه انبرى لفعل شيء ما، وأنها أمست بسرعة جزءًا من ذلك الشيء. وكان جزءًا منه أيضًا أنهما صارا في بيت لا يبدو عليه الاتساع، بيد أن واجهته البيضاء المطلية حديثًا بدت منها في ضوء مصباح الشارع أناقة أصص أزهارها. وقد سبق للطفلة أن عاشت في ألوف من الحكايات -حكايات مسز ويكس وحكاياتها فضلًا عن أخصب الأقايصص الخيالية التي روتها الفرنسية أليز- ولكنها لم تعرف قط حكاية كهذه. فما إن ساعدها على الترحل من العربة التي ابتعدت على الفور، وسمعت صوت مفتاحه في ثقب باب البيت، حتى أطبقت عليها ألف ليلة وليلة.

وابتداء من تلك اللحظة سرت روعة العجب في كل شيء، ولا سيما في مثل تعويذة «افتح يا سمسم» المستجابة بهذه السرعة، ورحيل العربة،

والفراغ الصاخب الذي يملؤه شبح زوج أمها وزوجة أبيها المهجورين، وفي حيزية الضوء الأبيض الذي يكاد يُعمي البصر وقد انبعث استجابة للمسة سريعة من أبيها لزر نحاسي صغير في الحائط يرتفع بمقدار درجات قليلة، فإذا بها تجد ذلك الموضع أجمل مكان رأته في حياتها. وكان أول ما فطنت إليه بعد ذلك هو أنها في حجرة استقبال سيدة - نعم سيدة. فقد استطاعت أن تتبين ذلك في لحظة. فهي ليست حجرة رجل، حتى ولو كان رجلاً كأبيها نفسه أو كالسير كلود- وما فيها من أشياء أجمل بكثير مما لدى ماما، كما أن ما لدى ماما يعترف الجميع دائماً أنه أجمل مما لدى مسز بيل. وفي منتصف الحجرة الصغيرة الوضيئة، وأما عدد من الستائر والوسائد والصور والمرايا وأشجار النخيل المتهدلة فوق زوايا موشاة مذهبة، والصناديق الفضية الصغيرة المتناثرة فوق مناضد متعرجة وصور بيضاوية مصغرة معلقة فوق ستائر من المخمل، يفوق ما تستطيع مسز بيل والليدي معاً متحالفتين حلفاً غير طبيعي أن تحلما بحشده. أمام هذا كله، فطنت الطفلة فيما يشبه الإشفاق إلى أن ذلك من شأنه أن يلقي بكل من هاتين المرأتين المشهورتين بحسن الذوق إلى زاوية الإهمال. وكان أدعى للعجب أن أباهما تمثل لها على الفور بصورة أحسن وأعظم وهو في هذا الإطار الخلاب، مما باعد بينه وبين مشاهد أدنى درجة من هذا المشهد. وقضت معه هناك عشرين دقيقة دون أن تظفر بإيضاح. فكان الزواج المفاجئ للخطر في تلك الدقائق العشرين بعيد الأثر في نفسها، حتى لكأنه وليمة مرتجلة باهظة التكاليف، مع أنه لم تكن هناك كعكات صغيرة أو بيرة الزنجبيل.

- أهي غنية جدًا؟

وشرع يبدو لها كالمحرج، فكأنه يشعر بالخجل إذ يجد نفسه مع سيدة صغيرة ليست بينه وبينها صلة. فحدا بها هذا الظن إلى أن تتيح له مخرجًا لبقًا.

ووقف بيل فارانج يتسم لسيدته الصغيرة، وظهره إلى المدفأة ذات الزخارف الكثيرة، ومعطفه الخفيف -أخف معطف في لندن- مفتوح على سعته، ولحيته الرائعة اللامعة تخفي مساحة صدر قميصه تمامًا. وسرها أكثر مما سرها في أي وقت مضى أن ترى بابا وسيمًا، وأن كان في مثل طول ماما، وكان في ثوب سهرته الزاهي يكاد يضارعها رونقًا، إلا أنه في جماله أقل عداءً وترويعًا.

- الكونتيسة؟ لماذا تسأليني هذا السؤال؟

فزاد اتساع حدقتي ميري:

- أهي كونتيسة؟

فبدا عليه أنه اعتبر دهشتها تقديرًا صرفًا فقال:

- نعم يا عزيزتي. ولكن لقبها ليس إنجليزيًا.

وبدا عليها أنها تقدر هذا الاعتبار:

- أهو لقب فرنسي؟

- لا. ولا فرنسي أيضًا. أمريكي.

واجتمع في ذهنها عامل القومية وعامل المكانة، فقالت:

- إِذْنُ فَهِيَ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ غَنِيَّةً بِالطَّبِيعِ . لَمْ أَرْ شَيْئًا بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ .
فَسَأَلَهَا بَيْلٌ :

- هَلْ وَقَعَ نَظْرُكَ عَلَيْهَا ؟

فَابْتَسَمَتْ مِيزِي ، وَقَالَتْ :

- فِي الْمَهْرَجَانِ ؟ لَقَدْ أُسْرِعَتْ بِالْإِنْصِرَافِ قَبْلَ أَنْ أُتَبِّينَهَا .

فَضَحَكَ أَبُوْهَا وَقَالَ :

- لَقَدْ تَسَلَّلَتْ هَارِبَةً !

وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا عَنْ مَسْزِ بَيْلٍ وَالسَّيْرِ كَلُودِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ
أَحْسَتُ بَعْضَ الْإِرْتِيَاحِ لِأَنَّهُ لَمْ يَشِرْ إِلَيْهِمَا . وَكُلُّ مَا غَامَرَ بِقَوْلِهِ فِي
اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ هُوَ :

- إِنَّهَا تَفْزَعُ مِنَ الْمَشَاحِنَاتِ السُّوقِيَّةِ .

وَلَمْ تَكُدْ بِحَاجَةٍ لِلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ ؛ فَاسْتَطَرَدَّتْ فِي حَدِيثِهَا
الْأُنَيْسِ :

- وَلَكِنْهَا أَيْنَ تَظُنُّهَا ذَهَبَتْ ؟

- ظَنَنْتُهَا اسْتَقَلَّتْ عَرَبَةً ، فَكَانَ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ وَصَلَتْ . وَلَكِنْهَا
سَتَأْتِي حَتْمًا .

فَقَالَتْ مِيزِي :

- كَمْ أُتَمَنَّى ذَلِكَ .

وَكَانَتْ تَتَكَلَّمُ بِإِخْلَاصٍ وَلَدَّهُ فِيهَا وَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ الْجَمَالِ الْمُحِيطِ

بها، والذي قد تضيف إليه الكونتسة بشخصها مزيداً، واستطردت:

- لقد جننا بسرعة مخيفة.

فضحك أبوها مرة أخرى عالياً، وقال:

- نعم يا عزيزتي. لقد جعلتكِ تحثين الخطي!

وتريث لحظة ثم أردف:

- أريدها أن تراكِ.

وعندئذ ابتهجت ميري لعناية مسز بيل التي بذلتها في تحسين مظهرها بمناسبة قضاء سهرتهما في الخارج، إلى حد أنها أصلحت قبعتها القديمة. واستطرد أبوها:

- ستحبينها حباً عظيماً!

- أنا واثقة أنني سأحبها!

وبعد ذلك شعرت بالحرَج إما من أثر نفووها بأكثر مما يجب أو لإدراكها فجأة أنه ليس في وسعها أن تقول أكثر مما قالت، ولجأت إلى طرق جانب فرعي من الموضوع:

- حسبتها مسز كادون.

وزاد مرح بيل بدلاً من أن ينقص وقال:

- تعين أن زوجتي ظنت ذلك؟ إن زوجتي يا طفلي العزيزة بلهاء

لعينة!

وبدا عليه أنه لفرط عجبها يتكلم عن زوجته وكأنها شخص لا تكاد أن تكون لها به معرفة، حتى لقد أدركت ملاذها من حرجها لم يكن

موفقاً غاية التوفيق. وبدأ على بيل نفسه بعد لحظة أنه شعر بالحرَج، فقال:

- ما أعنيه بكل جد أنها لا تعرف في الحقيقة شيئاً عن أي شيء.
وتوقف ليتبع نظرات طفلته المسحورة، وقد أغرتها بعض الأشياء
بالاقتراب من الطرائف الجميلة الموضوعة فوق إحدى المناضد. ثم
تهكم بغرور مسز بيل قائلاً:

- وهي تحسب أن لديها أشياء طيبة. تصوري هذا!
وأحست ميزي أنها يجب أن تعترف بوجاهة رأيه. فكل ما افتقدته
في الاستعراضات الفرعية عوضتها عنه نفائس الكوننسة، ففكرت قليلاً
وقالت:

- نعم. إنها تعتقد ذلك.

ونمت لهجة بيل على الخشونة مرة أخرى وهو يجيبها بأن اعتقادها
لا أهمية له. بيد أن ابنته شعرت بمزيد من الابتهاج؛ لأنها قضت معه كل
هذا الوقت من غير أن يقدم على ما هو أسوأ من ذلك، وقد احتفظت
بتلك الساعة في ذاكرتها أياماً وأسابيع موفورة البهاء والوضوح.
واستطاعت في ختامها أن تتبين طواياها مئات الأشياء التي لم تكن
في حينها سوى شعور إعجازي بالسرور. وكان ما استشعرته وقتئذ أن
رفيقها لم يزل نهباً لا يضطربه شديد، وإن لم يشأ أن يظهره. وأنه كلما
أفلح في محاولة إخفاء اضطرابه تسنى له أن يشجعها على توسم الرقة
فيه. وبعد قليل تنقل في أرجاء الحجرة ليربها الأشياء، وأخذ يكلمها

كما لو كانت شخصًا ذواقًا، وقال لها اسم السيدة الفرنسية المشهورة التي بدت في إحدى الصور المصغرة، ووعت في ذاكرتها هذا الاسم. ثم قال -وكأنه لمح نظرة اشتهاؤها لبعض الطرائف- إن الشك لا يخامرهم في أن الكونتيسة عند قدومها ستعطيها شيئًا جميلًا. وبحث عن صندوق من الساتان القرمزي ركبت في غطاءه مرآة رفعها في زهو فكّه ليقدم إليها ستة صفوف من حلوى الشوكولاتة، متفوقًا بذلك على السير كلود الذي لم يتجاوز قط الصفوف الأربعة. وقال لها:

- في وسعي أن أصنع بهذه الحلوى ما أشاء. إذ لست أبالي بأن أكرمك أنك أنني أنا الذي أهديتها إليها.

وكان واضحًا أن الكونتيسة قدرت هديته خير تقدير، إذ كانت ثمة ثغرات عديدة وآثار نهب بين الصفوف من غير ضابط. وفيما هما ينظران معًا، فطنت ميري إلى ما يعتبر علامة على طول افتراقهما من أنها نمت بالنسبة له منذ آخر مرة وجه انتباهه إليها، وأصبحت بمرور السنين وما زاد على قامتها من بوصات -إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب- أقرب كثيرًا إلى أن تكن شخصًا صغيرًا يحسب له حسابه. أجل كان هذا جانبًا من الحرج الذي حاول أن يتغلب عليه بالإفراط في الحنان إلى درجة تقارب البلاهة. ومن ذلك أنه حملها فترة على ركبته وهو جالس فوق أريكة حريرية صفراء تحت إحدى أشجار النخيل، وراح يربت على شعرها ويبعدها بذراعيه مداعبًا وهو يريها أنيابها اللامعة ثم يدعها تستنشق عبير لحيته المعززة وهو يردد لها عبارات التدليل التي لا جدوى منها ولا هدف لها:

- يا فتاتي الأثيرة. يا ابنتي الصغيرة العزيزة.

وقد عرفت بعد ذلك أنها لا بد أن تكون قد رثت له. وتتبع بيننا وبين نفسها ما يجد من عناء في التحدث إليها بوضوح عن أي شيء. وكان ما انتابها من الاختلاجات والاستجابة قد جعلها بغير حاجة إلى أكثر من ذلك تعويضاً لها عن فترة الإهمال. وطفرت الدموع إلى عينيها مرة أخرى مثلما طفرت يوم قال لها الكابتن في الحديقة بكل «عظمة» إن أمها طيبة. وطيبة أبيها في هذه الصورة المباشرة وهذه الخلوة المشرقة التي لا نظيرة لها معه، تلك الخلوة التي انتفى منها كل شيء سوى أنه بابا وأنه فخم، ماذا عسى أن يكون هذا ما لم يكن عظيماً أيضاً؟ ولم يفسد هذا الإحساس ما شعرت به أخيراً حين بدا عليه القلق من أن لديه هدفاً لا يدري كيف يصرح به؛ لأنها في جدة ألفتها المستعادة كانت حُرِّيَّةً أن تشايعه بسرور في قوله -أو حتى في ادعائه- أن علاقتهما سهلة لطيفة. فقد كان فيه شيء يبدو كأنه يطلب إليها بأسلوب مؤثر أن تساعد على الإدعاء بأنه يعرف ما فيه الكفاية عن حياتها وتعليمها وموارد معاشها ونظرتها إليه، وعلى إضفاء اللهجة العائلية الطبيعية على الأسئلة التي لم يكن في مقدوره توجيهها إليها. كانت مستعدة أن تتظاهر بذلك منتشية لو أنه أوحى بذلك إليها. وانتظرت تلك البادرة منه في حين راح يطلق من بين أسنانه الزفرات التي لم تكن ترى أنها بلهاء. وكأنما هو -على غبائه المطبق- قد سمح لنجوى عينيها الودودتين أن تبشاه استعدادها لأي شيء، فراح يضرب في الحجرة على غير هدى، لا يدري -وحق الشيطان- على أي شيء مما حوله يضع يده.

الفصل التاسع عشر

ولما أشعل سيجارة وشرع ينفث الدخان في وجهها فكأنما هو قد أشعل بثقابه ذكرى ما اختمر من اعترافات قديمة قبيحة، ومن فضائح قديمة وواجبات قديمة، وإدراكًا معتمًا لما كان له من حقوق التملك على شخصها؛ وما كانت حريّة -لو أن الأمور كانت على خلاف ما هي عليه تمامًا- أن تمنحه الآن من ذات نفسها. وما كانت حريّة أن تمنحه إياه وعيناه تومضان من خلال الدخان، إنما هو ببساطة ما كان على استعداد أن يحصل عليه منها. فالبذل، هنا وعلى الفور، هو كل ما تشتهيّه. وكانت غريزتها الصغيرة التي تدفعها إلى المسالمة من بين ما استعادت ذكراه، فجعلت تلك الغريزة تلح عليها بالتساؤل عما ينبغي أن تفعل وما لا ينبغي أن تفعل؛ وأي الألفاظ تتفوه به وأيها لا تتفوه به. وأي الاتجاهات تمضي فيه وأيها لا تمضي فيه. فذلك من شأنه أن يخفف من وطأة الأزمة بالنسبة للجميع، بما فيهم الكوننسة.

كانت مستعدة في هذا الخصوص للإقدام على تنازل جسيم. تنازلاً لا يشمل أي شيء خلا السير كلود وخلا مسز بيل. فالحجامة ما كانت لتتضمن هذين، ولئن كانت لديه في مؤخرة دماغه فكرة ما فلديها أيضاً

في مكنن ليس أقل من ذلك عمقاً فكرة أخرى. وانتضى وقت وهما جالسان معاً تلاقى فيه لقاء صامتاً تصورها لما لديه من تصور، وتصوره لتصورها، وتصورها لتصوره.. أما ما لم يكن له ثمة تسجيل فعال له في الحقيقة فهو ذلك الشجن الغريب اليسير من جانب الطفلة. وكان شجنًا يتسم بالبراءة المشبعة بالمعرفة والجانحة إلى المداهنة. وكان ما استطاع بيل أخيرًا أن يضع يده عليه وهو يحجب مرة أخرى بشخصه الأنيق نصف زخارف المدفأة قوله:

- أتعلمين يا عزيزتي أنني سأرحل قريباً إلى أمريكا؟

فخطر لابنته على الفور أنه بهذا القول قد سلك أقصر السبل، وأن هذا هو الأسلوب الذي لم يكن حريراً أن ينهي به الأمر إلى زوجته. ولكن زوجته برزت في ثقة سطحية أخاذاً عند ردها عليه قائلة:

- أتعني أنك راحل مع مسز بيل؟

فأنعم أبوها النظر وقال:

- لا تكوني جحشة!

وبدا صمتها وكأنه جهد كبير تبذله كي لا تكون جحشة.

- إذن فمع الكونتيسة؟

- معها أو من دونها يا عزيزتي، هذه مسألة لا تعني أحداً إلا أباك المسكين. إن لها مصالح كبيرة هناك. وهي تريد مني أن ألقى عليها نظرة.

فألقت ميري بنفسها في غمارها وسألته:

- وهل يستغرق ذلك زمنًا طويلاً؟

- نعم. فحالتها مرتبكة جدًّا، وقد يستغرق الأمر مني شهرًا. وما أريد أن أسمع منكَ الآن هو هل تحبين أن تأتي معي؟

ومرة أخرى انتصبت قائمة أمامه في وسط الحجرة وشعرت بلونها يكفهر، وقالت له لاهثة: «أنا؟». وأحست مع هذا بمجرد النطق بها أن مثل هذه النبوة الفزعة غير مستحبة على الإطلاق. وزاد إحساسها بذلك عندما أجابها أبوها وهو يهز رجليه وينفض رمد سيجارته مظهرًا الملالة بوضوح على قسما ت فامته كلها، أنه لا حاجة بها إلى كل ذلك الاستنكار. وساعدها ذلك بعد بضع ثوان على أن تبدو كما كان يجب لها أن تبدو، حتى إنها تبينت في ضوء بذخ الكونتيسة اللطيف ما هو الجواب الصحيح الذي ينبغي أن تقوله:

- أبي العزيز، أنا مستعدة أن أذهب معك إلى أي مكان.

فحول ظهره إليها ووقف وأنفه إلى مرآة المدفأة وراح ينفض ذرات من الرماد على لحيته، ثم قال فجأة:

- أنعرفين شيئًا عن أملك المتوحشة؟

فذكرتها لهجة هذا السؤال بأمرها المتوحشة بالذات بدرجة ملحوظة. فهو يتسم بالوثبات الجامحة التي تنتقل بها أيذا من موضوع إلى موضوع. وقد أركى هذا الإحساس لدى ميزي في الوقت نفسه إلهامًا جعلها تقول:

- نعم أعرف كل شيء.

وأشرق محياها، حتى إن أباهما إذ رأى ذلك في المرأة استدار إليها وسرعان ما وضعها على ركبته فوق الأريكة مرة أخرى وراح يتودد إليها بصورة واضحة. وقد أوحى إلى ميري إلهامها على الفور بأنها كلما أمعنت في الكلام عن أمها قلت مطالبتها بالكلام عن زوج أمها وزوجة أبيها. وظلت تتمنين أن تصل الكونتيسة قبل أن تنفذ قدرتها على حمايتها وعندئذ، وهي ملتصقة به على هذه الصورة انتقلت الفكرة الكامنة في مؤخرة دماغها إلى شفيتها. فأخبرته أنها قابلت أمها في هايد بارك مع سيد كان رقيقاً معها، في الفترة التي قضاها السير كلود في السير مع فخامتها، وأنه جلس إليها وحادثها. وجعلت تروي ذلك المشهد وقد أطاح سرورها برؤية بيل يصغي من غير مقاطعة بذكرى ما تعهدت به للكاتبين من الكتمان. كان مصدر ذهول تقريباً بالنسبة لها، ولكنه في الوقت نفسه مصدر سرور؛ أن يتيسر لها الظن بأن أباهما سئم آخر الأمر من غضبه.. من غضبه بشأن ماما على الأقل. فهو الآن متضجر منها فقط. وقد جعلها ذلك تحرص أشد الحرص على ألا يندلع ما خبا من جذوة سخطه. وسحر الطفلة أن ترى نفسها قادرة إلى هذا الحد على إثارة اهتمامه. وظل تأثير هذا السحر حتى عندما قال في شرود وبلهجة غامضة بعد أن وجه إليها عددًا كبيرًا من الأسئلة:

- نعم. سحقا إن لم تفعل ذلك.

إذ كان في هذا القول شيء من التناهي وشيء من الإعياء الرزين جعلها تشعر بالأمن. وكان لا بد لها من ذكر السير كلود؛ وإن كانت قد قللت من ذكره بقدر الإمكان، وكان بيل لا يبدي من الانفعال أكثر

من التطلع إلى أكثر ما فوق رأسه. فترأى لها أن دماثته هي دماثة عدم
الاكتراث الشامل. وهذا مسلك تجد فيه شخصياً نفعا كبيراً لها، فلو أن
الكونتيسة هي صاحبة الفضل فيه فهي على استعداد لاحتضان الكونتيسة
على الحقيقة لا على المجاز. وفضحت لهفتها تلك بسؤال قلق عنها؛
رد عليها أبوها قائلاً:

- أوه. إن لها لعقلاً راجحاً. وسأعضدها إلى أن تخرج من أي مأزق.
ثم نظر إلى ميري وكأنه يستطيع أن يتقصى الصلة بين استفسارها
وبين لهفتها على إظهار عرفان الجميل؛ ثم قال:

- أتريد أن تقولي إنك تودين حقاً أن تأتي معي؟
وأحست كأنه ينظر إليها الآن نظرة نظرة فاحصة جداً وكأنها أيضاً
قد كبرت أضعافاً كثيرة، فقالت:

- أنا مستعدة أن أقدم على أي شيء في العالم تطلبه مني يا أبي.
فألقي مرة أخرى نظرة التملك على صداره وبنظرونه، وقال وهو
يضحك مباعدًا بين رجله:

- هذه يا عزيزتي طريقة في التعبير معناها «لا وأشكرك». فأنت
تعرفين أنه ليست لديك أدنى رغبة في الذهاب معي. فأنت لا تستطيعين
خداعي «أنا».

ومضى بيل فارانج يدلي برأيه القاطع:

- أنا لا أريد أن أثقل عليك. فهذا ما لم أفعله قط في حياتي. ولكنني
أعرض عليك الأمر ولك الخيار في القبول أو الرفض. وأملك لن يكون

لها بكِ شأن أكثر مما لو كنت خادمة مطبخ طردتها؛ لأنها تنكبت سواء السبيل. فأنا إذنٌ بطبيعة الحال راعيكِ الطبيعي، ولكِ فرصتكِ كما تعلمين. مني كل شيء تستطيعين الحصول عليه. والآن فرصتكِ كما تعلمين. وما أخيكِ إن أنتِ لم تنتهزي هذه الفرصة. وليس لكِ أن تزعمي إنني لم أعرض الأمر عليكِ. ولا أن تقولي إنني لم أكن عطوفًا عليكِ أو إنني لم أكن أمينًا مستقيمًا فيما عرضته عليكِ. واحرصي على ألا تقولي هذا القول مطلقًا وإلا أحقني ذلك عليكِ. أنا أعرف ما يليق بي أن أفعله. سأضملكِ إلى كتفي مرة أخرى كما ضممتكِ من قبل مرارًا وتكرارًا. وإنني لشاكر لكِ ما تظهرين من الشجاعة.

وكانت مدركة حق الإدراك أن وجهها ما كان ليروقه لو أنها أظهرت أي علامة تدل على ما كانت ترجو ألا تظهره من فطنتها الدقيقة لما يريد الآن حقًا أن يفعله. أليس يرمي إلى أن يقلب عليها الآية ويضطرها عن طريق الإحراج إلى الاعتراف بأن ما يتفق حقًا مع خطتها الصغيرة هو أن يتركها - بعد أن بذل كل هذا الجهد في السلوك المهذب - لترتب أمورها بمحض حريتها؟ وبدأت أعصابها تتوتر مرة أخرى: فقد أطبق عليها الاعتقاد بأن هذا فراق بينهما فراقًا أبديًا. وأنه إنما جاء بها إلى هناك ليغمرها بكل هذه الملاطفات لا لشيء إلا لأن مثل هذه المناسبة الهامة ينبغي أن تتراءى له خيرًا من أي مناسبة أخرى. فإن هي أفسدت هذه المناسبة بلهجة الشقاق أمدته بأساس للشكوى؛ فانتابت الطفلة حيرة وقتية بين النقيضين: أن توافقه على رغبتها في الخلاص منه أو تشير استياءه بتظاهرها بالتمسك به. فلم تجد في هذا الوقت حلًا أفضل من

أن تغمغم في استضعاف بالغ:

- أوه. بابا.. أوه. بابا!

- أعرف ماذا انتهى إليه رأيك.. لا تقوليهِ «لي».

ثم اتجه صوبها على الفور واحتضنها بين ذراعيه برهة، وهو أقل ما يكون تماسكًا في حركاته، وراح يحك لحيته على وجنتها. فأدركت عندئذ بمنتهى الوضوح من حركاته كما لو كان قد صارحها باللفظ المسموع أن ما يريده -تعمًا له- هو أن تدعه ينطلق ناجيًا موفورًا وقد غنم آيات الشرف جميعًا ومظاهر الفضيلة والتضحية بأكملها. فكأنما قال لها بصريح العبارة:

- أريد منك أيتها الحمقاء أن تساعدني كي أبدو طاهر الذيل نبيلًا، ولكن من غير أن أتجشم شيئًا مما تورثه هذه الأمور كلها من الملالة. إن ثمة من الإخلال باللياقة ما يكفي أحدنا، فاذهبي به كله وحدكِ. سرحي أباك العزيز مستجيبة إلى توسلاته الرقيقة. فليس في وسعه أن يكون فظًا معكِ. إذ ليس هذا من طبعه. وبذلك تفلحين في التخلي عنه لأنه كان أكرم من أن يلتزم معكِ الحزم الذي يمليه عليه واجبه بعد كل شيء.

كان هذا ما عرفها به في سلسلة من التريت الهائل على ظهرها. ولم يكن هذا الموضع من جسدها قد تلقى مثل هذه الضربات الشديدة منذ كانت مودل تدق لها ظهرها حين يصيبها الفواق. وبعد لحظة أشعرها بأنه أضحى واثقًا بها ثقة كافية كي يقول لها في لباقة شديدة:

- تعرفين أن أملك تمقتك مقتًا صريحًا. وكنت أفكر في صاحبك

إياه.. ذلك الشخص الذي حدثني عنه.

فأجابته ميري عن دراية:

- حسنًا. أنا على ثقة «منه».

فبدأ الغموض على أبيها لحظة ثم قال:

- هل تعنين أنك موقنة من حبه لك؟

- أوه. لا. بل من حبه «لها».

فبدأ على بيل المرح وقال:

- ليس للأذواق ضابط! وهذا ما يقوله الجميع كما تعلمين.

فكررت ميري قولها:

- لست أبالي. أنا واثقة به وكفى!

- أنت تعنين يقينًا أنها ستأبى؟

وكانت ميري تعرف كل شيء عن الآباق. ولكنها قطعًا أكبر سنًا من
ذي قبل. وفي داخلها شيء ما يتأذى من الطريقة التي جعل بها والدها
هذه الكلمة القبيحة - القبيحة قبحًا كافيًا على أحسن الفروض - تبدو
سافرة ومنحطة. وحفزها ذلك إلى تصحيح تعريضه بقولها:

- لست أدري ماذا تفعل. لكنها ستكون سعيدة.

فقال بيل كمن رائده أن يكون مهذبًا:

- نرجو هذا. فكلما زادت سعادتها قلت حاجتها على كل حال إلى
وجودك بقربها. ولذا ألح عليك في تدبر هذا العرض المليح - أعني أن

تتدبري جدًّا - الذي يقدمه إليك الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة
من أبويك.

وعندئذ تلاقت عيناها مرة أخرى في مشاركة طويلة غير عادية
انتهت بقوله:

- آه منك أيها الوغد الصغير!

فتقبلتها منه بالروح التي خيل إليها أنها أحب إليه وبتوفيق شجعه
على أن يستطرد:

- أنتِ شيطانة صغيرة مأكرة!

واعترف صمتها الدقاق كأنه الساعة بهذا أيضًا. فقال مؤيدًا ما ذهب
إليه:

- لقد سويت الأمر مع الاثنين الآخرين!

وبدا قولها في نظرها في غاية الجرأة:

- وماذا إن كنت فعلت؟

وكسالف الأيام انفجر أبوها مقهقها:

- عجبًا. ألا تعرفين أنهما شريدان؟

فازدادت جرأة وقالت:

- لست أبالي.. على الإطلاق!

فحرضها بيل بلطف قائلاً:

- ولكنهما قد يكونان أسوأ أهل الدنيا وأخطر مجرمين فيها. ولست

يا عزيزتي بالذي يتركك غافلة عن هذا.

وأحست ميزي بوجهها يبدو قرمزياً وهي تقول:

- ولكن هذا لا يمنعهما من حبي. فهما يحبانني حباً هائلاً.

وتلكاً رفيقها في الرد. وكان في وسع أي إنسان تقريباً -ودع عنك

ابنته- أن يرى إلى أي حد كان يريد أن يتحرى الأمانة:

- ربما. ولكن أتعرفين لماذا؟

وتحدث عيني، وأردف:

- لأنك ذريعة نافعة جداً.

فسألته ميزي:

- لأي شيء؟

- للعبتهما. ولا حاجة بي أن أقول لك ما هي تلك اللعبة.

وفكرت الطفلة ثم قالت:

- حسناً إذن. هذا إذن سبب أدعى.

- سبب لأي شيء من فضلك؟

- سبب لتلطفهما معي.

وقهقه بيل مرة أخرى كأنما مرحة يربو ويزداد:

- لمسايرتك إياها؟ أمدركة أنت من فضلك أنك إذ تقولين هذا

تنقلبين وحشاً؟

وقلبت الكلمة في رأسها:

- وحشًا؟

- لقد «جعلوا» منك وحشًا. وأقسم بشرفي أن هذا جد فظيع. لأنه
يبين أي طراز من الناس هما. ألا تدركين أنه عندما يتم لهما تشويهك
قدر استطاعتهما - فتمسين شائنة مثلهما، سينبذانك ببساطة؟
واتقد لهذا القول غضبها وقالت:

- لن ينبذاني!

فألح أبوها في تلطف:

- أستمحيك العفو. واجبي أن أضع الأمر أمام نظرك. ولن أغفر
لنفسي إن لم أبين لك أنهما سيكفان عن الاحتياج إليك.
وكان يكلمها وكأنه يناشد ذكاءها، حتى إنها لا بد قد شعرت
بالخجل؛ لأنها لم تستجب له استجابة كافية. فأضفى ذلك امتيازًا حقيقيًا
على كياستها العالية. ووضحت الصورة على حسب مراده:

- يكفان عن الاحتياج إليّ لأنهما لا يباليان؟

وصمتت عند هذا الحد من تصوير فكرتها:

- إن السير كلود لن يبالى طبعًا إذا أبقت زوجته. هذه هي لعبته.
وسيروقه ذلك إلى أقصى حد.

وكان ذلك فرضًا تستطيع ميزي أن تسلم به تمام التسليم، بيد أنه
ترك لها منفذًا صغيرًا إلى النصر. وفكرت في الأمر مليًا، ثم قالت:

- أعني إذا لم تعد ماما على الإطلاق؟

وكانت الرصانة التي واجه بها محياها ذلك الاحتمال حرية أن تدل
من يشاهدها على الطريق الطويلة التي قطعتها. واستطردت:

- بيد أن هذا لن يجعل مسز بيل..

وتلقف منها بيل هذا الكلام بجذل، فقال وهو يشب واقفًا على
قدميه ومرة أخرى هازًا ساقيه وناظرًا إلى نعليه؟

- أليس في نيتك أن تعود؟

- في نفس ذلك الموقف المريح..؟ أصبت يا عزيزتي. ستكون
مسز بيل بحاجة إلى شيء فوق هذا.

وتوقف لحظة ثم أردف:

- ولكن انتظارنا لهذا الشيء قد لا يطول.

ونظرت ميزي أيضًا إلى نعليه برهة. مع أنهما لم تكونا الزوج الذي
تعجب به غاية الإعجاب، الزوج الأصغر المخرج نصفه الأعلى، وسائره
من الجلد اللامع. وأخيرًا رفعت عينيها بهذا السؤال:

- أليس في نيتك أن تعود؟

ومرة أخرى سكت. وبعد قليل أرسل ضحكة هنية ذكرتها على
أقرب نحو في الدنيا بالأصوات الفريدة التي سمعتها تند عن مسز
ويكس.

- قد يبدو لك من الغريب أن أدلي لك بمثل هذا الاعتراف. والواقع
أنه ليس لك أن تدركي ما سأصنع. ولكننا سنضع الأمر في هذه الصورة
لأساعدك على اتخاذ قرار. والمسألة أن زوجتي سرعان ما ستؤول الأمر

يقينًا على هذا النحو. وستسمعنها تصبح أنها هجرت كي يتسنى لها أن تكس ذنوبها إذ ستكون حرة على ما تروم حينئذ. حرة كريمة زوج أمك المخنث. ولن يكون عليهما أن يراعى شيئًا بعد ذلك وعندئذ سيلقيان بك إلى عرض الطريق.

وسألها بيل:

- فهل أفهم من موقفك أنك تفضلين، في مواجهة ما ألح عليك في صده، أن تجازفي بهذا المصير؟

وكان ذلك أعجب نداء وجهه سيد إلى ابنته، مما جعل ميزي تقف وسط الحجرة مرة أخرى في حين راح أبوها يدور حولها ببطء ويداه في جيبه. وفي خطوته شيء له أكثر دلالة من سائر ما فعله على ألفته للمكان. وقلبت عينيها الصغيرتين المحمومتين بين نفائس صاحبه الخلابة كأنها تستنجد بها من جانبها لتخرجها من مأزق لا نظير له. وكأنما أحس بذلك أيضًا فوقف بعد لحظة فجاءة وأتم موقفه العجيب وولاءه الخارق بتعبير فذ عن الإغراء:

- ما أشد يقظتك يا حبيبتى. نعم هناك مال. مال لا حد له.

وأثر هذا فيها في البداية على نحو ما تؤثر فيها مزيغات البصر الباهرة في إحدى روايات التمثيل الصامت التي صاحبها السير كلود لمشاهدتها: فلم تر في الأمر أكثر مما عبرت عنه ألفاظه. وسألته:

- وهل لن أراك بعد ذلك إطلاقًا...؟

فقال بيل برجولة:

- إن أنا ذهبت إلى أمريكا؟ إطلاقًا. إطلاقًا. إطلاقًا!

وعندئذ انهارت انهيارًا غاية في التناقض مع مسلكها السابق. وتداعى كل شيء، اللهم إلا فزعها من أن تسمع نفسها تنفوه بوضوح بمثل هذا التنفوه القبيح. ولذا راضت نفسها على التصلب وقالت:

- إذن لن أستطيع التخلي عنك.

ورأته ينظر إليها بضع ثوان، وقد كشف لها بحركة متوترة عن النسق النضيد الذي ينتظم جميع أسنانه، حتى لقد خيل إليه أنها تستطيع أن تقرأ في تلك الحركة ذلك النفور الذي لم يحب أن يعبر عنه بإزاء خروجها على خطة الانقياد التي وعدته بها وعدًا عمليًا، ولكن قبل أن يتسع لها الوقت كي تخفف بأي صورة من الصورة من فجاجة انهيارها ذاك بدرت منه حركة تدل على نفاذ الصبر أدت به إلى النافذة. وسمعت صوت وقوف عربة. وأطل بيل إلى الخارج ثم واجهها من جديد، وظل على صمته، بيد أنها عرفت أن الكونتيسة عادت. وساد السكون بينهما مرة أخرى، ولكن صار يشوبه الآن ظل من الحرج يختلف عن حرج ساعة معًا. ومن غير أن يتكلم كرر فجاءة عناقه لها على ذلك النمط الذي كان قد أسرف فيه، فحرفها عائدين إلى الأريكة الليمونية قبل أن يفتح باب الحجرة فتحًا عنيفًا بلحظة واحدة. وعلى هذه الصورة من الاتحاد الحميم المتجددة من أبيها قدمت إلى الشخصية التي عرفت فيها على الفور السيدة البنية اللون.

وبدت السيدة البنية اللون في مثل دهشتها - وإن لم تكن في مثل فزعها - عندما فغرت فاهها في المهرجان في وجه مسز بيل وأوشكت

ميزي أن تفغر فاهها من جانبها، وقد أدركت إدراكًا تامًا أن لونها بني حقًا. فقد بدت على الحقيقة للطفلة أقرب إلى الحيوان منها إلى سيدة «حقيقية». فمن الجائز أن تكون كلبًا بارعًا طويل الشعر مجعده ملتفًا في هدب ثوب أو قردًا بشريًا مخيفًا في تنورة هفهافة. فلها أنف أكبر مما ينبغي بكثير جدًا وعينان أصغر مما ينبغي بكثير جدًا. وشارب لم يكن في مثل وسامة شارب السير كلود. ووثب إليها بيل. أما الكونتيسة فكم كانت دهشة الطفلة أن تراها تتقدم صوبها في مرح كأنه لم يقع حادث محرّج لأحد منذ زمن طويل، وكأنها أعملت ذهنها في الأمر بسرعة فائقة. وعلى ما لدى ميزي من دراية واسعة بهذه الظاهرة، إلا أنها لم تر قط قرارًا يتخذ بمثل هذه السرعة بعدم الإشارة إلى أي أمر محرّج. وفي الدقيقة التالية كانت الكونتيسة قد قبلتها وصاحت توجه إلى بيل عتابًا رقيقًا هاشًا:

- ولكنك لم تذكر لي قط «نصف» الواقع. يا طفلي العزيزة. لقد كان لطيفًا للغاية منك أن تأتي.
فأجابها بيل قائلاً:

- ولكنها لم تأت. فهي لا تريد أن تأتي! لقد بينت لها إلى أي حد تودين ذلك، ولكنها تأبى أن يكون لها بنا شأن.

ووقفت الكونتيسة باسمه. وبعد لحظة شغلت فيها ميزي بما أحدثته مظهرها المستهجن ألقت نفسها وقد ذكرتها هذه الابتسامة بابتسامة أخرى لم تكن قبيحة، ولكنها كانت أيضًا تنم عن الاهتمام. ألا وهي تلك الابتسامة الحانية الوضيئة التي انبعثت في ذاك اليوم من محيا ذلك

الكابتن النظيف اللطيف. إن كابتن بابا -أجل - هو الكونتيسة. ولكنها لا تداني في اللطف ذلك الآخر. ولا شك أن ذلك راجع إلى ما لدى ميري من تقدير بخس للسيدات. وقالت هذه السيدة في لهجة الإعزاز:

- أفلا تحبين أن أأخذكِ معي إلى «سبا»^(١).

- سبا؟

وكان تكرير الطفلة للاسم كسبًا للوقت حتى لا يظهر عليها كيف ذكرت الكونتيسة بامرأة غريبة ذات وجه فظيع حدث ذات مرة منذ سنوات في مركبة عامة أن انحنت عليها من مقعد مقابل وأبرزت لها فجأة برتقالة وهمهمت قائلة:

- يا حبيبتى الصغيرة. ألا تأخذين هذه؟

فشعرت عندئذ لسبب ما بفزع يسير أبله، وأن أدركت بعد ذلك أن محدثها التي كانت قبيحة جدًا لسوء الحظ إنما أرادت أن تبدي لها عطفًا خاصًا. وهذا أيضًا ما رمت إليه الكونتيسة. إلا أن الكلمات القلائل التي تفوهت بها والابتسامة التي اقترنت بذلك التفوه وضحت كل شيء على الفور. أوه. لا. إنها لا تريد أن تذهب إلى أي مكان معها. لأن حضورها قد بدد بالفعل في بضع ثوان ما كان للحجرة من وقع بديع ووضع حدًا للبهجة الوجيزة التي أشعتها بها هيمنة بيل على كل تلك الأناقة. فلم تكن ثمة أناقة في تعرضها للدنو من تلك الشخصية القصيرة البدينة المتزلفة ذات الشارب التي كان عليها الآن أن تعرف فيها السحنة الوحيدة

(١) مدينة للمياه المعدنية في -بليجكا جنوب شرقي مدينة لياج. «المترجم».

العاطلة تمامًا من أسباب الجاذبية من بين من شهد محيطها المباشر نمو صلتها الحميمة بهم. وأخجلها في الوقت نفسه أن تبدو كأنها تزن في ذهنها الموضوع الذي دعت إليه، فأردفت بأسرع ما استطاعت:

- لا إلى أمريكا إذن؟

وعندئذ رشقت الكونتيسة بيل بنظرة حادة، وتساءل بيل في عدم اهتمام عن أهمية ذلك وهي قد أفهمته بالفعل أنها لا تريد أن يكون لها بهما شأن. وتلا ذلك نقاش بين الصاحبين ضاعت معالم مغزاه في غمار الطنين الداخلي المتزايد الصادر عن رغبتها الخالصة في الانصراف. وأن وسعها فيما بعد أن تخمن أن أباهما بين لصديقه أن لا جدوى من الكلام، وأنها خنزيرة صغيرة عنيدة؛ وأنها فضلًا عن هذا بلغت من العمر ما يتيح لها أن تختار طريقها بنفسها. وومض في ذاكرتها أيضًا أنها لا بد - قد أخفقت إخفاقًا فظيعًا في أن تبدو في غير مظهر الفظاظة الكاملة، من حيث إنها أوقعت في روعها قبل أن تدري ما هي فاعلة الإحساس بأنها ستبكي إن لم يأذن لها بالعودة إلى البيت. ولو كان هناك ما يدعو للبكاء فهو أنها كانت بوضوح وسماجة دون مستوى أجمل العروض التي تلقاها إنسان إطلاقًا. وأشد ما آلمها في هذا الأمر أنها تبينت أن الكونتيسة أحبتها إلى حد أنها كانت راغبة في أن يقابل حبها بحب مثله. وكانت فكرة مقابلة حبها بمثله هي التي حفزتها على الفرار. ففكرة مقابلة حبها بمثله بعد أن انفجرت بينهما تلك الألفاظ العالية المختلطة هي التي دفعت إلى شفيتها في رجفة تسبق الكارثة:

- أليس من الممكن من فضلكما أن تبعثا بي إلى البيت في مركبة؟

أجل إن الكونتيسة تريدها. والكونتيسة جرحها وآذى شعورها هذا الطلب؛ ولكن لا حيلة لها في ذلك، وقد زاد من فظاعة الموقف أن طلبها جعل الكونتيسة أكثر تزلفًا بصورة لا تطاق. والشيء الوحيد الذي ربما شد من أزر كل منهم إلى أن حضرت المركبة - وسرعان ما تبينت ميزي أنها ستحضر - هو أن شيئًا ما في الجو أوحى إليها بأن بيل قد أنجز ما أراد. فقد خرج لبحث عن أداة لتوصيلها؛ لأن الخدم كما قال كانوا قد أووا إلى الفراش؛ ولكن لا ينبغي استبقاؤها إلى ما بعد موعد نومها. وغادرت الكونتيسة الحجرة في صحتها؛ وبقيت ميزي وحدها وتمنت ألا تعود الكونتيسة. وكل ذلك بسبب سحنة وجهها. فلم يكن في استطاعة الطفلة حين تنظر إليه أن تحمل نفسها على تقبله. وسرعان ما تراءت لها سحنة ذلك الوجه في الأشياء الجميلة من حولها. وفي لحظة واحدة أدركت أن أباهما يحب مخلوقة هي على يقين من أن لا أمها، ولا مسز بيل؛ ولا مسز ويكس ولا السير كلود، ولا الكابتن؛ بل ولا مستر بريام ولا اللورد أريك كان من الممكن أن يحبوها. وفي أسفل السلم بعد بضع دقائق وقد وقفت العربية أمام الباب اجتهد أن يضمها إلى صدره من غير أن ترى وجهه. ولعل ذلك كان اعترافًا أخيرًا منه بأنه ليس لديه من دواعي الفخر الشيء الكثير. أما هي فكانت من جانبها شديدة التلهف على الانصراف حتى أن فراقهما لم يذكرهما بشيء حتى ولا بكلمة «أبدًا» واحدة من تلك المرات الكثيرة التي نطق فيها بتلك الكلمة قبل ذلك باعتبارها العقوبة المترتبة على عدم استمساكها به ردًا على سؤالها عن تلاقيهما بعد ذلك. وكان في الكونتيسة شيء ما يضيفي البهتان

على كل شيء؛ حتى على تلك المصالح الكبيرة في أمريكا؛ وأكثر من هذا على تلك الاندلاعة الأولى لتفوقها على مسز بيل وعلى ماما؛ ذلك التفوق الذي تبدي في صورة أطقم من السيفر وصناديق من الفضة. أن هذه الأشياء لم تزل موجودة. ولكن لعله لا وجود لتلك المصالح الكبيرة في أمريكا. وكانت ماما قد عرفت أمريكية لم تكن شبيهة بهذه المرأة في شيء. مع أنها ليست من طبقة النبلاء، فاسمها مسز تكرر. وما كان تباعد ميزي ليتخذ صورة أتم لو أنها لم تصح فجأة:

- ويحي. لا نقود معي!

وبرزت أسنان أبيها عند سماع هذه العبارة بحيث أضحت صورة للشبهة المعطلة فكان كفؤًا لادعاء الفاقة:

- اجعلي زوجة أبيك تدفع.

فصاحت الكونتيسة:

- زوجات الآباء «لا» يدفعن! ما من زوجة أب دفعت في حياتها قط!

وفي اللحظة التالية كان الثلاثة في الشارع معًا. وبعد لحظة أخرى كانت الطفلة في المركبة؛ والكونتيسة على الطوار قريبة منها، وبسرعة أخرجت نقودًا من كيس أخرجته من أحد جيوبها. وكان أبوها قد اختفى بيد أن ذلك لم يوقظ بعد في نفسها غصة فقدان. وقالت السيدة البنية اللون:

- هاك نقودًا. انطلق!

وكان صوتها آمرًا فانطلقت المركبة. وجلست ميزي فيها ويدها
مملوءة بقطع النقد. أكل هذه لأجرة العربة؟ وحينما عبرت بمصباح من
مصابيح الشارع انحنت لتبين المبلغ. وكان ما رآته حفنة من الجنيهات
الذهبية. لا بد إذن أن تكون تلك المصالح الكبرى في أمريكا موجودة.
إنها لم تزل على كل حال في جو ألف ليلة وليلة..



الفصل العشرون

كانت النقود أكثر بمراحل مما يلزم أجر عربة ولو في حكاية من حكايات الخيال. ولما كانت مسز بيل غائبة - فهي لم تكن قد عادت بعد رغم أن الساعة أمست متأخرة من حديقة ريجنت - فقد تولت سوزان أش في البهو - وقد أبدت من ارتفاع الصوت قدر ما أبدته ميزي من خوفه؛ وأبدت من الجرأة قدر ما أبدته ميزي من السلاسة - عندما وقع نظرها على المشهد المعروف عليها تحت ضوء المصباح الخافت - مما جعل المكان واضح المبينة للمشهد الوضاء الذي رآته الطفلة أخيراً - تولت سوزان إبراز نصف الريال الذي قرر الحوذي الساذج أنه أقل مبلغ يرتضيه. ولما كان سينقضي وقت طويل على ما يظهر قبل وصول مسز بيل؛ قد استحثت سوزان ميزي في تلك الأثناء لا على الإيواء إلى فراشها فحسب كأى عزيزة حبيبة؛ بل استحثتها أيضاً بمزيد من عبارات التدليل والإعزاز على أن تخصص جزاء لها على خدماتها العامة والخاصة أحد الجنيهاات الذهبية التي رتبت على نسق فوق مائدة الزينة في الطابق العلوي؛ فلم يكن منظرها بطبيعة الحال أقل زيفاً لبصر خادمة يتيمة منه لبصر من كانت هدفاً لمناورات رباعية الأطراف.

ومضت مَن كانت ذلك الهدف التام وقد عقدت على ما تملكه أكبر منديل استطاعت الحصول عليه ووضعت تحت وسادتها. ويبدو أن الإيضاحات التي تداولتها في الغد مع مسز بيل كانت أكمل بالضرورة من الإيضاحات التي تداولتها مع صديقتها المتواضعة؛ فتمخض الأمر عن تنازلها طوعية عن كنزها. وكانت ثمة في الواقع إيضاحات على مسز بيل أن تقدمها مثلما كان لها أن تطلبها. وكان أشدها استرعاء للنظر ما مضمونه أنه يقبح من فتاة صغيرة أن تأخذ نقودًا من امرأة هي أخس بنات جنسهما. وفحصت الجنيهاً بشيء من العناية، وعلى أثر ذلك الفحص رغبت صاحبة هذا القرار في أن تعرف بأي اسم يمكن أن تسمى هذه النقود -إذا نظر المرء إلى الأمر نظرة الجد ما لم تسم «ثمن الخطيئة». ولم تخض رفيقتها في الأمر إلا في حدود السؤال عما ينبغي عليهما إذن أن تصنعه بهذه النقود. وردت مسز بيل -التي كانت في تلك الأثناء قد وضعتها في جيبها- على هذا السؤال بشم ويداها على ذلك الموضوع:

- ينبغي أن نردها فوراً.

وسرعان ما عرفت الطفلة بعد ذلك أن سوزان دُعيت إلى الإسهام في عملية الرد هذه بالنقد الأوح الذي حصلت عليه؛ ولكن تشديد قبضتها على كنزها بين لميزي في حديث خاص بينهما أن هناك ولا شك حدًا لما يمكن أن تنقاد له من «الاستغفال». وكانت ميزي صريحة مع مسز بيل بشأن كل ما وقع في الليلة الماضية ولكنها ألقت نفسها الآن من قبل الخادمة المستنكرة هدفًا لملاحظات كانت بمثابة دلائل رنانة على ما

تعانيه تلك السيدة من ألوان الكبح. وإحدى هذه الملاحظات تنصب على الساعة الشاذة وهي الثالثة صباحًا إن كانت تريد حقًا أن تعرضها -التي عادت فيها مسز بيل إلى البيت. وملاحظة أخرى- بنبرات كان انتقاد ميزي لها لم يزل مضمراً أشد الإضرار- نعتت جاذبيتها بأنها من الخديعة والعار بحيث لا ينبغي أن يصبر عليها المرء إطلاقاً. وملاحظة ثالثة انصبت بشيء من العنف على موضوع المبالغ الطائلة المستحقة في الطابق السفلي في جميع الفروع عن جهود مهذرة واجتهاد مضيع. وظل وجدان سيدتنا الصغيرة مشغولاً في الواقع بصفة أساسية مدى بضعة أيام بالهواجس التي بثها فيها إبطاء تابعتها في خمود إحساسها بالغبن إبطاء شديداً. فما أخرى تلك الأيام إذا تمخضت عن انفجار في المطبخ أن تغدو مروعة لتلك الثورات التي وعتها في كتب التاريخ عن ظهر قلب. ومما نمى لديها ذلك التوقع أنها تبينت في عيني سوزان أكثر من لمحة واحدة عن الأسلوب الذي تعد به الثورات. وإنها لتدرك حين تصغي لسوزان أن الشرارة التي أذكت المواد القابلة للاشتعال وكانت سبباً لاندلاعها بالفعل إنما هي النسبة التي نعتت فيها بأنها لصة فظيعة منحطة لا شيء إلا لأنها رفضت أن تتخلى عن ملك يمينها.

وكان المخرج لها من هذا التوتر في اليوم الخامس أنها نقلت بعد الإفطار مباشرة من لندن إلى فولكستون وأنزلت في فندق جميل. وكانت لهذا الحدث علاقة وثيقة بإحساس لاهث في صدر بطلتنا بأن الفضل فيه للسير كلود أكثر مما هو راجع إلى جهود سوزان. وقد تعاون هذان الاثنان أمام عينيها الدهشتين في إنجاز المغامرة وفي أن يسيغا

عليها الإحساس بأن نجاحها يعزي إلى مسز بيل - كما قالت سوزان - كانت قد أسرعت بالمضي لتوها. وعندئذ تلقى السير كلود هذا النبأ بأن صاح وساعته في يده:

- احزمي إذن أمتعتك يا آنسة فارانج وتعالى معنا.

وتلت ذلك سلسلة من الحركات الرياضية من شأنها أنها دفعت بقلب الأنسة فارانج إلى فم الأنسة فارانج. وجلست مع السيد كلود في مركبة ذات أربع عجلات وظل ممسكاً بساعته، وطال إمساكه بها عن الوقت الذي قضاه أي طبيب على الإطلاق في جس نبضها. وأنه لأمد طويل يكفي لإعطائها فكرة عن شيء أشبه بنشوة إهمال مثل هذه الفرصة لإظهار نفاذ الصبر. وقد بدأت هذه النشوة في حجرة الدراسة وفوق الأرجوحة على نحو ما حدث ذلك الاستباق ذات يوم منذ مدة وجيزة حين صعدت سوزان لاهثة وبعد أن سمعت منها تلميحا عن الدوقة نزلت بنفسها إلى الطبقة الأرضية. فأى ضرر إذن في الآمال المخيبة وثبوت الهمة إن هي أحست - ولو لحظة واحدة - بمثل ذلك الاسم وقد «أثير»؟ وظل في ذاكرتها أن أباه قد تنبأ لها بأنها ستغدو يوماً ما في عرض الطريق. ولكن من الواضح أن ذلك لن يكون اليوم. وأحست أنها كانت على حق في التفضيل الذي صرحت به لذلك الوالد بمجرد أن دفع زائرها سوزان إلى العمل ووضع يده على يدها بحنان وهي واقفة معه في الانتظار؛ وكان هذا ما فعله الكابتن في حدائق كنجستون من قبل. وقد أذكرها موقفها الراهن بعض الشيء بذلك الموقف وتحدد لديها التساؤل الغامض عن الأسلوب الذي بدت لها به منذ البداية مثل

هذه الترتيبات والجذبات وكأنها خطوات أو علامات على انشغال بال الآخرين، بل وإلى حد ما على جيشان متاعبهم وفيضانها. وما خذلها وأفرعها ليلة المهرجان ضاع الآن في غمار إحساسها بأن أي «مفاجأة» في الوقت الحاضر على وشك أن تنبثق من السير كلود لا بد أن تكون أضخم من أن تنبثق على الفور. وأي فزع حريٌّ بأن يصدر عن إخراجه زوجة أبيها من حسابه يخفف منه بصفة عامة أن مسز بيل أن هي صارت الآن تغدو وتروح من غير أن تفكر فيه، فليس ذلك الصفة الأساسية على الإطلاق التي تتسم بها الحقيقة المتجددة من حيث إنه يبدو مرجعاً لمسز بيل في مقابل ذلك. إن الوجود مع السير كلود معناه التفكير في السير كلود. وهذا هو القانون الذي سيطر على عقل ميري إلى أن اندست في رأسها المائة مرة أخرى على نحو ما صورة مسز ويكس التي طال غيابها عن ذهنها، وذلك عندما اهتزت فجأة العربة التي كانت قد أقلت أيضاً سوزان ومجموعة كبيرة من اللفافات وأوشكت أن تصل إلى تشيرنج كروس.

كان ذلك غريباً، ولكنها منذ ذلك الوقت فهمت وتتبع. تتبعت بإحساس بملء أي فراغ تحدثه أعراض التحاشي والفرار ملئاً مستفيضاً. وكانت نشوتها شيئاً يقبل بوجهه أكثر مما يستدير، وعيناها لم تزالا مصوبتين نحو مسز ويكس حتى بعد أن خامرتها الدهشة اليسيرة عندما لم تجداهما حين امتدت الرحلة لا في محطة لندن ولا في فندق فولكستون. واحتاجت الطفلة إلى بضع ساعات كي تشعر بأنها إن لم تكن في هذين المكانين، فهي على الأقل في كل مكان آخر.

وقد عرفت ميزي الشيء الكثير منذ البداية، ولكنه لا يصل في القدر إلى ما سوف تعلمه منذ هذه اللحظة. وعرفت على الخصوص خلال اليومين أنها ستكون معلقة في الهواء فوق البحر الذي تمثل لها في زرقته التي يداعبها النسيم الرخي ويكتنفها سحر الصيف، وكأنه يعني لديها اجتياز آمد تجاوز المضيق^(١). وخول لها في ذلك الحين أن تصل إلى تخمينات بلغ من استفاضة أنني لن أجد متسعاً لهدفي الرئيس إن أنا حاولت أن أتبع مراحل هذه التخمينات. فحسبي إذن أن أقول في شأنها أن أكمل تعبير نقدر على إضافته على مسلك السير كلود إنما هو نسخة هزيلة باهتة للصورة التي تراءى عليها لصديقته الصغيرة. وفجأة انقاد ذلك الصباح لتأثير الفكرة التي حقته بها مسز ويكس أسابيع طوَّالاً عن طريق خطوط اتصال كانت قديرة في انتهاج أساليب غريبة لصيانتها من التشابك مع الشبكة الدقيقة التي نسجتها علاقاته بمسز بيل. وظلت أنفاس إخلاصها تهب بغير انقطاع فحملته على الفرار الذي جرفت فيه ميزي على الوجه الذي بيته. وكان مؤدى فكرتها بلا زيادة ولا نقصان أن يقدم بشجاعة على مفارقة مسز بيل وزوجته على السواء - وأن يمم بالطفلة على الفور شطر بلد أجنبي بحيث يحقق حلم مسز بيل في أن تراه تخلصاً عن أخطائه وارعوى عن انحرافاته. وسيكون ذلك تضحية - تحت أنظار لا يفوتها أدنى ظل من هذه التضحية - في سبيل ما كان يسميه حتى المترددون الغرباء في المعهد السابق لليدي المصلحة الحقيقية للصغيرة العائرة الجد. وخالج ذهن ميزي اشتباه في كثير مما

(١) هو المضيق الذي يفعل دوفر عن كالية بالتالي إنجلترا عن فرنسا. «المترجم».

دار في رأسه في الفترة الطويلة الأخيرة بصورة مختلطة ولكنها صريحة مستقيمة. فكان هذا الاشتباه لمحة فطنت بها، في عرفان الجميل ويكاد يصل إلى حد الارتياح؛ إلى المعجزة التي صنعتها مربيتها العجوز. وما كانت هذه المستخدمة في هذا المقام لتغدو أشد تأثيراً - حتى وهي تفعل بطريق غير مباشر - مما لو كانت بنية في يدها مطمار مفتوح أو رئيسة دير متوقدة الحماسة تنطق بلسان الكنيسة. فقد أكبت يوماً على خدينها الرخو وراحت تصب عليه عاطفتها العميقة الضيقة الأفق، باذلة قصارى جهدها لهديته، إلى أن أفلحت بدأها في أن تجعله في النهاية يؤمن بفرصته الرائعة. وكان الضمان الكافي لإقناعه بأن هذه الفرصة غير وهمية هو استطاعته التامة أن يدرك في النهاية أن لا أيدا ولا بيل حريان أن يثيرا أي نوع من النزاع في حالة إقدامه على العمل، لأن ذلك العمل يوافق خطتهما ومأربهما.

وإن هذا ولا شك ل يبدو إسرافاً في النفاذ إلى السريرة. ولكن توصل ميزي إلى استكمال وتجميع الصورة الجميلة للتأثير الخاص الذي خضع له السير كلود ولم يكن الفضل فيه برمته إلى إفضاء من جانبه، حتى لقد حرص بقدر المستطاع لفرط التزامه للياقة على إبقاء اهتماماته العاطفية خامدة. ولم يكن في ذهنها بالطبع من الأسماء كفاء ما فيه من التصورات. ولكنها مع هذا النقص أدركت أن مرات غياب رفيقها راجعة إلى أنه عشيق زوجة أبيها، وأن عشيق زوجة أبيها ليس له منطقياً أن يدعي لنفسه حقاً أسمى في رعايتها. وكانت ميزي عندئذ قد أدركت ضمناً أن ثمة ضرباً من التنافر بين العشاق والفتيات الصغيرات. وهذا الاعتبار هو

الذي يلقي الضوء حقاً على المضمون المحتمل للرسالة المكتوبة بقلم الرصاص التي أودعت فوق منضدة البهو في البيت بريجت بارك كي تستقبل مسز بيل عند عودتها. وتصورت ميزي هذه الرسالة مكتوبة على سبيل الاحتياط بلهجة مرحة، وأن السير كلود في ذلك الموقف تحول صوبها بوجه أكثر جدية مما بدا به في أي أزمة من الأزمات، اللهم إلا عندما أركبها العربية حين كانت سخيفة معه بعد فراقها للكابتن. إنه يكون محرّجاً حقاً، ولكنه ينبغي في نظرها أن يكون واثقاً من أنه غطى بشجاعة ظاهرية مازحة ذلك الاضطراب الذي أحدثه في بيت أبيها إبعاد خادمة لها قيمتها. وليس معنى هذا أنه لم يكن ثمة شيء كثير أيضاً لا يمكن أن يرد ذكره في الرسالة. شيء كثير كان عقل ميزي الصغير المتيقظ مكانه الأوفق، فجعل يطن فيه الساعة تلو الساعة، حتى لقد جعل النظرة الأولى إلى هذا الإطار أن زوج أمها ليس أمامه الآن في الحقيقة إلا أن يحسب حساب تعقد أموره مع مسز بيل وقد تخلص أخيراً من شراك كل إنسان آخر ومن كل شيء آخر؟ إن العقبة التي تقف في طريق ذلك الفصم الذي فرضته عليه مسز ويكس لصالح الفضيلة، إنما هي ببساطة كونه عاشقاً. أو إن أردنا مزيداً من الدقة: أن مسز بيل لم تدع لديه شكاً في شدة عشقها «هي» وبلغ بها الأمر أنها نجحت في حمله على أن تتقبل فترة من الزمن سيطرتها المفتونة عليه، بل وأن يتقبل، إلى حد ما، ما قد يستطيعان تحقيقه معاً بشيء يسير من المداينة وقدر كبير من الصبر، ولست أضمن أن ميزي لم تكن متيقظة إلى امتناع مسز بيل عن مشاركته في تفرزه الذي يكاد لا يقهر من سماحهما لربيتهما الصغيرة أن تتنفس

جو الشذوذ الفج الذي يسود علاقتهما، وفي اقتناعه بالاختصار بأنهما إما أن يكفا عن هذا الشذوذ أو يكفا عن التبنى. وكانت ربييتهما الصغيرة من جانبها قد اعتنقت منذ زمن طويل وجهة نظر كانت مسز ويكس نفسها لا تعتبرها في وقت من الأوقات فجة بصورة محظورة، ومؤدى وجهة النظر هذه أنها بعد كل شيء - «من حيث هي» ربيبة صغيرة- تشعر بأنها على سجيتهما أخلاقياً في أجواء من الفطاعة بمكان أن يتناولها المرء بالتحليل. فلئن صممت مسز ويكس وقد انتابها الارتياح البالغ على أن تلجأ للوسائل العنيفة، ففي استطاعة ميزي أيضاً كما أشرت سابقاً أن تتوصل إلى أسباب لجوئها لهذه الوسائل، وأن تتوصل أيضاً إلى الأسباب الأخرى التي منعت هذه السيدة حتى الآن على الأقل من الظهور في هذه الوسائل بصفة مباشرة.

ولن أستطيع بالتأكيد أن أجعلك تصدق عدد الأشياء التي رأتها وعدد الأسرار التي اكتشفتها! لماذا مثلاً ما كان السير كلود مستطيعاً أن يخفي عنها -إلا على فرض عدم اهتمامه بذلك- أن له من الحق فيها قدر مال زوجة أبيها- إذا ما نظرت إلى الأمر من حيث تعلقه بالمصالح المكتسبة، هذا إذا لم تقل إن حقه فيها لم تكن مسز بيل في موقف يسمح لها بمنازعة عليه؟ لقد أخفق على كل حال في أن يلبس عليها الأمر تلبيساً موقفاً يبعدها -عندما شرعا ينظران عبر البحر إلى فرنسا- من اعتبار ما لم يفسره تفسيراً تاماً، وكأنه يتفق مع الروح التي سادت أيامهما السعيدة الخالية وجولاتهما ورحلاتهما في تلك الأيام السهلة الجميلة عند بداية تعارفهما، إنها لم تحس قط من قبل أنها

ترشده إلى الطريقة المثلى لمعالجة ما بينهما، أو إحساسها بأنه شاكر لها ملاقاته في الموضوع الصحيح. وكانت نقطة تلاقيهما بالضبط هي أن مسز بيل أكبر شيء يحسب له حسابه، وأن غيره تلك السيدة غير حادة، وأنها يجب أن يخفيا عنها أكبر مدة ممكنة أن مسز ويكس لم تزل لها يد في هذا الموضوع. أجل لقد التقت معه أيضًا في أن زوجة أبيها وقد أعوزها أن تجد شخصية أخرى تغار عليه منها قد عوضت ذلك الحرمان الجسيم بتوجيه هذه العاطفة نحو التأثير الخلفي. وبدا على السير كلود أنه مستعد أن يقر في طرفة عين بأن التأثير الخلفي القدير على جذب خيط إنما هو تأثير خلقي معرض بعد كل شيء لفقء عينه، وأنه ما دام الأمر كذلك فثمت شخص ليس في وسعهما أن يتركاه بغير حماية قبل أن يتبيننا بصورة أوضح قليلًا ماذا عسى أن تفعله مسز بيل. والحق أن ميزي لم يكن عليها أن تعبر عن رأيها بالألفاظ في قاعة القهوة ساعة الغداء لتقول:

- ماذا «تستطيع» هي أن تفعل إذا ما أقدم بابا على خطوة تؤدي إلى الهجر الشرعي سوى أن تأتي إليك؟

ولا كان عليه أن يجيب على ذلك بأي لفظ سوى التعبير عن سروره بالحصول على مائدة بجوار نافذة، بحيث استطاعا وهما يصيبان من اللحم البارد والأبولينارس^(١) - لأنه لمح لها أن عليهما أن يقتصدا مقادير كبيرة من النقود- أن يدعا أعينهما تحوم بحنان حول الصخور الساحلية البيضاء البعيدة التي كثيرًا ما لوحت لمن يعاني الضيق من

(١) الأبولينارس: ماء معدني قلوي من منبع بهذا الاسم في وادي الآر بإقليم الراين بألمانيا. «المترجم».

الإنجليز بوعود الأمان. وجعلت ميزي تحدد في تلك الصخور كأنها عميقة أن تتبين حقاً بعد قليل شكلاً غريباً عزيزاً رابضاً فوقها - شكلاً كان لديها إحساس مرهف من قبل أنه أينما ربض سيكون أعرب شكل على الإطلاق شوهده في فرنسا. وكان شعورها أين لا توجد بزويكس مثيراً لديها على الأقل مثلما يثيرها شعورها أين توجد. فإن لم تكن قد وصلت بعد إلى بولوني فهذا من شأنه أن يزيد اللغز تعقيداً.

ولئن لم تقع عليها العين ذلك النهار، فإن المساء تميز بظهور شخصية لا توصف بأقل من أن التوقع المفرط في التوتر قد طوى أمام بروزها أجنحته على الفور وكانت ميزي تقضي على مقعد خشبي في حديقة الفندق نصف الساعة الذي يسبق وجبة العشاء، تلك «التشريف» الغامضة على مائدة الفندق العامة التي كانت قد استعدت لها في مواظبة أورتتها اضطراباً، وهي تحاول أن تروض أنفاسها على التوافق، مركزة كل تفكيرها تحت أهدابها المسبلة في أناقة الثوب ذي الأهداب الذي خطر لها أنها لم تتوصل بشأنه عبثاً إلى ولاء سوزان آش الذي طغى على الأشياء الجميلة التي خلفها فرارهم المحموم وراء ظهره.

وكان السيد كلود إلى جوارها مشغولاً بتدخين سيجارة وتقليب صحف المساء. ومع أن الفندق كان غاصاً، إلا أن الحديقة ظهرت عليها أعراض الخلاء الذي يعقب رنين جرس ارتداء ثياب السهرة. وكان قد اتسع أمامها الوقت تقريباً للسأم من منظر البشر - من بشريتها هي على الأقل - على صورة سناج كان يلطخ ثوبها الزهيد، واستوقفها ذلك وقتاً طويلاً، حتى إنها ما إن رفعت عينيها حتى استقرتا على قماش فاخر

مليح زاد من خزي اللطخ السوداء، وكان هذا القماش الفاخر يتهادى صوبها فوق العشب من غير أن تفتن إلى حفيفه. فتبعت إلى أعلى بهاء المتصلب، وظل بصرها مصعدًا إلى ما فوق ذلك الموضع من الأرض حيث وقفت صاحبة الثوب إلى أن تلقت في نهاية رحلة طويلة صدمة الالتقاء بالوجه الجامد الذي يعلو الثوب وكأنه الذروة العليا للتزين. وصاحت في اللحظة التالية صيحة كانت كفيلة وهي تثب واقفة على قدميها بأن تبعث السير كلود على الوقوف على قدميه أيضًا بجوارها:

– ماما!

وهكذا أتاحت لليدي وهي على بضع ياردات أن تستمتع بمظهر ارتباكها الوقتي. وكان ارتباك ميري المسكينة هائلًا، فقد كان لهبوط أمها المفاجئ عليها وقع مصراع من المصاريح الحديدية التي رأتها في النزعات المسائية مع سوزان آش تنزلق فجأة محدثة ضجة كبيرة عند لمسة من لولب فوق واجهات الحوانيت الوضاعة. فقد انطفأ فور السفر إلى الخارج دفعة واحدة. واستولى عليها إحساس فظيع بأنهما قد ضبطا. ولأول مرة في حياتها ترجمت في حضور أيذا أحد دوافعها الداخلية إلى حركة مثيرة للبغضاء فتشبثت على الفور بيد حليفها المسؤول عنها. ولم يجدها ظهوره لأول وهلة وقد ألجمه الذعر مثلها. ومرت دقيقة في الحديقة الخاوية بظلالها الطويلة الملقاة على المروج وبحرها الأزرق يبدو من فوق سياج النبات وهدوئها المروع يسود الجو، وكبراها كلاهما على تصلبهما حتى كأنهما قدحان عاليان مملوءان إلى الحافة فكان لا بد من إبقائهما قائمين تمامًا خشية أن ينسكبا. وأخيرًا قالت أمها

للسير كلود بنبرة بلغت غاية الدهشة بنعومتها غير المتوقعة:

- ألدريك أدنى مانع من أن أتحدث إليها؟

وتأخر رده كثيرًا، حتى إن ميري كانت السابقة إلى الاهتداء إلى
النبرة الصحيحة:

- أوه. لا. ألدريك أنت مانع؟

فضحك وقد بدا عليه أنه أخذ الفكرة عنها، وشعرت بترخيص كاف
في طريقة مخاطبته لزائرتيهما قائلاً:

- كيف بالله عرفت أننا هنا؟

وعندئذ قطعت زوجته بقية المسافة، وجلست على المقعد واضعة
إحدى يديها على ابتها وقد ضمتها إليها برشاقة، فما إن لمستها حتى
جعلها الخوف الذي اتقد فيها لتوه تشب وثبة ثانية، إلا أنها كانت هذه
المرة في اتجاه مختلف. وعاد السير كلود إلى جلسته وصحفه على
الجانب الأقصى، حتى لقد بدا تجمع الثلاثة أشبه بحفلة عائلية وأضحت
صلته بأعجب أسلوب في الدنيا وبطريقة شبه تهكمية معترفًا بها في لمح
البصر. وجعل الأم تربت على طفلتها في انسجام لا تعبر عنه الكلمات.
واستطاعت ميري أن تشعر أنه ليس السير كلود ولا هي اللذين ضبطا.
بل أحست إحساسًا واضحًا بأنهما هما اللذان ضبطا قريبتيهما. ضبطاها
متلبسة بالتخلص من عبئها بصورة قاطعة أظهرتها بمظهر الارتياح غير
المعهود فيها من قبل. أجل لقد زال الخوف، ولم تكن بعيدة عن الشعور
به بعدًا لا رجعة فيه قدر بعدها عنه الآن تحت ضغط ذلك الاستحواذ

الذي تبلغ أيدا الآن في التعبير عنه بذراعها المثقلة بالأساور وقد اكتست قفازًا طويلًا؛ وكان رد فخامتها على السير كلود بعد قليل:

- لقد ذهبت إلى ريجنت بارك.

- أتعنين أنك ذهبت اليوم.

- هذا الصباح. بعد زيارتك أنت لذلك البيت مباشرة. وهكذا اكتشفت أمركِ. فكان هذا ما أتى بي إلى هنا.

وفكر السير كلود وانتظرت ميزي رده:

- مَنْ الذي قابلته إذن؟

فأطلقت أيدا صوتًا يدل على تهكم مشوب بالتسامح:

- أحب منك هذا الفزع. أنا أعرف لعبتك. إنني لم أر الشخص الذي جازفت برؤيته، ولكنني كنت مستعدة لهذه المجازفة.

ووجهت كلامها إلى ميزي وقد زادتها بتطويقها دنوًا:

- لقد سألت «عنكِ» يا عزيزتي. ولكنني لم أر هناك أحدًا سوى «سفرجية» قذرة وكان وجهها محمرًا من أثر الأشياء الهائلة التي حدثت - كما قالت لي - في غياب سيدتها. ومن حسن الحظ أنها فطنت إلى معرفة المكان الذي جاء السير كلود ليأخذكِ إليه. فكان الفرض الذي قررت العمل على أساسه إنه ما لم يكن قد تعمد التضليل، فسوف أجدكِ هنا.

ولم تكن أيدا قد سبق لها إطلاقًا أن أبدت كل هذه الصراحة بصدد الإقدام والافتراض. وبعد أو وعت ميزي هذه الظاهرة لاحظت أيضًا

كيف أن السير كلود كان يشاركها ذلك الانطباع الدقيق.

واستطردت زوجته:

- أردت أن أراكِ. ولكِ الآن أن تحكمي على مبلغ العناء الذي تجشمته في هذا السبيل. فقد كان لديّ كل ما من شأنه أن يشغلني اليوم في المدينة. ولكنني تمكنت من الانطلاق.

وقد رت ميزي ورفيقها تلك الهمة لحظة، ولكن ميزي كانت السابقة إلى التعبير عن ذلك التقدير بقولها:

- إنني لسعيدة بأنكِ أردت أن تريني يا أماء.

ثم بعد تركيز أعمق للفكر بإقدام أبسل:

- لو تأخرت قليلاً لوصلت بعد فوات الأوان.

ووقفت البقية في حلقتها، ولكنها استطاعت أن تتفوه بها:

- نحن ذاهبان إلى فرنسا.

وكانت أيدا رائعة: فقد قبلتها على جبينها وقالت:

- هذا ما قدرته بالضبط. وقد جعلني أقرر الإسراع بالحضور. وخيل إليّ أنكما على الرغم من تهافتكما على السفر ستنتظران قبل العبور. فكان ذلك على الرغم من تهافتكما على السفر ستنتظران قبل العبور. فكان ذلك مما أضاف إلى أسباب رغبتني في رؤيتكِ.

وتساءلت ميزي بشدة عما عسى أن يكون ذلك السبب. ولكنها كانت أحصف من أن تسأل. وأدهشها بعض الشيء فعلاً أن ترى السير كلود لا يلتزم تلك الحصافة، فسمعتة يسألها على الفور:

- ماذا لديك بالله تريد أن تقوليه لها؟

ولم تكن لهجته خشنة تمامًا، بيد أنها كانت تحمل من نفاد الصبر ما جعل رد زوجته نموذجًا جديدًا لنعومتها المستحدثة:

- هذا، يا رجلي العزيز، شأني وحدي.

فسألها السير كلود:

- أتعين أنك تريدني أن أتركك معها؟

- نعم، إذا تكرمت. هذا هو الطلب الغريب الذي أتجاسر على التوجه به إليك.

وكانت الليدي قد هبطت إلى درجة من الرقة الساخرة التي جعلت ميزي تشعر لمدة لحظة بالحيرة والسحر وقد أذهلها وميض شيء كان يطل برأسه على مدى السنين في فترات. وابتسمت أيدا للسير كلود بتلك الطريقة الغريبة التي تبدو بها في مثل تلك المواقف حين تتحدى محدثها أن يثبت أمها وكانت عيناها الهائلتان وشفاتها الحمراءوان والعلامات الكثيفة التي تعلو وجهها تكون إضاءة متميزة علنية كأنها مصباح في نافذة. وخيل إلى الطفلة أنها ترى فيها المنارة التي أضاءت طريقها. وألفت نفسها فجأة تفكر أنه لا عجب أن ينساق إليها الرجال. فلا بد أن هذه هي الطريقة التي نظرت بها ماما إلى السير كلود في أول مرة. وارتدت إلى الزمن الذي تجاوزا بهجته القديمة. ولا بد أيضًا أنها الطريقة التي نظرت بها إلى مستر بريام واللورد أريك. وأسهمت فوق هذا كله في أن ترسم في ذهن ميزي صورة أكمل للحالة الراضية التي

نعم بها الكابتن. وأطبقت سيدتنا الصغيرة على هذه الفكرة وقد أسرع
دقات قلبها. وساد صمت أغدقت عليها أمها خلاله ثروة من التأييد ثناء
الكابتن العجيب عليها واستمر ذلك الصمت مدة كافية من غير أن يشوبه
صوت فخيّل إليها أن السير كلود أيضًا ربما كان مبهورًا تحت تأثير ذلك
السحر الذي كان في الأصل شديد الوقع لديه، حتى إن ميزي تمت
أن يقول على الأقل شيئًا يظهر به اعترافه بمدى ما يمكن أن يصل إليه
سحرها.

وكان ما قاله لها بعد ذلك هو:

– هل تقضين الليلة هنا؟

فنظرت زوجته فيما حولها بعظمة وقالت:

– ليس هنا، لقد أتيت من دوفر.

ومن فوق رأس ميزي وقد ظل كل منهما يواجه الآخر سمعته يقول:

– ستقضين الليلة هناك؟

– نعم. لقد أتيت ببضعة أشياء وذهبت إلى الفندق ورتبت أمري

بسرعة، ثم لحقت بالقطار الذي أقلني إلى هنا. وها أنت ترى أي يوم
حافل بالمشاق قضيته.

وقد يكون هذا القول مثيرًا للدهشة، ولكن هذه الألفاظ كانت
في الحقيقة – بالنسبة لأذني ابنتها على الأقل – من أكثر الكلمات التي
خرجت قط من شفتي أيدا مجاملة، إن لم تكن من أكثرها تألقًا. ونبتت
لدى الابنة رغبة عاجلة في أن تعتبر هذه الكلمات – في هذه الساعة

على الأقل - أساسًا مقبولًا للتفاهم. فمما لديها يقينًا سحر خاص إذا ما أعملته انقلب تفسيرًا واسع المدى والخطر الوحيد في الاستجابة الآن لباعث التصفيق لهذا السحر أن يبدو ذلك وكأنه آية على ندرته. ومع ذلك خاطرت ميزي بالإدلاء في بشاشة باعتراف بأن أيدًا لقيت من عجلتها عناء حقيقيًا، ودعت السير كلود إلى أن يفضح نفسه بموافقتها على أن تلك العجلة الشديدة كانت أسوأ من عجلتهما. وبدا عليه أنه قابل ذلك الرجاء بأن قال في تباعد كاف:

- هل تعودين إلى هناك الليلة؟

- نعم. فهناك قطارات كثيرة.

وتردد السير كلود مرة أخرى. فقد كان من العسير أن يقول هل كانت الطفلة بجلوسها بينهما تزيد من ارتباطهما أو من افتراقهما. ثم قال بهدوء:

- سيكون الوقت متأخرًا بالنسبة لك في التنقل. سأوصلك.

- لا تزعج نفسك. أشكرك. وأظنك لا تنكر أن في استطاعتي أن أتولى أمر نفسي، وإن هذه ليست أول مرة في حياتي الفظيعة أتدبر فيها أمري.

وفيما عدا هذه الإشارة إلى حياتها الفظيعة، لاحظت ميزي أنهما كانا يتحدثان وكأنهما صديقان سطحيان فحسب. وهي ظاهرة خاصة كثيرًا ما عجبت لها من قبل إبان ما كانت تحسبه علاقة حميمة. وقد زاد من هذه الظاهرة ذلك الأسلوب شبه العرضي الذي استطردت به الليدي قائلة:

- أحسبني سأسافر إلى الخارج.

- أتعين أنك ستسافرين من دوفر فوراً؟

- لا أستطيع أن أقول فوراً إلى أي حد. فأنا مريضة للغاية.

وخطر لميزي لمدة دقيقة أن هذا لا يعدو أن يكون جزءاً من الحديث. ولكن بعد مرور هذه الدقيقة فطنت إلى أنها يجب أن ترى في هذه العبارة - وأن كان السير كلود لم يخطر له ذلك فيما يبدو - جزءاً من شيء أخطر. فأعانها ذلك على التثني لتزداد دنواً وقالت:

- مريضة يا أماء.. مريضة حقاً؟

وندمت على قولها «حقاً» بمجرد نطقها بها. ولكن ما من شيء أدل على تهذيب أمها الراهن من أن أيدا لم يبد عليها وميض الغضب ردّاً عليها، وكانت ترد على ما هو أئفه منها بكثير في أوقات أخرى. وكل ما فعلته أنها ضغطت يد ميزي على صدرها وقالت:

- بشكل فظيع يا عزيزتي. يجب أن أذهب إلى ذلك المكان الجديد.

فسألها السير كلود:

- أي مكان جديد؟

وفكرت أيدا ولكنها لم تستطع أن تتذكر الاسم فقالت:

- أوه. ذلك المكان الذي يذهب إليه كل إنسان. ألا تعرفه؟ أنا بحاجة إلى علاج صحيح، فهذا كل ما كنت أريده على الدوام من الدنيا، ولكن هذا ليس ما جئت لأقوله.

وجعل السير كلود في صمت يطوي صحفه واحدة واحدة، ثم

نهض قائماً وراح يضرب راح يده بحزمة الصحف وقال:

- ألا تبقيين لتتعشي معنا؟

- لا. لا أستطيع أن أتعشى في مثل هذه الساعة. لقد أمرت بالعشاء في دوفر.

وكانت لهجة الليدي في هذه العبارة تنبي عن ترفع خاص عن المستوى الذي رأت فيه ابتها بسداجة فولكستون جنة. ولكن هذه اللهجة لم تصل من العنف إلى حد قتل اللهفة التي أبدتها ميزي في مهدها، حتى إنها قالت:

- ولكن ألا تتناولين على الأقل فنجاناً من الشاي؟

فقبلتها أيدا مرة أخرى على جبينها وقالت:

- أشكرك يا حبي. فقد تناولت الشاي قبل قدومي.

ثم رفعت عينيها إلى السير كلود وقالت:

- كم هي ظريفة.

فلم يجب حتى كأنه لا يوافقها على رأيها، ولكن ميزي كانت مرتاحة البال من هذه الجهة، وكانت لم تزل مأخوذة بموجة السرور التي انتابتها لهذه النعمة المبشرة بالخير في حديثها، تلك النعمة التي أيدت تأييداً كبيراً ما صور به الكابتن فخامة الليدي، وأذكت إذكاء حقيقياً حدسها بأن مثل ذلك الوضع الآخر ليتعشى معها. فهل ترى كان هذا الحدس يخامر ذهن السير كلود؟ ولئن كان هذا الظن قد ساوره فهو قد أصابها بشيء من الحيرة بذلك الشذوذ الذي أبداه حين عاد إلى موضوع

كانت زوجته تعتقد اعتقادًا جازمًا أنها فرغت منه. فقد ضرب يده مرة أخرى بصحفه وقال:

- من الأفضل حقيقة بكثير أن أوصلك.

- وتترك ميزي هنا وحدها؟

وكان واضحًا أن ماما لا تريد ذلك، حتى لقد ومض في ذهن ميزي تصور الكابتن وقد صحبها من دوفر إلى هنا. وهو في انتظار العودة بها إلى هناك ربما كان يحوم على نفس المسافة التي كانت رفيقته في سيره بحدائق كسنبجوتون تبعد عنه في حومانها إذا ذاك. وبطبيعة الحال لم تنبس بشيء من هذا الحدس وتركت السير كلود يتولى الرد. فزاد رده زيادة كبيرة من إحساسها بعظمتها الراهنة:

- لن تكون وحدها ولديها خادمة مرافقة.

ولم تكن ميزي قد حظيت من قبل بشل هذه البطانة، وانتظرت لكي تستمتع بتأثير هذا على الليدي. وفكرت أيدا قليلًا ثم قالت:

- أعني تلك المرأة التي أتيت بها من المدينة؟ إن المرأة التي قابلتها في البيت تكلمت عنها بأسلوب يجعلها لا تصلح لصحبة طفلي.

وكانت لهجتها تدل على أن طفلتها لم تكن بحاجة وهي بين يديها إلى هذه الصحبة الهائلة ولكنها استمرت بوضوح في رفض صحبة السير كلود وقالت بطريقة ساحرة:

- لا تكن ثقیل الظل. دعنا وحدنا.

وبدا وهو واقف قبالتها فوق العشب وقد اكتسى مسحة من الجد

تفوق ما صارت ميزي ترى الآن أن الموقف يقتضيه، وقال:

- لا أرى وجهًا لعدم الكلام أمامي.

فأخذت زوجته ترجل إحدى خصلات شعر ابنتها وقالت:

- أي كلام يا عزيزتي؟

- ما جئت لتقوله.

وعندئذ تدخلت ميزي أخيرًا وناشدت السير كلود:

- ألا دعها لتقوله لي.

فنظر إلى صديقه الصغيرة برهة نظرة حادة، وقال:

- وكيف تعرفين ما تقوله؟

فقالت أيدا:

- عليها أن تخاطر.

فاستطرد قائلاً للطفلة:

- إنما أريد أن أحميك.

فأجابته زوجته قائلة:

- بل تريد أن تحمي نفسك. هذا ما تعنيه. ولكن لا تخف فلن

أمسك بسوء.

فهتفت ميزي:

- إنها لن تمسك بسوء. «لن».

وأحست عندئذ أن في وسعها أن تضمن ذلك حقًا. وعابودها شيء من الانفعال الذي أصغت به لحديث الكابتن مما جعلها قريرة آمنة، حتى إنه صار في مقدورها أن تمد ماما بمناصرتها. وأقدمت على ذلك فعلاً بلهجة الكابتن عينها معلنة:

- إنها طيبة. إنها طيبة.

وعندئذ قال السير كلود:

- يا إلهي.

وابتعد. ويبدو أنه فاه بصوت يدل على الزرابة. بيد أن هذا الصوت حبس عن أذني ميزي بالعناق الذي ضمته به زوجته إلى صدرها مرة أخرى. ثم أطلقتها أيدا وأمسكت بها بعيداً عنها قليلاً، وهي تنظر إليها بسحنة غريبة جداً. ثم فطنت الطفلة إلى أن رفيقهما قد تركهما؛ وأن من تلك السحنة المشار إليها صدرت عبارة تأكيد لكلامها، إذا قالت فخامتها:

- «أنا» طيبة يا حبي.



الفصل الحادي والعشرون

وخصص جانب كبير مما تبقى من زيارة أيدا لتوضيح هذه العبارة التقريرية البادية الغرابة. وكان هذا التوضيح أكثر استفادة من أي توضيح أقدمت عليه من قبل. وفي حين أخذ غسق الصيف يتجمع وهي مستيقية الطفلة في الحديقة؛ راحت تبدي التودد لها إلى درجة جعلتها بحاجة ملحوظة إلى ترتيب الأشياء في ذهنها. فلم يكن قصارها الشرح والتفسير، بل إنها تبسطت إلى ما يقرب من تبادل الحديث. ولم يكن يعيب ذلك إلا أنها كان ينبغي أن تكون أقل ثرثرة بعض الشيء. فكانت هذه مناسبة العمر في الحقيقة التي حظيت فيها ميزي من أمها بأقصى ما تريد أمها أن تقوله لها. وهذا في حد ذاته يدل على كرمها وفضيلتها. ولم يقتض الأمر فترة مديدة كي تشعر سيدتنا الشابة أنه من الخير لها أن تتلاقى معها وتنتهي منها بأسرع وقت عن طريق التظاهر ببساطة بأن وجهة حججها بهرتها. وجلست الاثنتان فكانت يد الأم داخل قفاها تستقر أحياناً في ألفة على يد الطفلة وتقوم أحياناً أخرى بإصلاح شأن شريط مفرد الهزال أو جديلة شعر أغلظ مما ينبغي، وكانت ميزي واعية بالمجهود الذي تبذله لتزود عن عينيها الدهشة التي كانت تحفزهما

أحياناً على أن تطرفا. وما أكثرها ما كان المرء حريّاً أن يختلس النظر إليه لو أن المرء أرخى لنفسه العنان. وكان من حسن الطالع أنهما كانتا وحدهما فلم يكن معهما السير كلود أو مسز ويكس، أو حتى مسز بيل؛ لتفطن إلى ما قد يند عنها من النظرات الطائشة. وعلى غزارة حديث الليدي وإسهابه؛ ولم تكن فخامتها بالغة الوضوح. والبيان الذي أدلت به عن موقفها -وفي حدود ما يمكن أن يوصف بالتصوير الإيضاحي- كان خليطاً من أمور غير مترابطة وثمره معطوبة لمناسبة أقدمت على مواجهتها في خفة. فما من شيء مما قالته جاء ثمرة الروية، بل إن بعضه لم يكن في جملة خلواً من الإخلاص. فكأنما هي سألت على الفور أي دليل يمكن أن يطلب على طيبتها وعظمتها أكثر من هذا الرضى الرائع بتخليها عما كان لديها موضع إعزاز عظيم. وكأنما هي قد نالت بصريح النص:

- لقد بانّت بيننا أشياء؛ بين السير كلود وبينني، لا حاجة بي للخوض فيها أيتها المزعجة الصغيرة لأنك لن تفهميها.

ووافق هواها أن تعرب عن أن ميزي قد أبقيت -في حدود ما «يتصل بها» أو كما خيل إليها- في حالة جهل مطبق وأنها لذلك يجب أن تأخذ سذاجتها المطلقة مأخذ التسليم. وراحت تتلفت هنا وهناك وقد ألفت نفسها في مأزق سعت إليه بقدميها ولا تعرف كيف تتراجع عنه بكرامة ولا كيف تخرج منه خروجاً مشرفاً؛ فراحت تستر نفسها بأسمال الوقاحة وتتخايل بأقصى ما في طاقتها أمام آخر مثلث صغير من الزجاج المحطم الذي آلت إليه من كثرة ما أصابها من الصدوع قشرة خرافة البنية اللامعة.

ولئن لم يكن السير كلود ولا مسز ويكس حاضرين، فلعل ذلك أدعى للإشفاق؛ لأن المشهد كان له أسلوبه الخاص به الذي كان الأولى أن يُضفي عليه صفة العرض المسرحي، ولا سيما في مثل تلك اللحظة التي أشعرتها فيها بأنها ترى وجود ذريتها التعسة مع السير كلود خيرًا لها من وجودها بين يديها المدينستين. ولم يكن ثمة على كل حال شيء من الضالة لا في ما أقرت به ولا في ما أنكرته؛ فقد كان ذلك خليطًا من خوفها مما يمكن أن تفكر فيه ميزي في طوايا سريرتها، ومن التعصيد الذي تلقتة في الوقت نفسه من أنانيتها المحتومة ومن ضراوتها التي تعودتها وقد تجلت هذه العادة فيما ادعته الآن بصريح العبارة من أنها لم تأتِ إلى فولكستون لتثير شجارًا سوقيًا؛ إنها لم تأتِ لتصفع أحدًا أو تصفق بابًا؛ بل ولا لتحند في الكلام. بل هي جاءت على أسوأ الفروض لتفقد تسلسل منطقها في حركة اشمزاز عرضية بكماء من الكساء الذي تجاسرت خادمة مسز بيل المنحطة بلا حياء أن تقدم فيه الطعام للآنسة فارانج. وكبحت كل وجوه النقد فلم تتورط ولو في التعرض لوسائل الراحة التي افتقرت إليها حجرة الدراسة، تلك الوسائل التي اجترأت مسز ويكس على نقدها.

- أنا طيبة. طيبة بصورة جنونية إجرامية. ولكن لا جدوى لك من هذا بعد الآن. ولئن كنتِ قد كففتِ عن مخاصمته ومخاصمتكِ أنتِ أيضًا؛ أنتِ التي كنتِ أكبر مثار للقلق بيننا، فذلك لأسباب ستفهمينها يومًا ما غاية الفهم.. يومًا من الأيام عندما تعرفين فيما أرجو معنى فقدان الأم. أنا مريضة بشكل فظيع ولكن لا ينبغي أن توجهي إليّ أيما سؤال

عن مرضي، فإن لم أرحل إلى مكان ما، فلن يكون طبيبي مسؤولاً عن النتائج. لقد أذهله ما تحمّله وهو يقول إن ذلك العبء قد أُلقي عليّ لأنني قد خلقت للعذاب. وتفكيري يتجه إلى جنوب إفريقيا. ولكن هذا ليس من شأنك، فعليك أن تختاري. وليس لك أن توجهي إليّ أسئلة وأنت مستعدة على هذه الصورة لتتخلي عني. كلا لن أخبرك. ولك أن تكتشفي الحقيقة بنفسك، وهم يقولون أن جنوب إفريقيا رائع. فلئن ذهبت إلى هناك فلكي أجره تجربة وافية. فلا بد من أحد أمرين: إن كان سيأخذك فيها ونعمت، فقد ناضلتُ في سبيلك غاية جهدي. ولم يعد في مقدوري أن أتعبك فتخطه هنا وهناك على غير هدى. يجب أن أعيش أخيراً لنفسِي ولم يزل فيّ بعد ذماء. إني مريضة جداً جداً. مجاهدة جداً جداً. ها أنت قد عرفتِ جلية الأمر. فانتفعي بهذا الذي عرفتِ إلى أقصى حد. إن ثوبك في منتهي القذارة. ولكنني جئت لأضحى بنفسِي.

ونظرت ميري إلى المواضع المعيبة. وكانت قد مرت بها لحظات وجدت فيها شيئاً من الراحة في أن تطرق بعينها إلى أي شيء على هذه الدرجة من الحقارة. وكانت جميع مقابلاتها وجميع محنها مع أمها تبدو لها كلما تقدمت في العمر مثقلة قبل كل شيء من حيث طول مدتها، ولكن من الغريب أن هذه الدقائق التي ألبست ثوب المسالمة والتصفية الودية للعلاقة كانت أطول عليها من كل اجتماعاتها السابقة. ومرجع هذا الطول إلى توجسها وخوفها من الوقوع في ورطة أو من انحسار التيار أو من طفرة سريعة من طفرات الليدي المشهورة، فحبست أنفاسها ولم تخامرها إلا الرغبة في الانتهاء من هذا الموضوع عن طريق

مسايرة الليدي على هواها. ولكن نفاذ صبرها نفسه جعل الموقف كله في بعض اللحظات يتراقص أمام عينيها. فثمة أشياء قالتها أيدا لعلها لم تسمعها. وثمة أشياء سمعتها لعل أيدا لم تقلها:

- أنتِ كل ما أمتلكه. ومع ذلك أقدم على هذا الأمر. إن أباكِ يتمنى لك الموت هذا يا عزيزتي ما يتمناه أبوكِ. وعليكِ أن تتعودي هذا كما تعودته أنا - أعني كما تعودت تمنيه موتي «أنا»، وها أنتِ ترين بنفسك على كل حال كم أنا رائعة في معاملتي للسير كلود. ولكنه يتمنى موتي كذلك. وأنا واثقة أنه لو كانت مشاحناته لي بصددكِ «أنتِ» كفيلة أن تقتلني..

وكان من سمات فصاحة أيدا أن تثير من المسائل أكثر مما يسعها أن تستقصيه، ولم تعر هذه الخاطرة الأخيرة إلا نظرة عارضة، واستطردت تقول إن الدليل الأوفى على معاملتها لزوجها معاملة ملك كريم أنه تسلل لتوه حتى لا يحق به ما هو حقيق به من الخزي. وكان كلامها عنه كأنه تسلل على أطراف أصابعه، أو كأنما هو قد انسل من مكان للعبادة ليس أهلاً للوجود فيه:

- لن تدركي ما تجشمته في سبيلكِ. إطلاقاً. إطلاقاً. إنني أعفيكِ من كل شيء كما فعلتِ دائماً، وإن كنت أحسبكِ تدركين أشياء لو أنني أدركتها لكان ذلك خليقاً أن يجعلني.. حسناء. ما علينا! لقد بلغت على كل حال من العمر ما تدركين فيه أن ثمة أشياء كثيرة لا أصرح بها، وإن كان في مقدوري بسهولة أن أصرح بها، مع أنه سيجدي عليّ، أوكد لك - أن أفضي بما في ذهني برمته مرة في العمر. لا أريد

أن أتكلم عن زوجة أبيك الشائنة، وهذا من شأنه أن يدلّك على مدى صفحي عنكم. وحين أقول «عنكم» أعني أصدقاءك وظهراءك^(١) المبجلين. وإن لم تنصفي طاقتي على التحمل، فإني أذكر لك بدافع من الكياسة كلمة أخيرة عن زوج أمك، بها حقيقة أو حقيقتان صغيرتان من قبيل ما كان يجب عليّ في الواقع أن أذكره لأبدو عنه المقارنة بعد كل ما قيل من المفتريات في لمعان الذهب الخالص. فإن أنت لم تمحضيني «هذا» الإنصاف، فلست بمنصفتي على الإطلاق أبد الدهر!

وكانت رغبة ميزي في أن تظهر مدى إنصافها إياها قد غدت عندئذ من الشدة بحيث جاءتها بإلهام. وكان الأثر الأكبر لالتقائهما تثبيت إحساسها بالارتباط بالسير كلود وإثراء ذلك الإحساس واكتماله بصورة تجاوز كل ما راود أحلامها. وقد صار كل شيء يتأمر الآن على الإيماء إليها بأن لمسة واحدة ناعمة من يدها الصغيرة كفيلة بإتمام العمل الصالح وجعل فخامة الليدي تنطلق بسرعة وجلال، فتترك طريق البحر الكبير خاليًا لأحداث الغد وزاد من هذا الأمر أن يدها كانت قد تحررت منذ بضع دقائق بمناورة واضحة من يدي أمها التي راحت تعيث إحداهما بنفاد صبر ظاهر في الطوايا الخلفية لشوبها وسرعان ما برزت هذه اليد وفي قبضتها شيء صغير. وكان لهذا العمل مغزاه لدى طفلة صغيرة تمرست من هذه الناحية منذ سن مبكرة بمراقبة الحركات اليدوية ولم يلق على نتائجها المحتملة غشاوة معتمة ما تذكرته من أمر حفنة الذهب التي أبت سوزان آش كل الإباء أن تصدق أن مسز بيل

(١) ظهراء جمع ظهير بمعنى نصير، ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. «المترجم».

ردتها - «ليست هي التي تفعل هذا. فهي أشد زيفاً وأشد شرارة من أن تقدم على هذا»- إلى الكونتيسة الأريحية. وكان حدس الطفلة أن كيس نقود الليدي قد يكون الشيء الذي استخرجته من مكمته عند مؤخرتها كافيًا كي توجه عينيها في حرص إلى بعيد. وزاد هذا من التفاؤل الذي شاب مدة ساعة سطح دبلوماسيتها العميقة بحيث نسيت أنها لم تحظ قط بالأمان إلا حينما تكون بادية الغباء. فهي بالاختصار قد نسيت حيطتها المعتادة في غمار نزوعها إلى اعتناق مصالح الليدي العملية، وإظهار مدى فهمها الكامل لهذه المصالح. ورأت أمها من غير أن تنظر إليها تضغط مشبكًا صغيرًا، وسمعت من غير قصد الصوت الحاد الذي يدل على إغلاق كيس النقود الذي أخرج منه شيء، أما ما هو ذلك الشيء فهذا ما لم تره، ولكنه لم يكن أضخم من أن تضمه أصابع الليدي المطوية عليه. وليس بجديد على ميزي إطلاقًا في عدم التفكير المفرد، بحيث استطاعت في تلك اللحظة أن تصرح بما كان على طرف لسانها وفي الوقت نفسه توازن -بصدد ما في راحة يد أمها- بين كونه جنيهاً ذهبياً وبين كونه شلناً. وما إن شرعت في الكلام حتى رأت تلك المسألة وقد حسمت في مدى ثوان معدودات: إذ إنها عاقت بحماقتها ألفاظ خطة الإهداء القصيرة التي كان على كبرياء أيدا الشامخة في هذه الظروف أن تعيرها شيئاً من تفكيرها. عاقتها تمامًا. هذا ما شعرت به بعد ذلك مباشرة: فالنغمة التي عزفتها دفعت إلى عيني رفيقتها بنظرة سرعان ما تبين لها مدى مجافاتها لمعنى الإهداء..

- كان هذا ما قاله لي الكاتبن في ذلك اليوم يا أماء. وأحسبك حريّة

أن شعري بالسرور حين تسمعين اللهجة التي تحدث بها عنك.

وكان في مقدور ميزي الآن أن تتبين في دعر أن السرور حريٌّ أن يستغرق حصوله زمنًا طويلاً إن هو لم يكن أسرع من الاستجابة التي أثارها إشارتها إليه. فقد رمتها أمها بإحدى النظرات التي تصفق الباب في وجهها. ولم يحدث لميزي قط في تاريخ تجاربها الفاشلة أن تلقت مثل تلك النظرة المحدجة، وذكرها هذا بما حدث ذات مرة في إحدى المحاضرات في شارع جلوور حينما قيل إن شيئاً في قدر كبيرة وسط مجموعة من الزجاجات الغريبة والروائح الكريهة سيبدو - على حسب وعدهم - أصفر فاقعاً، فإذا به يتمخض عن أسود فاحم. وقد انتابها الأسى في تلك المناسبة لحال المحاضر. بيد أنها في هذه اللحظة أحست على نفسها بأسى أشد. فلم يكن ثمة بديل البتة من الوخزات كلهجة ماما وهي تقول:

- الكابتن؟ أي كابتن؟

- عجباً. إنه ذلك الكابتن الذي أخذني لأجلس معه عندما التقينا في الحداثق. لقد كان هذا ما قاله «هو» بالضبط.

وتظاهرت أيدا برهة بالتقاط طرف خيط ضائع، ثم قالت:

- وماذا عسى أن يكون ما قال؟

وتلعثمت ميزي غاية التلعثم، ولكنها استطاعت في النهاية أن تقول:

- قال ما تقولينه أنتِ يا أماه. إنكِ طيبة جدًّا.

- ما أقوله «أنا»؟

ونَهَضت أَيْداً ببطء، وعيناها لا تفارقان طفلتها واليد التي كانت من قبل مشغولة بأمر حقيقتها انقادت إلى جانبها وبين طوايا ثوبها لذراعها التي طرأ عليها التصلب:

- أنتِ آية في البلاء، ولن أسمح لك بأن تضعي على لساني ما لم أقله!

وكان ذلك أشد بكثير من أن يكون محض اعتراض. وشعرت ميري على الفور أن كل شيء أصابه التصدع، وأن التفاهم بينهما انقطع فجأة. وسرعان ما قام الدليل على هذا:

- ما شأنك أنت بالتحدث عنه إليّ؟

وحاكي لون ابتها القرمز:

- حسبتك تستلطفينه.

- أستلطفه! إنه أكبر وغد في لندن!

وانتصبت فخامتها كالبرج مرة أخرى في شموخها، وبدا بياض عينيها هائلاً وسط الغسق المخيم.

وكان بياض عيني ميري كفتاً لهما في تلك اللحظة. وراحت مع أول بوارق الغضب التي أوش بها وجهها في مواجهة عدو على الإطلاق تنظر إلى أعلى بحدة تضاهي أقصى ما يستطيعه من ينظر إلى أسفل.

- لقد كان عندئذ شديد الرقة من نحوك. «هكذا كان» وقد حملني

ذلك على استلطافه فقد قال أشياء.. جميلة. جميلة. جميلة!

وكانت كفتاً على وجه التقريب لفرض هذا المعنى على ذهن أمها؛

لأنها حتى في معمعمان انفعالها - وكان هذا في الحقيقة جزءاً منه - ساورها
الخوف والألم والتصور المتطير السابق لأوانه لما عسى أن يعنيه بالنسبة
لمصير أمها خسرانها ولاء كهذا الولاء. حتى لقد عبرت بميزي لحظة
رأت فيها بوضوح الجنون والعزلة. رأت فيها الخراب والظلام والموت.
- وكثيراً ما فكرت فيه منذ ذلك الحين. وكان في مأمولي أنك في
رفقته.. في رفقته..

وهنا خذلها لشدة انفعالها صوت أملها البنوي. ولكن أيدا
استخرجته منها:

- ماذا كان في مأمولك أيتها البلية الصغيرة..؟

فقال ميزي في سقطة أخرى:

- إنه هو الموجود في دوفر. وإنه هو الذي سيصحبك. أعني إلى
جنوب إفريقيا.

وأبقى الذهول أيدا صامته عند سماعها هذا القول مدة أطول مما
ينبغي وبلغ من طول هذا الصمت أن ابتتها لم تتسأل فقط عما سيحدث
بعد ذلك، بل وقدرت أيضاً تمام التقدير اختفاء كل عرض من أعراض
السخاء. فقد تلبجت أمامها في عظمتها لا ينم مظهرها إلا على الجهامة
والوجوم. وكان واضحاً أن غضبها لم يزل كالعهد به دائماً متصفاً
بالدهاء والتنوع، فكان آخر ما توقعته ميزي هو - بحسب هذا القانون -
ما وقع الآن. فقد ذاب غضبها في غسق الصيف حتى تحول تدريجاً إلى
رثاء، وهبط الرثاء بعد قليل إلى طبقة برز فيها صوت كيس النقود عند

إغلاقه مرة أخرى. لقد ردت إليه ما كانت قد أخرجته منه، وغمغمت:

- يا لك من مخلوقة صغيرة منكودة حقيرة.

ثم أدارت ظهرها وانصرفت ترفل في ثيابها فوق العشب.

وبعد أن اختفت تهاوت ميزي فوق المقعد مرة أخرى، ولبثت بعض الوقت في الحديقة الخاوية والغسق المتكاثف جالسة تحديق في الصورة التي خلفها فرارها ماثلة أمامها. ولم تكف هذه الصورة عن أن تمثل أمها بأعجب وجه ممكن أباه، ذلك الأب الذي لم تزل تحوم في الهواء رنات تمنيه موتها. كانت الصورة الماثلة أمامها مشرفة عليها ذات حدود غامضة. ولكن أي واقع لتلك الصورة عساها تحتاج إلى إدخاله في حسابها أن كان مستر فارانج - من جهته - راحلاً أيضاً.. راحلاً إلى أمريكا، مع الكونتيسة، أو حتى إلى سبا فقط؟ ولقي هذا السؤال من جانب المبنى جواباً مفاجئاً مرحاً على صورة هدير هائل ينبعث من صنج، وفي هذه اللحظة عينها رأت السير كلود يتطلع باحثاً عنها من باب المدخل الواسع المضيء، فيممت صوبه وأقبل لملاقاتها فوق العشب. وظلت دقيقة صامتة وهي معه، كحالها تماماً من قبل في ختام مقابلتها لأمها:

- هل انصرفت؟

- انصرفت.

ولم يتبادلا كلاماً أكثر من هذا في تلك اللحظة، وهما متجهان معاً نحو المبنى حيث انغمس في البهو في بعض ممازحات المفاجئة فأطرب ابنة زوجته أن تجد حيويته الفطرية دافقة، وهو يقول:

- هل للآنسة فارانج أن تنيلني شرف قبول تأبط ذراعي؟

ولم تتقبل الآنسة فارانج في حياتها كلها شيئاً بمثل الغبطة التي تقبلت بها ذراعه، وحددتهم إلى مآدبتهما نشوة غنية مشرقة. ولكن قبل أن يبلغاها قالت له بروح السيدة الشابة الجذلة بخروجها إلى أول عشاء لها كلمة على سبيل المنادمة جعلته يقف في مكانه مأخوذاً:

- إنها ذاهبة إلى جنوب إفريقيا.

- إلى جنوب إفريقيا؟

وبدا على وجهه لحظة وكأنه يتأرجح تأهباً لوثبة - ولكنه في اللحظة التالية انبعث في موجة فرح مسرف:

- أهذا ما قالته؟

- نعم «لم يلتبس عليّ الأمر». التماساً للمناخ.

وكانت ميزي حريصة على أن تحمد لنفسها «ذلك» اليقين، وكان السير كلود ينظر في تلك اللحظة إلى امرأة شابة ذات شعر أسود وثوب أحمر وكلب صيد صغير جداً. احتضنته تحت مرفقها مارة بهما في طريقها إلى قلعة الطعام مخلفة وراءها عبير عطر فوّاح، اختلط وسط ضوضاء المكان برائحة الطعام الحارة الفاغمة. وكان قد ثاب إلى شيء من الجدل ولم يزل واقفاً في موضعه يكلمهما: «هكذا.. هكذا». وممر أناس آخرون، ولم يكن من التجهم بحيث لا يلقي باله إليهم.

- وهل قالت شيئاً آخر؟

- نعم. شيئاً كثيراً.

وعندئذ التقت عيناه بعينيهما مرة أخرى في شيء من التوتر، ولا يزيد على تردد قوله:

- هكذا.. هكذا.

وكانت ميزي لم تزل مستحضرة لتصورها الخاص، الذي صرحت به قائلة؟

- ظننتها على وشك أن تعطيني شيئاً.

- من أي نوع؟

- شيئاً من المال أخرجته من كيسها ثم رده إليه.

فبرز تفكه السير كلود مرة أخرى:

- لقد عدلت عن رأيها. يا للحصيفة العزيزة! ترى كم اقتصدت بهذه المناورة؟

وفكرت ميزي، ثم قالت:

- لم أر المبلغ. ولكنه كان صغيراً جداً.

فألقي السير كلود رأسه إلى الخلف وسألها:

- أتعنين أنه قليل جداً؟ ستة بنسات؟

فاستنكرت ميزي هذا القول وكأنها تتقاذف النكات بالفعل على مائدة العشاء مع جار لطيف:

- لعله كان جنيهاً ذهبياً.

فقال السير كلود مقترحاً:

- أو ورقة من ذات العشرة جنيهاً.

فاحمر وجهها أمام هذه الصورة المفاجئة لما لعلها خسرت، وزاد من حيوية هذه الصورة أنه أردف قائلاً:

- وقد لفت حتى صارت كرة صغيرة مضغوطة. فأنت تعرفين أسلوبها في معاملة أوراق النقد كما لو كانت أوراق تصفيف الشعر.

وازداد احمرار ميري بازدياد رجحان هذه الفكرة وأيضاً بسبب موجة جديدة من الشعور كانت تذكرها دائماً ببراعته. هي موجة شعورها بأنه يعرف بعد كل شيء عن ماما أكثر مما تعرفه هي بما لا يقاس. فهي قد عاشت معها مرات كثيرة من غير أن تكشف موضوع أوراق تصفيف شعرها، ومن غير أن تشهد في مناسبة أخرى طريقة معاملتها لأوراق النقد. ولكن الكرة الصغيرة المضغوطة تدرجت على كل حال بعيداً عنها إلى الأبد كرة من الكرات الأخرى التي تعودت أيدا أن تسدد إليها ضرباتها القوية المحكمة بعضا البلياردو. وقدم إليها السير كلود ذراعه مرة أخرى، وحينما استقرت في مجلسها أمام المائدة كانت قد فرغت تماماً من أعمال فكرها في تحديد المبلغ الذي خسرت. فكل شيء حولها: من القاعة المزدحمة، إلى المائدة المبهرجة، إلى نكهة ألوان الطعام، إلى الحركات المسرحية للأشخاص، كل ذلك ساعد على الفرح بالحياة. وبعد العشاء دخت مع صديقتها - فهذا بالضبط ما شعرت أنها فعلته - في طنف أشبه بالشرفة حيث كانت أطراف السيجار المتوهجة وأزياء السيدات الخفيفة تحت النجوم السعيدة كأنها قصيدة من الشعر المسكر ولم يتحدثوا إلا نزرًا. وأدهشها شيئاً ما أنه لم يطلب إليها مزيداً من الأنباء

عما قالت أمها. ولكن لم تكن بها حاجة إلى الكلام. فكل شيء كان فيه مغزى وصوت تستطيع الألفاظ أن تضيف إليهما مزيدًا. فراحا يدخنان ويدخنان وكان في صمت زوج أمها عذوبة. وأخيرًا قال:

- هيا بنا نقوم بجولة أخرى. ولكن يجب عليك أن تأوي إلى فراشك حاليًا. فسوف يكون لنا كما تعلمين نظام!

وعادا في جولتهما إلى الحديقة على طول الممرات المعتملة التي وسعهما أن يريا منها أشعة المراكب السوداء وأنوارها الحمراء وأن يسمعا الصيحات والنداءات التي لا بد أنها متعلقة بالأسفار السعيدة إلى الخارج. فأمسى نظامهما مرة أخرى هو المضي في إخلاد جميل في سيرهما المتمهل من غير أن يتبادلا حديثًا معينًا. بيد أنه تكلم في النهاية فقال وهو يلقي بعيدًا بعود الثقاب الذي أشعل به سيجارة مرة أخرى.

- لا بد لي أن أذهب. لأتمشى. لأنني أشعر بالضجر. ولا بد لي أن أنفَس عنه بالمشي.

وتقبلت هذا القول كتقبلها لكل شيء، فاستطرد:

- اصعدي إلى الأنسة آش (وكان هذا هو الاسم الذي شرعا في إطلاقه عليها) ويجب أن تتأكدي من أنها لم ترتكب سوءًا. أتستطيعين أن تعرفي الطريق وحدك؟

- أوه. نعم. لقد سعدت وهبطت سبع مرات.

وسرها جدًّا أن تعرض لها فرصة المرة الثامنة. ولم يفترقا مع ذلك بل وقفَا يدخنان معًا تحت النجوم. وأخيرًا صرح السيد كلود بما في نفسه:

- لقد تحررت . لقد تحررت .

فصعدت إليه نظرها . وكانت هذه بالذات هي البقعة التي صعدت فيها قبل ساعتين نظرها إلى أمها وقالت :

- لقد تحررت . لقد تحررت .

- وغداً نذهب إلى فرنسا .

قالها وكأنه لم يسمع ما قالته . إلا أن ذلك لم يمنعها من التأمين على كلامه مرة أخرى :

- غداً نذهب إلى فرنسا .

ومرة أخرى بدا عليه أنه لم يسمع ما قالت . وبعد لحظة -ولا بد أن ذلك كان بتأثير عمق خواطره واضطراب نفسه- تكلم وكأنه لم يقل ذلك من قبل :

- لقد تحررت .. تحررت .

وكررت صيغة تأمينها :

- لقد تحررت .. تحررت .

وفي هذه المرة سمعها وثبت فيها نظراته من خلال الظلام بسحنة جادة، ولكنه لم يقل أكثر من ذلك، بل انحنى ببساطة انحناء يسيراً وجذبها إليه وأمسك بها قليلاً في بساطة وقبلها متمنياً لها ليلة طيبة. ثم دفعها في صمت لتصعد إلى الأنسة آش، ودار على عقبه مرة أخرى نحو الأشرعة السوداء والأضواء الحمراء. وصعدت ميزي السلم وكأن فرنسا تقع عند قدمته.

الفصل الثاني والعشرون

وفي اليوم التالي خيل إليها أن فرنسا في القاع فعلاً - هناك بعيداً جداً بين الأغوار المصطخبة بحيث انتابها الإحساس، على السفينة التي تعبر المانش، بالعلو الشاهق الذي ظل السير كلود محتفظاً به، فلم يكن قط عظيمًا من جميع الوجوه عظمته وقد جلس بإيناس تحت المطر الشديد، رغم احتمائه بزاوية سياج من قماش الأشرعة، ورأس ابنة زوجته في حجره، وقد وسد رأس خادمة مسز بيل صدره. وعجبت ميزي حين علمت عند دخولهم الميناء أن العبور كان لطيفاً، بيد أن هذا الإحساس سرعان ما خبت جذوته في بولوني في غمار إحساسات أخرى، أخصها تلك النشوة الكبيرة التي أثمرها وقع حياة أرحب. فقد صارت «في الخارج»، وانصرفت بكليتها إلى ذلك الإحساس مستجيبة له في الهواء المنعش، وأمام البيوت القرمزية وبين بائعات السمك العاريات السيقان والجنود ذوي الأرجل الحمراء، وقد استولى عليها يقين مفاجئ بأن أمامها مهمة. ومهمتها أن ترى الدنيا وأن تنتفض استمتاعاً بصورتها. لقد تقدمت في العمر في مدى خمس دقائق؛ فما إن وصلوا إلى الفندق

حتى كانت قد تبينت في نظم فرنسا وعاداتها عديدًا من العلاقات الدقيقة والمدلولات. وفي مدى ساعة على وجه التحديد حظيت بأول تمرس بمهمتها. وقد عجل. بهذا الإحساس ذلك الدور السامي الذي ألقت نفسها تؤديه بإزاء سوزان آش بمجرد أن ازدردوا إفطارًا فرنسيًا كان في واقع الأمر نغمة عالية من نغمات تلك المعزوفة الموسيقية. وكان السير كلود -الذي التقى بالفعل صدفة بأشخاص يعرفهم وقال إن لديه عملاً يقوم به وخطابات يحررها- قد بعث بهما للتنزه معًا سيرًا على الأقدام. فكانت النزهة ثأرًا -إلى أبعد ما تتطلبه العدالة الشاعرية- لا من الضحكات العالية التي كانت تنطلق من تابعتها أثناء جولانهما بلندن فحسب، بل ثأرًا أيضًا من كل تلك السنوات الزاخرة بميلها إلى إظهار وقع ذلك الشيء الغريب المتطرف الذي يبدو وكأنه يتأرجح تأرجحًا واسع المدى بين البراءة والإثم، وأن يكون إظهارها له في أسلوب اجتماعي، ولكن هنا في بولوني لا وجود على الأقل للتأرجح وإن وجد التطرف. فهي تتعرف على الأمور وتفهمها وتعبدتها وتتملكها وتحس أنها في حالة توافق كتوافق النغم الموسيقى مع كل شيء، وأنها تضع يدها يمينًا ويسارًا على أشياء كانت مقيمة في انتظارها راحت تشرح لسوزان وتضحك من سوزان، وتشرف في شموخ على سوزان. وكانت غباوة سوزان على نحو ما -تلك الغباوة التي لم تكن على يقين منها قط من قبل بهذه الصورة- وذ هول سوزان وجهلها وإجفالها، هي التي أضفت على ما تحسه تجاه الأشياء من الفهم والتقبل أشد عناصر الحيوية والتوثب. وكان المكان والناس معًا صورة واحدة. صورة

تأملت عندما هبطنا إلى الرمال العريضة بآلاف الأطياف اللونية، في ذلك النظام البديع الذي يسود الشاطئ وبذلك المرح الذي يسود المشاهدين والمستحمين. وببهجة اللغة والجو؛ وقبل هذا وذاك بالوضع الذي لم يكن لسيدتنا الصغيرة به عهد من قبل. فقد خيل إليها أنه ما من إنسان منذ بدء الزمان كان من الممكن أن تحدث له مثل هذه المغامرة أو تقع له في مدى ساعة مثل هذه الحيرة. وكان من نتيجة ذلك أنها شعرت بالحاجة إلى أن تسمع سوزان في استهوال عويص تعبر عن إثارتها لطريق ادجوار، كي تشعر في دهشة واعية بمدى التغيير الذي طرأ على ذلك الماضي. ولقد بلغ تغيير الماضي مبلغاً عظيماً. واتسعت الدائرة التي كونتها بخطواتها حتى بعد ظهر ذلك اليوم وجدت نفسها -أثناء نزهة أخرى- تسأل السير كلود من غير أن يخالجها أدنى شعور بالندم هل تهيأ لتحديد لحظة رحيلهم إلى باريس. وينبغي أن تقول إن جوابه أثار لديها إجفلاً يسيراً جداً:

- باريس يا عزيزتي.. لا علم لي بشيء في صدد باريس.

وكان لا بد من مواجهة هذا الأمر، ولكن كان أسهل من هذا بكثير أن تتحدها من أجل الفرحة الحافلة، فرحة أول مناقشاتهما تفاصيل الجولة، وأجابته بعد أن نظرت إليه دقيقة:

- أليس ذلك هو الشيء الجوهرى الذي يسعى إليه كل من يأتي إلى

الخارج؟

فظهر عليه الجدة مرة أخرى، ولكنها لم تلتق إلى ذلك بالاً. فهكذا ينبغي أن يعبرا جدياً حياتهما ما هي أهل له من الإنصاف. ولم يكن

في وسعها وقد غدت أكبر سنًا منذ الأمس ألا تفكر في أنها تسبر غور الموضوع بعض الشيء فلا بد له أن يدرك أنها قد صبرت بما فيه الكفاية. وكان في عينيه بالفعل شيء ما جعلها تشعر بأن تكتمها ليس كما ينبغي. وقبل أن تعالج ذلك كان قد رد على سؤالها الأخير بأسلوب كان آخر ما توقعته منه:

- الشيء الذي لا يليق بالمرء ألا يفعله؟ إن باريس بالتأكيد ساحرة. ولكن باريس يا صاحبتى العزيزة تأتي على الأخضر واليابس. أعني أنها فاحشة في نفقاتها الباهظة.

أشعرتها هذه الغمة بغصة، إذ ألقت فجأة ضوءًا أشد: هل هم فقراء إذن؟ أهو تغير حقًا إلى مدى يتجاوز شرحه الأبولوتاريس ولحم البقر البارد؟ وكانا قد سارا إلى نهاية حاجز الأمواج الذي يطوق المرفأ؛ وراحا يتطلعان إلى المخاطر التي نجوا منها. وإلى الأفق الأغبر الذي كان إنجلترا، وإلى سطح البحر المتقلب والمراكب البنية اللون من ذات الشراع الواحد التي تتمايل فوقه. فلماذا اختار وقت ضائقة مالية للإقدام على هذا الاندفاع إلى أرض أجنبية؟ اللهم إلا إذا كان هذا الاندفاع من النوع الاقتصادي الذي سمعت عنه مرات كثيرة. والذي كانت مستعدة - بعد نظرة أخرى إلى الأفق الأغبر والزوارق المتمائلة - أن تولي وجهها شطره بابتهاج. وأجابته بعين لهجته وهي ترفع إليه محياها باسمه:

- فهمت. فهمت. أحوالنا في ضائقة.

فرد عليها بمثل ابتسامتها:

- هو ذاك ولكن أحوالي ليست كأحوالكِ سوءًا. فأمورك في

الحقيقة يا صاحبتى في حالة لا أستطيع أن أجد مخرجاً منها - أما أموري فلا بأس بها رغم اضطرابها.

وفكرت في هذا ثم قالت:

- أليست فرنسا أرخص من إنجلترا؟

وترأت لها إنجلترا في العدو الأخرى وسط العتمة المتكاثفة غالية غلاء ملحوظاً.

- ربما في بعض مواضعها.

- أليس في وسعنا أن نعيش في تلك المواضع؟

وكانت ثمت شيء ظل برهة - ردّاً على هذا السؤال - يبدو عليه أنه يهم بقوله ولكنه لا يقوله. وكان ما قاله بعد قليل:

- هذا المكان بالذات أحد هذه المواضع.

- إذن ستعيش هنا؟

ولم يكن رده قاطعاً كما كانت تود:

- ما دمنا جئنا لتوفير المال.

مما جعلها تزيد في ملاحظته:

- وكم سيطول بنا المقام؟

- ثلاثة أيام أو أربعة.

فلهت أنفاسها وسألته:

- أتستطيع أن توفر المال في هذه المدة؟

فانفجر ضاحكًا، وشرع يمشي مرة أخرى وقد أخذها تحت ذراعه. واعترف لها وهما سائران أنها هي الأخرى قد وضعت إصبعها على أضعف نقط ضعفه. وهي مسألة يدركها تمام الإدراك. وهي أنه كان حريًا أن يعيش في حدود موارده لو أنه لم يقدم على أي تدبير اقتصادي. وقال:

- ما من شيء أجلب للخراب من تمضية أسبوع بخس.

وسمعت ميري مرة أخرى بين الأصوات الرائقة في ختام النهار ذلك الصوت الفولاذي الدال على أن أيدا غيرت رأيها. وفكرت في ورقة العشرة جنيهات التي كان إبرازها لتشد يد عزم رفيقها في هذه الضائقة حريًا أن يكون ذا أثر رائع. بيد أن الفكرة تبددت عند قوله بلا مناسبة أمام أول شيء وقفوا عنده بعد ذلك معجبين:

- سيبقى إلى أن نصل.

فاستدارت إليه وسألته:

- مسز بيل؟

- مسز ويكس. وصلتني منها برقية. لقد قابلت والدتك.

فحملت ميري وقالت:

- قابلت ماما؟ أين؟

- في لندن على ما يظهر. كائنا معًا.

وبدا لها ذلك نذير سوء، وطفّر الخوف إلى عينيها:

- إذن فهي لم ترحل؟

فقال السير كلود:

- أمك؟ إلى جنوب إفريقيا؟ إنني أنفض يدي من هذا اللغز يا فتاي العزيز.

وخيل إليها أنها تراه حرفيًا ينفض يده منه وهو واقف هناك يحدق بنظرة شاردة - شاردة بالتحديد عن أمورها «هي» - يتتبع بها التخطر الرشيق والأطراف اللامعة لبائعة سمك شابة خرجت لتوها من البحر وقد امتلأت سلتها ببرايث البحر (الجنبري) وارتد إليها تفكيره بأسرع مما ارتدت إليها عيناه:

- ولكنني أحسب الأمر على ما يرام. فما كانت المسكينة العزيزة لتأتي لولا ذلك. فهي تدرك تمام الإدراك ما هي بسبيله.

وكان هذا الكلام مطمئنًا للغاية حتى أن ميري بعد أن قلبته في ذهنها استطاعت أن توفق بينه وبين حلمها:

- حسنًا. وبسبيل أي شيء هي؟

وأخيرًا كف عن التطلع إلى بائعة السمك وواجه سؤال رفيقته:

- أيوه. أنت تعرفين.

وكان في طريقة كلامه شيء أقام فيها بينهما قدرًا من المساواة أكبر مما خطر ببالها حتى الآن. إلا أن هذا الشيء كان من أثره أيضًا أنه رفع من مستواها أكثر مما نزل بمستواه. وبدا ما حدث لديها من الأثر في صوت تأميتها على كلامه:

- نعم.. أنا أعرفه.

وما تعرفه، وما «يسعها» أن تعرفه ليس سرًّا خافيًّا علينا في هذا الوقت. وقد ربا وازداد على كل حال بقية ذلك النهار في جو ما أخذه مأخذ التسليم. وذلك أفضل له من أن يحاول اختبار معرفتها. ولكن ها هو لباب المسألة على أسوأ الفروض: لقد صار واضحًا بينهما في النهاية أن ما انتابهما من تغيير كبير - كما تسميه ميري. وكأنما هو قد استغرق بالفعل عدة أسابيع - محوره مسز ويكس. وقبل أن تمضي إلى فراشها تلك الليلة عرفت أن السير كلود قد تلقى أكثر من برقية واحدة منذ شرعا في سفرتهما المتعجلة كما كان يسميها «هو». ولكنهما افترقا مرة أخرى من غير أن يتكلما عن مسز بيل.

ويا له من عبور بالنسبة للمثبتات والثوب البني العتيق. ورأت الطفلة ذلك الزي وقد جدد بحكمة ليتحمل ما قد يقع من كوارث السفر. وقامت الريح في الليل، فتسنى لميري أن تسمع من حجرتها الصغيرة في النزل صوت البحر وسقط المطر في اليوم التالي وتغير حال كل شيء. حتى بالنسبة لسوزان آش التي راحت تنعت وسامته بسوء الحالة الجوية وما في ذلك من تلذذ بالوقت الذي ستعانيه زائرته في السفينة، ومن جهة أخرى استخلاصًا لحماقة القدوم إلى مثل هذه الجحور. وذهبت ميري تحت المطر مع السير كلود لملاقة سفينة البريد القادمة من فولكستون. وعند وصولها جعلها - عندما رأى بواذر الشغب الكثيرة - تنتظر تحت مظلة فوق الرصيف وقبل أن تتم ملاسته للسفينة رآته عن بعد يبحث عن صديقتيهما ويتلوى - على حد تعبيره بين المرضى المكدرين فوق ظهرها. ومضى وقت طويل قبل ظهوره ثانية. ولم يكن ذلك إلا بعد

أن نزل الجميع إلى البر، وقدم من كانت موضوعاً لاهتمامه السماح في صورة جعلت ميزي لا تدري هل يدل هذا على منتهى تخاذل القوة أو على بهجة النصر. فالسيدة التي تستند على ذراعه وهي لم تزل محنية الظهر تحت وطأة محتتها الأخيرة كانت ملفوفة في كمية من الأغذية لم يسبق من قبل أن كانت عوناً على مثل ذلك البلاء. وفي الفندق بعد ذلك بساعة زال هذا اللبس: فقد سمعت ميزي من مسر ويكس بالتفصيل وهي تساعدها في خلوة على إنعاش نفسها وتغيير كسائها كيف أنها ما كانت لتستطيع إلا أقل القليل لو لم يمد لها السير كلود يد العون في هذا السبيل. وقد كررت هذه العبارة في حجرتها في مناسبات لا توصف: فقد جعل في مقدورها أن تحظى بتغييرات - على حد قولها - ذات طابع حميم للغاية، تلائم أجواء ومناسبات شتى بحيث كانت إرهافاً في حد ذاتها يؤذن بتقل واسع المدى. والأسابيع النجسة حرية بالطبع أن تأتي في موضعها بعد إنفاق كل هذا المال على مربية. ولم تكن تلميذة هذه السيدة متدمرة من إنفاق هذه المبالغ، حتى عندما شعرت بأن مظهرها شخصياً يشير من خلال المثلثات اهتماماً بادي الغموض. وكان السير كلود في الحقيقة لم يتسع وقته للاهتمام بمظهرها مثلما اتسع للاهتمام بمظهر مسر ويكس. ثم إنها تؤثر ارتداء حذائها على ارتداء حذاء صديقتها الجديد الذي ينبعث منه الصرير في حالة حدوث لقاء بينها وبين مسر بيل. وكانت ميزي مشغولة البال بالتفكير في حكم مسر بيل على كل هذه الأشياء الجديدة، بحيث لم تصدر شخصياً أي حكم. وبعد وقت طويل في تناول الطعام وكثير من التحيات الغالية أخذت المسألة

اتجاهًا آخر - هذا إذا أغفلنا سرور الطفلة إذ رأت بنظرها اللماح أن ثمة أعينًا غير عيني سوزان آتش تحملق فيما يمكنها أن تعرضه على الأنظار. ولم يسعها أن تعرض الكثير للأسف إلا بعد أن يكف المطر عن السقوط وقد أبى أن يكف طيلة ذلك النهار. ولكن أثر ذلك لم يتجاوز إفساح مزيد من الوقت لقيام مسز ويكس بهجومها. وقد حدث ذلك وهم جلوس في حجرة صالون صغيرة تجمع بين اللونين الأبيض والذهبي كانت ميري تراها أبدع مكان رآته على الإطلاق ربما باستثناء مسكن الكونتيسة. حدث ذلك والعاصفة الصيفية الشديدة تهرأ النوافذ وتبعث إلى الداخل بقشعريرة حدت بالسير كلود - ويده في جيبه وسيجارته في فمه متململاً مقطباً يطل من النافذة ثم يستدير إليها - أن يأمر في النهاية بإشعال نار صغيرة ذات دخان في المدفأة الصغيرة الأنيقة جاء هذا الهجوم على الرغم من شيء لا يمكن أن يسمى إلا رغبته البادية في تأجيله. وكانت هذه المخايل قد أعانته - أوه. مثلما أعانته سائر مخايله - إلى حد أن الساعتين الآخرين خصصتا لأحاديث اعتباطية وضحكات وكلام عام؛ فكانت الجلسة في الساعتين في مستوى فناجين القهوة الصغيرة الخاوية والكؤوس الصغيرة (وقد شربت مسز ويكس اثنتين من كل)، حتى لقد خطر لميري من خلال أدخنة النار الفرنسية والطباق الإنجليزي أن ذلك آية أكثر من أي وقت مضى على أنهم أنزلوا إلى أليم. فقد شعرت الآن عن كذب وبوضوح كأنما قد أخبرتها مسز ويكس بنفسها أن ما جاءت هذه السيدة إلى هنا لأجله ليس مجرد تلقي الملاطفة وسماع تلميذتها تتلقى الملاطفة. ولإسماع السير كلود الذي

يتقن الفرنسية أتم إتقان يحاكي الأصوات الغريبة التي يفوه بها الإنجليز النازلون بالفندق. ولعمل نصف تأثير التجديدات الحاضرة التي حظيت بها حتى كأن ثيابها في الحقيقة تخص شخصاً آخر، أنها لم تبد على كل حال في أي وقت مضى بمثل هذه الحمرة الشديدة في اللون وهي حمرة تفترق في ذهن ميزي في هذه الدرجة من الشدة إما بالحبسة أو بـ«الملابس»، فلم يكن قلبها يشارك في كل هذه الثثرة حول بولوني. ولئن كان لون محياها راجعاً إلى حد ما إلى ما تناولته من طعام الغداء والكؤوس الصغيرة؛ فهو أيضاً آية واضحة على ما جاءت إلى هنا لتقوله. وعرفت ميزي عندما حدث هذا إلى أي حد كان حدوثه محل انتظار متلهف من أحدث أعضاء المجموعة سنّاً، وكان ما فاهت به مسز ويكس في النهاية هو:

- لقد حزمت لي الليدي ثيابي ودفعتني دفعاً. حتى أوشكت أن تضعني بنفسها في العربة.



الفصل الثالث والعشرون

وكان السير كلود مرابطاً عند النافذة، فلم يقدم حتى ولو على الالتفات نحوها. وترك الصغرى ثلاثتهم أن ترد على هذه العبارة.

- أتعنين أنك ذهبت لمقابلتها أمس؟

- هي التي جاءت لمقابلتي «أنا». لقد طرقت بابي الحقيقير وصعدت سلمى القدر. وأخبرتني أنها رأتك في فولكستون.

وعجبت ميري:

- هل عادت في ذلك المساء؟

- لا. بل صباح أمس. استقلت عربة من المحطة إلى بيتي رأساً. كان ذلك غريباً إلى أقصى حد. ولئن كان عندي عمل أتركه فهي لم تزد الأمر سوءاً، بل جعلته أفضل بكثير.

وسكتت مسز ويكس، مع أن الوهج في محياها زاد اشتعالاً، ثم وسعها بعد ذلك أن تقول:

- فخامة الليدي رقيقة. لقد فعلت ما لم أكن أتوقعه منها.

وعندئذ نظرت ميري رأسًا إلى ظهر زوج أمها. وكان من الممكن أن يبدوا لها في تلك الساعة صرخًا يشهد بركة فخامتها. وظل ظهره - بهذا الاعتبار - ثابتًا ثبات الصرح. فأتاح ذلك من الوقت للطفلة أن تسأل رفيقتهما:

- هل ساعدتكِ حقًا؟

- مساعدة عملية للغاية.

ومرة أخرى سكتت مسز ويكس، ثم عادت للكلام بصوت رنان:

- أعطتني ورقة من ذات العشرة جنيها.

وعندئذ ضحك السير كلود وهو لم يزل مطلقًا من النافذة:

- ها أنتِ ترين يا ميري أننا لم نخسرها تمام الخسران.

فأجابته ميري:

- أوه. لا. أليس هذا ظريفًا إلى أقصى حد؟

وابتسمت لمسز ويكس وقالت:

- نحن نعرف كل شيء عن هذا المبلغ.

وإذ أظهرت صديقتها من الحيرة ما يوافق توهجها استطردت:

- أهي تريد مني أن آخذكِ؟

فأظهرت مسز ويكس ترددًا للمرة الأخيرة لم تلبث أن تغلبت عليه،

في حين كان السير كلود ينقر بأصابعه على زجاج النافذة. وخطر لميري

أنه على الرغم من نقره ومن أنه لا يستدير نحوها إلا أنه كان شديد

الاهتمام في الواقع، بحيث ترك نفسه على ما تحت سيطرتها، مما بدا لها بوجه ما دليلاً أكبر مما كان في وسعه أن يقيمه بتدخله في الحديث. وأعلنت مسز ويكس:

- إنها تريد مني أن آخذكِ «أنت».

فردت ميزي على هذه اللطمة للسير كلود قائلة:

- هذا إذن شيء بديع لنا جميعاً.

وكذلك كان بالطبع. وقد وافق بالاستمرار في صمته بما فيه الكفاية على هذا الرأي في حين نهضت مسز ويكس من مقعدها - كأنما لتتخذ منزلة أكبر - استقرت بأسلوب لا يخلو من المهابة أمام النار. وكانت أناقته غير المتناسبة ومحيط ثوبها الجاف يظهر أنها في الحقيقة مظهر أكثرهم استعداداً للتوجه إلى باريس. وحملت هي أيضاً بشدة في ظهر السير كلود. وقالت:

- كانت زوجتك مختلفة عن كل ما أظهرته لي من قبل. فهي تعترف ببعض اعتبارات اللياقة.

فسألها السير كلود:

- بأيها؟ أتتذكرينها؟

وكان جواب مسز ويكس سريعاً:

- إنه يلزم حتماً لميزي سيدة مهذبة. سيدة لا تكون.. حسناً. بهذه الدرجة من السوء. إنها تعترض على أن تكون هذه الشخصية مجرد خادمة. وليس عندي ما يمنع إطلاقاً من أن أخبرك بما تريد مني أن أصنع.

وكان ثمة شيء واحد واضح، وهو أن مسز ويكس الآن لديها من الجراءة ما تقدم به على أي شيء:

- إنها تريد مني أن أقنعك بالتخلص من تلك المخلوقة التي أتيت بها من بيت مسز بيل.

وانتظرت ميري كي يبدي السير كلود رأيه في هذا. ثم استطاعت أن تدرك أنه يلتزم من جانبه خطة الانتظار. وشعرت بالبداهة السديدة تملأ جوانحها وهي تواجه مسؤوليتها قائلة لمسز ويكس:

- أنا لا أريد سوزان «معك».

ووافق السير كلود على ذلك وهو مستمر في التطلع من النافذة:

- هذا أمر بسيط جدًا. سأعود بها.

فوثبت مسز ويكس وثبة حقيقية. ورأت ميري نظرة الفزع في عينيها:

- تعود بها؟ أنت لا تعني أنك ستسافر خصيصًا؟

ولم يقل السير كلود شيئًا برهة. ثم تساءل بعدها:

- ولماذا لا أتركها هنا؟

وعندئذ وثبت ميري واقفة:

وفي اللحظة التالية كانت متوشجة مع مسز ويكس، وراحت الاثنتان فوق بساط المدفأة، وعينا كل منهما في عيني الأخرى، تفكران في الخطة بعمق. ثم شعرت ميري بما بينهما من فارق في وجهة النظر. وتساءلت مسز ويكس:

- في وسعها بالتأكيد أن تعود وحدها فلماذا تجشم نفسك المشقة؟
- إنها بلهاء. عاجزة. وإن حدث لها شيء فسيكون الأمر محرّجاً:
فأنا الذي أتيت بها من غير طلب. فإذا استغنيت عنها يجب أن أعيدها
بيدي مرة أخرى إلى حيث كانت بالضبط.

واستعاذ وجه مسز ويكس بميزي من هذه الحماقة، وكان أسلوبها
في مخاطبة رفيقتهما ناطقاً بحزم لا عهد لها به، الأمر الذي أدهش
تلميذتها:

- يا عزيزي السير كلود، إنني أراك جموحاً. ادفع إليها بأجر
السفر وأعطها جنيهاً ذهبياً، فقد حصلت على تجربة لم تكن لتحلم
بها وسيكون ذلك مجدياً عليها في مستقبل عمرها. فإن تنكبت سواء
السبيل في سفرتها فسيكون ذلك لأنها أرادت. ومتى أدت إليها نفقاتها
ومكافأتها - ولك أن تجعلها أي مبلغ تشاء - ستكون قد عاملتها المعاملة
الكريمة التي تعامل بها على الدوام كل إنسان.

وكانت هذه نغمة جديدة، في مثل جدة قلنسوة مسز ويكس.
نغمة يمكن أن يخطر لمخلوقة حديثة السن ذات حس مرهف للآلاني
الكامنة أنها بادرة علاقة اتخذت طابعاً جديداً. إذ أظهر ميزي على أن
صديقها يقا تلان جنباً إلى جنب أكثر مما كان يخطر ببالها. وفي الوقت
نفسه احتاج الأمر إلى مبرر محدد؛ إذ إن السير كلود وقد استدار الآن
لمواجهتهما أخيراً خيّل إليها لأول وهلة أن استيائه ناجم عن التطرف
في هذه الألفة؛ ثم زاد من حيرتها أن تراه يبدو لهما في حسنه غير المتكدر
كما أبدى اهتماماً متعادلاً بموضوع متميز تماماً من أي حرية عدا حرية

فخامة الليدي:

- وهل جاءت زوجتي وحدها؟

وحتى هذا السؤال استطاع أن يسأله في بشاشة:

- عندما أنت لزيارتي؟

واحمر وجه مسز ويكس. فبشاشته ما كانت لتفلح في التخفيف من حدة لونها الذي ازداد توهجاً مدة دقيقة فشاكل في توهجه أمانة شكلها القبيح:

- كلا.. كانت ثمة أحد في العربة.

وكان التلطيف الوحيد الذي استطاعت أن تفكر فيه هو ما أردفته بعد دقيقة:

- ولكنهم لم يصعدوا.

وانفجر السير كلود ضاحكاً. واستطاعت ميزي أن تخمن علام يضحك. وفي حين راح الآن يجوب الحجرة وهو لم يزل منطلقاً في الضحك، ثم عند المدفأة ركل في مرح كتلة من الخشب لم تكن في موضعها، شعرت بمزيد من الغموض حول كل شيء تقريباً أكثر من الغموض الذي اكتنف هزل كلمة «هم» هذه. ولم يكن في استطاعتها في الواقع أن تخبرك هل كل هدفها تعميق هذه المزحة أو سترها عندما حدثتها نفسها بأن تقول:

- لعلها كانت خادمتها.

فحدجتها مسز ويكس بنظرة استغفار للنغمة الخاطئة:

- لم تكن خادمتهما.

وسألها السير كلود كأنه لم يسمع:

- هل تقصدين أنه كان ثمة في هذه المرة اثنتان؟

واستطردت ميزي كأنها تفترض فيه أنه سمع ما قالت:

- خادمتان؟

فاشتدت حدة تأنيب المثبتات؛ بيد أن السير كلود قطع ذلك فجأة:

- اسمعي هنا. ماذا تقصدين؟ وماذا تفترضين أنها عنت بكلامها؟

وتركته مسز ويكس برهة في صمت يفهم أن جواب سؤاله - إن لم يأخذ حذره - ربما خرج عليه بأكثر مما يريد. وكأنما هي بهذا الهاجس قد قدرت وربت سائر ما زودته به حين قالت أخيراً:

- ما عنته هو أن تعرفني أنك حر تماماً. وقد شعرت بالحصول على هذا النبأ منها رأساً بسرور لم أكن بالطبع أطمع فيه: مما جعل هذا اليقين وفرحي به أساساً أستطيع أن أبني عليه تصرفي. وأنت تعلم الآن أنني كنت مستعدة للسفر حتى ولو لم تتعجل هي. وتعلم ما كنا نتطلع إليه منذ أمد طويل، فما إن أخبرني بالخطوة التي أقدمت عليها في فولكستون، حتى أدركت بكل غبطة أننا حصلنا على مبتغانا. فحريتك هي التي تجعل موقفي صواباً. ولكنني لا أبالي أن أقول لك إن تصرفها هو الذي أسعدني.

وكانت تتدفق بالمنطق، فرد السير كلود كلمتها:

- تصرفها؟ ولكن تصرفها أيتها المرأة العزيزة إنما هو جريمة

منكرة. إنها بمحض الصدفة توافق مبتغانا بصورة بديعة، بيد أن هذا لا يغير على الإطلاق من أنها أبشع ما أقدم عليه إنسان. لقد قذفت بصديقتنا الموجودة معنا هنا من فوق ظهر السفينة، حتى كأن ذلك لا يقل أنملة عن إلقائها بها صارخة ضارعة من هذه النافذة لتسقط من ارتفاع طابقين فوق أحجار الطرق.

وراحت ميزي ترقب بهدوء طرفي المناقشة.

- إن صديقتنا الموجودة هنا يا عزيزي السير كلود لا تتضرع ولا تصرخ.

فنظر إليها برهة وقال:

- إطلاقاً، إطلاقاً. وهذه صفة، صفة واحدة، ولكنها بديعة جداً في حد ذاتها، نحو مائة صفة نجبها بسببها.

ثم استطرد مخاطباً مسز ويكس:

- إن ما لا أستطيع بأي شكل من الأشكال أن أتبينه هو ما تدبره أيدا «حقيقة»؛ وما هي غايتها الخفية التي سعت إليها من وراء التجائها إليك بهذه الصفاقة اللعينة بعد المعاملة الفظيعة المهينة التي عاملتك بها وأين تتوهم أنها مستطبعة أن تصل إلى غرضها عندنا ونحن أقل ما نكون توقعاً لهذا من جانبها؟

- إنها لا تتوهم شيئاً ولا تريد من أحد شيئاً. وصفافتها اللعينة كما تسميها أفضل ما رأيته فيها على الإطلاق. ولست أبالي فتيلاً بالمعاملة الفظيعة المهينة التي عاملتني بها. بل إنني أغفر لها ذلك ألف مرة.

وكانت مسز ويكس قد رفعت صوتها كما لم ترفعه من قبل؛ وقد أزهأها تألقها:

- إني أفهمها، بل أكاد أعجب بها.

وكانت ترتجف وتتكلم وكأن ما تقوله كاف عملياً للإقناع، إلا أنها شفقة منها على القرائح الأضعف أدلت بهذا التفسير:

- لقد كانت مختلفة كما قلت. وبشرفي ما كنت لأعرفها. ولكن بصيصاً لاح لها وهدتها غريزتها فجاءت إليّ. كانت فكرة موفقة. ولئن كنت لا تتخيل وجود شيء كهذا لديها، فأنا بالطبع أوافقك على ذلك. ولكنه وجد لديها. هاك المسألة. واستطاعت ميزي أن تشعر مرة أخرى كيف أن لوناً خشناً من ألوان الصواب في هذه الحجة يمكن أن يكون محققاً. ولما كانت كثيراً ما راقبت السير كلود في توقعه لمكدرات لم تتحقق، فهو الآن بدلاً من أن يقول «يا للبحيم»، كما كان دأب أبيها، رآته يلوذ بسؤال يوصف على أسوأ الفروض بالوعورة:

- ومن تراه «يكون» هذه المرة. أتعرفين؟

فحاولت مسز ويكس أن تتظاهر بوقار صوري:

- من هو ماذا يا سير كلود؟

- الرجل الذي يتحمل أجور العربات. الرجل الذي كان في العربة

التي انتظرت أمام بابك؟

وأمام هذا التحدي تلعثمت وقتاً طويلاً، حتى إن وجدان صديقتها الصغيرة فاض بالإشفاق عليها، فمد إليها يد العون:

- لم يكن الكابتن.

ولكن هذه النية الطيبة لم يكن من نتيجتها إلا قلب ما تشعر به المرأة
الفاضلة من تخرج إلى حملة أشد غموضاً، فضلاً عن أنها بالطبع
جعلت السير كلود يضحك. وناشدته مسز ويكس:

- ألا بد لي حقاً من إخبارك؟

واستمر تفكهه وهو يسألها:

- هل جعلتكِ تعدين ألا تخبريني؟

فازدادت نظرة مسز ويكس إليه حدة وقالت:

- أعني أمام ميري.

فضحك السير كلود مرة أخرى، وقال:

- «إنها» لا تستطيع أن تصيبه بسوء.

وشعرت ميري نفسها أن هذه الكلمة العابرة ذات الطابع المازح

الخفيف ذات شأن بها، فقالت:

- نعم أنا لا أستطيع أن أصيبه بسوء.

وأظلتها المشتبات مرة أخرى، وبدا بعد ذلك كأنهما تتصدعان بما

يتفجر وراءهما من أمانة لابتستها. ووسط الشظايا المتطايرة نطقت مسز

ويكس باسم:

- مستر تشباين.

وساد برهة صمت بدا ظاهره فجأة -تحت تأثير السير كلود فيما

كان يتبادل النظرات مع ميري - موحياً بالجد:

- نحن لا نعرف مستر تشباين. أليس كذلك يا عزيزتي؟

وأولت ميز هذه المسألة كل ما يلزمها من التفكير:

- لا. لا أستطيع أن أحدد هوية مستر تشباين.

وكان تأثير ذلك واضحاً جداً على صديقتهما، فقالت في جهامة صادقة النبرة:

- يجب أن تغفر لي يا سير كلود توجهي بالشكر إلى الله في مواجهتك؛ لأنه قد شاءت رحمته. أعني رحمته بربيتنا، أن يتيح لي القيام بهذا العمل.

وأطلقت زفرة ألم، وقالت:

- آن الأوان.

ثم قالت كأنها تريد أن تزيد المغزى وضوحاً:

- لقد قلت الآن لتوي إنني فهمت زوجتك. وقلت الآن لتوي إنني أعجبت بها. وأنا مصرة على ذلك. فقد خامرني هذان الإحساسان عندما رأيت كيف أن هذه المسكينة ترى كل شيء. وإن كنت تريد التحديد كل التحديد فأنت وما تبغي. فهي قد جاءت إليّ لأنني - رغم كل شيء..

ثم أردفت بلفظ مختلج:

- حسنًا.. لأنني نظيفة تمامًا. فما رأيته لا بنتها هو أنه لا بد لها أخيراً

من صحبة شخصية «محتشمة».

فأسرعت ميزي عند سماع هذا التعريض إلى إدراك أن مثل هذه الشخصية لا تنطبق أوصافها على السير كلود. ومع ذلك خمنت بعمق في اللحظة التالية مَنْ هي الشخصية المقصودة بهذا التدفق. ولذا زادت دهشتها أمام البساطة التامة التي تقبل بها أسوأ التأويلات:

- إن كانت حريصة على الشخصيات المحتشمة فلماذا إذن أعطتني إياها؟ أنت لا تسميني شخصية محتشمة. وإنصافاً لأيدا أقول إنها لم تسمني بهذا الاسم قط. وأحسبني ندّاً في الاحتشام لأي إنسان. وما من شيء في سلوكي يجعل تنازل زوجتي أقل غضاضة.

فصاحت مسز ويكس:

- لا تتحدث عن سلوكك. لا تقل مثل هذه الأقوال الفظيعة؛ فهي أقوال خاطئة شريرة وأنا أمنعك منها. إنني هنا لكي «تظل» على احتشامك. ولهذا الغرض فعلت ما فعلت. وهدفي إنقاذك - ولا أقول إنقاذك من نفسك - فأنت في حد ذاتك جميل وطيب! بل لإنقاذك من أسوأ الناس طرّاً. وأنا لم أقطع كل هذه المسافة بعد كل شيء لأخاف الكلام عنها. إنها تلك الشخصية التي تريد الليدي أحداً ولو مثلي أنا في مكانها. ولئن رأت في نفسها - على حسب ما قالت لي بما يشبه صريح النص غير أهل لصحبة ميزي، فليس ذلك كما يتبادر لذهنك رغبة منها في إفساح المجال لمسز بيل.

وراقبت ميزي وجهه وهو يتلقى هذا الانفجار. وكان أقصى ما رآته على صفحته أن لونه اكفهر قليلاً، وجعله ذلك يبدو في الواقع - على حد ما كانت سوزان آش حريّة أن تقول - غريب بالسحنة. ولعل من جوانب

تلك الغرابة أنه ابتسم بشدة:

- ما أفساكِ على مسز بيل . إن لها مزاياها الكبيرة .

وعندئذ فعلت مسز ويكس ما كان يفعله السير كلود من قبل ،
فبدلاً من أن ترد عليه فوراً ، اتجهت إلى النافذة وحدقت برهة في
العاصفة . وساد مدة دقيقة صمت ، أحست ميزي أنه يتجاوب بأصداء
الريح والمطر . ومع هذا كله راح السير كلود يفتش بنظراته عن قبعته .
وكانت ميزي أسبق منه إلى اكتشاف موضعها ، فاندفعت إليه وقدمتها
له ، فتناولها منها وفي محياه ومضة شكر ، وعندئذ دفعها شيء إلى أن
تتمسك بالطرف الآخر من حافة القبعة بحيث ظلا واقفين وقد ربطت
بينهما قبضتهما على هذا الشيء بضع ثوان وهما يتبادلان بنظراتهما
أموراً كثيرة . وكانت مسز ويكس قد استدارت صوبهما ، فسألته :

- أنقصد أن تقول لي إنك عائد؟

- إلى مسز بيل؟

وتخلت ميزي عن قبعته . وكان ثمة شيء تأثرت له في الطريقة
الحرجة شبه الذليلة التي جعله تحدى رفيقتهما يدير بها القبعة مراراً
وتكراراً . لقد رأت أشخاصاً يفعلون ذلك . أناساً تثق بأنهم لم يفعلوا
شيئاً سوى ما فعله السير كلود :

- لا أستطيع أن أجزم على الفور يا عزيزتي . سننظر في هذا ،
ونتحدث في شأنه غداً . أما الآن فلا بد أن أحظى بشيء من الهواء .

وشمخت مسز ويكس -وظهرها إلى النافذة- برأسها إلى علو بدا

أنه استبقاه برهة:

- إن كل ما في فرنسا من هواء يا سير كلود لا يمكن فيما أعتقد أن يمنحك الشجاعة لإنكار خوفك منها.

وفي هذه المرة بدت الغرابة على ساحتها، ولم تكن ميزي بحاجة إلى مفردات سوزان كي تلاحظها. بل كانت الفكرة حرة أن تطرأ عليها من تلقاء نفسها وهو واقف واضعاً يده على الباب ينقل عينيه من ابنة زوجته إلى مربيته ثم من المربية إلى ابنة زوجته مرة أخرى. وحين استقرت عيناه على عيني ميزي -برهة قصيرة جداً- باحت لهما بشيء وحاولت التوضيح. إلا أن شفثيه لم توضحا شيئاً، بل سلمتا بما أعربت عنه مسز ويكس:

- أجل. أنا خائف منها.

وفتح الباب وانصرف.

وذكر ذلك ميزي باعترافه بالخوف من أمها. فكأن زوجة أبيها ثاني سيدة فشل إزاءها في التذرع بالمزية الخاصة التي كان المفروض أنها أبرز خصائص الرجل. بل إنهن في الواقع ثلاثة إذا ما عددنا منهن مسز ويكس التي خارت عزيمته أمامها بما لا وجه لإنكاره ولم يكن افتقاره إلى الإقدام إلا داعياً أعمق لإثارة حنانها. ولم يكن أمامها كي تجيش نفسها بالاستجابة لهذا الحنان إلا أن تتذكر سائر السيدات اللواتي جبنن أمامهن كما يقولون.

الفصل الرابع والعشرون

لبث المطر ينهمر مدرارًا، حتى إن حلم سيدتنا الصغيرة الخاص بأن توضح أحوال «القارة» لزائرتيها كان لا بد أن يتضمن بإسهاب أحوال الجو. وعلى المائدة العامة في ذلك المساء ألفت عديدًا من الأضواء. فهذه ثاني «تشريفة» من هذا القبيل تجلس فيها. وكانت حرية أن تهمل امتيازها وتلحق الخزي بمفرداتها - التي كانت في الحقيقة تتكون أساسًا من أسماء ألوان الطعام - لو لم تكن متأهبة تأهبًا مناسبًا لإزاغة البصر بالترجمات والتأويلات. أما مسز ويكس فبدت لفرط انشغال بالها وتهيئها مكتبة، فجعلت تتلقى ترجمة تلميذتها لأسرار قائمة الطعام بصورة كان من الممكن أن تعتبرها الطفلة انقباضًا ساذجًا، لا يرجع إلى شعورها بحاجتها مثلما يرجع إلى شعورها بآفاقها. وسرعان ما وجدت ميري نفسها - وإن كان ذلك لم يحدث إلا قبيل وقت النوم - وقد وجهت إلى حجرة جلوسهما في حين بقي السير كلود، الذي قال إنه سيلحق بهما فيما بعد، ليدخن في الطبقة السفلى ويتحدث إلى معارفه القدماء الذين كان يلتقي بهم أينما ولَّى وجهه. وكان قد اقترح على رفيقته أن تتناولوا القهوة مستمتعتين بصالون المطالعة، ولكن مسز

ويكس ردت عليه باقتضاب وبشيء من التكلف أن جناحهما الخاص أكفل براحتهما من كل وجه. فجناحهما الخاص لا يكفل لهذه السيدة الطيبة - كما لاحظت ميزي على الفور - وسائل الراحة المشار إليها فحسب بتلك الإشارة التي أبدتها وكأنها - وهي الغيور في هذه الحدود من تلميذتها - قضت كل حياتها في الصالونات. بل قدم لها هذا الجناح أيضًا أريكة فرنسية صلبة وسعها أن تجلس فوقها وتحقق في المصباح الفرنسي الضعيف؛ لأن الساعة الفرنسية كانت قد وقفت، وكأنها تلمس لديها تفسيرًا للوقت الذي تأخره السير كلود. وكان سلوكها يتهمه اتهامًا مباشرًا بأنه يتلصق بعيدًا عن متناول يدها، حتى إن ميزي حاولت تسليتها بأن روت لها موقف سوزان الفريد بصدد موضوع حديثهما الذي جرى بعد الغداء. وكانت ميزي قد نفضت إلى المرأة الشابة على سبيل العطف خطة إعفائها، ولكن اعتراضها على الأساليب الأجنبية يبدو أنه لم يفعل للعجب شيئًا سوى أنه دفعها إلى التشبث بمصدر ضيقها. وهكذا أحست الفتاة بين مجهود مسز ويكس لإبعادها وبين تشبث الفتاة الواضح بمكانها في صلابة أنها تقوم بمهمة ممزوجة وتبذل نشاطًا واسعًا بمساعيها السامية.

ولم تصل هذه المساعي إلى ثمرة كبيرة في الحقيقة من حيث احتفاظ مسز ويكس أمام ناظرها بصورة شذوذ السير كلود، تلك الصورة التي كانت تترامى في فترات الصمت وسط الكلام، والتي جعلها هو شخصيًا بعد فترات تأخير ملحوظة تبدو كالحجة باندفاعه داخليًا وقد قاربت الساعة العاشرة وقد رفع يده بشيء ما. وعرفت قبل أن يتكلم ما هو هذا

الشيء. فقد كانت تعرف على الأقل من المعنى المستور وراء كل هذا - حيث إن تلك الساعة التي قضتها بعد المهرجان مع أبيها لم تنبر لرد مستر فارانج إلى مكانه - أنه يتضمن تسجيل انتصار لمسز بيل. فمنظر وجه السير كلود الحالي في حد ذاته كان كافيًا الآن وعلى الفور كي تدلي في انطباعها الأخير عن مستر فارانج مسبارًا يصل إلى أعماق أبعد من أيام الهرب هذه. وكانت قد غلفت ذلك الانطباع في صمت، وهو صمت تخلى عن نصف قناعه كي يغطي أيضًا منذ ساعة حلول السير كلود صورة زوجة مستر فارانج. ولكن إذا كان الشيء الذي يمسك به السير كلود في يده قد تكشف عن خطاب يحمله عاليًا جدًا فتمة شيء في حركته وحدها يكشف مسز بيل مرة أخرى. وصاح عند الباب تقريبًا وهو يهز قنيصته أمامهما، وينقل بصره من إحداهما إلى الأخرى:

- ها نحن أولاء!

ثم توجه رأسًا إلى مسز ويكس، وكان قد أخرج ورقتين من المظروف فراح ينظر إليهما ليميز بينهما. ثم دفع بإحدهما مفتوحة إلى مسز ويكس قائلاً:

- اقرئي هذا.

ف نظرت إليه بإمعان كالخائفة. فقد كان من المستحيل ألا يتبين المرء جیشان نفسه. ثم تناولت الخطاب ولكن ميري لم توجه اهتمامها إلى وجهها وهي تطالعه. وما كانت سحتها هي التي تفرس فيها السير كلود، بل وقف أمام النار وبمزيد من الهدوء بعد أن قام بها قام به راح يتناقل الأحاسيس في صمت مع ابنة زوجته.

وسرعان ما هتك حجاب ذلك الصمت؛ لأن مسز ويكس نهضت قائمة على قدميها وهي تتفوه بصوت عنيف. وكان الخطاب قد سقط منها واستقر على الأرض، وتلاوته قد أحالت لونها إلى شحوب الموتى وألجم لسانها ما أحدثه فيها من الأثر، ثم صاحت:

- هذا شيء شنيع جدًا بصورة لا يمكن التعبير عنها.

فسألها السير كلود:

- أليس هذا شيئًا بديعًا؟ لقد وصل هذا الخطاب الآن ومعه كلمة من عندها هي: لقد بعثت به إليّ مع إشارة مفادها أنه لا محل للتعليق. وهذا رأي حقًا. فهذا كل ما يمكن أن يقال فيه.

فقالت مسز ويكس:

- ما كان ينبغي لها أن تنقل مثل هذه الفظاعات من يد إلى يد. كان ينبغي أن تدسها في النار رأسًا.

وكان قد رفع الخطاب عن الأرض وألقى عليه مرة أخرى نظرة رضى أضاء بها محياه:

- إنها أيتها العزيزة ليست حمقاء إلى هذا الحد. هذا خطاب ثمين جدًا. إنه وثيقة.

وفكر ثم ختم كلامه بطبقة صوت أقل بعض الشيء:

- مثل هذه الوثيقة تصلح بالاختصار أساسًا.

- أساسًا لأي شيء؟

- حسنًا.. لإجراءات.

وبات صوت مسز ويكس ناطقاً بالزراية السافرة:

- من جانبها؟ وكيف يتسنى لها ذلك؟

وقلب السير كلود الأمر في ذهنه، ثم قال:

- كيف يتسنى لها أن تتخلص منه؟ حسناً.. لقد تخلصت منه.

- لا بصفة قانونية.

ولم تكن مسز ويكس نظرت قط إلى تلميذتها قبل ذلك كأنها تعرف

ما تتكلم عنه. وضحك السير كلود وقال:

- ربما. ولكنها ليست أقل مني حرماناً من هذه الجهة.

- من حيث قدرتها على الحصول على الطلاق؟ إن افتقارك إلى

القدرة هو الذي يجعل من صلتك بها مثار فضيحة. لذا فافتقارها إلى هذه القدرة هو الذي يجعل من صلاتها بك مثار فضيحة. وهذه دعواي برمتها.

وختمت مسز ويكس كلامها بحمحة قتال لا نظير لها. إنها تعرف ولا شك ما تتكلم فيه.

وكانت ميزي في هذه الأثناء ناشدة السير كلود مناشدة صامتة، فقدر أن مواجهته لما لم تقله أيسر عليه من مواجهة ما قالت مسز ويكس.

- إنه خطاب إلى مسز بيل من والدك يا عزيزتي مرسل من سبا يجعل الانفعال بينهما لا محيص عنه إطلاقاً. فهو يعرفها -وبلغة غير جميلة- إنه يهجرها، على حد التعبير الفني. فالخطاب يضع حدًا إلى الأبد لعلاقتها.

وجرت عيناه فوق سطور الخطاب مرة أخرى، ثم بدا عليه أنه حزم رأيه واستطرد:

- والخطاب يخلصك في الواقع يا ميري عن كذب، ويشير إليك بصفة خاصة بحيث أعتقد في الحقيقة أنه ينبغي أن تري نص الكلمات التي أوجدت لك هذا الموقف الجديد.

ومد يده بالخطاب. وعندئذ انقضت مسز ويكس عليه واختطفته منه بأسرع مما أتيح لميري أن تظن إلى خوفها منه. ودفعت به على الفور وراء ظهرها وحملت في السير كلود بشدة:

- تراه أيها الرجل التعس؟ الطفلة البريئة «تري» شيئاً كهذا؟ أحسبك لا بد قد جننت، ولن تظفر منها بلمحة واحدة ما دمت موجودة هنا لأحول دون ذلك!

واحمر وجه السير كلود تحت تأثير فعلها الجسيم، بل بدا أنه أبله بعض الشيء:

- أعتقدين أن هذا شيء رديء جداً؟ ولكن بالضبط لأنه رديء خيل إليّ أنه سيكون درساً ومصدر نفع لها.

واستطاعت ميري أن تنصف دوافعه إنصافاً سريعاً. بحيث تسنى لها أن تتدخل بوضوح، فابتسمت له ابتسامة لطيفة وقالت:

- أؤكد لك أنني أستطيع أن أصدق مبلغ رداءته.

وفكرت في شيء كتمته في نفسها برهة، ثم قالت:

- أنا أعرف ما فيه.

فانطلق ضاحكًا بالطبع، في حين زمجرت مسز ويكس قائلة:

- يا للسماء.

وأجاب قائلاً:

- ما كنت لتقول هذا يا فتاي العزيز لو أنك كنت تعرف.

واستطرد قائلاً لمسز ويكس في إيناسه الذي ثاب إليه:

- إن ما يهمني ببساطة أنه يعطي لمسز بيل حريتها:

ولم تسكت إلا لحظة ثم قالت:

- حريتها في أن تعيش «معك»؟

- حريتها في ألا تعيش وألا تتظاهر بأنها تعيش مع زوجها.

- هذان شيئان مختلفان أشد الاختلاف.

وكانت حماستها لهذه الحقيقة تبدو الآن في نظره غير معقولة تدعو بها الطفلة إلى الاشتراك في الرأي.

وقبل أن تتورط ميزي كان السير كلود قد استأثر بالمجال، وراح وهو واقف أمام زائرتيهما بسحنة تجمع بين الأسى والإقناع يحك بيده مؤخرة رأسه صعودًا وهبوطًا في شدة:

- إذن لماذا بحق الشيطان تسلمين هذا التسليم كله - بل أذهب إلى القول بأنه تبتهجين - بأن هجر شريكة حياتي الغالية لي يجعلني حرًا.

وقابلت مسز ويكس هذا التحدي في مبدأ الأمر بالصمت، ثم بجملة في منتهى الغرابة وعلى غير المنتظر تمامًا. وأوشكت ميزي ألا

تصدق عينيها حين رأت السيدة الطيبة التي لم تقترن لديها بأوهى ظل
من فنون الإثارة تلطم السير كلود بالفعل، بعد أن حركت ملامح وجهها
إلى أعلى لظمة عابثة، وهي تضحك ضحكة حافلة بالغمز:

- أنت «تعرف» لماذا يا شقي.

ثم أشاحت عنه. وظل الوجه الذي خلفته بعد هذه الحركة يبدو
لميزي صورة ناطقة بالذهول. ولكن الوقت أعوز كليهما ليتناقلا
تفككها أو دعرهما قبل أن تنقض عليهما عاذلتها مرة أخرى. وكانت
قد شرعت في الواقع تبدي تعددًا في جوانبها لا حد له وقالت بلهجة
أسرع في التغير من انقضاضها نفسه:

- هل أتيتني بهذا الشيء ليكون ذريعة لرجوعك؟

فتشجع السير كلود، وقال:

- لا أستطيع بعد مثل هذا النبأ ألا أسافر بحكم اللياقة العادية.
أعني بحكم المجاملة العادية والواجب الإنساني المعتاد. إنك يا سيدتي
العزيزة لا تستطيعين أن تلقي بامرأة على هذا النحو، ولا سيما في الوقت
الذي أصيبت فيه بأشد الإهانات والإساءات. ولا بد للمرء أن يسلك
سلوك السيد المهذب يا عزيزتي الطيبة مسز ويكس. ونحن لم نأتِ إلى
هنا نحن الاثنان للبقاء حيث نحن كما تعلمين. وإنما كان مرادنا أن
نجرب حظنا ونمضي بضعة أيام تثبت لكل إنسان يعنيه الأمر أننا جادان.
وبالضبط لأننا جادان لم تكن بنا حاجة إلى التدقيق الشديد. أعني كما
تعرفين أنه لم تكن بنا حاجة إلى الخوف المفرط.

وأظهر اتقادًا وشدة في جدله. ولو أحصت ميري كلماته لكانت أكثر استعدادًا لالتهام ما كان عليه بعد ذلك أن يتوقف ليتلقى عليه جوابًا منها، وذلك في جرعة واحدة فقد ناشدها بلا مواربة:

- إننا لم نأت إلى هنا يا فتاتي العزيزة لنقيم إلى الأبد مكتفين بذلك! ولم تشكّ ميري إطلاقًا في مقدرتها على أعمال البطولة في سبيله. فقالت كأنما صدمتها الفكرة:

- أوه. لا. إننا نأخذ الأمور على علاتها.

وكان قد جاءها إلهام مفاجئ فلزمته باسمته:

- إننا كنا نتبين فقط ماذا نستطيع أن نصنع.

ولم تكن في حياتها كلها من قبل قد أدعت شيئًا لنفسها، ولكنها تعشمت بصراحة في هذه المرة أن يكون ما تفعله شيئًا يحسب لها. وشعرت في الواقع أن السير كلود يحسبه لها وإن كانت تخشى أن تنظر إليه حتى لا يرى دموعها. فنظرت إلى مسز ويكس وقد وصلت إلى قصارها:

- لا أعتقد أنه ينبغي أن أكون شريرة نحو مسز بيل.

وعندئذ سمعت صوتًا عميقًا عذبًا غير واضح المقاطع يصدر عن السير كلود. بيد أن الدموع كانت الشيء الذي لم تتحرج مسز ويكس عن إظهاره وقالت:

- أعتقد أنك ينبغي أن تكوني شريرة نحوي «أنا»؟

وكان السؤال ذا أثر مبلبل للغاية؛ لأن انفعال مسز ويكس لم يحرمها

من مزية تأثيرها. فأعلنت لرفيقهما:

- أنت هالك إن رأيت هذه المرأة مرة أخرى.

فنظر السير كلود إلى كرة المصباح القمرية، وبدأ عليه أنه يرى لمدة لحظة ما تعنيه رؤيته لمسز بيل. وكان واضحًا أنه من هذا التصور استمد القوة لجيب:

- إن موقفها قد تغير بأكمله نتيجة لما حدث. ولا جدوى من محاولتك أن تثبتي لي أنه لم تكن بي حاجة إلى إدخال ذلك في حسابي. فكررت عليه مسز ويكس بمزيد من القوة:

- أنت هالك إن رأيت هذه المرأة.

- أتحسبنيها لا تتركني أعود إليكما؟ يا سيدتي العزيزة إنني أتركك وميزي ها هنا رهيتين ضمناً للتوفيق. وأعدك بكل ما هو مقدس أنني سأكون معكما مرة أخرى على الأكثر في يوم السبت. وسأمدكما باعتمادات، وأقيمكما في هذه الحجرات الحسان. وسأرتب مع الناس هنا أن تعاملنا بكل رعاية وتزودنا بكل ألوان الترف. وسيتحسن الجو بعد هذا، فمن المؤكد أنه سيكون بديعاً. وعندئذ ستكونان كلتاكما طليقتين كالهواء وسيكون في وسعكما أن تحوما في أرجاء المكان وتظفرا بألوان من المرح هائلة. ستكون لكما عربة تستقلانها وستكون الدار كلها تحت تصرفكما. سيكون وضعكما هنا باذخاً.

وتوقف عن الكلام، وراح ينظر من إحدى رفيقتيه إلى الأخرى، كأنه يريد أن يرى الأثر الذي أحدثه فيهما. وسواء رأى ذلك الأثر كافيًا

أم لا، فهو قد أردف بعد برهة:

- وستكرمان عليّ قبل كل شيء بألا تحدثنا ضجة.

ولم يكن في مقدور ميزي أن تجيب إلا بخصوص وقع هذا الكلام لديها، وإن كان من صميم صرامة مسز ويكس قد تصاعد إليها عبير خفيف من إذعان على مضض. وكانت ميزي كلمتها البكماء عن المظهر الذي يمكن أن يحدثه مثل هذا الكلام، وعن السحر الذي يقاوم صدوره عن هذا الإخلاص المزيج للبصر. وقبل أن يتسنى لها أن تقدم على أي شيء سوى أن تطرف بعينها أمام هذا النور الباهر سمعت هذه الكلمة نفسها ترن على شفتي مسز ويكس كأنما السيدة المسكينة قد حدستها، وأرادت بانتزاعها منها أن تلفحها كالزهرة المغصنة:

- أنت فظيع. أنت شنيع. لأنك تعلم تمام العلم أنه ليس بالهين عليّ أن تخاطبني بهذه الألفاظ التي تليق بالأمرء.

وما يليق بالأمرء هو ما كان يمثل به بوقفته هناك ومنظره ولهجته. وكان هذا ما ألفت ميزي نفسها في هذه المناسبة منصرفة كل الانصراف إلى تمجيده بسببه. ولكن من الغريب أنه تردد في داخلها حينما استطردت مسز ويكس صدى يوافق الصدى الذي تجاوب إليها أصلاً:

- كم يبلغ بك النزوع إلى مرآها بحيث تقول مثل هذا المقال وتمسي على استعداد لصنع كل هذا للمساكين الصغار أمثال ميزي وأمثالي. إن لها عليك لسلطاناً، وأنت تعرف هذا وتنزع إلى تجديد شعورك به -والله أعلم، أو «أنا» على الأقل أعلم ما دفعك وما رغبتك- وتنزع إلى الاستمتاع به مرة أخرى والانغماس فيه. وليس ذا بال أن يكون هذا

يومًا واحدًا أو ثلاثة أيام: فالكفاف يغني غناء المأدبة الحافلة. والوقت المستطاب الذي ستحظى به معها شيء أنت على استعداد لأداء ثمنه، وأخالك تريدني أن أصدق أن تؤديه من الثمن في مقابل إقناعها بالتخلي عنك. ولكني أهيب بك أشد الإهابة ألا تبذل مالك مقدمًا. تخل عنها أولًا. ثم أعطها ما تشاء.

وأصغى السير كلود لهذا الكلام إلى منتهاه، مع ما فيه من أمور تغير لها لونه ودفعت إلى محياه بأمارات تزيد على ما لمحتة ميري لديه من قبل إطلاقًا من بواذر التأذي. وخامرها إحساس عجيب بأن هذه أول مرة ترى فيها أحدًا سوى مسز ويكس يبدو عليه الاستنكار الصادق الحقيقي. وقد غدّى ذلك لديها الاستنتاج الذي ظل ينمو ويزداد من لحظة إلى أخرى بأن مسز ويكس برهنت على مزيد من القوة التي يحسب لها حساب يربي على كل ما خطر في تقدير كليهما. وإنه لصحيح أنه كانت لها منذ زمن طويل سيطرة عليه - كما تسميها - تختلف اختلافًا نوعيًا عن سيطرة مسز بيل وعن السيطرة التي كانت في الأصل لفخامة الليدي. بيد أن ميري استطاعت الآن أن تشعر معه أنه لم يكن يتوقع في الحقيقة أن تصل هذه المزية إلى هدفها بهذه الصورة. ولكنهما لم يكونا قد وصلا إلى حيث يتوقف جهد مسز ويكس؛ لأنها في الدقيقة التالية كانت تمعن في التوغل إلى هدفها أكثر من ذي قبل. وكان ذلك نتيجة لقوله بشيء من الجفاف وإن كان في رقة جعلت تذرعه بالصبر لعامل المؤثر أكثر من سواه في ميري:

- يا صديقتي العزيزة، هذا أمر يجب أن أبت فيه بنفسي، وقد قمتِ

أنتِ بالبت في أموري كما أعلم في المدة الأخيرة إلى مدى كبير، وبطريقة أوكد لك أنني أقدرها أحسن التقدير وأتمه. ولكن ليس في وسعكِ أن تبتي في سائر أموري على الدوام. فما من إنسان يستطيع أن يصنع هذا الصنيع بإنسان آخر في جميع الأحوال. فهناك ظروف استثنائية وحالات خاصة تتميز بدقتها المفرطة. وكانت حقيقة أن تكون الأمور مسرفة في اليسر إن أنا استطعت إلقاءها كلها على كاهلك؛ لأن معنى ذلك أن أسمح لك بتجشم قدر من المسؤولية يخجلني شخصياً أن تتحمله عني. وأنا واثق أنك ستجدين من المسؤولية كفاء ما تصبين إليه إن أنتِ تكرمتِ بقبول الوضع الذي تهيئه لك الظروف وبقيتِ هنا مع صديقتنا إلى أن ألحق بكما على أساس من الراحة المكفولة والتنعم -وأحسبني يحق لي أن أضيف لكليكما، وعلى أساس من الثقة «بي»- قدر الإمكان.

كان كالأمراء حقاً. وقد تبدى ذلك بصورة أجلى مع كل كلمة قالها وبالطريقة المعينة التي يقولها بها. فشعرت ميري بناصحته تتطلب من شدة القلق بسبب ازدياد سحره، ثم ألقت بنفسها على سبيل الدفاع اليأس ضد هذا السحر فيما نم على فهامة العنف، مرددة:

- أنت خائف منها. خائف. خائف. خائف. ويحي. ويحي. ويحي!
وكانت مسز ويكس تقول بهذه الكلمات في رعشة واضحة، ثم انهارت في ارتجاف ينبى عن نفاد الحيلة واشتداد البلية. وفي الدقيقة التالية ألقت بنفسها مرة أخرى على الأريكة الضيقة وانفجرت نوبة بكاء. ووقف السير كلود ينظر إليها برهة وهز رأسه ببطء، وقال بحنان:

- سبق لي أن اعترفت بأنني أخافها خوفاً مميتاً. فلندع هذا يضع حداً للمسألة. وأعتقد أن من الأفضل لكما أن تأويا إلى الفراش فقد قضيتما يوماً مرهقاً، ولا بد أن كليكما متعبة حتى الموت ولست أنتظر منكما أن تعنيا نفسيكما في الصباح بتحركاتي.. وهناك سفينة تقوم في ساعة مبكرة، وسأكون قد رحلت قبل أن تنهضا. وسأكون فضلاً عن هذا قد تفاهمت مباشرة وبصورة حاسمة للغاية -أؤكد لكما- مع الأنسة آش غير ميؤوس منها تماماً وإن كانت متعالية.

والتفت إلى ابنة زوجته كأنما يريد أن يودعها على الفور، ويؤكد لهما بهذه الإيماءة مبلغ اتحادهما -رغم كل توتر واحتكاك- اتحاداً لا حاجة بها معه على الأقل للقلق. ففتح ذراعيه لها هاتفاً:

- أيها الفتى ميري.

وبخفتها المجترحة طارت إليهما، وفيما كان يقبلها تخيرت خطة الصمت الناعمة لإرضائه، ذلك الصمت الذي يعتبر بعد المعارك الكلامية خير بلسم تضعه على جراحه. وطال عناقهما مدة كافية لتأكيد عهودهما. وبعدها أرغمتهما مسز ويكس بما يشبه العنف على التباعد؛ إذ قفزت واقفة على قدميها.

وكانت وثبتها -إما بعودة سريعة لشجاعتها أو لانهيار نهائي لها- نحو ضراعة توشك أن تكون ذليلة:

- إني أناشدك ألا تقدم على مثل هذه الخطوة التعسة القاضية، أنا أعرفها حق المعرفة، أقول ذلك ولو هزأت بي بسبب هذا القول. أعرفها حق المعرفة على قلة رؤيتي لها. وأعرف ماذا ستصنعه. بل إني أرى

ذلك وأنا واثقة هنا. ما دمت خائفاً منها، فهذا باب رحمة السماء. فلا تخف من إظهار ذلك -أستحلفك بالله- وأن تستفيد منه وأن تصل إلى بر الأمان الذي يتجه لك. «أنا» لست خائفة منها أؤكد لك. ولا بد أنك قد تبينت بنفسك أنني لا أخاف الآن شيئاً. دعني أذهب إليها. و«سأقوم» بتسوية موضوعها، وسأخذ تلك المرأة فأعيدها من غير أن تمس شعرة من رأسها دعني أفضي اليومين أو الثلاثة فأصفي العلاقة. وامكث أنت هنا مع ميزي واستمتع بالعربة واللهو بالبذخ، ثم أعود إليكما، ونطلق معاً، فنعيش ثلاثتنا من غير أن تكدر صفاء سمائنا سحابة. خذني. خذني.

ومضت تسترسل في كلامها وقد ارتفع مدى فصاحتها:

- هأنذا. أنا أعرف أي شيء أنا. وأي شيء لسته. ولكني أقول بجسارة وفي مواجهتكما كليكما أنني سأكون أنفع لك بكثير جداً من كل ما تستطيع هي أن تحاوله لك. إنني أقول هذا في وجهك يا سير كلود، مع أنني مدينة لك حتى بالثوب الذي يستر جسدي، وبالنعل الذي في قدمي. أنا مدينة لك لكل شيء وهذا بالضبط هو السبب. وكيف يسعني أن أؤديه إليك بسخاء إلا بإنجاز هذا الذي أصبو إليه؟ هأنذا. هأنذا.

وبسطة قامتها حتى صارت معرضاً مشهوداً بحرارتها وزينتها مما زكاها للقيام بألوان من الطقوس وعبارات غريبة، ولتبديلات وإنابات مضحكة وكانت تمسك ثوبها بيدها وهي تتكلم وتلح في ذكر مفردات دينها:

- ليس لي شيء أملكه. أعرف هذا: لا مال ولا ثياب ولا مظهر ولا شيء. لا شيء إلا امتلاكي لناصية هذه الحقيقة الصغيرة الواحدة، وهي

كل ما أستطيع في هذه الدنيا أن أرشوك به: إن كليكما أعز عليّ من كل ما عداكما. وإنك إن سمحت لي أن أعينك وأنقذك وأجعل ما تريدانه كلاكما على الوجه الوحيد المحكم، فسأفني في خدمتك حتى عظامي.

وتناوح السير كلود من غير أن يرد على هذا النداء الرائع، وكان هذا واضحًا أنه يفتش عن رد؛ وأن اضطرابه وألمه لم يكونا يسيرين. بيد أنه وجه همه في هذا التنقيب إلى مواضع غامضة، إلى أن التقى مرة أخرى - كما كان يحدث له كثيرًا وبحرارة - بنظرة ربيته الصغيرة الذكية التي تفيض بما يجاوز مشاعر البنوة. فأتاحت هذه النظرة إليه - وهو ذلك الذكر المسكين السريع التثكل المتواكل - المخرج المنشود. فلئن لم تزل طفلة، فهي مع هذا تنتمي إلى الجنس الذي يستطيع أن يخرجها من مأزقه. ورمى إلى هذا بتجديد دعوته لها إلى العناق، فوثبت إليه من جديد، ومرة أخرى راحا يتحادثان بصوت غير مسموع. وأخيرًا فاه بهذه الكلمات الواضحة:

- كوني لطيفة معها. كوني لطيفة معها أكثر مما كنت لطيفة معي.

ثم تسلل من الحجرة من غير أن يلقي نظرة أخرى على مسز ويكس، تاركًا ميري تحت التأثير المرهق بعض الشيء لهذه الكلمات ولإدراكها أنه راغ مرة أخرى روغانًا لا محل للشك فيه.



الفصل الخامس والعشرون

كل ما تنبأ به تحقق، فلم يكن يجاوز العدل أن تتوقعا مثل ذلك لما أدلى به من الوعود. وكان في وسعهما أن تتحققا من وفائه بتعهداته وفاء حرفياً، بما في ذلك ضمانه لإيجاد وسيلة للتفاهم مع الأنسة آش. وكانت ميزي قد تنبعت في الفجر الصائفت وقد اعتصرها هذا النفي الطريف اعتصاراً شديداً، فاستلقت على مضجعها، وراحت تزن من جديد سياسته. فإذا بتذكار لهذه السياسة عندما نهضت فيما بعد لترتدي ثيابها يتلألاً أمامها فوق البساط على شكل ستة بنسات فاضت عن زهو سوزان بما تملكته. وكانت قطع البنسات الستة في الأربع والعشرين ساعة التالية تفعم حياتها على ما يبدو، فراحت تحصي عددها في خيالها، فتمثلاً في أنواع الملاهي التي تستغرقها هذه الفترة. ولم ينقص من عددها - كما لاحظت على الفور - أي مشروع للثأر من هروب السير كلود، ذلك الثأر الذي كان المفروض أن يتخذ من جانب المسز ويكس صورة الرفض البات لكل استفادة من التسهيلات التي أمر لهما بها بكل شجاعة. وكان تجنب هذه التسهيلات مستحيلاً في الواقع؛ إذ كان من السخف على حد تعبير السيدة الطيبة نفسها أن يسير المرء على قدميه

ولديه عربية مطهمة تظفر أمام الباب. وكان كل شيء حولهما يطفو: حتى السقاة وهم يقدمون صحاف الطعام التي جعلت مسز ويكس -صادرة عن إحساس متشابه بسخافة الشذوذ- تغترف منها بانطلاق حدث ميزي عن خوائها مثلما حدثها عن منطقها. فشهيته كانت آية لرفيقتها على أمور كثيرة، وشاهدا بصفة عامة لا تنصب شهادته على أحوالها العامة أقل من انصبابها على أحوالها الخاصة. فأمامها متأخرات من وجبات العشاء عليها أن تعوضها. وكان شيئاً مؤثراً أن انفعالها الخلقي في حالة عدم العشاء استطاع أن يتوهج بجلاء. كانت تصيب من العشاء عن سعة لتلوذ من المهم بالطعام. ومع ذلك كانت فرصة هذه الإصابة من الطعام آية في حد ذاتها على الأعراض الوبيلة التي تسبب لها الاكتئاب. فكانت المسألة بإيجاز عبارة عن معركة انتصر فيها العنصر الأدنى. معركة بين رفضها أن تُشتري وبين رضاها أن تُكسى وتُقات. وليس مما يناقض ذلك على كل حال أنها وجدت راحة في هذه التحسينات الفرنسية، وبلغ من أمر هذه الراحة أنها تركت لميزي الحرية في أن تأخذ كل الأمانى مأخذ التسليم وأن تنحي كل المخاطر جانباً. وكانت هذه هي طريقتها في تنفيذ إيعاز السير كلود لها بأن تكون «لطيفة» تنفيذاً مفصلاً. وكانت هذه هي الطريقة أيضاً للنظر معها بعين فاحصة إلى أطايب الحياة في الخارج نظرة تعلقو فوق مستوى كل شك.

وتقلصت جميع الشكوك أخيراً عندما صفا الجو، فكان لصفائه أثر بالغ عليهما وقد غدا مستطاباً كما وعدهما السير كلود. ويبدو أن هذا أظهره في صورة المطلع على خفايا الأشياء. وتربص سرور الدنيا

بأسره لكل خطوة من خطوات صديقته حتى أن روح الأمل ملأت الجو شيئاً فشيئاً وهيمنت آخر الأمر على المشهد كله. فركوب العربى على الشاطئ الصخري الطويل رائع؛ بيد أن السير كلود المتمهل فى الظل ربما كان أفضل - لأن الشمس قوية - على طول المرفأ المتعدد الألوان المتعدد الروائح، وفى الشوارع التى بدأ كل شىء مألوف فيها للأعين الإنجليزية وكأنه لغز غامض؛ وبدأ كل شىء مختلف فيها، وكأنه نكتة. وكان أفضل من كل هذا أن تواصل الديق فى الشارع الكبير الطويل إلى بوابة المدينة العليا، وأن تصعدا بعد المرور تحتها إلى التحصينات الأنيقة المتعرجة بما فيها من صفوف الأشجار والأركان الهائلة والأغصان الودود حيث تجلس نسوة عجائز سمرات فى قلانس بيضاء ذات أهداب متحليات بأقراط الصفراء التى تبدو كبيوت البخلأ أو القساوسة، وبقلعتها القائمة حيث يتسكع جنود صغار الأجسام فوق قنطرتها التى تمتد عبر خندق خاو من الذهب مسرفة الطول يغزلن ويهومن؛ ويوتها الصغيرة ذات الواجها والملابس العسكرية المغسولة مدلاة من نوافذ الأبراج. وكان هذا الجانب من المكان يقود ميري إلى الاستفسار: ألا يطابق تمام المطابقة فكرة المرء عن العصور الوسطى. وحيث إنه كان يرضيها أكثر مما يصدمها أن تلاحظ - وليس ذلك للمرة الأولى - حدود عقل مسز ويكس فيما يختص بالتصور التاريخي، فقد أضاف ذلك لوناً جديداً إلى شتى ألوان البصيرة التى استشعرتها فى مهمتها الراهنة - وهى مهمة الإرشاد إلى المعالم فكانتا تجلسان معاً فوق شرفة الحصن العتيقة الغبراء وتنظران من تحتها إلى

المدينة الصغيرة الجديدة التي بدت لهما عتيقة أيضًا كالتحصينات نفسها، وتنظران عبر المدينة إلى القبة الكبيرة وتمثال العذراء المذهب الشاهق للذين يعلوان الكنيسة. تلك الكنيسة التي أدركتا أنها مشهورة، وسرهما عدم مشابقتها لأي مكان أدتا فيه فروض العبادة. وطافتا أرجاء ذلك المعبد بعد ذلك واعترفت مسز ويكس فيما يختص بها أنها ربما اقترفت خطأ قاضيًا في باكورة حياتها، حين أثبت أن تعتنق بالكاثوليكية. ونتج عن اعترافها تساؤل ميري باهتمام عن درجة التأخير الزمني التي تغلق الباب أمام النجاة من مثل هذا الخطأ. وعادتا إلى التحصينات في صباح اليوم التالي، وهي البقعة التي يبدو أنهما وصلا عندها إلى أبعد مدى في الرحلة التي تفصلهما عن كل ما هو مستهجن من الماضي. فقد أمدتهما من جديد بالإحساس الذي كان أكبر شأن في إقامة ثقة كانت من جانب ميري جازمة، وتبينت أن هذه الثقة كانت من جانب رفيقتها متسمة باليأس؛ فهي تحس أنها منذ ساعات كثيرة ترشد مسز ويكس إلى كثير من المعالم حتى أنها أبطأت نسبيًا في التنبه إلى أنها كانت في الوقت نفسه موضوعًا لغاية مماثلة ومع هذا مضت المسألة في طريقها بسرعة أشد منذ اللحظة التي فطنت فيها إلى ذلك. ثم أخذت المسألة موضعها في إطار نظرتها العامة المعتادة إلى الظاهرة الفردية بحيث لو أنها شعرت بالحاجة إلى ألفاظ تعبر عنها لاستنجدت بعلاقتها الشخصية لإسعاف معرفتها. ولم تكن هذه العلاقة قط بمثل هذه الحيوية كما كانت وقت انتظارها مع مربيتها العجوز لظهور السير كلود ثانية. وما جعلها كذلك هو بالضبط مسز ويكس بدت لها منطوية على ارتياب

جديد في ذلك. ولم تكن مسز ويكس بالتأكيد انطوت قط قبل الآن على ارتياب من شأنه أن يوقف تلميذتها على الرغم من الرابطة الحميمة في ساعات المغامرة هذه موقف الدفاع العميق. فكانت تلميذتها قد اكتشفت في الواقع مدهشات تضارع في كثرتها ما اكتشفته عند الاندفاع إلى فولكستون. ولئن كانت مسز ويكس هي المضمون الثابت الخفي في تلك المناسبة وهي في صحبة السير كلود، فالسير كلود في هذه الساعات -وعلى الأخص في فترات الصمت الطويل كلها- كان مدار التفكير الدائم الذي لا معدى عنه وإن كان كل شيء يرتد بهما إلى أولى أيام زواجه الباهرة وإلى المكان الذي احتله في حجرة الدراسة في تلك الأزمة بين الحب والألم، فهو دون غيره الذي نفخ الإحساس الذي كان يملأ فراغه حتى جعل منه بالوناً هائلاً.

استعرضنا هذا كله مرة أخرى. وفي أثناء الفترة التي جرها عبء سحر هذه الأشياء؛ مضتا على الرغم من العوائق والشكوك مجتازتين كل شيء. وكانت قبضتهما المتشددة على المستقبل تنبض كالساعة التي تدق الثواني. بيد أن هذه الآلة الزمنية كانت في الوقت نفسه على أحسن الفروض تؤدي لا محالة بساعة نحس في بعض الأحيان. وكان ثمة العديد منها، واثنان أو ثلاثة من أسوأها فوق سور المدينة القديم؛ حيث كان كل شيء آخر يؤدي إلى الأمن. ولم تكن ميزي تريد شيئاً في الدنيا أكثر من أن تكون لطيفة نحو مسز ويكس -لرغبة السير كلود؛ ولكن بالضبط لأن ذلك يوافق غريزتها الراسخة في حفظ الأمن والسلام فقد ألهب ذلك غريزتها تلك. ومنذ اللحظة التي ألهمت فيها غريزتها

وجدت عملاً آخر. وهكذا أحدثت من البداية التعقيد الذي سعت إلى تفاديه بالذات. وما فعلته بصفة أساسية في تلك الأيام هو أن تقرأ ما لم يقل بين طوايا ما قيل، بحيث إنها تبينت مع تراكم هذه القراءات أن ما لم يقل هو ولا مرء تمام تضحية مسز بيل. وقد غبرت أوقات كانت كل دقيقة يقضيها السير كلود بعيداً بمثابة مسمار في تابوت مسز بيل. وقد أعاد ذلك إلى ذهن ميزي بطريق ملتوية جمال وعراقة صلتها بزهرة آل أوفر مور كما أعاد إلى ذهنها لطف تلك السيدة وسحرها وجمالها الفريد وبراعتها بل ومحنها الفذة. وجعلت مئات الأشياء تطن في مؤخرة دماغها، إلا أن اثنين منها كانت من البساطة بمكان. فمسز بيل كانت بعد كل شيء زوجة أبيها وقريبتها. وهي أيضاً - وإلى حد ما لهذا السبب نفسه - أكبر صديقة حميمة للسير كلود («سيدة حميمة» على حسب تعبير ميزي) حتى ما أجمعتا عليه من نصيحة مسز ويكس بالتخلي عنها وقطع كل صلة بها قطعاً حاسماً ينصب في أحد الاعتبارين على صاحبة الخطوة الخاصة لديه وفي الاعتبار الآخر على زوجة أبيها. وقد واكب إدراكها للأسباب مواكبة عجيبة لا توصف إحساسها بالمصاعب، ولكن شيئاً في نفسها عجز - من غير جهد بالغ في ألا يكون زرياً - عن أخذ الأسباب مأخذ التسليم. وربما نمّ هذا بالنسبة لنا على أنها - وإن كانت محرومة من ميراثها الطبيعي معراة كما شهدناها - لم تزل تعتمل في حياتها إصداء التأثير الأبوي، فهي تذكر بعد درساً من الدروس المقدسة التي وعتها في البيت، بل إنه الدرس الوحيد الذي احتفظت به، ولقد احتفظت به لحسن الحظ بشدة، فلم يبرح أمام ناظرها تذكّار لا يمحى،

مؤداه أن أباه كان يدعو أمها وأن أمها كانت تدعو أباه بنعوت الدناءة
والوضاعة بسبب الإقدام على أشياء معينة أو عدم الإقدام عليها. وقد
أمدتها ذاكرتها الخصبة الآن بنعت كانت تفرق من استدعائه إلى شفتي
مسز بيل؛ إذ ينبغي عليها شخصياً أن تجفل من مجرد سماعه وقد أضافت
عذوبة الحياة الأجنبية التي انغمست فيها مع كل ساعة من ساعات غياب
السير كلود مزيداً من احتمالات مثل هذه القصص. وراحت ترقب إلى
جوار مسز ويكس تمثال العذراء الذهبي الهائل وامرأة من العجائز
المقرطات، كانت جالسة على طرف مقعدها، ثم نهضت وانصرفت
على مهل. وقالت العجوز في صوت مهذب متصدع شيئاً ما بالفرنسية:
- وداعاً أيتها السيدتان.

فبلغ من تأثير صديقتنا من هذه المبادأة أنهما وثبتا قائمتين وأوشكتا
أن تنحيا لها؛ ثم لم تلبثا طويلاً حتى هدأتا مرة أخرى وسط طنين
حشرات الصيف الفرنسية، واستولى عليهما ما يشبه الشرود المهوم حتى
إن ميري تراءى لها ما يعنيه أن يحول المرء بين هذا المنظر الجذاب وبين
إنسان مشارك فيه. ولم يكن قد بدا لها من قبل ما أدركته في تلك اللحظة
من ترامي منظر التماثيل اللامعة في زرقة السماء ورحابة المجاملات
المهذبة بأسلوب الرومانسي وأخيراً سألت:

- لماذا بعد كل شيء نختار بينكما؟ لماذا لا نكون أربعة؟

فأبدت ويكس اهتزازة النائم أوقف فجأة، أو إجماله من سمع
رصاصة تتر متجهة إلى علم الهدنة. وقد عاق ذهولها لخرق السلام على
هذه الصورة جوابها برهة:

- أربعة لا خلاق لهم. أهذا ما تعنين؟ فائتتان منا بالصدفة من أهل الاحتشام. فهل أفهم من هذا أنك تريدني أن أبقى معك حتى ولو كانت هذه المرأة تجترئ عليّ..؟

وأسرعت ميزي بالرد عليها قبل أن تتفوه بما ترى مسز بيل قمينة بالاجتراء عليه؛ فقالت الطفلة:

- نعم تبقين «معي» مرافقة لي. تبقين كما كنت في بيت ماما. و«ستسمح» لك بهذا مسز بيل.

فوثبت مسز ويكس عندئذ إلى أسلحتها الهجومية:

- وأحب أن أعرف مَنْ الذي يسمح لمسز بيل؟ أتعنين أيتها المنكودة الصغيرة إنكِ «أنتِ» التي تسمحين لها؟
- ولم لا وهي الآن حرة؟

- حرة؟ أتقليدينه؟ لئن كان السير كلود قد بلغ من العمر ما يوجب عليه تفكيراً أفضل من هذا؛ فإني أرى من الصواب لعمري أن أعاملِك كما لو كنت قد بلغت تلك المرحلة من العمر أيضاً. إن عليك أن تفكري خيراً من هذا التفكير على كل حال، إن كان هذا هو الاتجاه الذي تريدني السير فيه.

ولم يسبق لمسز ويكس أن أبدت مثل هذه الخشونة قط، ولكن ميزي استطاعت من جهة أخرى أن تحدث أنها شخصياً لم تبدُ قط من قبل مثل هذا النزق. وكان المعنى الكامن يخفيها أكثر مما يغضبها. فشعرت أن في استطاعتها أن تقوم بمزيد من الإلحاح لا على سبيل

المعارضة، بل في سبيل الحظوة بالهدوء الأقصى. ولكن نزقها ظل يفعل فعله في صديقتها التي وجدت في ترديد تلك الكلمة ما استفزها أعمق استفزاز:

- حرة؟ حرة؟ حرة؟ إن كانت حريتها مثل حريتك «أنت» يا عزيزتي فيه حرة بما فيها الكفاية قطعاً.

وبعد تفكير وعلى الرغم من نذر الشر التي قد تثار جازفت ميزي بهذا الصدى الموحى بالنقد.

- مثل حريتي أنا؟

فقالت مسز ويكس:

- حسناً. ما من إنسان كما تعلمين حر في ارتكاب جريمته.

- جريمة.

وكانت الكلمة قد صدرت بأسلوب جعل الطفلة تعيد لفظها.

- وإنك لترتكبين جريمة لا تقل جسامة عن جريمتها- وكذلك

أرتكبها أنا- إن نحن تجاوزنا عن انتهاكهما لحرمة الأخلاق بودنا معها.

وتريثت ميزي قليلاً فقد بدا هذا الكلام مفعم الإقناع. ومع ذلك

سألته بعد قليل:

- ولماذا هو انتهاء لحرمة الأخلاق؟

واستدارت إليها رفيقتها بتأنيب أرق؛ لأنه على نحو ما، أعمق:

- أنت لا سبيل للتفاهم معك. أتعرفين عن أي شيء تتحدث؟

وشعرت ميزي أنها يجب أن تكون واضحة قبل كل شيء حرصًا
على الهدوء الأقصى، فقالت:

- يقيئًا. نحن نتكلم عن اغتنامهما لحريتهما.

- حسنًا. ليعصنا ماذا؟

- طبعًا ليعيشا معنا.

وعندئذ ضحكت مسز ويكس ضحكة جامحة:

- «معنا»؟ أشكرُك.

- إذن فليعيشا معي «أنا».

فجعلت هذه الكلمات صديقتها تقفز هاتفة:

- أتتخلين عني؟ أتقطعين صلتك بي إلى الأبد؟ أتلقين بي إلى

عرض الطريق؟

ومع أن ميزي لهت قليلًا إلا أنها ثبتت لوابل الهجمات:

- هذا هو ما يخيّل إليّ إنك تصنعيه «بي».

واستهانت مسز ويكس ببسالتها:

- إني أعدك - أيًا كان ما أصنعه - أنني لن أدعك تغيبين عن نظري.

إنك تسأليني لماذا يكون ذلك انتهاكًا لحرمة الأخلاق، وأنتِ قد رأيتِ

بعيني رأسك أن السير كلود شعر بأن الأمر كذلك إلى الحد الفظيع

الذي جعله يؤثر أن يتعد عنك شهورًا طويلة ابتعادًا تامًا كي لا يجشمك

مواجهة ما في هذا الأمر من خزي؟ وهل أعثر من هذا أن تريبه وقد حاول

لأول مرة أن يقوم بواجبه بنفض يديه «منها»، ويأخذك بعيداً عنها رأساً؟
وقلّبت ميزي هذا الكلام في رأسها، رغبة في وزن الأمور لا عن
باعث للانقياد السهل:

- فهمت ما تعنين. ولكنهما في ذلك الحين لم يكونا حاصلين على
حريتهما.

- وشعر بأن مسز ويكس تحفزت للنهوض مرة أخرى عند سماع
هذا اللفظ الجارح لها، ولكنك أفلحت في لمسها بيد عاتبة.

- ولا أحسبك تعرفين إلى أي حد صاراً مالكين لحريتهما.

- بل أعرف ذلك فيما أعتقد قدر ما تعرفينه أنتِ على الأقل.

وشعرت ميزي بحرج بيد أنها تغلبت عليه:

- فيما يتعلق بالكونتيسة؟

فرمقتها مسز ويكس بنظرة جانبية حولاء أشبه بالنظر الشرر:

- المرأة التي.. أغوت أباك؟ تمام المعرفة. إنها تتفق عليه.

- أهي «تفعل» ذلك؟

وتجهم وجه الطفلة. فقد بدأ أن ذلك هو تعليل مسلك بابا وأنه يلقي
على هذا المسلك ضوءاً يشفع له. ونزعت إلى أن تكون منصفة فقالت:

- أنا لا أقول إنها ليست سخية. فقد كانت سخية معي.

- معكِ؟ كيف؟

- لقد أعطتني قدرًا كبيرًا من المال.

وحملت مسز ويكس وهي تقول:

- وماذا صنعت من فضلك بقدر كبير من المال؟

- أعطيته لمسز بيل.

- وماذا صنعت به مسز بيل.

- رده إليها.

فقال مسز ويكس:

- إلى الكونتيسة هراء؟

فهي إذن تنظر إلى هذه الذريعة كنظرة سوزان آش القاسية وردت عليها ميزي قائلة:

- لست أبالي. إن ما أعنيه أنك لا تعرفين شيئاً عن بقية المسألة.

- البقية؟ أي بقية؟

وتساءلت ميزي كيف تصور الأمر على أحسن وجه:

- استبقاني أبي هناك ساعة.

- أعرف هذا. فالسير كلود أخبرني به. وكانت مسز بيل قد أخبرته.

فأبدت ميزي عدم التصديق:

- كيف تسنى لها ذلك وأنا لم أحدثها به.

وبدا على مسز ويكس عدم الفهم:

- تحدثنيها بماذا؟

- طبعًا عن كونها مخيفة للغاية.
- فردت عليها مسز ويكس:
- الكونتيسة؟ إنها طبعًا مخيفة؟
- وبعد برهة أردفت:
- ولهذا السبب فهي تتفق عليه.
- وفكرت ميزي، ثم قالت:
- هذا خير ما فيها إذن. إن كانت تعطيه على نحو ما أعطتني «أنا».
- فقالت مسز ويكس:
- ولكن ذلك ليس خير ما فيه «هو»، أو لعله ما فيه أيضًا.
- واستطردت ميزي:
- ولكنها مروعة حقًا وصدقًا.
- واستوقفتها مسز ويكس قائلة:
- لا حاجة بك في الدخول في التفاصيل.
- وكان على خلاف هذا التحذير سؤالها إياها:
- وكيف يمكن لهذا أن يجعل الموقف أفضل؟
- فقالت ميزي بتعمق:
- أن يعيشا معي؟ ذلك طبعًا بسبب الكونتيسة وبسبب شاربها. لقد نحاني وألقى بي على كاهلها. لقد فهمت منه هذا.

فقال مسز ويكس:

- آمل إذن أن يكون قد فهمك. فذلك يجاوز ما أستطيعه.

وكان هذا تحديًا حقيقيًا لها أن تكون أكثر وضوحًا، وعلى الفور
صارت صديقتنا الصغيرة واضحة:

- أعني أن ذلك ليس جريمة.

- إذن لماذا سرقك السير كلود؟

فقررت ميزي بجرأة:

- إنه لم يسرقني. وإنما هو استعارني فحسب. وكنت أعرف أن
ذلك لن يكون لأمد طويل.

فصاحت مسز ويكس:

- يجب أن تسمح لي بالرد على هذا بأنك لم تكوني عارفة بشيء
من هذا القليل. وإنك تخليت بخسة عن تأييدي في الليلة الماضية في
حين أنك تظاهرت بكل شدة أنك تؤيدني، وكنت تأملين في الواقع كما
كنت آمل أنا بالضبط، بل وكما آمل الآن تحت تأثير عاطفتي الحمقاء،
أن ذلك قد يكون بداية وضع أفضل للأمور.

أجل كانت مسز ويكس في الحقيقة حادة اللهجة لأول مرة؛ بحيث
ثار أخيرًا في بطلتنا إحساس بأنها تتهمها على وجه التحديد بالخساسة
- أكثر مما تثبت عليها المراوغة - خساسة هدمت كل شيء على رأسها
عن طريق رغبتها في النأي بنفسها عن الموضوع. وأحست فجأة
بالاحتجاج يملأ جوانحها:

- إني لم أمل إطلاقاً - «إطلاقاً» - أن أرى مرة أخرى مسز بيل. لم أمل ذلك. لم آمله. لم آمله!

وظفرت مسز ويكس ملتفتة إليها برد شعرت هي أيضًا أنها يجب أن تسبق الصدمة التي سيحدثها، ومع أن السيدة الطيبة كانت معبأة حتى الحافلة، إلا أنها توقفت عن الكلام مدة كافية لتسمح بعبارة تزايد الطين بلة:

- إنها جميلة وأنا أحبها. أنا أحبها فهي جميلة.

وثبتت فيها مسز ويكس نظراتها برهة، وقالت:

- وأنا قبيحة الشكل وأنت تكرهيني. «أنا»؟

ثم بعد برهة من التحديق تداركت نفسها:

- لن أوجعك كل الإيجاع بأن أتهمك بذلك. وأما إنني قبيحة الشكل فهذه ليست أول مرة يقال لي فيها هذا. إني أعرف تمام المعرفة أنني وإن لم يكن لي شارب فالكونتسة فيما أحسب من وجوه كثيرة بمثابة فينوس بالقياس إليّ. إن كبريائي لا بد أن تبدو لك غير معقولة، وهذا معادل لقولك إنك لا تحبيني ولكل هل تنوين أن تذهبي إلى حد التصريح لي أنك «تريدين» أن تعيشي معهما في خطيئتهما؟

ف قالت ميري وهي ترتجف بعبراتها الطافرة:

- أنت تعرفين ما أريد. أنت تعرفين ما أريد.

فاستطردت مسز ويكس:

- نعم أعرفه. أنت تريدين مني أن أكون في مثل ردائك. حسنًا. لن

أكون كذلك. هاك إن مسز بيل في مثل رداءة أبيك.

فأوشكت تلميذتها أن تصرخ وهي ترد عليها:

- هذا غير صحيح. هذا غير صحيح.

فقالت مسز ويكس وهي تنهض الآن واقفة كاشفة عن تهكم كامن:

- أتعنين أن السير كلود لديه على الأقل الجمال والفكاهة والظرف؟

ولكنه يدفع كما تدفع الكونتيسة تمامًا.

فدفع هذا القول بميزي قائمة على قدميها. وكانت رفيقتها قد مشت

مبتعدة بضع خطوات ثم توقفت. ونظرت كل منهما إلى الأخرى كما لم

تنظرا من قبل. وبدت مسز ويكس مزهوة في وقفها هناك كالطاووس

في زينتها وزخرفها. فسألته ربيبتها المنكودة:

- أليس يدفع لك «أنت» أيضًا إذن؟

وعندئذ وثبت في موضعها وصاحت بإعواله عنيفة:

- أيتها الشريرة الصغيرة الرعناء.

وبعدها انطلقت منصرفة على الفور في انتفاضة أخرى.

وتهاوت ميزي فوق المقعد، وانفجرت باكية.



الفصل السادس والعشرون^(١)

ما من شيء بهذه الفظاعة بطبيعة الحال يمكن أن يدوم نهائياً، بل ولا يمكن أن يستمر دقائق طويلة: فقد اندفعت كل منهما مرة أخرى نحو صاحبتهما بأسرع مما أتاح لأي منهما أن تشعرها أن الأخرى ظلت على موقفها. ومع أنهما عادتا إلى البيت في صمت إلا أن ميزي أحست إحساساً متوقداً بأن يد رفيقتها كانت مطبقة عليها. وكانت هذه اليد قد أظهرت في هذه الساعات الأربع والعشرين كفاءة جديدة في الأطباق. وإحدى الحقائق التي كانت قدرة الطفلة على مقاومتها أقل ما يمكن هي أن لوناً معيناً من العظمة قد هبط الآن على مسز ويكس، فالواقع أن سمو دوافعها أربى على حدة زواياها؛ وقد استطاعت ميزي عندما استخدمت العربدة بعد الظهر أن تغنم الصمت المتأمل الذي أدخلت إليه عظمة اجتماع هاتين الخاصتين وغرابتهما؛ كي تستشعرهما إلى أقصى حد في حرية. وكانت لم تزل تحمل أثر اللهجة التي توعدها بها صاحبتهما

(١) بعض عبارات النص الإنجليزي في هذا الفصل أشد غموضاً من المألوف حتى عند هذا المؤلف ذي الأسلوب الوعر، قد نقلناها على حالها إثارة للأمانة. «المترجم».

ألا تدعها تغيب عن نظرها. فهذه الصديقة إذنٌ قد انقلبت باختصار من الضعف إلى القوة، فكان ضوء سلطتها الجديدة هو الذي أظهر من أي مدى بعيد جاءت. وكان التهديد المذكور من الممكن أن يحدث باعتزازه الصارم نوعاً من التحدي، ولكن قبل أن يحدث شيء بهذه البشاعة قطع الطريق عليه حدث آخر ختلاً. وكانت اللحظة التي بدأ فيها ذلك الحدث ينضج هي لحظة انفجار مسز ويكس بوقار يتناسب مع حجراتهما الخاصة ومع مزية اكتسبتها الآن بصورة لها اعتبارها. وكانت قد أمرتا بالقهوة بعد الغداء وفق الترتيب الذي وضعه السير كلود. فقدمت إليهما وهما جالستان في انتظار تجهيز عربتهما في الصالون ذي اللونين الأبيض والذهبي. وكانت القهوة مردفة بكأسين من الليكير^(١). وشعرت ميزي أن السير كلود ما كان ليربي على هذا في الوفاء بوعده لو أن القهوة أعقبتها النوادر والسجائر. لقد كان تأثير هذه الكماليات موجود في الجو على كل حال. وخيل إليها وهي تمشي على أطراف أصابعها نحو مرآة المدفأة مشغولة بارتداء قفازها وبحركة من رأسها أعادت ريشة إلى موضعها، أن لذلك صلة ما بقول مسز ويكس فجأة:

– أليس لديك حقاً وصدقاً «أَيما» حاسة أخلاقية؟

وفطنت ميزي إلى أن جوابها – وإن كان قد أقامها على عقبيها – كان غامضاً إلى حد البلاهة، وأن هذه أول مرة تمارس إزاء مسز ويكس عدم الاستعداد الذهني للتلاقي معها، وهو تلك النقيصة التي دانت لها بالنجاح الكبير إزاء بابا وماما. وكان المظهر في صفها؛ لأن هذه الفكرة

(١) مشروب كحولي حلو المذاق. «المرجم».

المتعلقة بالإحساس الخلقي لم تلون محادثتهما بصفة أساسية بعد ذلك عن طريق ضغط رفيقتها في اللعب، بقدر ما حدث ذلك عن طريق صراحتها. فشرعت الطفلة المسكينة (في خطتها) وهي لا تكاد تدري ما الأمر، ولكن ذلك أثبت شيئاً استطاعت -من غير أن تظهر أي أماره خارجية سوى استسلامها لاهتزاز العربة- أن تتعرف إليه على نحو ما قبل عودتهما من نزهتهما. إن جمال اليوم قد ازداد وكذلك روعة البحر بعد الظهر والضباب الذي يغلف الرؤوس^(١) ومذاق الهواء العذب. وكان الحوذي هو الذي استدار في موضعه باسمًا مقررًا بسوطه ومشيرًا إلى أشياء خفية عن الأنظار ومتفوهًا بأصوات غير مفهومة تعرف سائحتانا فيها ملامح صارمة من نظام اجتماعي مرتبط باللغة، أقول إن هذا الشخص المهذب هو الذي جعل رحلتها أقصر من المأمول بكثير، بحيث تركت لهما عودتهما المبكرة فسحة باقية من ضوء النهار الطويل وساعة قضتها بناء على اقتراحه الصادر عن روح المجاملة سائرتين على الأقدام على الرمال الساطعة. وكانت ميري قد شاهدت الشاطئ في اليوم السابق مع السير كلود؛ فكان ذلك سبباً أدعى لأن تظهر لمسز ويكس على الفور أن هذا الشاطئ -على حد قولها- من المواضع المسجلة في قائمتها، وأنه من الأشياء التي تعرف أسماءها الفرنسية، وكان المستحمون في هذا الوقت المتأخر قد انصرفوا والمد منخفض والبرك المتخلفة عن ماء البحر تتلألأ في ضوء الأصيل. وكانت ثمة مواضع جافة أيضاً استطاعت أن تجلسا فيها مرة أخرى للإعجاب

(١) جمع رأس، وهي جزء من الأرض ناتئ وممتد وسط البحر. «الترجم».

والإطناب: فكانت هذه مناسبة زودت مسز ويكس وهما تنصتان لخفق الأمواج بسند جديد لهجومها:

- أليس لديك شيء منه على الإطلاق؟

ولم تكن بها الآن حاجة فيما يتعلق بالسؤال نفسه على الأقل إلى التصريح. ولكن من جهة أخرى كانت النتيجة المرتقبة لإدراكهما المشترك للشيء الذي - ما دام لا بد لهما من مواجهته - لم تحصل منه ميزي إطلاقاً على أقل القليل بصورة تثير الارتياح^(١). وبهذا تميزت بمزيد من الدقة لحظة إدراك الطفلة لارتفاع صديقتها إلى مستوى يكاد يعتبر سامياً إلى أن ينسخ هذا المستوى ناسخ في أي حال من الأحوال، ولم يكن شيء أظهر من ذلك قد حدث في حرارة رحيلها الأولى ولا إحساس يمكن تتبعه بوسيلتها الخشنة أقل من تصورها بقية ذلك اليوم في بولوني للأسلوب الذي بدت به. وأنا يائس من تتبع خطواتها الذهنية الصامته هنا بحيث إنني لا بد أن أقطع لك عهداً على نفسي بأن هذه الخطوات ستكون منذ الآن صورة حاضرة أمام ذهنها حرفياً. ورأت فيها مسز ويكس مخلوقة صغيرة تعرف الكثير إلى حد خارق حتى إنها إذا أدخلت ذلك في حسابها ستجد أن ما لم تعرفه بعد سيكون سخيلاً إن لم يكن محرّجاً. وكانت مسز ويكس في الحقيقة أقدر على مواجهة الحرج من أي وقت مضى ولست واثقاً أن ميزي لم يكن لديها تمييز ولو ضعيف لقانون حياتها الغريب الذي جعلها تعلم إلى هذا الحد من الكفاية من هم أكبر منها سنّاً ممن يعينها أمرهم. لقد أحدثت تقدماً في

(١) يعني بهذا الشيء الإحساس الخلقي. «المترجم».

تطورهم. فليس أكثر استلفاً للنظر مثلاً من نجاحها في التعجيل بتطور مسز بيل. ورأت أنه إذا كان تاريخها كله في نظر مسز ويكس إنما هو المراحل المتعاقبة لمعرفة؛ فإن ذروة التسلسل لا بد من وجهة النظر هذه أن تكون المرحلة التي تصل فيها معرفتها إلى درجة الفيضان. وما دام قد كتب عليها أن تعرف المزيد باستمرار، فكيف يمكن منطقياً أن تتوقف قبل المعرفة القصوى؟ لقد خطر لها في الواقع وهما جالستان هناك على الرمال أنها في طريقها الآن إلى معرفة «كل شيء». فلم تكن لها المربيات عبثاً: وماذا فعلت في دنياها سوى أنها كانت تتعلم وتتعلم وتتعلم؟ ونظرت إلى السماء القرمزية في إحساس هادئ بأنها عن قريب ستكون قد عرفت «كل شيء». ولبتنا متوانيتين في الجو المتوهج إلى أن تحول إلى اللون الرمادي، وبدا لها أنها تتلقى تعليمات جديدة من كل هبة نسيم. فلما حان لهما أن تيمما شطر البيت، فكأنما هذا التحرك أمسى بالنسبة لمسز ويكس خيطاً طويلاً متيناً فتلتد يد عصبية، وفي هذا الخيط لا بد أن تنضد لآلى الفهم الثمينة.

وفي المساء في الطبقة العليا اتتا بهما إحساس غريب، ولن تستطيع ميزي فيما بعد أن تقول لك هل جاءت الضربة في الوسط أو في البداية تماماً عندما ضربت رفيقتها بالحاح جديد على نغمة الإحساس الخلقى. فالمهم أنها صاحت مرة أخرى كما حدث في المرة الأولى من غير ترابط.

– كان الله في عوني. يبدو أن الأمر بدأ ينكشف.

ويا لها من مشاعر مختلطة غريبة تلك التي أغرتها في النهاية بمثل

هذا الكشف! ولم يكن ذلك في مثل غرابة ألفاظ الويل، بل ويمكن أن يقال بصدق أنها ألفاظ غضب مستشاط تلك التي ناحت بها السيدة المسكينة على الخاتمة الفاجعة التي آل إليها جهلها المطبق. وفي لحظة من اللحظات أمسكت بالطفلة وضمتها إلى صدرها بعنف كما كانت تفعل في أيام الفراق والعودة الخوالي؛ لأنها كانت حائرة بشكل واضح لا تدري كيف تعوض مثل هذه الضحية عن التعرض لمثل هذه الضحية عن التعرض لمثل هذه العدوى. وفي اضطراب وتبرير وضراعة ناشدتها الطمأنينة والصفح بل والثناء في صدد ما فعلته وما ستفعله.

- أنا لا أدري ماذا قلت لك يا حبيبي: أنا لا أدري ما أقول أو ما جعلني التغيير الذي أدخلته على حياتي -وليسامحني الله- أقدم على قوله. هل فقدت كل كياسة ولياقة وكل تقدير للحدود؟ يخيل إليّ أنني فقدت هذا كله وإن كنت آخر ما تظنين به ذلك. لقد أقدمت على ذلك من أجلك «أنت» يا غالية. حتى لا أفقدك. ففقدك أسوأ ما يمكن أن أُمْنَى به، ولذا تحتم عليّ أن أدفع الثمن من براءتي -وإن كان هذا يُضحك!- كي أتشبث بك وأحتفظ بك. فلا تدعيني أدفع الثمن في نظير لا شيء. لا تدعيني أحس أنه قد رُجَّ بي في مقابل لا شيء في حمأة هذه الولايات والمخزيات. إني ما عرفت من قبل شيئاً عنها ولا أردت يوماً أن أعرف. أما الآن فأعرف أكثر مما ينبغي أكثر منه بكثير.

- إني أعرف الكثير الآن حتى إني إذا أسمع مثل هذا القول أسأل نفسي أين أنا. وإذ أتفوه به أيضاً -وهو أسوأ- أقول لنفسي شد ما بعدت وأمعنت في الابتعاد عن بداية مطافي! أسأل نفسي ماذا كنت أفكر لو

أنني سمعت نفسي أتجاوز مع فقيدتي حد اللياقة. لقد تجاوزت معكِ حدودًا كان ينبغي أن أتوهم عندها أنني وصلت إلى نقطة حرجة.

ولهت لمجرد ورود هذا الخاطر:

- لقد انزلت من أمر إلى آخر، إكرامًا لحبي الحقيقي لك. والآن ماذا عسي أن يقول أي امرئ - أعني أي امرئ سواهما - إن سمع بما يجري؟ لقد كان عليّ أن ألزم جانبك. أليس كذلك؟ إذن ماذا كان في وسعي سوى أن أتوقع منك أن تلزمي جانبي؟ ولكنكما ليسا أسوأ الجميع - وأعني بهذا أنه «هو» ليس الأسوأ - فأبوك الوضع المسف في وضاعته هو والمخلوقة الوحيدة في الدنيا التي كان عسيًا أن يجدها فيما أعتقد - وليس هي الكونتيسة يا عزيزتي - أسوأ منه. وما داما بصدد إفسادك على كل حال، فقد كان في وسعهما أن يحققا هذا بحيث يبقيا على امرأة شريفة. وعندئذ ما كان يتحتم عليّ أن أقدم على أسوأ ما في الوجود؛ إلا وهو أن أقذف إليك بالرجس الذي لم تدري كنهه؛ وأن أجد فرصتي في الخسة التي أدركت معناها: أما ما فرغ صبري بسببه هذا الصباح؛ فهو أنك وإن لم بيد عليك أنك تدفعين ما يفعلان - فأنت لم تدمعني فعلهما كما تذكرين! - إلا أنه بدا عليك أنك «تعرفين». وإني لأحمد الله جلّت رحمته إن كنت في النهاية قد وصلت.

وكان الليل في ذلك الوقت دافئًا وإحدى النوافذ مفتوحة على الشرفة الصغيرة التي كانت ميزي قد تلبثت وقتًا طويلاً عند سياجها وهي صاعدة من مائدة العشاء لتستمتع بالثرثرة والأضواء وحياة المرسى التي زاد لألّاؤها في هذا الأوان وتلك الساعة. وكانت احتياجات مسز ويكس

قد جرتها إلى الداخل بعيداً عن هذه الوقفة. وكان عناق مسز ويكس لها قد استبقاها، مع أن اضطرابها وتعاطفها سمحا لها أو على الأصح أعانها بالفعل على تخليص نفسها وهي في معمعان ذلك التدفق، بيد أن إطار النافذة كان لم يزل واسعاً، والمشهد والسرور به لم يزالا ماثلين. ومن موضعها في الحجرة التي كانت مضاءة -بما فيها من أرضية لامعة وألواح أنيقة- من الخارج أكثر مما هي مضيئة من الداخل. استطاعت الطفلة أن تتملأها، وبدا عليها أنها ترقب وتصغي. ثم بعد ذلك ردت على مسز ويكس بسؤال:

- إن كنت قد وصلت إلى المعرفة؟

- إن كنت قد وصلت إلى الدمغ.

وجاءها هذا التصويب في شيء من الخشونة. فنجم عن ذلك أن زفرت ميزي زفرة عنت غامضة، وبعد لحظة -وكأنما هي تحت ستار هذا الإبهام- دلفت مرة أخرى إلى الشرفة وأطلت من فوق السياج، فأحست بالليل الصائف واستغرقت بأفكارها في الأساليب الفرنسية، وكانت تحت الفندق مقهى جلس الناس أمامها إلى كراسٍ ومناضد صغيرة فوق رحبة تحوطها نباتات في براميل، وزاد من وقع المنظر وميض مراول السقاة البيضاء والموسيقى التي يعزفها رجل وامرأة وقفا وراء النطاق وراحا يبعثان برنين قيثارة وبألفاظ أغنية تتشدد بالحب. وكانت ميزي تعرف أيضاً ما تعنيه كلمة الحب بالفرنسية. وتساءلت إن كانت مسز ويكس تعرف معناها أيضاً. وكانت مسز ويكس قد لبثت بالداخل ساكنة سكون الجرد، ولعل أصوات العزف والغناء لم تصل

إليها. وبعد برهة -ولم يكن ذلك إلا بعد أن كف الموسيقيان وشرعا بالطواف بصحفة صغيرة -عادت تلميذتها إليها وسألتها ميزي عندئذ:

- أهي جريمة؟

وكانت مسز ويكس حاسمة كأنما كانت رابضة في عرين:

- وصمها الكتاب المقدس.

- حسنًا. إنه ما كان ليقترف جريمة.

فنظرت إليها مسز ويكس بوجوم:

- بل إنه يقترف الآن جريمة.

- الآن؟

- بوجوده معها.

وكان على طرف لسان ميزي أن ترد عليها مرة أخرى:

- ولكنه الآن حر.

بيد أنها تذكرت في الوقت أن من الأمور التي عرفتتها في الساعة الأخيرة بأسرها أن هذا ليس ذا بال. وبعد ذلك -وكأنما لتتجه في السبيل السوي- كانت على وشك أن تندفع أعمى فترتد عن ضعف إلى التذكير بأن قد يغير الوضع ويخفف من جريمة مسز بيل، إلى أن نسخ هذا الخاطر أيضًا ظهور علائم الغم على وجه مسز ويكس؛ نتيجة لاستخلاصها من سحنة تلميذتها أنها بعد كل هذا العناء في تفهيمها لم تفهم تلميذتها بعد المسألة فهمًا كافيًا. ولم تبلغ رغبة ميزي في الفهم في أي وقت غاية مداها إلا حين جوبهت. وظل تفكيرها كله مدة دقيقة

مركزاً في المجهود الذي يتمخض عن شيء يدحض سذاجتها. وأخيراً قالت:

- كل ما أطلبه منك أن «تثقي» بي يا عزيزتي!

ولعلها كانت علامة طيبة على تصرفها هذا أن مسز ويكس أخذتها إلى فراشها وهي تصعد أنة طويلة لا هدف لها.

ولم يصل في الصباح التالي خطاب من السير كلود، الأمر الذي صرحت مسز ويكس أنها تعتبره أسوأ نذير سوء. ومع هذا ذهبتا للتجوال مرة أخرى صاعدتي التل إلى التحصينات بدلاً من الغوص في الملهيّات بين زحام الناس فوق الرمال أو في البحر بين المستحمين أنصاف العراة التماساً منهما للصحبة الهادئة التي كانا يظفران بها معه، وذلك بعد أن تناولتا القهوة والفطائر الملفوفة التي زادت من انغماسها في العادات الأجنبية، ومما ترتب عليه المضى في مسحوبات جديدة على حسابه. وحدقتا مرة أخرى في عذرئهما المذهبة وغاصتا مرة أخرى في مقعدهما العتيق، وشعرتا مرة أخرى بالبون الذي يفصلهما عن ريجنت بارك. وأخيراً وصلت مسز ويكس إلى رأي قاطع حول صمت صديقهما:

- إنه خائف منها! لقد حرمت عليه الكتابة.

وكانت ميزي على علم سابق بحقيقة خوفه. بيد أن إشارة رفيقتها إلى ذلك كانت لها نتيجتان غير متوقعتين في هذه اللحظة. أولاهما تساؤلها في احتجاج صامت كيف يتسنى لمسز ويكس على ما تكنه من ولاء لا يقل بعد كل شيء عن ولائها شخصياً أن تضمن مثل هذا التلميح مثل هذه

البوادر الدالة على الزاوية. والأخرى أنها ألقت نفسها تستغرق فجأة في تصور أعمق لهذه الحقيقة. فهي أيضًا كانت خائفة كما رأينا من الأشخاص الذين يخافهم السير كلود. وبمقتضى هذا القانون حصلت على نصيبتها الكامل من التوجس الأخير من مسز بيل. وما حدث الآن أنه في حين بدا هذا التعاطف عقيمًا بالنسبة له تجسم أساسه بصورة غامضة من حيث هو باعث على الفرع الأناني. ولم يحملها هذا القلق إلى بعيد قبل أن تتكلم مسز ويكس مرة أخرى وبجفاف شديد كاد يبدو في غير موضعه:

- ألم يطرأ عليك إطلاقًا أن تشعرى بالغيرة منها؟

ولم يكن ذلك طرأ عليها إطلاقًا. ومع هذا فما إن فاهت بهذه الكلمات، حتى تعلقت ميزي بأهدابها وراحت تقلبها وتفتحصها بإمعان، وأخيرًا قالت بيقين لم يكن هناك للأسف من يعجب به سواها:

- حسنًا. بلى. ما دمت قد سألتني.

وتروت قليلًا ثم أردفت:

- مرارًا كثيرًا!

ونظرت إليها مسز ويكس شزرًا لحظة. فمثل هذا الإقرار الذي نمت عنه نظرتها لم يكن خاليًا من اللون تمام الخلو. فنظرتها كانت تصبو على كل حال عن شيء لعله ذو صلة بقولها مرة أخرى:

- نعم. إنه خائف منها.

وسمعت ميزي هذه العبارة، وكان لها تأثيرها عليها من جديد من خلال غشاوة الانتباه التي صار يتطلبها الآن إمكان وجود فكرة الغيرة

تلك، وهو إيمان لم يخلقه سوى إحساسها بأنها وجدت فيه السبيل لإظهار أنها غير ساذجة. وقد كشفت لدى مسز ويكس ما يدل على أن تلك السيدة لم تزل تعتقد أن إحساسها الخلقي متحيز أو مموه. فماذا عسى أن يكون الدليل على إخلاصها سوى لمحة من أشد انفعالاتها بعداً عن الاستقرار؟ إن كشفاً من هذا القبيل حريٌّ أن يحبط ثبوت الهمة. وثبوت الهمة كان في الواقع قد أحبط، حتى إن الحلقة الحقيقية التي سادت صباحهما - وقد ساعد عليها إلى حد ما اشتداد حاجتهما إلى الأمل، ذلك الاشتداد الذي نبع بطبيعته من الوعيد المدلهم الذي استشعراه لعدم ورود الخطاب - لم تصلا إليه بالاستشفاف المتبادل بل بالصرامة التي لم يسبق لها مثيل. أجل كانت هناك إطراقات تفكير وصمت، واستغرقت ميري إلى مدى أعظم في تصور نفسها في نظر صديقتها سطحية على أحسن الفروض، وأنها في الحقيقة أيضاً تزدد سطحية في نظرها كلما حاولت أن تبدو متمرسة. فهل قصارى كل معرفة أن تدرك ضالة المدى الذي يمكن أن تصل إليه في هذا المقام، وقد ضاع جواب هذا السؤال لحسن الحظ في غمرة الإشراق الذي شمل المشهد بمجرد أن أُلقت ميري في شأن مسز بيل ملحوظة لم تكن تحلم أنها ستعيش إلى أن تدلي بها:

- لو خطر لي أنها غير رفيقة بي.. لست أدري ماذا عساي صانعة بها!

فدحرجت إليها مسز ويكس إحدى نظراتها الحولاء الشزراء، ثم أيدتها بزمجرة ضارية:

- أما «أنا» فأعرف ماذا عسيت أن أفعل!

فأحست ميزي عندئذ أنها تقاعست؛ فقالت:

- حسنًا. أستطيع أن أفكر في شيء «واحد» أصنعه بها.

فتحدثتها مسز ويكس بطريقة أصرح:

- وأي شيء هو إذن؟

فواجهت ميزي طلعتها وكأنها لعبة «عيني في عينك» وقالت:

- أقتلها!

آملة على الأقل وهي تشيح بنظرها أن ذلك سينهض ضمناً لإحساسها الخلقي. لقد أشاحت بنظرها، ولكن رفيقتها لم تقل شيئاً، واستمر صمتها طويلاً، حتى إنها في النهاية حولت رأسها إليها مرة أخرى، فإذا بها ترى المثبتات وقد غشتها العبرات التي بدا بعد برهة سيرة أنها طفرت من عينيها شخصياً. وكانت ثمة في الواقع دموع على جانبي المنظار، وبلغ من غزارة هذه الدموع أن أقصى ما استطاعت ميزي أن تتبينه من خلالها أن مسز ويكس مدت في النهاية ببطء يدها، فكان هذا الضغط المادي هو الذي حسم هذا الأمر وحسم أيضاً -بعد بضع دقائق- أشياء أخرى كذلك. حسم بطريقته الخاصة شيئاً معيناً مع أنه كثيراً ما كان -علم الله- يحوم حولهما ويرين فوقهما، إلا أنه بقي عليهما أن تبتا فيه من غير ظل من ابتسامة ملطفة. فلم تكن هناك أدنى بارقة من الخفة، ولا فكاهاة ولا استغفار طيلة الوقت الذي قضاه معاً جالستين، أو في الطريقة التي بها غدت مسز ويكس -في بعض

المواقف غير المتزنة - واضحة الصوت بما فيه الكفاية بالنسبة لوقارها،
وفي الوقت نفسه غير مرتفعة الصوت بما فيها الكفاية بالنسبة للنسوة
العجائز المهمومات:

- إني أعبد. إني أعبد.

وأحسنت ميزي تفهم هذه العبارة، حتى إنها بعد لحظة أخرى كانت
حرية أن تجيها بحرارة:

- وكذلك أنا.

ولكن قبل انقضاء تلك اللحظة، حدث شيء دفع إلى شفيتها
بكلمات أخرى، ولم يكن ذلك الشيء الذي حدث يعدو أن يكون أكبر
الظن إحساسها الأعماق بمغزى وجود يد مسز ويكس في يدها. فقد
ظلت يدهما متوشجتين في إعراب عن ارتباطهما يعجز اللسان عن
تبيانه. فكان ما قالته ميزي آخر الأمر ببساطة وصفاء:

- أعرف هذا!

كانت يدهما متوشجتين وارتباطهما وثيقاً، حتى إن ردهما إلى
الإحساس بالساعات والمواضعات تطلب وصول رنات ناقوس عميقة
بعيدة حملتها إليها ريح الصيف، وكانت قد وصلت إلى القاع ونابتاً معاً،
بيد أنهما انتفضتا أخيراً: بالناقوس وهو صوت النزل والنزل هو صورة
الغذاء. ستأخران عنه إذن. ونهضتا فكانت خطواتهما المتعجلة عند
العودة تحمل شيئاً من طابع الثقة في اهتزازاتها. ووصلتا إلى الفندق فإذا
بالمائدة العامة قد بدأت، وكان ذلك واضحاً منذ وطئت العتبة من خلو

البهو والسلالم من «المستخدمين» -على حد قول مسز ويكس. وكانت قد التقطت ذلك اللفظ الفرنسي- الذين اجتمعوا في قاعة الطعام. وصعدتا إلى حجراتهما لتصلحا من شأنهما أمام المرأة. وكانت ميري أثناء مرورهما قد دفعت صادرة في ذلك عن نزوة فارغة الباب الأبيض والذهبي فانفتح. وبهذا كانت أول من تفوهت بالصوت الذي جاء بمسز ويكس فوق رأسها تقريباً، مثلما كان من الممكن لو حدث العكس أن تأتي بها هذه الصرخة فوق رأس مسز ويكس. وكانت النتيجة على كل حال أنهما وقفتا متشابكتين معاً في حملقة متوترة صوب وضعهما الجديد. وكان هذه الوضع قد اتخذ في ومضة واحدة صورة مسز بيل الوضأة: فقد وقفت هناك بقبعتها وسترتها بين مجموعة من الحقائق والشيلاء، باسمه مادة ذراعيها. فلئن كانت قد وصلت لتوها، فمنظرها يختلف عن كل من السحتين اللتين لفظهما قنال المانش أخيراً - فاعتبرا ذلك من حسن طالعهما- شاحبتي اللون مترنحتين قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. فقد كانت حسناء كحسن النهار الذي أطلعها، ناضرة كنضرة الحظ والصحة اللذين يحفان بها: فخطر لميري على الفور أنها الآن أجمل مما كانت في أي وقت مضى. وكان ذلك كله أسرع من أن يحيط به الوعي، ولكن كانت ثمة فسحة من الوقت نبهت الطفلة إلى السبب الذي أذكى ذلك الإشراق؛ لأنه كان ينبثق من ذراعيها المفتوحتين وعينيها المفتوحتين وفمها المفتوح، بل وانبثق مع صيحة مسز بيل العالية صوبها:

- أنا حرة. أنا حرة!

الفصل السابع والعشرون

وكانت عجيبة العجائب الطريقة التي وجهت بها مسز بيل إعلانهما هذا - في حدود ما يمكن الحكم به - على قدم المساواة إلى مسز ويكس التي تهاوت فوق مقعد - كأنما خارت قواها فجأة - في حين استسلمت ميزي لعناق الزائرة. وما إن تحررت الطفلة من هذا العناق، حتى واجهت ذهول مسز ويكس بعمق، واستطاعت بالفعل أن تتبين أنها وإن كانت في حالة تدعم ذلك اللقاء إلا أن وجهها بدا وكأنه يهيب بها في عمق:

- أناشدك الله ألا تنعقي الآن «لقد قلت لك هذا»!

وأحست ميزي على الفور بانعدام الميل إلى النعيق. ولم يقتض منها سوى دقيقة أخرى كي تصل من استعراضها السريع للأشياء المحيطة بمسز بيل إلى أنه ليس من بينها شيء من أمتعة السير كلود. فهي تعرف الآن حقيقة ثيابه - معرفة كلها إعزاز! -، ومرت لحظة كان فيها لغياب هذه الحقيقة وقع أسوأ الأنباء. ولم تكن قد تعلمت بعد ما التعرف في بعض ثغرات التسلسل على ما يؤذن بالتلاشي، فظلت غير مدركة أن هذه اللذعة الوقتية هي إرهاب السابق على تجربة الموت. وسرعان ما انقادت هذه اللذعة لإشراق مسز بيل، وتصدت في مناشدتها إياها على الفور:

- هل جئت وحدك؟

ومن العجيب أن مسز بيل بدت أشد إشراقاً وهي تجيب:

- من دون السير كلود؟ أجل، تلهفًا مني على الوصول إليك؛ أيتها
الوعدة الصغيرة البغيضة.

ورببت زوجة أبيها وهي تضحك ضحكة صافية على خدها تربيتا
كان من بعض نواحيه قرصة. واستطردت:

- ما هذا الذي فعلتِ وماذا ظننت بي؟ ولكنني سعيدة بالوجود في
الخارج. وأنت التي دللتني بعد كل شيء على الطريق. وما كنتِ لولاكِ
لآتي. أعني لآتي بهذه السرعة. هأنذا على كل حال ولو تأخرت لحظة
أخرى لبدا القلق يساورني عليك. إن المكان وافٍ بالمرام جدًّا..

وكانت حفية بالمكان الذي تنزلان فيه، بل إنها أردفت بعد ذلك أنه
بديع ثم عادت للكلام في مسألتها الرئيسة بمزيد من التوهج الوردي:

- إني حرة. إني حرة!

فعادت ميزي من جانبها إلى مسألتها الرئيسة الخاصة بها، فرجعت
طرفها صوب مسز ويكس التي بقيت على دهشتها الحائرة، ووجهت
انتباه صديقتها من جديد إلى الطريقة المتعالية التي تجاهلت بها هذا
القول، أما ما عنت به نفسها في الدقيقة التالية فهو موضوع السير كلود:

- وأين هو؟ أليس مزمعاً أن يأتي؟

وتأرجح تفكير مسز بيل وهي باسمه بين قطبي الترقب عن جانبيها،
وكان بادياً للعيان بصورة خارقة للمألوف أنها تتقبل وجود مسز ويكس

بلا تردد، وهي معجزة، شرعت ميزي منذ الآن تقرأ صداها منعكسًا على وجه تلك السيدة الطويل. وقالت مسز بيل بمرح:

- إنه سيأتي، ولكننا يجب أن «نجعله» يأتي!

فرددت ميزي قولها كرجع الصدى:

- نجعله؟

- يجب أن نسمح له ببعض الوقت، ويجب أن نلعب أوراقنا بمهارة.

فأجابتها ميزي:

- ولكنه وعدنا وعدًا مغلفًا.

- وهو يا طفلي العزيزة وعدني وعودًا مغلفة. أعني وعدني بأمور كثيرة جدًا، ولم يكن يفي في جميع الأحوال بوعده وفاء حرفيًا.

وأصر صفاء مزاج مسز بيل على أن يأخذ صفاء مزاج مسز ويكس مأخذ التسليم التي غدا اهتمامها بها سخيًا بصورة فجائية، واستطردت قائلة:

- وأحسبه فعل معكما مثل ذلك، فلم ينجز على الدوام وعده في حينه، بيد أنه يعرض هذا كله على طريقته الخاصة، ولسنا على كل حال نجعل بالضبط أي امرئ هو. فثمة صفة له تجعل المسألة كلها بالنسبة لنا مسألة كياسة.

ولم يكد يتسع لهما الوقت للتساؤل عن مؤدي هذه الصفة؛ لأنها -على حد ما كانتا حريتين أن تقولوا- طالعتهما رأسًا:

- إنه حر مثلي تمامًا!

فقال ميري كمن وزن قيمة هذا مستقلة برأيها:

- نعم أعرف هذا.

بل إنها في الواقع وزنت أيضًا غرابة اعتبار زوجة أبيها لهذا القول وكأنه نبأ جديد بالنسبة «لها»، وهي أول من نفّض إليه السير كلود هذا الخبر. وقضت بضع ثوان في صحبته من جديد - وكان صوت إفضائه إليها به يرن في أذنيها - وقد ارتدت بها الذكرى إلى ساعة الغسق في حديقة الفندق في فولكستون.

وحدثت أن كل ما غفلت عنه مسز بيل ليس إلا أثرًا لإسرافها في العبور، وميلها إلى التحليق لذلك السبب ميرًا ظهر عليها حتى حين هبطت - من غير هدف - إلى مستوى المسارة تقريبًا:

- ليس أمامنا إذن سوى الانتظار. ولن يستغني عنا أمداً طويلاً. أنا موقنة يا مسز ويكس إنه لا يستطيع العيش من دونك «أنت»! فهو متعلق بك، وقد حدثني بالشيء الكثير عنك. أما المدى الذي أعتمد فيه عليك، أعني أعتمد عليك في معاونتي..!

وكان ذلك المدى بحيث عجز كل ما فيها من إشراق عن التعبير عنه. وما آد إشراقها التعبير عنه وما وسعه جعلاً - على كل حال - وجودها بل وحريتها العتيدة يزدادان في كل حالة تجسماً. وكانت هذه الجسامة هي التي أدت برفيقتيها المشدوهتين المبلبلتين إلى تبادل إشارات عقيمة مختلطة وكأنما يفصل بينهما قناع كثيف. وتضامنتا

معاً على الأقل على أساس مشترك من عدم التأهب للموقف. وراقبت
مبزي بعدم ارتياح ما اجتاحت مسز ويكس من الدهشة، وقد ردها ذلك
إلى العجز المطبق، فجلست كالمبهورة بأسلوب مسز بيل الرفيع،
لولا الوجوم الحالِك الذي استولى عليها، واستغرقت في لجة سكوت
عميق طويل؛ لأن ما حدث هو آخر ما أعدت نفسها له، والصرامة التي
أخذت بها نفسها غدت إزاءه رخوة علية. إذ كان المفروض أن يعود
السير كلود مع شريكته في الإثم أو من دونها. أما أن تأتي شريكته من
دونه فكلا. ثم كلا. لم يخطر هذا ببالها قط. وكانت مسز بيل قد كسبت
فيما يبدو في هذه الأثناء امتيازاً وسعها أن تتابعه، فنظرت إلى السحنة
المضحكة الكماء في عتب مازح:

- أحقاً لا تريدان أن تصافحيني؟ لا بأس ستغيرين رأيك.

ولم تحاول التجربة واستطردت على الفور، وهي ترفع يدها -بدلاً
من أن تمدّها إليها- بحركة لطيفة وقد أحنّت في الوقت ذاته رأسها إلى
دبوس طويل أسود يزدان به شعرها الأسود:

- هل ترتدين القبعات هنا على الغداء؟ إن كنتما جائعتين مثلي فلا
بد لنا أن ننزل على الفور.

وثبتت مسز ويكس في مكانها، ولكنها ردت على السؤال بصوت
كادت تلميذها لا تعرفه:

- إني أرتدي قبعتي.

والتهمت مسز بيل بنظرة واحدة مفخرتها الجديدة كل الجدة التي

بدا عليها أنها تشير إلى مصدرها وتتبع مدارجها، وأعلنت إقرارها
بامتيازها قائلة:

- أوه. ولكني لا أملك قبعة بمثل هذا الحسن!

ثم التفتت صوب ميزي بمرح وقالت:

- لقد جئت «لك» بشيء بديع يا عزيزتي..

- شيء بديع؟

- قبعة «حبوبة» موجودة بين أمتعتي.

وأومأت إلى الأداة التي تعلو رأس ابنة زوجها، وقالت:

- لقد تذكرت «هذه»، فجئتُك بأخرى لها صدر طاووس. ولونها

أزرق أزهى الألوان!

وبدا للطفلة هذا الكلام معها لا عن السير كلود بل عن الطواويس
أمراً مستغرباً جداً، حتى إنها لم تجد من حضور البديهة ما ينطقها بالشكر
لها، بيد أن الغبطة التي حفت بوصولها كانت دليلاً أيما دليل ضد كل
شيء، بحيث استولى على ميزي شعور أقوى بأن ثمة غرضاً خفياً يكمن
وراء هذه الغبطة. لقد خامرها إحساس بأن الطريقة التي أزالَتْ بها مسز
بيل في الصالون الأبيض المذهب حرج هذا الاستقبال الخالي من
الحرارة والترحيب إنما هي طريقة تنبي عن غور سحيق. وكانت مسز
بيل لم تزل على حالها من تقطع الأنفاس وحرج انفراد مسز بيل لم يكن
شيئاً بالقياس إلى الحرج الذي أورثتها إياه بلطفها. وكان إدراك هذه
المعضلة هو البذرة التي انبثق منها - من لدن الطفلة - سؤال جديد تماماً:

ماذا لو أن هذا التساهل...؟ ولكن الفكرة تلاشت في غمار شيء آخر
كان الفزع منه أقوى من الأمل، والرجم به أقوى من الخوف. وفي حين
كان كل شيء يمضي في طريقه بخطى واسعة وقف أحد السقاة بالباب
ليذكرهن بأن المائدة العامة قد قاربت منتهاها. وعندئذ سألتها مسز بيل:
- هل كان صعودكما لتغسلا أيديكما؟ اذهبا وافرغا من ذلك
بسرعة وسألحق بكما: فقد وضعوا أمتعتي في تلك الحجرة البديعة التي
كان يشغلها السير كلود.

وضحكت وهي تستطرد:

- ثقا أنه تخيرها بديعة!

وفتح باب حجرة مجاورة، ومن عتبته وجهت الخطاب إلى مسز
ويكس مرة أخرى بادئة في اتخاذ نغمة جديدة دلت على المفتاح الذي
استقر تدبيرها عليه - على حد ما كانت - مسز ويكس حرية أن تقوله:
- أيتها السيدة العزيزة، أرجوك أن ترعي شأن ابنتي.

فأظهرت تغييراً شاملاً في المسلك، حتى لقد بلغ من شموله أنه دل
على إحجام مطلق وتشبث من جانب المرأة العجوز بما ينبغي لها من
احترام. وواهاً للمناصب التي لا تنفك مشرفة رغم صغرها، ما لم تكن
بادية الوضاعة. فقد حدثت استجابة - على حد ما رأته ميري - تمثلت
في وثوب ذات «الاحترام» إلى قدميها. وكانت كفئاً لمثل هذه الخطوات
الواسعة المشار إليها آنفاً، وجرت ربيبتها بقوة هذا الدافع إلى الخارج
رأساً - في الوقت الذي دلفت فيه مسز بيل إلى داخل حجرة السير كلود،

ومن ثم إلى حيث حجرة التلميذة والمربية في آخر الدهليز، وكانت أوسع الخطوات طرًا فيما يتعلق بهذه المسألة أن التلميذة تحولت -من ناحية أخرى- وفي مدى ثوان إلى ابنة. وكانت عينا ميري تتبعان ذلك عندما ألقت نفسها -بعد الاندفاع وقد صفق الباب تقريرًا ولا تفكير في صابون أو مناشف- وجهًا لوجه مع مسز ويكس. وكانت مسز ويكس في هذا الموقف هي البادئة بالكلام:

- هل من الممكن إطلاقًا أن يكون لديها شيء منه؟

وشعرت ميري بمزيد من الحيرة وسألتها:

- شيء من ماذا؟

- من الإحساس الخلقي طبعًا.

وكانتا تتحدثان كأن المرء في وسعه أن يكون لديه أكثر من إحساس خلقي واحد. ولكن مسز ويكس لم يبدو عليها أنها تجد هذه الفكرة موفقة. وأما ميري فلم تدر كيف يتسنى لرد بالإيجاب من شفيتها أن يجلو ما أمسى لغزًا بالغ الخفاء. وكانت هذه الأحجية الكبرى هي التي دفعت بها رأسًا أن تسألها:

- أهي أمي الآن؟

وهي مسألة كانت لمحة مروعة واحدة من مسؤولية إبداء الرأي فيها كفيلة بالتأثير في مسز ويكس كأنها تلقت لكمة في معدتها. ولم تكن بالتأكيد فكرت في ذلك الأمر قط، ولكنها استطاعت أن تفكر فيه وأن ترد قائلة:

- إن تكن لك أمًا، فهو على ذلك الأساس أبوك.

وأمنت ميزي في التفكير قليلاً، ثم قالت:

- إذن فأبي وأمي..!

وتلعثمت فحملقت فيها مسز ويكس وقالت:

- ينبغي أن يعيشا معاً؟ لا تعودني إلى هذه الحكاية!

وتحولت عنها وهي تنن لتصل إلى حوض الاغتسال، واستطاعت
ميزي في هذه الأثناء أن تدرك بشيء من اليسر أن الجنون يكمن في هذا
الطريق، ورشت مسز ويكس نفسها بالماء في غير أناقة، بيد أنها في
اللحظة التالية واجهتها قائلة:

- لقد اتخذت لنفسها سياسة جديدة.

فقالت لها ميزي لتساعدها على توضيح رأيها:

- لقد كانت لطيفة معك.

- ما الذي جال بفكرها حتى قالت «اذهبي وألبسي السيدة الصغيرة»،
ولكن هذا شيئاً...

ولهت ثم نفضت بقية ما عندها:

- إن لم يحتفظ بها، فستحتفظ «بك»، ستكون هي..

- هي التي تعولني في الخارج؟

- هي التي تكفل لك بيتاً.

ونظرت مسز ويكس إلى بعيد، وسيطرت على سائر نذر الشر:

- أوه إنها بارعة بصورة مؤلمة. إنه ليس الإحساس الخلقي.

وبلغت قصاراها بقولها:

- وإنما هي لعبة.

- لعبة؟

- ألا تفقده. لقد ضحت به.. في سبيل واجبها.

فناشدتها ميزي:

- إذن فهو ليس مزماً أن يأتي؟

ولم تجب مسز ويكس، واستغرقها تصورهما، فقالت:

- لقد ناضل، ولكنها انتصرت.

فكررت الطفلة قولها:

- ألن يأتي إذن؟

فصرخت مسز ويكس:

- بلى. سحاً له.

ولم يسبق لها قط أن فاهت بمثل هذا الرجس. وما كانت ميزي

لتبالي شيئاً من هذا:

- بسرعة؟ غداً؟

سيكون حضوره -أيان جاء- أسرع مما ينبغي. أسرع مما يبيحه

الحياء.

فقالت الطفلة:

- ولكننا عندئذ سنكون كلنا معًا.

مما جعل مسز ويكس تنظر إليها في حنق، ولكن الوقت لم يتسع
لحدوث شيء قبل أن تبادر بقولها:
- وأنت معي!

واستمرت روح النقد، ولكن لم يسمع لها صوت إلا في أمر رفيقتها
لها أن تغتسل وتنزل، فسادهما سكوت التطهر بالماء. ولكنه لم يلبث
تعكر بإحدى نكسات ميري المفاجئة:

- رباه. أليست وسيمة؟

وكانت مسز ويكس قد فرغت من الاغتسال وراحت تنتظر، فقالت:
- إنها ستلفت الأنظار.

وأسرعتها، فكان من المستطاع أن يلحظ المرء أن الصدمة التي
أزلها بهما الجمال قد أحدثت تأثيرًا مناقضًا بأن حفزتهما على الإسراع
في استعدادتهما للحاق بها، ومع هذا وجدتاها عندما عادتا إلى حجرة
الجلوس قد نزلت بالفعل، وبدت الحجرة من خلال بابها المفتوح
خاوية وأوضحت الخادمة أنها نزلت. وهنا أيضًا استمهلتهما فكرة
أخرى ثابتة من أفكار مسز ويكس:

- ولكن علام ستعيش حتى ذلك الحين؟

فوقفت ميري في مكانها وقالت:

- إلى أن يأتي السير كلود؟

ولم يكن ذلك شيئًا بالقياس إلى عنف وقفة صديقتها:

- مَنْ الذي سيدفع قوائم الحساب؟

وفكرت ميزي:

- ألا يسعها «هي» أن تدفعها؟

- هي؟ إنها لا تملك بنسًا واحدًا.

وتعجبت الطفلة:

- ولكن بابا..؟

- تعنين ألم يترك لها ثروة؟

وكأنما كانت مسز ويكس تتكلم عن أبيها باعتباره ميتًا لولا أنها
أردفت على الفور:

- بل إنه يعيش على حساب نساء أخريات!

- أوه. نعم ميزي تذكر هذا.

- إذن فهو لا يستطيع أن يرسل...؟

وتلعثمت مرة أخرى، وبدأ كلامها عجيبًا حتى في نظرها.

- جانبًا من مالهن إلى زوجته؟

وضحكت مسز ويكس ضحكة أغرب من الاقتراح المستهجن

وقالت:

- وأخالها حَرِيَّةً أن تأخذه.

وأسرعتا في طريقيهما مرة أخرى. ولكن ميزي وقفت مرة أخرى

على السلم وقالت:

- إِذَنْ لَوْ أَنَّهَا بَقِيَتْ فِي إِنْجِلْتْرَا...!

وَفَكَّرَتْ مَسْزُ وَيَكْسُ ثُمَّ قَالَتْ:

- وَجَاءَ هُوَ إِلَى هُنَا بَدَلًا مِنْهَا؟

فَقَالَتْ مِيزِي مَاضِيَةً فِي تَفْكِيرِهَا:

- نَعَمْ. كَمَا تَوَقَّعْنَا.. عَلَامَ عِنْدُنْذُ كَانَتْ عَسِيَّةً أَنْ تَعِيشَ؟

وَلَمْ تَتَرَدَّدْ مَسْزُ وَيَكْسُ سِوَى لَحْظَةٍ، ثُمَّ قَالَتْ:

- عَلَى حَسَابِ رِجَالِ آخِرِينَ!

ثُمَّ مَضَتْ تَهْبِطُ الدَّرَجَ.



الفصل الثامن والعشرون

كانت مسز بيل على المائدة تجتذب الانتباه الذي تنبأت به مسز ويكس، فلم تكن بين الحاضرات امرأة أخرى تقاربها وسامة؛ وما استطاع جمال امرأة أخرى أن يكيف نفسه في مثل هذه البراعة مع ما أثاره من التكريم. وكانت تتحدث بالأخص إلى جارتها الأخرى، مما ترك لميزي متسعاً للفطنة للحظ الأعين وتبادل اللزمات، وللإستغراق في المعاني التي وسعها أن تشرع في استجلائها - وإن في غموض وعدم اتصال - فيما يصدر عن زوجة أبيها من حركة مستقلة. ولما كانت مسز ويكس قد أعانتها بكلامها عن اللعبة، ففي هذا الضوء اتخذت الحركة سمة استراتيجية. وكانت معلوماتها عن الدبلوماسية هزيلة، ولكن ما واجهها من انحناء رأس مسز بيل المشيح عنها كانت كتفاً دبلوماسية باردة ومرفقاً أشد حدة من المعتاد. وكان ثمة تعبير مألوف لدى ميزي كثيراً ما استخدمته تلك السيدة للإعراب عن حصول المرء على ما يشتهي، فمسز بيل تقول إنها في جميع الأحوال تحصل على مشتهاها أو تسعى للحصول عليه عن طريق «عملية الحب». إنها تقوم الآن - على ما في ذلك من غرابة - بعملية حب نحو مسز ويكس، ولم يكن

ذهن صديقتها الصغيرة قط في مثل نشاطه الآن وقد وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مسألة ما تشتهي مسز بيل الحصول عليه. وفي فترة تقديم العجة بالكلاوي والدجاجة السوتيه التي كانت الطرف الوحيد الباقي من أهلها، وهي الطرف الرابع، منصرفة إلى الثثرة مع مربيتها، كانت ميري منصرفة إلى التساؤل عن مربيتها، وهل تسنى لها مواصلة الثبات والمقاومة. كان الأمر عجيبًا. ولكنها صارت مهتمة على الفوز بإحساس مسز ويكس الخلقي كاهتمام مسز ويكس بإحساسها هي الخلقي تمامًا: فقد تراءى لها بالحاح أن هذا النوع من التأثير لا عهد لمسز ويكس بمقاومته من قبل، فبدت مقاومة مسز بيل نفسها في هذا الضوء شيئًا مختلفًا جدًا عن مقاومة رأي السير كلود فيها. وقد يتمخض عما حدث -أيًا كان- شيء يفوق ما شعرت ميري أنها تتوقعه. وراحت تتفهم مؤداه بارتياح يشبه ما ينتابها لو أنها قامت في سنّها هذه باستبدال نقود صغير بجنيه ذهبي فيلقي نقص معلوماتها في الحساب في روعها أنها غولطت. وتلمست في هذه المتاهة أنها ربما قامت بدور سلبي في عملية استبدال عنيفة. فهي قميّنة أن تكون الضحية ولا شك لو أن المسألة بين زوج أمها وزوجة أبيها سويت بقول مسز بيل:

- لئن لم يكن لها إلا أن تعيش مع أحدا فقط؛ فمع من عساها أن تعيش إلا معي أنا؟

والجواب أبعد ما يكون مما راضت نفسها عليه في الأيام الأخيرة، والأسى الناجم عنه يحرك من أثره افتقارها إلى أي شيء من جانب السير كلود يدل على أنه لا يتقبل ذلك الوضع تقبل المنتصر. ألم تقل مسز بيل

في الطبقة العليا بما يشبه المصارحة بأنها غادرته فيما يشبه المغاضبة وخلفته في لندن بعد عراك كان من ثمرته أن قدومها جاء برهاناً على أنها ضحت به؟ واستحضرت ميزي في تصورهما الواقعة المحتملة في ريجنت بارك، وأحست بعناصر تكاد تكون مفرعة في افتراضها أن السير كلود لم يظفر بمعاملة عادلة. وقد استمدت هذه العناصر -وهي جالسة هناك- شيئاً ما من الزهو بمصاحبة جمال كجمال مسز بيل، ونسيت الطفلة تماماً أن تضحية مسز بيل وإن كانت حلاً لم تخلقته، إلا أنها ربما رأت السير كلود يأخذ به من غير اعتراض مباشر.

وما كانت زوجة أبيها تعمل الآن على الفوز به من مسز ويكس هو الموافقة على التغيير الكبير، وهو تغيير بارع براعة حيل الحواة، ما من شيء في صده ذو بال مثل ترتيبات مسز بيل الجديدة. فاستطاعت ميزي أن تدرك المغزى الذي بدا مرفقها وكأنه يغرسه في أضلاع لا يكاد يقيها شيء. ومؤدى هذا المغزى أنه لا أهمية على الإطلاق لمن عسى أن يقوم بالوصاية من بين الاثنين: زوج الأم وزوجة الأب. وجوهر الأمر أن الفتاة ليست كالفتى: فلو كانت ميزي مخلوقاً خشناً يرتدي البنطلون ربما كان له على أحسن الفروض أن يشب عريداً، لكان مرحباً إذن بالسير كلود. أما والأمر على خلاف ذلك فلا محل له فيه، وستجد مسز ويكس نفسها عندئذ في خدمة الطرف الصحيح. وقد وقعت هذه الحجة موقعها الصحيح لدى صديقتنا الصغيرة بمجرد أن لمستها تلك النعمة التي سمعت بها إعلان لقبها الجديد. وهي لم تزل نتيجة حظوتها بكل هؤلاء الوالدين -ابنة شخص ما حتى بعد أن أمسى بابا

وماما في حكم الميتين. وإذا كانت زوجة أبيها وزوج أمها بمقتضى قاعدة لا تدري أهي طبيعية أم قضائية قد حلا محل أبويها المتوفين، فشريك مسز بيل متوفٍ إذَنْ مثل شريكة السير كلود، وهي إذَنْ بالذات التي حكم لها بالأفضلية من لدن محكمة الطلاق في قضية «فارانش ضد فارانش وآخرين». وموضوع هذه التسوية المعلنة هو الذي ملأ في الحقيقة بقية يومها هذا بالأبهة التي تظاهرت بها مسز بيل. وقد اكتمل هذا التظاهر وهي جالسة بين نديمتي هذه السيدة، وأزهر بحيث لم يدع لهما في دوامتهما السحيقة فرصة ولو لتبادل الإشارات بنظرات العين. وعنّ لميزي أن مسز ويكس كانت حرة أن تدلي بحبل أو حبلين إن شاءت، أو أن تطلق صاروخاً أو صاروخين - فلم يسبق لهما أن قضتا وقتاً طويلاً كهذا من غير تفاهم بالقول أو الإيماء، وظلت رفيقتهما على التفريق بينهما بمجرد إبقائهما في صحبتها. ومن ذلك الموقف رأنا عظمة ارتباطهما الوثيق بها تمر أمامهما تباعاً وكأنما موكب لا نهاية له. فقد كان يوم حركة دائبة وكلام متدفق من جانب مسز بيل، حتى لقد بلغ من إشراق ذلك اليوم وتدفقه أنه بدا حافلاً بأنغام الموسيقى وخفق البنود. وأخذتهما معها للسير على الأقدام وللنزهة في العربة، ولما اقترب الليل وضعت خطة لاصطحابهما إلى «المؤسسة» حيث تستمعان - في مقابل فرنك واحد للشخص - إلى معزوفات لمشاهير المؤلفين. وقد أذكرت هذه الخطة ميزي بالاستعراضات الجانبية في «إيرلزكورت»، وبدت لها الفرנקات أشد لمعاناً من الشلنات التي خذلتها حينئذ. بيد أن هذا الأمل كتب له أيضاً أن يخيب كسابقه.

وخذلتهم الفرנקات خذلات الشلنات، ووجد الحفل الموسيقى قدوة في الاستعراضات الجانبية يحذو حذوها وبإيجاز تبخرت المؤسسة، وكان مصدرًا للعجب شيئًا ما أن سيدة تطوعت منذ وصولهما للنجدة بهذه الشهامة تعترف في النهاية أنها في حالة إعياء. وقد وسع ميزي أن تقدر تعبها، ولم ينقض اليوم من غير أن تكتشف أنها كانت متوفرة، بل إنها قارنت في ذهنها حالتها بحالة الأمواج الطامية على أثر نوء. وكان النوء قد هب عاصفًا في لندن، لا بد لها من انقضاء وقت قبل أن تهدأ. وهذا من قبيل ما عرفته الطفلة عن طريق السماع بأنه التكالب على الكلام قبل فوات أوانه، حتى إن حرارتها وروحها وفكاهتها التي لم تعرف الهبوط بدا عليها الآن ما ينبى عن ذلك.

وكانت هي أيضًا مسرورة بالأساليب الأجنبية؛ ولكن قطع طريق شرحها لها على يد ابنتها، لم يكن متوقعًا من معرفتها الواسعة بتلك الأساليب. وكان مما قضى على استجابة لذلاقتها في مهدها تقهقر ميزي في دهشة أمام حقيقة واقعة مؤداها أن الحياة في القارة هي جل ما نشأت عليه. فإذا مسز بيل هي التي تشرع بطريقة مذهلة في شرح تلك الحياة لصديقتها. وهي التي قامت -أيمنما ولين وجوههن- بدور المترجم، والمؤرخ؛ والدليل. وتكثر من الإشارات إلى أسفارها السابقة في سن الثامنة عشرة، وقد حظيت في تلك المدة بالإقامة مع أسرة هولندية على شواطئ بحيرة جنيف. وكانت ميزي قد أُنحفت بالنوادر والمغامرات فيما سلف من الأيام، بيد أنها غدت في هذا الوقت ضربًا من الخيال، وأضحى استعصاء البطلة على الدهشة في بولوني، وإلحاحها على

الأشياء ذاتها التي ألحت عليها بالنسبة لمسز ويكس دليلاً واضحاً على العظمة وتعدد المزايا اللذين تسلحت بهما في هبوطها عليهما؛ وذلك كله من عناصر ما في جعبتها من استعدادات، ومن أسباب قوة قبضتها التي تحس ابتتها الآن بسلطانها عليها. وكان من أثر ذلك على ميزي أنه زاد من وطأة الزمن الذي يفصلها عن السير كلود. وكان هذا الانفصال حرياً في إحساسها أن يطول بضعة أيام، وكأنما هو لا بد أن يشعر بوحشة مخيفة في إنجلترا وحده؛ وقد انتقل مركز اضطرابهم إلى فرنسا، ولم تعد إلى جواره ملها ولا مسز بيل ولا مسز ويكس ولا هي شخصياً. وشعرت ساعة بعد ساعة كأنها تنتظر، وإن لم تستطع أن توضح بالضبط ما الذي تنتظره. وكانت ثمة لحظات بدت فيها أحاديث مسز بيل المتدفقة وكأنها مجرد قعقة للطغيان على صوت طرقات الباب. ولم يكن للقعقة في أي وقت من أوقات الأزمة هدف سافر مثلما كان لها عندما دفعت بميزي -بدلاً من أن تدعها تذهب مع مسز ويكس للاستعداد للعشاء- دفعة فيها أمومة لا مرء فيها رأساً إلى داخل الحجرة التي ورثتها عن السير كلود. وزينت ربيبتها الصغيرة بيديها الناشطتين؛ ثم صرحت لها بقولها:

- إني مزمعة أن أطلق أباك.

وكان هذا القول مختلفاً جداً عن أي شيء توقعته ميزي، حتى إنه استغرق بعض الوقت كي يصل إلى ذهنها. وفطنت في الوقت نفسه إلى أنها ربما بدت ممتعة اللون، وسألتها:

- كي تتزوجي السير كلود؟

فكافأتها مسز بيل بقبلة وقالت لها:

- إنه لجميل منك أن تصوري الأمر في هذه الصورة.

وهي مجاملة، بيد إنها تركت ميزي وفي ذهنها اعتراض يتأرجح:

- ولكن كيف «تستطيعين» ذلك وهو متزوج؟

- إنه عملياً ليس متزوجاً. فهو حر كما تعلمين.

- حر في أن يتزوج؟

- حر أولاً في أن يطلق شيطانته.

ولكن الفوائد التي شعرت في الأيام القليلة الأخيرة أنها مدينة بها لشخص ما تركت ميزي لحظة غير مهيأة لمعرفة من ينطبق عليه هذا النعت الزري، حتى إنها ترددت طويلاً قبل أن تغامر بقولها:

- ماما؟

فردت عليها مسز بيل قائلة:

- إنها لم تعد أملك، فقد دفع لها السير كلود نقوداً لتنزل عن هذه الصفة.

ثم كأنما تذكرت هوان شأن الصفقة المالية في نظر الطفلة، فقالت:

- لقد أبرأته من إعالتها في نظير إبرائها من إعالتك.

وبدا مع هذا على مسز بيل أنها تحسن تقدير فهم ابتتها للأمور المالية؛ وسألته ميزي:

- ليعولني هو؟

- ليتحمل أعباءك ومطالبك كافة ولا يدعها تسمع شيئاً عنك بعد الآن. وهذا بمقتضى عقد قانوني مهور.

فصاحت ميزي:

- ولكن هذا بديع جداً منها.

- إنه ليس بديعاً للغاية يا عزيزتي، إلا أنه سيحصل في مقابله على الطلاق منها.

وصمتت ميزي برهة يسيرة، ثم قالت:

- لا. لن يحصل عليه.

ثم استطردت بمزيد من الجرأة:

- وأنت لن تحصلي على الطلاق أيضاً.

والفتت مسز بيل إليها - وكانت أمام مرآة الزينة - في تفكه ودهشة وسألها:

- كيف عرفتِ هذا؟

فصاحت ميزي:

- أعرفه!

- من مسز ويكس؟

وتروت ميزي قليلاً، ثم بعد لحظة استرشدت بما لاحظته من انتفاء غضب مسز بيل - ذلك الانتفاء الذي زاد من دهشتها بصده مبلغ شعورها بما تحتاج إليه في كلامها من الشجاعة - واعترفت قائلة:

- من مسز ويكس؟

واستدارت مسز بيل إلى المرأة مرة أخرى وراحت تستخدم فرشاة الذرور، وكان كل ما قالته:

- إنها مخطئة يا جميلتي.

وكان في تلذذها بهذا القول نفسه بعض القوة، ولكن سيدتنا الصغيرة أمعت التفكير طويلاً، فتذكرت أن هذا خلاف الجواب الذي أدلى به السير كلود نفسه من قبل؛ بيد أن هذه التذكرة لم تستطع أن تحول بينها وبين سؤالها:

- أتعين إذن أنه لن يأتي قبل أن يحصل على الطلاق؟

وأتمت مسز بيل لمسة أخيرة أتمت بها استعدادها، وانتصبت أمامها في كامل أناقتها، وقالت:

- بل أعني يا عزيزتي أنني تركته لأنه لم يحصل عليه بعد.

وفتح هذا القول مجاًلاً امتد إلى أبعد مما وسع ميزي أن تصل إليه، فأشاحت عنه؛ إلا أنها قالت قبل أن تخرج مرة أخرى:

- أتشعرين نحو مسز ويكس الآن بمودة؟

- بل أنا يا كتكوتتي الصغيرة التي كنت على وشك أن أسألك هل تظنينها بدأت بأي حال من الأحوال في الشعور نحوي أنا المسكينة الرديئة بشيء من المودة.

وفكرت ميزي في هذا التلميح ولكن بغير طائل، فقالت:

- ليست عندي أدنى فكرة عن هذا. ولكنني سأحاول أن أعرف.

فقالت لها مسز بيل وهي تسير رافلة في ثيابها بجوارها والعطر
يفوح منها، وكان ما تطلبه منها خدمة جليلة الشأن:

- افعلي!

وحاولت الطفلة ذلك بجدّ في وقت النوم؛ وقد تحررت الآن من
خوفها أن تعمل ضيفتهما على التفريق بينها وبين تابعتها في الليل،
فشرعت تقول لها بمجرد أن أغلق عليهما البابان اللذان في نهاية الدهليز:

- هل ثبت؟

فحملقت مسز ويكس بقوة في ضوء الشمعة وسألتها:

- ثبت...؟

- طبعًا. فقد كانت تقوم نحوك بعملية حب. فهل كسبتك لصفها؟

فحولت مسز ويكس شدة نظراتها إلى وجه تلميذتها وقالت:

- من حيث ماذا؟

- من حيث احتفاظها «بي» بدلًا منه.

- بدلًا من السير كلود؟

وكان واضحًا أن مسز بيل تحاول كسب الوقت.

- نعم. ومن سواه؟ ما دام ذلك ليس بدلًا منك.

فتورد وجه مسز ويكس أمام هذه الألمعية وقالت:

- نعم هذا ما ترمي إليه.

فسألتها ميري:

- وهل يروقك؟

وكان عليها أن تنتظر الجواب؛ لأن صديقتها شد ما كانت محرجة..
-إن معارضتي في العلاقة- أعني علاقتهما -حَرِيَّةٌ أن تسقط بالطبع إلى حد ما. فقد عاملتني اليوم كأني لست بعد كل شيء دودة حقيرة. وإن كنت لا أجهل النبع الذي استقت منه تهذيها. ولكنني طبعًا..

وترددت مسز ويكس في أن تردف:

- ولكنني لا أتمنى أن تكون «هي».. مثلما أتمنى أن يكون هو الكافل لك.

ورددت ميري عبارتها كالصدى، ثم قالت:

- مثلما.. هذا ما أتمناه أيضًا.

وكانت تتكلم بحزم هي أول من ارتجف تحت وطأته:

- كنت أحسبك تعبينه.

فاعترفت مسز ويكس بذلك بشدة:

- نعم أعبدته.

- إذن هل بدأت فجأة تعبينها هي أيضًا؟

ولكن مسز ويكس بدلًا من أن ترد عليها مباشرة نظرت إليه نظرة سريعة مستعينة بكل قوتها:

- بأي لهجة تسأليني هذا السؤال يا عزيزتي. إنك تكشفين عن طويتك!

- ولمَ لا؟ لقد كشفت أنتَ عن طويتك. ومسز بيل كشفت عن طويتها، ولكل منا دوره!

وأطلقت ميزي أعجب ضحكة صغيرة صدرت عن شفيتها الصغيرتين، وصدرت عن شفتي مسز ويكس في اللحظة التالية صوت فاقها، وصهلت قائلة:

- ما أعجب أمركِ!

وتلعثمت تلميذتها وهي تقول من غير رغبة إطلاقاً في أن تكون سليطة:

- أعتقد أنكِ بذلت جهداً عظيماً لتجعليني هكذا.

- هذا ما فعلته في الحقيقة.

وثابت إلى التواضع، كأنها تذكرت اتهامها لذاتها منذ عهد قريب جداً، وقالت ميزي:

- أترضينها إذن؟ هذا ما أسألكِ عنه.

- بديلاً عنه؟

وقلبت مسز ويكس الأمر، ثم واجهت عيني الطفلة مرة أخرى:

- لقد أوشكت حرفياً أن تبصص لي بذنبها.

- ولكنها لم تبصص «له» بذنبها. بل لم تكن مترفقة به.

وبدا على مسز ويكس أنها تتمتع الآن بالتفوق وسألتها:

- إذن هل تقترحين الآن «قتلها»؟

فألحت عليها ميري بقولها:

- أنتِ لم تردي على سؤالي. أريد أن أعرف هل ترتضينها؟

وواصلت مسز ويكس حيطتها في الكلام:

- أريد أن أعرف هل ترتضينها «أنتِ»؟

فإذا بكل شيء في الطفلة يعلن رأيها بكل جلاء:

- ولا لحظة واحدة!

وفطنت مسز ويكس إلى مرادها، وتوهج محياها وسألتها:

- لا تريدنيهما كليهما الآن؟ تريدني وحده؟

- وحده، أو لا أحد.

فصاحت مسز ويكس:

- حتى ولا «أنا»؟

فنظرت ميري إليها لحظة، ثم شرعت تخلع ثيابها قالت:

- أوه. أنتِ لا أحد!



الفصل التاسع والعشرون

لقد استطال نومها، وقد عرفت على الفور أنها تأخرت في الاستيقاظ من فتح عينيها على مسز ويكس منتصبه، كاملة الزي، بل أكمل زياً من أي وقت مضى. تحديق فيها من وسط الحجرة. وفي اللحظة التالية قامت جالسة وقد تيقظت تماماً خوفاً على ساعات الاستمتاع «بالخارج» التي لعلها ضيعتها، وبدا على مسز ويكس كأن النهار قد أوغل، وبدأت عملية اللحاق به بالنسبة لميزي عندما سمعتها تقول بوضوح:

- يا عزيزتي المسكينة. لقد حضر!

- السير كلود؟

وسرعان ما أحست ميزي -بعد أن أزاحت غطاء الفراش الصغير باتساع وثبتها- بالأرضية اللامعة تحت قدميها العاريتين.

- لقد عبر البحر في الليل، ووصل في ساعة مبكرة.

وأومأت مسز ويكس برأسها في حركة متصلبة إلى الخلف، وأردفت:

- إنه هناك.

- وهل رأيته؟

فكرت مسز ويكس قولها:

- لا. ولكنه هناك. إنه هناك.

وكان صوتها ينم على خمود عجيب لم يكن خفوتًا اختياريًا؛
وارتجفت ارتجاعًا زاد من انفعالهما المشترك، فراحتا تحمقان كل
منهما في الأخرى وقد شحب لونهما شحوبًا ظاهرًا. ولهت ميري وهي
ترد عليها قائلة:

- أليس هذا «جميلًا» أجمل مما كنا نتوقع؟

وكان هذا تحديدًا لها أن تجيب إجابة لم تكن قد تأهبت لها بعد.
وكان اللفظ الذي استخدمته ميري ومضة دبلوماسية القصد منها
الحيلولة بين مسز ويكس وبين استخدام لفظ آخر، وقد أحرزت التوفيق
في هذه الحدود، ولكن كان ثمة توسل غريب صامت في الوجه الأبيض
العتيق كان من أثره الإيحاء بالافتقار إلى عزم أقوى مما يمكن -أيًا
كانت فسحة تفاؤلها- أن يقترن بموقفها مما حدث. وما حدث كان في
الواقع بالنسبة لميري أضال بصورة غريبة -على حسب إحساسها- من
حيث الغبطة البسيطة التي كانت تقترن دائمًا فيما مضى بوصول ذلك
الصديق الأعز أو عودته. فما الذي حدث بين عشية وضحاها أثناء
نومها لقدرتها المريحة على الفرح؟ لقد حاولت أن تزيد من تيقظها
بالكلام، وبالزواط، وبالانغماس في الماء والثياب، وعرفت أن الساعة

بلغت العاشرة، وعرفت أيضًا أن مسز ويكس لم تتناول إفطارها بعد،
وكانتا في اليوم السابق قد تناولتا «قهوة كاملة» في حجرة جلوسهما.
وكان واضحًا أن مسز ويكس تسعى من جانبها -إلى ملاذ تعتصم به
من انفعالاتها، وقد نشدت هذه الملاذ في كبح سيئ من تسرع تلميذتها
الراهن في بعض خطواتها، بأن راحت تذكرها فيما يكاد يصل إلى
الصرامة أن استخدام الصابون ينبغي أن يكون أوفى ما يمكن وهي بسبيل
هذه الاستعدادات الأولية، وأظهرت شيئًا من الاستهجان لتعجلها في
ارتداء ثيابها على هذا النحو لمجرد لقاء زوج أم. وتولت شأنها بنفسها
في إلحاح صامت بحيث حولت هذه العملية إلى سياق أكثر إحكامًا ما
عهده ميري منذ أيام «مودل». فأيًا كان ما أخذ الآن حضور السير كلود
يتصف به من الاختلاف عن ذي قبل؛ فهو لم يزل بعد كل شيء موافقًا
-في نظر سيدتنا الصغيرة- لغريزة ارتداء ثيابها لرؤيته في عجلة تكاد
تتجافى مع النسق المفروض. ولم تكن مسز ويكس لحسن الحظ ميالة
كل الميل إلى الكبح. وكررت بضع مرات قولها:

- إنه هناك. إنه هناك!

فقد كان هذا ردها على كل دعوة وجهتها إليها لتذكر لها منذ متى
استيقظت، وما الذي دفعها إلى احترام نعاس رفيقتها بهذا التزم. وظل
هذا كل بيانها لمدى بضع دقائق عن مظان وجود الآخرين وعن علة عدم
رؤيتها لهما بعد، وعن إمكان وجودهما حاليًا في الصالون.

- إنه هناك. إنه هناك!

كررتها مرة أخرى وهي تقوم بتنسيق ملابس الطفلة الداخلية بجذبة

أوشكت أن تكون عدائية لفرط شدتها. وسألته ميري مرة أخرى:

- أتعنين أنه في الصالون؟

فقالت مسز ويكس بأسى أكثر من مرة:

- إنه «معها». إنه معها.

فاستطردت ميري:

- أتعنين أنه في حجرتها الخاصة؟

فتريثت لحظة ثم قالت:

- الله أعلم!

وعجبت ميري شيئاً ما لماذا أو كيف ينبغي أن يكون علم هذا من شأن الله. ولكن ذلك لم يعق ردها سوى لحظة:

- حسناً. أليست مزمنة أن تعود؟

- تعود؟ إطلاقاً!

- هل ستبقى رغم كل شيء؟

- بل هذا أدعى لبقائها.

فسألته ميري:

- ألا يزعم السير كلود إذن أن يرحل؟

- يرحل عائداً.. إن لم تعد «هي»؟

وبدا على مسز ويكس أنها تمنح هذا السؤال دقيقة من التفكير:

- ولماذا كان عسيّاً أن يأتي، إن كان مراده أن يكر عائداً؟

فأدلت ميزي بحل بارع لهذا اللغز:

- كي «يجعلها» ترحل. كي يأخذها إلى هناك.

ولم تقابل مسز ويكس هذا الحل بالرضى:

- لو كان في وسعه أن يجعلها ترحل بهذه السهولة، فلماذا تركها

تأتي؟

وفكرت ميزي ثم قالت:

- لمجرد أن تراني «أنا». فلها هذا الحق.

- نعم لها هذا الحق.

وقالت ميزي على سبيل الاختبار وهي تغالب الضحك:

- إنها أُمي!

- نعم. إنها أُمك.

واستطردت ميزي:

- ثم هو لم يدعها تأتي. فهو لا يستريح لقدمها. وإذا كان لا

يستريح إليه..

فردت عليه مسز ويكس قائلة:

- فلا بد له أن يتحملة.. هذا ما لا بد له منه! لقد كانت أُمك على

حق في رأيها فيه - أعني أُمك الحقيقية. فليس فيه مراس. لا. لا مراس لديه إطلاقاً.

وبدا عليها أنها استغرقت في مزيد من التفكير قبل أن تقول:

- ربما كان لديه شيء من المراس حين كان معها. أعني مع فخامة الليدي.

ثم قالت بحزم مفاجئ قاطع:

- إنه عبد ذليل مسكين.

وتعجبت ميزي مرة أخرى:

- عبد؟

- لأهوائه.

ومضت في عجبها، بل لقد أثر فيها هذا القول، وبعد قليل استطردت:

- ولكن كيف عرفت أنه سيبقى؟

- لأنه يحبنا!

وإذ قالت مسز ويكس هذه العبارة في قوة لفظ، أدارت ربيبتها مرة أخرى لتعالج مشابكها الخلفية. ولم يكن سبق لها أن هزتها بهذه الشدة. وكأنها تريد أن تجعلها تنفض عنها بهذه الهزة شيئاً ما.

- ولكن كيف يجدي ذلك عليه إذا نحن -على الرغم من حبنا له- لم نبق؟

- أتعنين إذا نحن رحلنا وتركناه معها؟

وقد وجهت مسز ويكس هذا السؤال إلى مؤخرة رأس تلميذتها، ثم أردفت:

- إن ذلك «لن» يجدي عليه؛ بل سيكون فيه دماره. إذ لا يكون قد حصل به على شيء. سيكون قد فقد كل شيء. وفي هذا هدمه هدمًا تامًّا؛ لأنه حقيقي أن يبغضها بعد فترة من الزمن.

وكان فهم ميزي لهذه الفكرة عجيبيًا، لأنها قالت:

- إذن حين يبغضها ما عليه إلا أن يلحق بنا فورًا..

- لن يحدث هذا.

- لن يحدث؟

- لأنها ستستبقيه. ستسكه إلى الأبد.

وقال ميزي في تشكك:

- وهو يبغضها؟

فقالت مسز ويكس:

- ليس هذا ذا بال. لأنها لن تبغضه. ما إن أحدًا يبغضه!

فنازعتها ميزي قائلة:

- البعض يبغضونه. ماما تبغضه.

- ماما «لا» تبغضه!

وكانت هذه المناقضة القاطعة مثار دهشة كبيرة لها من جانب صديقتها:

- بل إنها تحبه. وتعبدته. هذا شيء تعرفه المرأة.

قالت مسز ويكس هذا القول لا كأن ميزي ليست امرأة فحسب؛ بل

وكانها لن تكون امرأة في يوم من الأيام. ثم صاحت:

- «أنا» أعرف!

- إذن لماذا بالله تركته؟

وترددت مسز ويكس ثم قالت:

- لأنه يكرهها. لا تميلي إلى الأمام هكذا. ارفعي شعرك إلى أعلى.
أنت تعرفين مبلغ ميلي بعواطفي نحوه.

ثم أردفت بإباء:

- ولكنك ينبغي أن تعرفي عني أيضًا صدق نظرتي.

وكانت ميزي طيلة ذلك الوقت تبذل جهدا في مثل هذا النظر
الصادق:

- إذن إن صح إنها تركته لهذا السبب فلماذا لا تتركه مسز بيل
للسبب نفسه؟

- لأنها ليست مغفلة إلى هذا الحد!

- ليست مغفلة مثل ماما؟

- بالضبط إن كان هذا ما تريد من معرفته. هل يبدو عليها أنها من
الممكن أن تتركه؟

وبعد أن سألتها مسز ويكس هذا السؤال، أطرقت مرة أخرى، ثم
استطردت بمزيد من المضاء:

- أتريد أن تعرفي لماذا حقًا وصدقًا؟ لأنها بذلك ستكون مصدر

تعاسته وعقابه.

وكان هذا أكثر مما تسنى لميزي أن تعيه؛ فسألتها:

- عقابه؟ عقابه على أي شيء؟

- على كل شيء. هذا ما سيحدث: سيلقى نفسه مشدود الوثاق إليها إلى الأبد، ولن تبالي على الإطلاق بكرهه لها، ولن تكرهه لكرهه لها؛ بل ستكرهنا «نحن» فقط.

فردت الطفلة في صوت خافت:

- نحن؟

- ستكرهك «أنت».

فصاحت ميزي باستياء:

- أنا؟ ولماذا؟ لقد قمت بالجمع بينهما!

فوافقتها مسر ويكس موافقة تامة قائلة:

- أنتِ التي جمعتِ بينهما.. فعلاً. وكان هذا فعلاً مليحاً. اجلسي.

وشرعت ترجل شعر تلميذتها بالفرشاة؛ وعندما جمعت كتلته في قبضة واحدة قوية، استطردت تذكرها بحدة:

- كانت أملك تعبه في البداية، وكان هذا حرياً أن يدوم، ولكنه بدأ صلته بمسز بيل في وقت مبكر أكثر مما ينبغي، وكما قلت أنا..

وأردفت وهي تعمل الفرشاة بسرعة:

- كنتِ أنتِ التي جمعتِ بينهما.

وكانت ميزي مستعدة لتأكيد هذا القول مرة أخرى: ولكنها مع هذا شعرت أنها في مأزق؛ ثم يبدو أنها تبينت لها مخرجاً منه:

- لقد جمعت بينهما. ولكنني لم أجمع بين ماما و..

ثم لم نزد على أن تلعثمت، فخفت مسز ويكس لنجدتها:

- وبين كل أولئك الرجال؟ كلا. لم يصل الأمر من السوء إلى هذا الحد.

وتذكرت ميزي ما كان بسرعة فقالت:

- لقد قلت فقط لكابتن إنني آمل أنه على الأقل (وكان لطيفاً للغاية)، سيحبها ويحتفظ بها.

فقالت مسز ويكس:

- وحتى هذا لم يكن فيه ضير كبير.

فاضطرت ميزي للاعتراف:

- ولم يكن فيه كثير خير. فهي لا تطيقه قيد أنملة. قالت لي ذلك في فولكستون.

فكبحت مسز ويكس شهقة. ثم بعد أن تماسكت لحظة كانت حرية أن تبدو منها وقد انحرفت بعناء عن تقديرها الغريب لأخطاء أيدا قالت:

- ما كان أطفه من شخصية تتحدث في شأنها إليك!

فقالت ميزي بسرعة:

- أوه. أنا «أخيل» إليه.

وعندئذ أمالتها صديقتها إلى الأمام وهي ترسل صوتاً غير مفهوم،
وأنت بحركة غير متسقة مع ما سبقها؛ فنفرت خدّها نفرة سريعة كان
القصد الظاهر منها أن تكون قبلة. وسألته مسز ويكس في النهاية:

- وما دامت فخامة الليدي لا تتفق معك في هذا الرأي، فعلاً يدل
هذا؟ إنه يدل على تعلقها بالسير كلود.

وفي ضوء بعض هذه الأدلة راحت ميزي تفكر في ذلك الموضوع
إلى أن انتهت من ترجيل شعرها، ولكنها عندما نهضت لم يبد عليها
الاقتناع الشديد به، فقبضت في تلك اللحظة على ذراع مسز ويكس
قائلة:

- لا بد أنه حصل على الطلاق!

- في المدة ما بين أول أمس وأمس؟ لا تقولي هذا الهراء.

قالت لها ذلك بنفاد صبر لم يدع للطفلة ما ترد به، فنشدت وسيلتها
الدفاعية في نظرة مختلفة تماماً إلى المسألة:

- حسناً. كنت عارفة أنه سيأتي!

فقالت مسز ويكس في تفجع:

- وكذلك أنا. ولكن لا في أربع وعشرين ساعة. لقد قدرت لغيابه
بضعة أيام!

فنظرت ميزي صوب مسز ويكس باهتمام وكانت قد أطلقتها،
وقالت:

- وكم يوماً كانت «هي» قد قدرت لغيابه؟

فواجهتها مسز ويكس برهة بشهقة تنبي عن حيرة:

- الأولى بكِ أنتِ أن تسأليني!

ولكنها ما إن فاهت بهذه الكلمات، حتى تماكنت نفسها وقالت:

- يا إله الرحمة! كم تتكلم!

وشعرت ميزي أنه على الرغم من كلامهما، فلا بد لها أن تراه. ولكنها لم تقل شيئاً أكثر مما قالته آنفاً برهة من الوقت انتهت في خلالها من ارتداء ثيابه في عناية شديدة، ولزمت مسز ويكس الصمت أيضاً. وكأنما لدى كل منهما من التفكير ما يشغلها عن الكلام، وكأنما فطنت الطفلة إلى أن صديقتها ترقبها لترى هل ترقبها من جهتها أم لا، وأخيراً تحولت مسز ويكس إلى النافذة ووقفت تطل منها، من غير أن تبين شيئاً على حد ما حدثت ميزي. وعندئذ اهتزت سيدتنا الصغيرة هزتها الأخيرة أمام المرأة وقالت:

- أنا الآن متأهبة. والآن هيا للقياء!

فالتفت إليها مسز ويكس وكأنها لن تسمعها:

- الأمر جد خطير.

وكانت لم تزل خلف الميثبات دموع متمهلة. فقالت ميزي وكأنها قد بلغت بكامل أهبتها من الزي مستوى المناسبة. وكأنها بآخر لمسة في هذا الصدد قد لبست بالفعل قلنسوة القضاء:

- فعلاً. إنه لكذلك. يجب أن أراه فوراً.

- وكيف يسعك أن تريبه وهو لم يرسل في طلبك؟

- ولمَ لا أذهب وأقابله حيث هو؟
- لأنك لا تعرفين أين هو.
- ألا يسعني أن أبحث عنه في الصالون؟
وبدا هذا أمراً يسيراً جداً في نظر ميزي، بيد أن مسز ويكس قاطعتها فوراً:

- لن أسمح لكِ بالقاء نظرة على الصالون مهما كان الثمن!

ثم فسرت لها ذلك بعض الشيء قائلة:

- الصالون لم يعد خاصاً بنا.

- بنا؟

- أعني بي وبكِ. إنه الآن لهما..

- لهما؟

واستطردت ميزي بعد هذا الترديد محملقة فيها:

- أتعنين أنهما يريدان أن يمنعانا من دخوله؟

وتلعثمت مسز ويكس، وارتمت على مقعده، ثم غطت وجهها

بيديها على نحو ما رأيتها ميزي تفعل كثيراً من قبل؛ ثم قالت:

- هذا ما ينبغي على الأقل.. فالموقف فظيع جداً!

ووقفت ميزي حيث هي برهة، تنظر حولها في أرجاء الحجرة، ثم

قالت:

- سأذهب إليه. سأعثر عليه.

فصاحت مسز ويكس:

- حاشايَ أن أذهب. لم أقترِب منهما!

- إذن سأقابله وحده.

وعثرت نظرات الطفلة على الشيء الذي كانت تبحث عنه، فتناولت قبعتها وقالت:

- وربما أخذته وخرجت به!

وبعزمٍ غادرت الحجرة.

وعندما دخلت الصالون وجدته خاليًا، ولكن صوت فتح الباب جعل شخصًا ما يتحرك في الشرفة. ثم دخل منها السير كلود على الفور وانتصب واقفًا أمامها. وكان مرتديًا ثيابًا فاتحة اللون خفيفة وقبعة من القش ذات شريط فاتح اللون.. فكانت هذه الأشياء فضلًا عما لفت نظرهما فيها في حد ذاتها من أنها وعود صريحة بأعظم جولة بين الجولات العظيمة، قد أضفت عليه إشراقًا خاصًا؛ ولونًا من البحيوحة المدارية، بيد أن مثل ذلك التأثير زاد من إحساسها بوقوفه على مسافة من مكانها وأنه لبث دقيقة أطول من أي وقت في أي لقاء شبيه لا يفتح لها ذراعيه. فجعلها توقفه تتوقف وأتاح لها أن تفكر في أنه لا بد قد استيقظ منذ مدة؛ إذ لم تكن ثمة أي آثار للإفطار، وأنه حرص رغم تأخر الوقت إلى هذا الحد على ألا يأمر باستدعائها إليه. فهل كانت مسز ويكس على حق في سقوط حقهما في الصالون؟ وهل صار كله له الآن، هو مسز بيل؟ إن مثل هذه الفكرة لا يمكن -بالمعدل الذي تنبض به أفكارها الصغيرة-

إلا أن تذكرها بالطريقة التي أصبح بها ما كان لها من قبل ملكًا مقصورًا على مسز بيل وعليه. وكان عجبًا أن تقف هناك وتحية عبر هاوية؛ إذ إنه في هذا الوقت أخذ يتكلم فقال لها باسمًا من غير أن يدنو منها:

- يا طفلي العزيزة. يا طفلي العزيزة!

وفي لمح البصر تبينت ما طرأ عليه من اختلاف. وهو اختلاف أعظم مما كان يدري به أو يقصده. وفي الدقيقة التالية كأنما لمح في الواقع الانطباع المرتسم على محياها، فدفعه ذلك إلى مد يده. ثم التقيا فقبلها وضحك. بل خيل إليها أن وجهه احمر، وجلجل شيء من إعزازه كالعادة..

- هأنذا كما ترين مرة أخرى. كما وعدتكما.

ولم يكن الأمر كما وعدهما. لأنه لم يكن وعدهما بمسز بيل. بيد أن ميزي لم تقل شيئًا في ذلك الصدد. بل كان ما قالته ببساطة:

- عرفت أنك جئت. مسز ويكس أخبرني.

- أوه. نعم. أوه وأين هي؟

- في حجرتها. لقد أيقظتني. وألبستني ثيابي.

وصعد السير كلود بصره فيها، وارتسمت على محياه ما يرتسم عليه كلما نظر إليها من سخرية حلوة كانت تحبها منه حبًا خاصًا. فقد رفع حاجبيه وذراعيه متصنعًا الإعجاب. ولا شك أنه كان بعد كل شيء مبالًا للطرب. وقال:

- أيقظتك؟ هذا ما كان ينبغي أن يخطر ببالي. لو قد أبدعت في

إلباسك ثيابك. أليست عازمة على القدوم؟

وتساءلت إن كان من المستحسن أن تخبره بالحقيقة. وقالت:

- قالت إنها ليست عازمة أن تأتي.

- أليست تريد أن ترى بائسًا مسكينًا؟

وتلفتت حولها تحت تأثير الطريقة التي نعت بها نفسه، فاستقرت
عينها على باب الحجرة التي كان يحتلها فيما مضى. وقالت:

- هل مسز بيل هناك في الداخل؟

فنظر السير كلود بحيرة إلى ذلك الموضع نفسه وقال:

- ليست عندي أدنى فكرة!

- ألم ترها؟

- ولا حتى طرف أنفها.

وفكرت ميزي. وقد استولى عليها في ضوء عينيه الجميلتين
الباسمتين أوهي وأصفى وأبرد اقتناع بأنه لا يقول الحق.

- ألم ترحب بك؟

- ولا بإشارة واحدة.

- إذن أين هي؟

فضحك السير كلود وظهر عليه التفكه والدهشة في آن واحد لما
تبديه من التدقيق. وقال:

- علمي علمك!

- أليست تعرف أنك جئت؟

فضحك مرة أخرى وقال:

- لعلها لا تبالي بذلك!

وألهمت ميزي شيئاً فوثبت على ذراعه، وقالت:

- هل «رحلت»؟

فواجه عينيها، وعندئذ تبينت أن عينيه أكثر جدًّا من أسلوبه العام
وقال:

- رحلت؟

وكانت ميزي قد طارت إلى الباب. ولكن قبل أن تتمكن من رفع
يدها لتطرقه لحق بها وأمسك بيدها قائلاً:

- دعيها لشأنها. لست أبالي بها. إنما أريد أن أراكِ «أنت».

ورجعت ميزي وسألته:

- إذن فهي لم ترحل؟

وظل يبدو عليه كما لو كانت المسألة مزاحاً. ولكنها كلما أمعنت
النظر إليه زاد إدراكها لاضطرابه. وقال:

- ليست هي التي تفعل ذلك!

ووقفت تعجب لأمره:

- أكنت تريدها أن تأتي؟

فقال لها ببساطة:

- كيف يخطر لك؟ لقد وقعت بيننا زوبعة كبيرة في هذا الخصوص.

- هل تعني أنكما تشاجرتما؟

وتملك الحيرة السير كلود فقال:

- ماذا أخبرتك؟

- إنني أخصها مثلما أخصك.. وإنها تمثل بابا.

فضرب ببصره إلى الخارج خلال النافذة المفتوحة صوب السماء.

وسمعه يصلصل في جيبه بنطلونه بنقوده ومفاتيحه، ثم قال:

- نعم، هذا ما تدأب على قوله.

وأضفى ذلك عليه برهة سيماء من لا حول له تقريبًا. وأردفت ميزي

تقول:

- أنت تقول إنك لا تبالي بأمرها. فهل تعني أنكما تشاجرتما؟

- نحن لا نفعل في حياتنا شيئًا سوى الشجار.

وتراءى لها وهو يقول ذلك غاية في الدماثة والإنصاف والغناء

على الرغم من كل ما يمكن أن يكدره، وقد استردت شعورها

بمألوفاته حتى لقد أضفى ذلك وهجًا على المعاني؛ وعلى ما كان من

الممكن أن يكون وعدًا ملموسًا تعرب عنه هذه الكلمات التي قالتها

في ثبوط همة:

- آه من مشاجراتك!

- أوكد لك أن مشاجراتها مخيفة جدًا!

- أنا لا أتكلم عن مشاجراتها. بل عن مشاجراتك أنت.
- لا تتكلمي عنها إلى أن أتناول قهوتي. إنك تزدادين مهارة مع الأيام. أحسبك تناولت إفطارك؟
- لا لم أتناول شيئاً في حجرتك!
- واستولى عليه وخز الضمير، فصاح:
- يا صاحبي العزيز. سنتناول الإفطار معاً إذن.
- ثم خطرت له إحدى أفكاره الموفقة فقال:
- اسمعي. سنخرج.
- هذا بالضبط ما كنت أرجوه. فقد أتيت معي بقبعتي.
- أنتِ بارعة. سنذهب إلى مقهى.
- وسرعان ما كانت ميزي عند الباب؛ فتلفت حوله في الحجرة، وقال:
- لحظة واحدة. عصاي.
- ولكن يبدو أنه لم تكن هناك عصا. فقال وقد تذكر فهبطت حماسته هبوطاً غريباً وخرج معها:
- لا بأس. لقد تركتها.. أوه!
- وسألته وهما يهبطان السلم:
- هل تركتها في لندن؟
- نعم.. في لندن.. تصوري!
- فقال ميزي تفسر الأمر:

- لقد كنت في عجلة هائلة عند قدومك.

وكان يحيطه بذراعه فقال:

- لا بد أن هذا هو السبب.

وفي منتصف السلم، توقف فجأة وضرب رجله بيده:

- ومسر ويكس المسكينة؟

فظهر على وجهه ميزي التقطيب وقالت:

- أتريدها أن تأتي؟

- لا.. إنما أريد أن أراك بمفردك.

فأجابته.

- وهكذا أريد أنا أيضًا أن أراك كسابق العهد.

فردد قولها بطرب:

- كسابق العهد. ولكنني أعني هل تناولت قهوتها؟

- لا لم تتناول شيئًا.

- إذن سأبعث إليها بقهوتها. يا مدام!

وكان قد وصل بالفعل إلى قاع السلم وراح ينادي مديرة الفندق
البدينة؛ وهي سيدة برزت له من البهو الصاخب البارد بسحنة مكسوة
بذرور الصباح وبصدر ضخم كأنه رف مدفأة مكسو بالمخمل، ومن
فوق هذا الرف وجهها المستدير الأبيض يحيط به إطار من شعر ذهبي
جعد كأنه في عين الرائي ساعة من الساعات التي تستخدم للزينة. وأمر

السير كلود بوجبة مسز ويكس مع توصيات خاصة؛ وفتنها أن تسمع فرنسيته اللامعة الطلقة. فلم يفت جهل رفيقته بهذه اللغة أن يكون مقياسًا لمبلغ تمكنه منها. وراحت المديرية تفرك يديها وتتدفق بالكلام في نغمات سريعة عالية كأنها تشترك في غناء ثنائي وهي تمضي معه إلى الشارع. وفيما هما يتحدثان برهة بعد ذلك تذكرت ميزي ما قالته لها مسز ويكس من أن كل امرئ يحبه.. وقد جاءها الدليل على ذلك من خلال ذرور الصباح؛ وعن طريق الصدر الخفاق آية على مبلغ ميل صاحبة النزول إليه. ولا بد أنه أمر بشيء بديع لمسز ويكس. فقد قال بالفرنسية:

- وليكن ذلك متقنًا كل الإتقان.

فأجابته المديرية وهي تهش له:

- كن مطمئنًا. وبخصوص المدام؟

فردد كلمتها وقد استوقفته قليلًا:

- المدام؟

- لا شيء بعد؟

- لا شيء بعد. هيا يا ميزي.

فأسرعت إلى جواره. ولكنه لم يقل لها شيئًا وهما في الطريق إلى المقهى.

الفصل الثلاثون

وبعد أن جلسا هناك اختلف الحال: ولم يكن المكان أسفل الفندق، بل بعيداً عنه قليلاً على طول المرسى، وله نوافذ واسعة صافية وأرضية مرشوشة بالنخالة بطريقة أوحى لميزي بمزيد من سحر ملاعب السيرك. وحظيا لنفسيهما بمساحة كبيرة من المسافات الملونة وكراسي القش الحمراء التي شاركهما فيها عدد قليل من الرجال المتناثرين يستاكون أسنانهم وهم يلوون ملامح وجوههم وراء مناضد صغيرة عارية، وشخص واحد على الخصوص مسن جداً يضع في عروة سترته شريطاً أحمر؛ وكانت طريقته في نقع الأروقة الصغير الأسطوانية المغطاة بالزبد في القهوة ثم دسها في البقية الصغيرة الباقية من المسافة بين أنفه وذقنه حريّة في ساعة أقل قلقاً من هذه الساعة أن تثير لدى ميزي حسداً أخاذاً. وتناولوا هما أيضاً قهوتهما باللبن وخبزهما المغطى بالزبد؛ وقد استقر رأيها على ذلك بعد أن سألهما السير كلود: هل هذه التصبيرة الصغيرة تكفيها إلى وقت الغداء. وكانت إشارته إلى هذه الوجبة في هذا المكان الرطب الظليل المرشوش بالنخالة وهو المسرح المعد بنظامه

ومراياه لارتياح أولئك الذين يشذون مثلها عن الساعة المألوفة بإيوائهم إلى الفراش أو نهوضهم منه متأخرين - وقد أتاح لها ما تفكر فيه وهي ترقب الساقى بمرولته البيضاء يقدم في رشاقة أطباقه الصغار والكبار وكأنه حاوٍ صاحبها صديقها ذات يوم في لندن لتراه في أحد الملاهي. وكان السير كلود قد شرع في الكلام مرة أخرى ليحدثها عن لندن وكيف بدت له، وإلى أي مدى شعر من الجهتين بغيبته. وحدثها بكل شيء أيضاً عن سوزان آش؛ ثم بكل شيء عن رحلة عودته وعن المانش في الليل وزحام العابرين وكيف أن من بينهم دائماً أناساً ممن يعرفهم المرء أكثر مما يتوقع. وتحدث عن أمور أخرى أيضاً؛ ولا سيما عما يجب أن تخبره به عما شغلت به مسز ويكس وتلميذتها وقتهما وهو مسافر. ألم تحظيا بالوقت الطيب الذي وعدهما به؟ هل اتضح لهما أنه بالغ على الإطلاق في الترتيبات التي أعدها لسرورهما؟ وكان لدى ميري ما تقوله عن توفيقه في ذلك وعن شكرهما لصنيعه - وإن لم تقل في هذا الصدد كل شيء - فقد كانت أفكارها تزداد في كل لحظة تعقداً، مع إحساسها بأنها لم تره قط في هذه الحالة بالذات التي ارتد بها إليها.

وكانت مسز ويكس قد قالت ذات مرة - وسواء كانت مرة واحدة أو خمسين مرة، فقد كانت في المرة الواحدة كفاية لميري؛ وإن لم يكن المزيد بلا لزوم - إنه متقلب بصورة تثير الدهشة. أجل؛ وإنه كذلك بالتأكيد في نظر الطفلة في هذا المقام؛ فالتقلب هو الصفة الغالبة عليه أكثر من أي شيء آخر. ثم إن وجودهما معاً في حانوت جالسين إلى منضدة صغيرة أنيسة على نحو ما اتفق لهما كثيراً في لندن من قبل، زاد

من اختلاف موضوع اجتماعهما الآن. وكان هذا الاختلاف بادياً في وجهه وصوته بل وفي نظرتة نفسها التي كان يلقيها عليها كلما ألقى بنظرة إليها. فلم تكن هذه النظرات والحركات ما يريد حقاً أن يظهره لها؛ وشعرت أيضاً أنها ليست النظرات والحركات التي تريدها منه. لقد رأت أنه متوتر الأعصاب؛ كما رأت كل امرئ اتصلت به وهو متوتر الأعصاب، ولكنها لم تره قط في مثل هذا التوتر العصبي الذي ينتابه الآن. شيئاً فشيئاً استولى عليها من جراء هذا فزع. ذلك الفزع الذي كان له مدد من البرود الذي شعرت به قبل ذلك مباشرة في الفندق حيث ألفت نفسها لا تصدق ما أجابها به في صدد مسز بيل.. وخيل إليها أنها ترى الآن وتلمس عبر المنضدة وكأنها تضع يدها على ما عناءه عندما اعترف في مناسبات عديدة بالخوف. كما يشعر مثل هذا الرجل بالخوف في كثير من الأحيان؟ ولا بد أنها بدأت تدرك الآن أن ثمة شيئاً واحداً يمكن أن يخاف منه ذلك مثل الرجل، ألا وهو خوفه من نفسه. وعلى كل حال كان خوفه ماثلاً أمامها. وهو في خوفه محبوب إليها وجميل وعطوف عليها وهو يتناول قهوته وخبزه المكسو بالزبد ويتكلم ويضحك بكلام وضحك ليس بكلام وضحك على الإطلاق في نظرها. كان خوفه ماثلاً في صوته المازح المسوف المحرف، وفي أسلوبه المتكلف الذي اصطنعه في خروجه معها محاكياً أيام لهوهما في لندن، محاكياً في الواقع علاقة رأتها بعيني رأسها وهي تتغير عندما رأت مسز بيل تبرز أمامها فجأة في الصالون بالأمس. وتمثلتها تبرز أمامها الآن في هذا المقام، وفي الفترة التي انتظرا فيها المرطبات وصلت ميزي

إلى السؤال الصريح الذي أتاحت أول كلمة صدرت عنه عند دخولهما
فرصة توجيئه:

- هل نتناول الغداء مع مسز بيل؟

وكان جوابه بعيداً كل البعد عن الصراحة:

- أنا وأنت؟

وتراجعت ميزي في كرسيها وقالت:

- بل أنا ومسز ويكس.

وراوغ السير كلود مرة أخرى قائلاً:

- هذا استفسار يا طفلي العزيزة ينبغي أن تجيب عليه مسز بيل
نفسها.

أجل. لقد راوغ ولكنها فجأة شعرت -بعد لحظة بدا خلالها كأنَّ
شيئاً ما معلقاً بينهما يتأرجح في تناقل، فتهب عليهما من أثر تأرجحه
لفحات من الهواء- إن المسألة برمتها تجثم فوقهما، وفجأة قال:

- ألدريك مانع من أن أسألك ماذا قالت لك مسز ويكس؟

قالت لي:

- في اليوم أو اليومين اللذين تغييتهما.

- أتعني بشأنك وبشأن مسز بيل؟

واعتمد السير كلود بمرفقيه على المائدة وثبت عينيه على الرخامة
من تحتها، وقال:

- لا. فأحسبنا خضنا في هذا كثيرًا - أليس كذلك؟ - قبل أن أغادر كما. ويبدو لي أننا تكلمنا عن كل شيء بصراحة تامة. بل أعني بشأنك أنت، وبشأن صحبتك لنا - إن جاز لي هذا القول - وبقائك معنا.. ماذا قالت لك صديقتنا عندما كنت معها بمفردك؟

وأحست ميزي بوطأة السؤال، فلزمت الصمت فترة نظرت فيها إلى السير كلود الذي ظلت عيناه غضيبتين، وأخيرًا أجابته قائلة:

- لا شيء.

فبدأ عليه عدم التصديق وقال:

- لا شيء؟

فكررت ميزي قولها:

- لا شيء؟

وقطع الحديث هبوط خوان يحمل معدات إفطارهما. وكانت هذه المعدات لطيفة ككل شيء آخر، فقد صب الساقى قهوتها من إناء يشبه رشاشة الأزهار، ثم جعلها تزبد بجدول منحني من اللبن الساخن انصب من ارتفاع ذراعه المرفوعة، بيد أن الاثنين ظلا يتبادلان النظرات في جد سقط عنه قناع التظاهر طوال المدة التي استغرقتها هذا الأداء الفرنسي الظريف؛ وصرف السير كلود الساقى مرة أخرى ليأتيه بشيء ما، وعندئذ رد على إجابتها بقوله:

- ألم تحاول أن تؤثر عليك؟

وخيل لميزي وهي أمامه وجهًا لوجه أن ما فعلته في هذا المضمار

كان يسيرًا جدًا بحيث ألفته شيئًا لا يكاد يستحق الذكر، ولذا لزمّت الصمت مرة أخرى لبرهة؛ وبعدها وجدت طريقها الوسطى، فقالت:

- إن مسز بيل تميل الآن إليها. وثمة شيء اكتشفته. شيء عظيم.
إن مسز ويكس سعيدة برقتها البالغة نحوها؛ فقد كانت في منتهى الرقة طوال يوم أمس.

وسألها السير كلود:

- فهمت. وماذا فعلت؟

وكانت ميزي مشغولة الآن بإفطارها، وهجم رفيقها على إفطاره؛
بحيث بدا الأمر كله في ظاهره على الأقل كألفتهما السابقة بل أكثر،
وقالت الطفلة:

- فعلت كل ما استطاعت أن تفكر فيه. فقد كانت لطيفة مثل لطفك
معه؛ وظلت تكلمها طوال النهار.

- وماذا قالت لها؟

- أوه. لا أدري.

فقد حير ميزي إلحافه عليها في معرفة ذلك، ولم يكن ذلك موافقًا
تمام الموافقة لدرجة ألفته الحميمة بمسز بيل تلك الألفة التي ندت بها
مسز ويكس، والتي رده الآن -وعلى حد قول تلك السيدة- مكبلاً في
الأغلال. أليس أدري من ابنة زوجته بما عسى أن يصدر من الأفعال عن
الإنسانة التي يرتبط بها؟ ومع هذا أردفت بعد برهة:

- كانت تقوم نحوها بأفعال الحب.

فنظر السير كلود إليها نظرة حادة؛ ولا شك أن شيئاً ما في لهجتها الذي جعله يقول لها بسرعة:

- أنتِ لا تمانعين في سؤالي إياكِ. أليس كذلك؟

- إطلاقاً. ولكنني أحسبك حريّاً أن تعرف هذا أفضل مما أعرفه أنا.

- ما فعلته مسز بيل أمس؟

وخيل إليها أن وجهه احمر احمراراً يسيراً حدّاً، ولكنها ما إن أحست ذلك حتى ألقت نفسها في الوقت عينه تجيبه قائلة:

- نعم.. إن كنت قد رأيته.

فانفجر في أعلى ضحكة ممكنة وقال:

- ولكنني يا فتاي العزيز قلت لك الآن فقط إنني لم أرها إطلاقاً، اسمعي.. ألا تصدقيني؟

- وكان ثمة شيء تخافه الآن بحيث طغى على كل المخاوف الأخرى؛ وسألته بعد برهة:

- ألم تعد كي تراها؟ ألم تعد -لأنك ترغب دائماً في رؤياها أشد الرغبة؟

وتلقى استفسارها كما تلقى شكها من قبل: بعدم استياء خارق للمألوف:

- في وسعي أن أتصور طبعاً لماذا تظنين ذلك. ولكن هذا لا يفسر إقدامي على ما أقدمت عليه. إن السبب كما قلت لك الآن فقط في المنزل أنك أنتِ التي أردت حقاً وصدقاً أن أراها.

وشعرت للحظة بما ألفت أن تشعر به عندما كانت تتلقى منه، هناك في الحديقة في بيت أمها -أعلى دفعة من دفعات الأرجوحة.. فتعلو وتعلو وتعلو. تلك الأرجوحة التي ركبها هناك لمتعتها والتي تحطمت في النهاية تحت عبء الطاهية وإسرافها في استخدامها:

- هذا جميل. ولكن هل تعني أنك جئت لتراني ثم ترحل مرة أخرى؟

- إن رحيلي مرة أخرى هو لباب المسألة. ولا أستطيع أن أخبرك بعد، فكل شيء يتوقف..

فسألته ميري:

- على مسز بيل؟ إنها لن ترحل.

وعندئذ فرغ من احتساء قدح قهوته، ولما وضعه من يده، مال إلى الوراء في مقعده، فتسنى لها أن تراه يبتسم صوبها، فزادها ذلك اعتقادًا بأنه في مأزق، وأنه يتقلب على نحو ما في ألمه ويحاول أمورًا مختلفة. وظل على ابتسامه، واستطردت هي:

- ألا تعرف هذا؟

- بلى. وأستطيع أن أعترف بهذا مثل اعترافي لك بأنني أعرف أنها لن ترحل. إنها ستبقى.

وكررت ميري كلماته:

- إنها ستبقى. إنها ستبقى.

- بالضبط. أليس لك في مزيد من القهوة؟

- بلى من فضلك.

- ورغيفًا صغيرًا آخر بالزبد؟

- بلى من فضلك.

فأومأ إلى الساقى المحوم حولهما، فجاء بميزاب الوفرة البراق في كل يد من يديه، مبدئاً أشد اهتمام ودي بالآنسة:

- ها هي شرائح الخبز بالزبد.

وأعيد ملء فنجانيهما، وفيما هو يرقب بما يشبه التمعن فقايع ذلك المزيج العبقة، ظل السير كلود يقول المرة بعد المرة:

- بالضبط. بالضبط.

ولما انصرف الساقى قال لها:

- هذا شيء محير للغاية.

- إنها لا تريد أن ترحل؟

- بل كل شيء. حسنًا. حسنًا. حسنًا!

واستجمع جأشه وشرع في الأكل مرة أخرى، ثم قال:

- لقد عدت لأسألك عن شيء. هذا ما عدت لأجله.

فقالت ميزي:

- أعرف ما تريد أن تسألني عنه.

- أواثقة أنتِ جدًا؟

- جدًا على وجه التقريب.

- إذن جازفي بقوله. فلا ينبغي أن تجعليني أنا أجازف بكل شيء.
فأثرت فيها قوة هذه الحجة، وقالت:

- أنت تريد أن تعرف هل سأكون سعيدة «معهما».
فضحك السير كلود وقال:

- مع هاتين السيدتين فقط؟ لا لا يا صاحبي العزيز. لم تصيبي
التخمين. والآن هاك.

- حسنًا. ما المسألة إذن؟

ولكنه في الدقيقة التالية بدلًا من أن يخبرها ما هي المسألة وضع
يده عبر المنضدة على يدها وأمسك بها كأنما هو تحت سلطان فكرة
ما وقال:

- وهل تبقى مسز ويكس «معها»؟

- من دونك؟ أوه. نعم.. الآن ستبقى.

- بسبب ما أشرت إليه توًّا من تغير أسلوب مسز بيل؟

فجعلت ميزي -بوحى من مسؤوليتها- توازن بين تغير أسلوب
مسز بيل وبين ضعف مسز ويكس البشري وقالت:

- أحسبها غيرت لها فكرها بكلامها.

وفكر السير كلود برهة وقال:

- يا للعريزة المسكينة!

- أتعني بذلك مسز بيل؟

- أوه. لا. بل مسز ويكس.

وأسهبت ميزي قائلة:

- إنها تحب أن يحتال الناس عليها بالكلام، وأن تعامل كأى إنسان آخر. فهي تحب التهذيب الشديد، وهو يؤثر فيها تأثيرًا بالغًا جدًا.

وأبدى السير كلود -لدهشتها- بعض الاعتراض على هذا:

- بالغًا جدًا.. إلى حد ما.

فردت عليه ميزي بقولها:

- بل إلى أى حد!

- أو لم أكن أنا مهذبًا معها؟

- جدًا. وهي تعبدك أيما عبادة.

- فلماذا إذن يا طفلي العزيرة لا تدعني وشأني؟

وفي هذه المرة احمر وجه السير كلود احمرارًا لا مراء فيه، وقبل أن تتمكن ميزي مع هذا من الرد على سؤاله، الرد الذي كان لا بد أن يستغرق وقتًا طويلًا، أردف في لهجة أخرى:

- مسز بيل تعتقد أنها ربما تكون قد روضتها. ولكنها لم تروضها.

ومع أنه تكلم بلهجة الواثق، إلا أن ميزي كانت متمسكة بالانطباع الذي أدلت به لتوها، والذي كررته الآن مرة أخرى قائلة:

- لقد غيرت لها فكرها بكلامها.

- أجل. حولتها بكلامها إلى جانبها، لا إلى جانبي أنا.

ولم تطق سماعه يقول ذلك، فصاحت:

- إلى جانبك؟ ألا تؤمن حقاً إلى أي مدى تحبك؟

وفحص السير كلود إيمانه وقال:

- أنا طبعاً أعرف أنها رائعة.

فقالت ميزي:

- إنها مثلي تماماً في شغفي بك. وقد قالت لي ذلك بالأمس.

فهمت بسرعة:

- آه. إذن هي حاولت أن تؤثر فيك! أنا لا أحبها. ألا تدركين ذلك؟

أنا أقدرها تمام التقدير، ولكنني أعني أنني لا أحبها مثلما أحبك، وأنا واثق أنك لا تتوقعين ذلك مني بشكل جدي. إنها ليست ابنتي. افهميني يا صديقتي العزيزة. ولا هي حتى أُمي، وإن كنت أعتقد أنه كان خيراً لي لو أنها كانت أُمي. وأنا مستعد أن أصنع لها ما كنت حرياً أن أصنعه لأُمي، ولكنني لست مستعداً أن أصنع ما فوق هذا.

وانفجر توفزه الحقيقي في رغبة قوية لتوضيح موقفه وتبريره، وإن ظل يحاول مداراة ذلك وتمويهه بالضحك والالتهام وما إلى ذلك من مظاهر الألفة.. وأخيراً باح بما عنده وهو يسمح شاربه بجذبات قوية عائداً إلى موضوع مسز بيل:

- وهل حاولت أن تكسبك بكلامها؟

فقالت ميزي:

- لا. فهي لم توجه لي من الكلام إلا القليل. القليل حقاً.

فبدا على السير كلود أنه فُوجئ بهذا:

- ألم تكن لطيفة إلا مع مسز ويكس؟

فصاحت ميزي:

- كالسكر.

فبدا عليه التفكه بهذا التشبيه، ولكنه لم يجادلها فيه. بل تفوه على العكس بصوت يسير غير واضح المقاطع على سبيل التأمين، ثم قال:

- أنا أعرف ماذا تستطيع أن تكون. ولكن ما أكثر ما أجدى عليها هذا. إن مسز ويكس لن تنقاد. وهذا ما يجعل الموقف حرجًا للغاية.

وكانت ميزي تعلم أن الموقف في غاية الحرج، وشعرت الآن أنها كانت تعرف ذلك منذ مدة، وكانت ثمت شيء آخر يلح عليها اهتمامها بمعرفته:

- وما الذي جئت خصيصًا لتسألني عنه؟

فقال السير كلود:

- هذا ما كنت على وشك أن أقوله. والحقيقة أنه سيدهشك ما ستسمعين.

وكانت قد فرغت الآن من إفطارها، وتراجعت إلى الخلف في مقعدها مرة أخرى، وانتظرت في صمت ما سيقول. وكان قد دفع ما أمامه من الأشياء قليلًا، ووضع مرفقيه على المنضدة، وأحست بالاعتناء بأنها تعرف ما سوف يحدث، ومرة أخرى كتبت أنفاسها وقاربت بين أجفانها استعدادًا للصدمة، كما فعلت وهي مع مسز ويكس أخيرًا في

حجرتها. كان على وشك أن يقول لها أنها يجب أن تتخلى عنه، ونظر إليها مرة أخرى نظرة قوية؛ ثم بذل غاية جهده ليقول:

- هل يسعك أن تدعيها ترحل؟

وتحيرت فسألته:

- أَدع من؟

- مسز ويكس طبعًا. وأنا أضع الأمر في أسوأ صورة. هل يسعك أن تضحي بها؟ وأنا طبعًا أعرف ماذا أطلب منك.

وفتحت ميزي عينيها على سعتهما مرة أخرى، فقد كان هذا مختلفًا أشد الاختلافات عما توقعته وسألته:

- وأبقى معك وحدك؟

فدفع فنجان قهوته دفعة أخرى، وقال:

- معي أنا ومسز بيل. وسيكون الأمر بطبيعة الحال غريبًا جدًّا؛ ولكن كل شيء في قصتنا كلها شديد الغرابة كما تعلمين. فأني شيء أغرب من أن يتخلى أبوا أي فتاة عنها كما تخلى عنك أبواك؟

ووافقته ميزي على رأيه، مستريحة لسماع مثل هذه العبارة التي تزيهها الموافقة عليها:

- ما من شيء أعجب من هذا!

واستطرد السير كلود:

- وبطبيعة الحال سيكون مجافيًا للمألوف ذلك التكوين الأسري

الذي يتكون من ثلاثتنا. ولكن الأمور تجاوزت هذا المدى. ألا ترين هذا؟ لقد تجاوزت الأمور هذا المدى منذ زمن طويل. وسنبقى في الخارج على كل حال، فهذا أسهل، ثم إن المسألة مسألتنا نحن من دون جميع الناس. وليس لأحد بها شأن على وجه الأرض سوانا. ولست أقول هذا القول بسبب مسز ويكس؛ تلك العزيزة المسكينة؛ فأنا أقدرها كل التقدير وأحترمها وأفهم ما ترمي إليه. وقد أسدت لي الكثير من الخير. ولكن ها هي الوقائع بكل بساطة، وهأنذا وأنت. وهي لن تغير رأيها وهي على صواب في وجهة نظرها. وأنا أتحدث إليك بأغرب أسلوب ممكن، والحق أنني أتحدث إليك دائماً بأغرب أسلوب ممكن. أليس كذلك؟ حتى ليظن المرء أنك في الستين أو نحوها وأنتي.. لا أعرف ماذا عسى أن يظن أي إنسان.. سوى أنني وغد منحط؟ لقد انتابني قلق فظيع؛ وهذا ما تمخض عنه الموقف. فقد أسديت أنت إلينا أجزل خير ممكن، وستؤدينه لنا الآن وعلى الدوام. ألا تفهمين؟ إننا لا نستطيع أن ندعك ترحلين، لأنك كل شيء. ها هي الوقائع. إنها الآن أمك - أعني مسز بيل - نتيجة لما حدث؛ وأنا - من نفس الوجهة - أبوك. وليس لأحد أن يماري في هذا، ولا مناص لنا منه. وأنا أقترح مكاناً صغيراً لطيفاً في موقع بالجنوب حيث تعيشان أنت وهي معاً على خير ما يرام. وكذلك سأكون أنا - ألا ترين؟ لأنني لن أستطيع الإقامة معكما؛ إلا أنني سأكون عن كذب منكما؛ على قيد خطوتين، وكأني مقيم معكما تماماً. وفي رأيي أن المسألة يجب أن تكون واضحة تماماً وصريحة؛ وليلحق العار بمن يسيء الظن. وأنت أفضل شيء - أنت وما نستطيع أن نصنعه لك - عرفه كلانا.

واستطرد يقول:

- وعندما أقول لها «تخلي عنها» تصرخ في وجهي: «تخل عنها أنت» وتدور في حلقة فاسدة^(١)، وحين أقول «فاسدة» لا أقصد التورية. ومسز ويكس هي العقبة. أعني طبعًا إن كانت قد أثرت على تفكيرك. وهي قد أثرت على تفكيري «أنا». ومع ذلك فهأنذا. ولم أكن في يوم من الأيام في مثل هذا المأزق، فأرجو أن تصدقيني إذ أقول لك إن هذا وحده هو الذي يحملني على أن أضع الأمور أمامك على هذه الصورة. أليس هذا الوضع يا طفلي العزيزة هو المخرج الوحيد من المأزق؟ لقد خطر لي هذا بالأمس وأنا في لندن بعد رحيل مسز بيل؛ وكنت قد قضيت أفظع يوم جهنمي؛ قلت لنفسِي: «سافر فورًا وضع هذه الفكرة أمامها، ودعها تختار لنفسها بكل حرية» وهأنذا يا فتاتي العزيزة قد فعلت ذلك؛ ووضعت الأمر أمامك. فهل تستطيعين أن تختاري بحرية؟

وكان هذا الكلام قد تفوه به السير كلود في بطاء وتقطع؛ وهو يتململ ويتلعثم، ويسكت ثم يستطرد، وقد تزاхمت الألوان على محياه وظهرت في عينيه نظرات حرج يطغى عليه توسل؛ فمس الطفلة عن كُتب؛ حتى إنها استطاعت بعد الصدمة الأولى أن تتبين وجهته، وتتبعها من نقطة إلى نقطة، ولا سيما لأن كلامه ارتد في النهاية إلى نقطة الابتداء؛ وكانت ثمة كلمة ظلت تنطن طوال المدة التي استغرقها الكلام:

(١) اللفظ الاصطلاحي العربي «حلقة مفرغة»، ولكن الكلمة بالإنجليزية تعني فاسدة أيضًا، ومعنى الفساد هو الذي يشير إليه المؤلف بعد ذلك. «المترجم».

- هل تسمي ذلك «تضحية»؟

بمسز ويكس؟ أنا مستعد أن أسميها بأي اسم تختارينه لها. ولن أجبن أمامه. أنا لم أجبن أمام شيء. أليس كذلك؟ سأوجهه أيًا كانت وضاعته. هل خطر لك أنها وضاعة مني أن أبعدك عنها وأقوم بتهريبك إلى هذا الركن كي أرشوك بالأغاليط والخبز المكسو بالزبد لتخونيه؟

- لأخونها؟

- أجل.. لتفارقها.

وتركت ميزي السؤال معلقًا؛ لأن الصورة المحسوسة التي تبدي بها كانت أشد جوانبه حيوية، ثم سألته:

- وأين تذهب إن أنا فارقتها؟

- تعود إلى لندن.

- بل أعني ماذا ستصنع؟

- فيما يتعلق بهذا لست أزعم أنني أدري. فأنا لا أدري. وكل إنسان لديه متاعبه.

وبدا لها هذا القول في تلك اللحظة أعجب من المعتاد، فسألته:

- ومن الذي سيتولى تعليمي إذن؟

وضحك السير كلود وقال:

- ما تعلمك إياه مسز ويكس؟

فارتسمت ابتسامة واهنة؛ وقد أدركت ما يرمي إليه:

- إنه ليس بالشيء الكثير جدًّا..

فأجابها قائلاً:

- بل هو شيء قليل جدًّا، حتى إنه من الواجب علينا أن ننظر في صدده بعين الاعتبار. ولعلنا نأتي لك بمربية أخرى. ثم إننا لن نستطيع الحصول على مربية من الطراز الوحيد الذي يعول عليه. لن يفلح الطراز الذي يعول عليه.

وفسر لها ذلك بقوله:

- أعني أنهم لن يرضين بالبقاء. وسنقوم نحن بالمهنة بأنفسنا. وخصوصاً أنا. فأنا الآن أستطيع ذلك؛ وليس عليّ أن أبالي كما كنت أبالي سابقاً. لم أتجنب النزال كما كنت أفعل، لأنها تستطيع الآن أن تظهر معي. فعلاقتنا في مجموعها أقرب إلى السواء.

بل بدت لها هذه العلاقة سوية بصورة رائعة من طريقة حديثه عنها. ومع هذا تراءت لها صورة هذه العلاقة - وهي تتفحصها قدر استطاعتها - مزيجاً بارز المعالم: فثمة امرأة عجوز وفتاة صغيرة جالستان في سكون عميق فوق مقعد عتيق رث قرب التحصينات في أعالي المدينة. وفي مثل هذه الساعة تماماً بالأمس كانتا يدًا في يد؛ وقد ذابت مشاعرهما وامتزجت. وأخيراً قالت ميري:

- لا أحسبك استطعت أن تفهم بعد إلى أي حد تتعلق بك.

- بل أفهم ذلك. أفهمه. ولكن مع هذا كله..

وأطلق زفرة نفاذ صبر كظيمة. زفرة إنسان استطاعت رفيقته أن

تدرك أنها زفرة رجل تعود أن يسمع هذه الحجة؛ رجل يريد أن يكون معقولاً بيد أنه سيتحمل ما لا طاقة له به إن هو اكرث بكل هذه الأمور. والواقع أنه يفهم الموقف تمام الفهم، ولئن تعلق به مسز ويكس، فهذا سبب أدعى كي ينفذ عنه مسز ويكس.

وشغلت سيدتنا الصغيرة بتصور ما جلبته عليه، في حين نادي الساقى ليسأله عن الحساب ودفع إليه بقطعة ذهبية مضى به الرجل ليفكها. وتابعه السير كلود بنظره، ثم قال:

- كيف لامرأة بأن تلوم رجلاً على ما هو أهون من هذا؟ أعني فيما يتعلق بها.

وفكرت ميزي في السؤال:

- نعم. كيف لها بهذا؟ إذن لماذا أنت واثق برحيلها؟

- وأنتِ يقيناً قد سمعت السبب. لقد سمعتها تفصح عن نيتها منذ عدة ليالٍ؟ فكيف يسعها سوى الذهاب، بعد الذي قالته حينئذ؟ لقد فعلت ما أرادته مني؛ وكانت على صواب تماماً. وها نحن أولاء.. وميلها إلى مسز بيل - كما تقولين الآن - باعث كاف، بالإضافة إلى أمور أخرى؛ كي يجعلها إكراماً لك تبقى دون بقائي. ولكنه ليس باعثاً كافياً كي يجعلها - ولو إكراماً لك - تبقى مع بقائي، وأن «تبلع» ما لا تستطيع ابتلاعه. فإذا قلت إنها متعلقة بي كتعلقك بي؛ أحسبني مستطيعاً أن أتحداك في هذا الصدد بعض الشيء. هل تقبلين البقاء مع هاتين الاثنتين فقط من دوني؟

وعاد الساقى ببقية النقود، فأناح ذلك لها مهلة، ثم انصرف بالهبة التي تلقها بالشكر بعد أن أوماً إليها السير كلود بسبابته، وفيما كان السير كلود يدس النقود في جيبه واصل مناشدته لها:

- هل أنت حُرِيَّةٌ أن تسمحى لها بحملكِ على الحياة مع مسز بيل؟
وعندئذ أجابته ميري:

- من دونك؟ مستحيل. ومستحيل.

- فأحس بالنصر؛ واهتزت هي شخصياً لما سمعت. وصاح:

- ها أنتِ ترين أنكِ لست مثلها مستعدة للتخلي عني.

ثم عاد إلى سؤاله الأصلي:

- هل في استطاعتكِ أن تختاري؟ أعني هل في وسعكِ أن تحسمي
المسألة بكلمة منك؟ هل تقبلين البقاء معنا من دونها؟

وشعرت الآن ببرودة فرعها؛ وخيل إليها أنها عرفت فجأة ما الذي تخافه؛ كما تعرف ما الذي يخافه السير كلود. كانت خائفة من نفسها؛ فنظرت إليه بطريقة جعلت الدهشة تقفز إلى محياه بحيث تبيتها فيه. إلا أنها كانت دهشة يكبح من جماحها ما عقد عليه عزمه الصريح من توخي الأمانة معها. وألا يستغل عواطفها نحوه، وإلا يتعجلها، وإنما مراده فقط أن يضع أمامها الفرصة المتاحة لها بوضوح وحنان. وأخيراً سألته:

- هل لي أن أفكر في الأمر؟

- بالتأكيد. بالتأكيد. كم من الوقت يلزمكِ للتفكير؟

فقلت بدمائة:

- أوه. فترة يسيرة فقط.

فبدا عليه برهة أنه يريد أن يظهر المرح والسرور، وقال:

- ولكن ماذا نصنع في المدة التي تفكرين فيها؟

وكأنما التفكير يمكن أن يتفق مع أي لون من ألوان التسلية تقريباً، ولم يكن ثمة شيء واحد تريد ميزي أن تصنعه، وبعد لحظة أعربت عنه قائلة:

- هل يجب أن نعود إلى الفندق؟

- أتريدين العودة؟

- أوه. لا.

فأرخى عينيه ناظرًا إلى ساعته، وقد اكتسى وجهه طابع الجد:

- لا ضرورة لذلك إطلاقًا. ففي وسعنا أن نصنع أي شيء في الدنيا.

ونظر إليها مرة أخرى وكأنه على وشك أن يقول لها إن في وسعهما مثلاً التوجه إلى باريس. ولكن حين كانت تتساءل هل سيحدث هذا فعلاً هبطت حماسه فجأة، وقال:

- في وسعنا أن نتمشى.

وكانت مستعدة لذلك، بيد أنه ظل جالسًا وكأن لديه ما يقوله أكثر

مما تقدم. ولكن هذا أيضًا لم يتمخض عن شيء، فقلت:

- أحسبني أحب أن أرى مسز ويكس أولاً.

- قبل أن تصدري قرارك؟ وهو كذلك. وهو كذلك.

وكان قد ارتدى قبعته، ولكنه انتظر حتى أشعل سيجارة، ولبث دقيقة يدخن، وهو ملقٍ برأسه إلى الوراء ناظرًا صوب السقف، ثم قال:
- ثمة شيء يجب أن تتذكره: من حقي أن أفرض عليك إدراكه: إننا في مقام والديك بالضبط، فقصورهما وخساستهما الخارقة للمألوف هما اللذان تسببًا في نشوء مسؤوليتنا. فلم يسبق لشخص حديث السن أن عهد به مباشرة على هذه الصورة..

وكان كمن يفضي بهذا الكلام إلى السقف، من خلال دخانه، لمعلوماته الخاصة، وبعد برهة من التوقف استطرد:

- وإن كنت أعترف أن ذلك حدث بالنسبة لكل منا على حدة.

وزودها بإحساس شديد -في تلك اللحظة في ذلك الموقف- برغبته في أن يقف في جانبها -ذلك الجانب الذي يعتبره من جميع الوجوه أصوب وأحكم وأبدع الجوانب بالنسبة لها- حتى إنها شعرت برغبة مفاجئة في أن تثبت أنها ليست أقل شهامة ولا أقل قلقًا على مصالحه. وما هذه المصالح ما لم تكن الحالة «السوية» التي تحدث عنها منذ قليل؟ وبهذه الروح الجادة قالت له:

- كان ذلك إلى كل منكما على حدة. ولكن ألا تذكر؟ أنا التي جمعتُ بينكما.

فوئب واقفًا يضحك في جذل:

- ألا أذكر؟ بلى. لقد جمعتِ بيننا. أنتِ التي جمعتِ بيننا. هيا بنا.

الفصل الحادي والثلاثون

بقيت معه في الخارج مدة من الزمن، لم تستطع أن تقدر مداها إلا بأنها كانت أقصر مما أرادت لها أن تكون. أقصر من أن تكون فاصلاً، وحاجزًا حاسمًا لا يمكن تخطيه. فقد شرعاً يتجولان، ويتلكان، ويتطلعان إلى واجهات الحوانيت، وفعلاً كل ما كانا يفعلانه سابقاً كأنهما يريدان بذلك أن يستردا الأمان القديم، وينفضا عنهما شيئاً كانا يجدانه في نفسيهما من قبل. وكان ذلك يحدث لهما فيما مضى من غير محاولة. ولكن شيئاً لم يحدث الآن سوى الإحساس المتوتر بالطلب، وبالخداع. وأغرب ما في الأمر كله ما حدث بالفعل لذلك الأمان القديم. وقد صار السير كلود وصارت مسز بيل حرة، ومع هذا فإن «الوسط» الجديد أشد إعناتاً من الوسط القديم. ووسعها أن تشعر بأن السير كلود يوافقها على أن ذلك الإعنات حريٌّ أن يكون على أشده في النزول، حيث سيحسان -إلى أن تسوي الأمور- بالحاجة إلى شيء ما.. شيء ماذا سيسميانه إن لم يسمياه أساساً مستقراً؟ وزاد تبلج موضوع التسوية أمام ناظرها. واختيارها كما سماه صديقها ماثل أمامها وكأنه مسألة حساب عسيرة مكتوبة على اللوح، مسألة مهما تعللت بالتفكير فهي لا تفعل سوى

التملص منها وهي تتجول بجانبه. يجب أن تقابل مسز ويكس قبل أن تحل مسألتيها. ولذا فكلما طالت المدة قبل أن تقابلها بعدت الشقة أيضًا بينها وبين محتتها. ولم تواجه أي مطلب من المطالب التي تواجهها، بل تحاشت ذلك بالاستغراق في صحبة السير كلود لم تر شيئًا مما كانت تراه من قبل. لم تر أي لمسة في الصورة الأجنبية من اللمسات التي كانت تتراءى لها دائمًا. وكانت اللمسة الوحيدة التي أحست بها هي لمسة يد السير كلود، فكان إحساسها بيدها وهي في يده هو مقاومتها الصامتة للزمن. ومضت في طريقها لا ترى شيئًا، وكأنه يقودها وهي مغمضة العينين. فلئن كان خوفهما من نفسيهما، فنفساهما هما اللتان سيجدانهما في النزل. إنها موقنة الآن أن ما ينتظرهما هناك هو الغداء مع مسز بيل. وكانت غريزتها بأسرها تدعوها إلى تجنب ذلك، وأن تطيل سيرهما وأن تجد المبررات كي تأخذه إلى الشاطئ، وإلى نهاية رصيف الميناء. ولم يقل لها كلمة أخرى عن الموضوع الذي تحدثا فيه على مائدة الإفطار. وتكون لديه تصور غامض عن كيف أن طريقته في عدم تركها تراه ينظر بوضوح إلى أي شيء من جانبها، يمكن أن تجعل أي إنسان يعرف عن هذه المسألة شيئًا -وليكن مسز ويكس مثلاً- يظنه سيدًا مهذبًا أكثر من أي وقت مضى. أجل إنه مرة أو مرتان على حاجز الأمواج، وعلى الرمال تطلع إليها دقيقة بعينين كأنهما تقترحان عليها أن تمضي معه على الفور إلى باريس. ولكن ذلك لم يكن من شأنه مع هذا أن يخزها في صدد مسؤوليتها. فلا شك في أنه يرمي إلى المطل مثلما رمت هي إليه؛ ولم يكن أكثر تعجلًا منها على الإطلاق للعودة

إلى الآخرين.. ووسع ميزي في تلك اللحظة أن تكون عديمة الرحمة سرًا بمسز ويكس، إلى حد أنها لم تبال بأن يحسب استمرار اختفائها قلقًا لتلك السيدة على ما عسى أن يكون حدث لها، بل إنها ربما شرعت تتساءل عن هذين الشاردين وهل عساهما وجدا خلاصهما. ولم يكن افتقارها إلى الرحمة بخصوص مسز بيل أقل من هذا؛ لأن قلق مسز بيل وتساؤلها حريان أن يكونا في جسامة الغاية التي يتجهان الآن صوبها. وعند الطرف الأقصى للشاطئ الذي اجتازاه مرة وسط زحام متعدد الألوان صاح السير كلود فجأة وهو ينظر إلى ساعته ينبهاها إلى أن الوقت قد حان للعودة إلى المائدة العامة، بل للذهاب إلى المحطة لاستقبال صحف باريس. وعندئذ ألقت نفسها تفكر أشد التفكير فيما عسى أن تقوله مسز بيل ومسز ويكس. وفي طريقها إلى المحطة تراءت لذهنها صورة زوج الأم والتلميذة، وقد استقر بهما المقام في مكان صغير بالجنوب، في حين أقامت زوجة الأب والمربية في الشمال، وظل الطرفان مرتبطين بجامعة مشتركة بينهما من الذهول ومن التعليقات التي لا نهاية لها التي سيثيرها هذا الوضع. وصلت صحف باريس، ولم يكن ما اشتراه رفيقها في إسراف غريب أقل من إحدى عشرة صحيفة، وقد استغرق تحويمهما حول مكان بيع الصحف والكتب فوق الرصيف الفائز بالحركة بعض الوقت، وكانت المجلدات الصغيرة المصفوفة كلها صفراء وقرمزية، واستطاعت إحدى العجائز الأثريات عندها وهي ذات قلنسوة من القلنسوات العتيقة الأثيرة عندها أن تستدرجه إلى شراء ثلاثة منها، وصار حملهما كبيرًا جدًّا، بحيث خُيِّلَ إليها أن الأبسط أن

يقوما رأسًا بمثل هذا الزاد برحلة يخترقان بها فرنسا، وذلك بأن يندسا
-على حد تعبيرها نفسها- في عربة القطار الواقع على مسافة يسيرة في
انتظار القيام. وسألت السير كلود عن وجهة القطار فقال:

- إلى باريس. تصوري!

وكان في وسعها أن تتصور ذلك بمنتهى اليسر. ووقفها هناك،
وابتسما هو بجميع الصحف تحت إبطه، وهي بالكتب الثلاثة وأحدها
أصفر والاثنان الباقيان أحمران. وكان قد أخبرها أن الأحمرين لها، وأن
الأصفر لمسز بيل، ملمحًا بأسلوب رشيق إلى أن هذه هي طريقة لتقسيم
الطبيعية في فرنسا للتمييز بين أدب الصغار وأدب الكبار. وكانت مدركة
لمبلغ استعدادهما لركوب القطار من حيث المظهر، وسرعان ما قالت
لرفيقها:

- أتمنى لو استطعنا أن نساfer: أفلا تأخذني؟

وواصل ابتسامته:

- وهل تأتين معي حقًا؟

- أوه نعم. أوه نعم. جرب!

- أتريدني مني أن أبتاع تذكرتين؟

- نعم. ابتعهما.

- من دون أيما أمتعة؟

فأرته ما يملأ حضنيهما، وابتسمت له كابتسامته لها، بيد أنها كانت
شاعرة بأنها كانت أشد فرحًا من أي وقت مر بها في حياتها حتى لقد

خُيِّلَ إليها أنها ترى شحوب وجهها كما لو كانت تنظر في مرآة. ثم أدركت أن الشحوب الذي تراه أمامها إنما هو شحوب السير كلود، فهو إذن مرتاع كارتياعها. وسألته:

- أليس لدينا من الأمتعة الشيء الكثير؟ هات التذكرتين. أليس ثمة وقت؟ متى يقوم القطار؟

والتفت السير كلود إلى حمال وسأله:

- متى يقوم القطار؟

فنظر الرجل إلى ساعة المحطة وقال:

- بعد دقيقتين. هل حجز السيد مكانه؟

- ليس بعد.

- وتذكرناكما؟ ليس أمامكما وقت للحصول عليهما.

وبعد أن ألقى نظرة على ميزي، قال:

- أيريد السيد أن آتية بهما؟

فالتفت إليها السير كلود وسألها بالفرنسية:

- أتريدان أن يأتينا بتذكرتين؟

فحدث لها أعجب شيء في الدنيا: ذلك أنها في غمرة توفرها لم تفهم كل ما تفوه به من حديث باللغة الفرنسية فحسب، بل إنها اندمجت في ذلك الحديث أيضًا على أتم وجه؛ فخاطبت الحمال رأسًا قائلة بالفرنسية:

- هاتهما. هاتهما. أوه. هاتهما!

- آه. ما دامت هذه إرادة الأنسة..

وانتظر الرجل أن تمتد إليه يد بالنقود؛ إلا أن السير كلود لبث
يحملق فيها بوجهه الشاحب، ثم قال:

- أنتِ إذن قد اخترتِ؟ ستدعينها ترحل؟

فحولت ميزي نظراتها إلى القطار باشتهاء، حيث كانت أطلت
الرؤوس من النوافذ وشفقت الأبواب بين صيحات:

- اركب. اركب!

وقال الحمال في إلحاح:

- آه. لم يعد لديكما ما يكفي من الوقت!

وصاحت ميزي:

- إنه يتحرك. إنه يتحرك!

وراحا يرقبانه وهو يتحرك. ثم وهو يقوم. ثم ذهب الرجل لحال
سبيله وهو يهز كتفيه، وقال السير كلود:

- لقد مضى!

وزحفت ميزي فوق الرصيف مسافة ما؛ ووقفت هناك وظهرها
إلى رفيقها، تتابع القطار بعينها وهي تحبس الدموع؛ محتضنة كتبها
الحمراء والصفراء. وكان قد انتابها فزع حقيقي، بيد أنها ثابت إلى
أرض الواقع. والمعجب أن خوفها وقع بوقوعها على الأرض وتحطم.

لقد ذهب عنها فزعها، وتلفتت حولها أخيراً، من حيث وقفت، لترى ماذا حدث لفزع السير كلود، فإذا به لم يفارقه، بل جلس معه على المقعد الخشبي الملاصق لجدار المحطة الذي انسحب السير كلود إليه وأسند في جلسته ظهره حيث لبث ينتظرها، وقد ألقت منظره غريباً؛ فذهبت إليه، وراح يواصل محاولاته العقيمة في المزاح، فقالت له:

- نعم. لقد اخترت. سأدعها ترحل إذا أنت.. إذ أنت..

وتلعثمت، ولاحقها بسرعة:

- إذا أنا.. إذا أنا..؟

- إذا أنت تخليت عن مسز بيل.

فهتف:

- أوه!

فبينت من ذلك مدى خوفه خوفاً يائساً. وكانت قد ظنت في المقهى أن خوفه ناجم عن تمردِه واستجماع دوافعه. ولكن كيف يكون ذلك وغواياته - كغواية القطار الذي فاتهما لتوه مثلاً - هينة إلى هذا الحد بعد كل شيء؟ لقد كانت مسز ويكس على حق. فهو خائف من ضعفه.. ضعفه هو مصدر خوفه.

ولم يكن في وسعها أن تخبرك ذلك كيف وصلا إلى النزل: بل كان قصارها أن تقول لك إنهما حتى من هذه الناحية لم يكن مسيرهما إلى هناك رأساً، بل تجولا مرة أخرى وتسكعا، فألفيا نفسيهما في غضون ذلك على حافة رصيف المرسى حيث كانت السفينة الذاهبة إلى

فولكستون واقفة، وأمامها على ما يظهر نصف ساعة قبل الرحيل. فظلاً يتلكأ هناك كما تلكأ في المحطة، وتبادلاً الصمت مرة أخرى؛ ولا شيء غير الصمت. وكان المواظبون على المواعيد من الركاب قد اعتلوا ظهر المركب ليتخيروا من الأمكنة أفضلها، وظفر بعضهم بمرادهم فعلاً واستقروا متدثرين بالشيلان مولين وجوههم شطر إنجلترا، ورئيس الخدم الذي يتفرغ في يوم كهذا للمهام اليسيرة منصرف إلى لف أقدام السيدات بالدثارات وفتح الزجاجات محدثاً بفتحها فرقعة. وجعلاً ينظران إلى هذه الأمور كلها من غير أن يتفوها بكلمة، بل وتخيروا مكاناً حسناً لشخصين ظل شاغراً في حمى زورق النجاة؛ فلئن ظلاً في تسكعهما الأبله لا يقرران الصعود إلى المركب ولا يقرران الانصراف، لأن السير كلود وهي معاً لم يهما بالحركة. وكان السير كلود هو الذي فرض هذا السكوت المطبق الذي كانت تعرف ما يعنيه به تمام المعرفة. إنه يعني ببساطة أنه يعرف كل ما تعنيه هي. إلا أنه لم يكن ثمة ادعاء للمزاح في الوقت الحاضر، فوجهاهما صارمان مجهدان. وعندما انصرفا متمهلين في سيرهما آخر الأمر أحست كأن خوفه من ضعفه ينبخ فوقهما ماضيين في طريقتهما على طول المرفأ. وفي بهو الفندق رأت عند دخولهما صندوقاً رثاً عتيقاً عرفته؛ ووعاء قديماً تتدلى منه بطاقات تعرفها أيضاً، مكتوب عليه حرف «و» كبير الحجم، أعيد طلاؤه أخيراً، فبدا كأنه يحملق فيها بما يدل على معرفته إياها، بل بشيء من الارتياب على طريقته الخاصة. وراه السير كلود أيضاً؛ وانتابهما كليهما الاضطراب حين أبصرا ذلك الشيء على أهبة التحرك. فهل مسز ويكس

مزمنة أن ترحل، وهل ارتفعت مسؤولية التخلي عنها فجأة عن كاهل تلميذتها؟ وتسمرت تلميذتها ورفيق تلميذتها في مكانهما برهة أمام هذا النذير؛ وقد سادهما تفاهم أعمق مما استولى عليهما أمام قطار باريس وأمام باخرة المانش. ثم صعدا رأسًا بعيدًا عن أنظار من في الطبقة السفلى انهارت قواهما، حتى إنهما اضطرا إلى الطبقة العليا من غير أن ينسبا بكلمة واحدة. وهناك؛ عند رأس السلم، للقعود معًا التماسًا لسند، فجلسا على الدرجة العليا في حين أمسك السير كلود بيد ابنة زوجته وضغط عليها ضغطة لعلها كانت حرية في مناسبة أخرى أن تجعلها تصرخ، وتبعثرت كتبهما وصحفهما جميعًا، وقال:

- لقد خالتكِ تخليتِ عنها!

فقالت ميري:

- إذن يجب أن أراها. يجب أن أراها.

- لتقرئها الوداع؟

فلم تزد الطفلة على أن كررت قولها:

- لا بد أن أراها. لا بد أن أراها.

وجلسا بعد ذلك برهة والسير كلود قابض على يدها تلك القبضة المشددة ونظره مشيح عنها ملقيًا به إلى أسفل السلم إلى حيث كانت ترن الأجراس الكهربائية وراء ثنية السلم ويهب نسيم البحر. وأخيرًا خفف قبضته عنها ونهض قائمًا فنهضت مثلما نهض؛ وسارا معًا على طول الدهليز، إلا أنه وقف مرة أخرى قبل أن يبلغا الصالون وسألها:

- إذا أنا تخليت عن مسز بيل؟
- خرجت معك على الفور مرة أخرى، ولم أعد إلا بعد رحيلها.
- وبدا عليه العجب:
- إلا بعد أن ترحل مسز بيل؟
- ونطق بعبارة كأن المسألة مزحة سخيفة، فقالت:
- بل أعني بعد أن ترحل مسز ويكس.. على تلك السفينة.
- فبدا السير كلود كالأبله وسألها:
- أهى مسافرة على تلك السفينة؟
- فاستطردت ميري:
- أظن هذا. بل إنى لن أقرئها الوداع؛ وسأبقى في الخارج إلى أن
تقلع السفينة. سأصعد إلى التحصينات العتيقة.
- التحصينات العتيقة؟
- سأجلس على ذلك المقعد الخشبي القديم الذي تشاهد منه
العذراء الذهبية.
- فردد قولها في غموض:
- العذراء الذهبية؟
- ولكنه لم يلبث أن أرتد إليها ببصره، كأنما استطاع بعد برهة أن
يتبين المكان والشيء الذي ذكرته له بهذا الاسم. وأن يتبينها جالسة
هناك وحدها؛ وقال:

- إلى أن أقوم أنا بقطع صلتى بمسز بيل؟

- إلى أن تقطع صلتك بمسز بيل.

فندت عنه زفرة طويلة عميقة مكتومة؛ وقال:

- يجب أن أراها أولاً.

- ألن تفعل مثلما أفعل، فتخرج وتنتظر؟

وبدت عليه الحيرة مرة أخرى وقال:

- انتظر؟

فقالت ميزي:

- إلى أن تكون كلتاهما قد رحلتا.

- متخليتين عنا؟

- متخليتين عنا.

يا للوجه الذي بدت عليه لحظة علائم تساؤله إن كان ذلك في الإمكان. بيد أن تساؤله لم يزد على أن دفع في اللحظة التالية صوب الباب. ووقف ويده على القبض كأنه يتسقط الأصوات. وأصغت ميزي فلم تسمع شيئاً. فكل ما سمعته بعد قليل هو قول السير كلود بتفكير كظيم وبحيث لا يسمعه من الصالون.

- مسز بيل لن ترحل.

وما إن قال هذا، حتى دفع الباب ففتحه فدخلت منه معه، فإذا الصالون خاو. ولكن السيدة التي ذكر اسمها أخيراً لم تلبث أن ظهرت

على باب حجرة النوم كأنما استشعرت دخولهما، فسألها:

- أهى راحلة؟

وأقبلت مسز بيل بعد أن ألفت بابها وراءها، وقالت:

- لقد جرى لي معها اليوم أغرب نزاع. وكانت قد أخبرتني بالأمس أنها ستبقى.

- ثم غيرّ وصولي من قرارها؟

- أوه. لقد أدخلنا ذلك في حسابنا.

واحمر وجه مسز بيل؛ ولم يكن الاحمرار مما يوافقها إطلاقاً؛ ونمّ وجهها بوضوح على الصدام الذي أشارت إليه. وكان جليّاً مع هذا أنها لم تخرج منه مهزومة، فشمت برأسها وفركت يديها بصورة تنافس حركات ربة المنزل، وقالت:

- لقد كان وعدّها لي أنها ستبقى في حالة قدومك.

- إذن لماذا غيرت رأيها؟

- لأنها كلبة! إن السبب الذي أدلت به شخصياً أنكما لبثما في الخارج مدة أطول مما ينبغي.

وحملق السير كلود وقال:

- وما علاقة هذا بذلك؟

فاستطردت مسز بيل:

- لقد لبثما في الخارج دهرًا؛ ولم أستطع شخصياً أن أتصور ماذا

حدث لكما. لقد غبتما طول فترة الصباح، وها قد انتهى الغداء منذ وقت طويل.

وبدا على السير كلود عدم الاكتراث بها، وسألها:

- هل نزلت معك مسز ويكس؟

فازداد احتقان وجه مسز بيل -على ما بدا لميزي- وقالت:

- لم تتزحزح من مكانها على الإطلاق. انطوت على حزنها هناك، وأبت حتى أن تخرج إليّ، ولما أرسلت في دعوتها رفضت أن تظهر وقالت إنها لا تريد شيئاً، فنزلت وحدي، ولكنني عندما صعدت وقد تعبت لحسن الحظ بعض الشيء.

وهنا ابتسمت مسز بيل ابتسامة نزال وأردفت:

- كانت قد برزت إلى الميدان؟

- وهل وقعت بينكما مصادمة كبيرة؟

فأقرت بذلك في صراحة عظيمة:

- وقعت بيننا مصادمة كبيرة. والآن أريد أن أعرف أين كنتما طيلة الوقت الذي تركتmani فيه أواجه هذا الأمر وحدي!

وتوقفت في انتظار الجواب. ولكن السير كلود لم يزد على أن نظر إلى ميزي نظرة زادت تحديها اشتعالاً:

- في أي بلية كنتما؟

فأجابها السير كلود:

- يبدو أنك تأخذين هذا الأمر مأخذًا عنيفًا كمسز ويكس تمامًا.
- إني آخذه على الوجه الذي يحلو لي. هذا ليس جواب سؤالي.
ومرة أخرى نظر إلى ميزي، كأنه يلتمس منها العون، فابتسمت
لزوجة أبيها وتطوعت بالرد:
- كنا في كل مكان.

ولكن مسز بيل لم ترد عليها؛ فأضافت بذلك إلى الدهشة التي كانت
سيدتنا الصغيرة قد أحست بوادرها، فهي لن تحظى بترحيب ولا نظرة،
بيد أن هذا لم يكن أكثر استرعاء للنظر من إغفالها بإزاء السير كلود
الذي فارقها في لندن منذ يومين لأي إشارة تدل على ارتباطهما. وكان
الاعجب من هذا تصريح مسز بيل بالتعهد الذي قطعت مسز ويكس على
نفسها ولم تكن تلميذها تعرف عنه شيئًا.
وبدلاً من أن تحسب حساباً لوجود هذه الشاهدة مضت تقول
بفظاظة:

- كان ينبغي أن يخطر لك أن شيئاً ما قد يحدث.
فنظر السير كلود إلى ساعته، وقال:
- لم يخطر ببالي أن الوقت قد تأخر هكذا، ولا أننا لبثنا في الخارج
كل هذا الوقت الطويل. فنحن لم نشعر بالجوع؛ ومر الوقت كومة
البرق. ولكن ما الذي حدث؟
فقال مسز بيل:

- أوه. حدث أنها شعرت بالتقرز.

- ممن؟

- من ميزي لتجردها من الإحساس الخلقي.

وحتى الآن لم تشمل بنظرة واحدة الطفلة التي وقفت هناك مشاركة في الموقف ومنفصلة عنه في آن واحد. وحاول السير كلود أن يلمع في نظر رفيقة نزهته:

- وكيف يمكن أن يكون لديها شيء من هذا؟ وكيف على كل حال يثبت عليها هذا الاتهام من مجرد خروجها معي؟

فقالت مسز بيل:

- لا تسألني «أنا». بل سل تلك المرأة. فهي إما أن تلقي الكلام على عواهنه وإما تصخب.

- وهل تترك الطفلة؟

فقالت مسز بيل بضغط شديد على الحروف؛ وهي ماضية في النظر فوق مستوى رأس ميزي:

- ستترك الطفلة.

وفجأة طرأ على وجه ميزي تغير وهي في هذا الوضع، وسبب هذا التغير - كما استطاع الآخرون أن يرياه بعد ذلك - هو ظهور مسز ويكس في فرجة الباب الذي تركته ميزي منفرجاً بعد دخولها في أعقاب السير كلود، وهدرت مسز ويكس صائحة وهي تتقدم صوب الثلاثة المتناظرين:

- أنا لا أترك الطفلة. لا أتركها. لا أتركها.

ووجهت هذا الكلام إلى ميري رأسًا. وكانت قد تمنطقت، بل وأسرجت للرحيل؛ في الزي بعينه الذي قدمته به؛ وتسلمت بكيس صغير من الشبك مكتنز صديء؛ وراحت تلوح به معززة كلامها وكأنه بلطة القتال. وكان واضحًا إنها جاءت من حجرتها رأسًا. حيث خمنت ميري في مدى لحظة واحدة أنها أشرفت على نقل أمتعتها الصغرى:

- أنا لن أتركك إلا بعد أن أمنحك فرصة أخرى. هل تريدين أن تأتي معي؟

فالتفتت ميري صوب السير كلود الذي خيل إليها أنه ابتعد عنها قرابة الميل؛ أما مسز بيل فلم تلتفت ميري إليها إلا بمقدار ما حظيت من مسز بيل بالالتفات؛ لأنها شعرت وكأن ما بينهما من خلاف قد انتهى أمره. فما الذي ظهر من أمر هذا الخلاف في الصدام الذي وقع بين المرأتين؟ إن ما ظهر منه الآن كاف على كل حال، إذ قالت لزوج أمها بصورة عملية:

- أتريد أن تأتي؟ أتريد؟

سألته وكأنها لم تتبين بالفعل أنه سيكون عليها أن تتخلى عنه. وكانت هذه هي الجذوة الأخيرة لحلمها. فهي الآن لم تعد تخاف شيئًا. وقالت لها مسز ويكس:

- كان ينبغي أن يكون لك من الكبرياء ما يمنعك من توجيه هذا السؤال.

وكان كبرياء مسز ويكس حينئذ بادية للعيان جدًّا.

وما إن سمعت مسز بيل كلمات الطفلة، حتى وثبت صائحة:

- يبتعد عني يا ميزي؟

فكانت كلمتها إعواله فزع وملام أدهش ابنة زوجها أن تبين منها أنها لا تكن لها شعورًا عدائيًا؛ وأنها إنما أبدت الترفع لا لما خامرها من الارتباب؛ بل عن إفراط غريب في الحياء.

ووجه السير كلود إلى مسز بيل نظرة تدل على الاشمئزاز وقال:

- لا تصوري لها المسألة على «هذا» النحو.

وكان في لهجة مسز بيل في الواقع شيء ما أذكر سيدتنا الصغيرة برهة بالأيام العابرة التي كان فيها الكثيرون من أصدقائها «في مأزق».

واحمر وجه هذه الصديقة. فهي في مواجهة مسز ويكس؛ ومع أنها تشامخت إلا أنها أدركت المراد بهذا التلميح:

- لا. ليست هذه هي الطريقة.

ثم أظهرت معرفتها للطريقة المثلى؛ فقالت:

- لا تزيد في حمقاتك يا عزيزتي؛ واذهبي رأسًا إلى حجرتك وانتظري هناك إلى أن أتمكن من القدوم إليك.

ولم تُبدِ ميزي حركة تدل على الطاعة، بيد أن مسز ويكس رفعت يدها لتقطع الطريق على كل مراوغة:

- لا تبرحي مكانك إلى أن تسمعي ما سأقول. «أنا» راحلة؛ ولكني يجب أن أفهم أولاً: هل فقدته مرة أخرى؟

وفتشت ميزي بعينها بحثًا عن ذلك الفقدان الذي لا يوصف في أرجاء الفضاء، ثم أجابت في عجز:

- أشعر أنني فقدت كل شيء.

فتجهمت مسز ويكس وقالت:

- هل تعنين بهذا أنكِ فقدتِ ما عثرنا عليه بعد عناء شديد جدًّا منذ

يومين؟

ولما لم تجب تلميذتها؛ استطردت:

- أتريدين أن تقولي إنكِ نسيتِ بالفعل ما عثرنا عليه معًا.

وعندئذ تذكرت ميزي بغموض فقالت:

- إحساسي الخلفي؟

- إحساسك الخلفي. ألم أوضح لك ذلك بعد كل شيء؟

وكانت تتكلم كما لم تتكلم من قبل في حجرة الدراسة والكتاب في يدها. وأعاد ذلك إلى ذاكرة الطفلة كيف أنها كانت تعجز أحيانًا في يوم الجمعة عن ترديد جملة كان لسانها طلقًا بها يوم الأربعاء؛ ووجدت نفسها في هذا المسلك الوعر تبدو في منتهى الضعف والاستكانة، والسير كلود ومسز بيل يقفان كأنهما ضيفان في ساعة امتحان. وكان لديها في الواقع نفحة من تلك الزهرة الشاحبة التي زعمت مسز ويكس أنها قطفتها وراحت الآن تدفع بها بيد متلهفة إلى أنفها، ثم غادرتها؛ فاهتز ذراعها كأنها توشك أن تنزلق. فكانت هذه الهزة دليلًا على ارتجافة في دخیلتها أعمق مسربًا من الإحساس الخلفي، ونظرت إلى

ممتحتتها، ونظرت إلى الزائرين، وشعرت بالدموع التي حبستها في المحطة تطفّر إلى عينيها. كلا. لا صلة بين هذه الدموع - لا صلة إطلاقاً بالإحساس الخلقي. وكل ما استطاعت أن تجيب به هو الذريعة القديمة المخجلة البلهاء التي كثيراً ما تذرعت بها في حجرة الدراسة:

- لا أعرف. لا أعرف.

- أنتِ إذن قد فقدته.

وبدت مسز ويكس كأنها تغلق الكتاب، وثبتت مثبتاتها على السير كلود، وقالت:

- لقد قتلته في مهده. قتلته حين بدأت تدب فيه الحياة.

لقد غدت مسز ويكس جديدة تماماً. مسز ويكس سامية وعظيمة. ولكن السير كلود لا يجوز بعد كل شيء أن يعامل كما لو كان صبيّاً صغيراً لم يحفظ درسه. فقال:

- أنا لم أقتل شيئاً. بل العكس أوجدت حياة. لست أدري ماذا أسميها. بل ولم أدّر كيف أعاملها كما ينبغي أو أدنو منها. ولكنها مع ذلك أجمل شيء التقيت به في حياتي. فهي شيء بديع ومقدس.

وكان واضعاً يديه في جيبه، ومع أن بقية من اشمئزازه ظلت عالقة بمحياء، إلا أنه أطرق بذلك المحيا في رقة بالغة صوب صديقتيه اللتين صار على وشك فقدانهما. وسأل كبراهما:

- أتعرفين لماذا عدت؟

فصاحت مسز ويكس من غير أن ترق -ويا للعجب- قلبها، ولم

تزل حرارة اشتباكها الأخير مع مسز بيل تظلل جبينها:

- أحسبني أعرف!

وكأنما أصاب مسز بيل رشاش من هذا المد والجزر، ففاهت
باحتياج عال غير واضح اللفظ، ثم أشاحت عنهم ووقفت برهة أمام
النافذة. وقال السير كلود:

- لقد عدت باقتراح.

فسألته مسز ويكس:

- لي أنا؟

- لميزي. أن تتخلي عنك.

- وهل تخلت عني؟

وتردد السير كلود، ثم صاح بالطفلة، وهو يتعد أيضًا لترك لها
الفرصة:

- قلولي لها.

ولكن مسز ويكس وتلميذتها وقفتا متقابلتين في صمت. وقد
ازدادت ميزي شحوبًا على شحوبها، وازدادت ارتباكًا، وتصلبًا، وبكمًا.
وأخذت كل منهما ترمق الأخرى فاحصة. ولما وجد السير كلود أنهما
لا تتكلمان، حول وجهه إليهما مرة أخرى، وقال:

- ألا تريدان أن تقولي لها؟ ألا تستطيعين؟

ولبثت لا تقول شيئًا، وعندئذ وجه الخطاب إلى مسز ويكس صائحًا

في ضرب من النشوة:

- إنها رفضت. إنها رفضت!

فإذا بميزي تجد صوتها وتقول:

- أنا لم أرفض. لم أرفض.

فجاءت هذه الكلمة بمسز بيل إليها على الفور، وهتفت:

- لقد قبلت يا ملاكي. أنت قبلت.

وألقت بنفسها على الطفلة. وقبل أن تتمكن ميزي من المقاومة
ارتمت معها على الأريكة، وهي تحتضنها وتضمها إليها:

- لقد تخليت عنها بالفعل. تخليت عنها إلى الأبد. أنتِ لنا، ولنا
وحدنا الآن. وكلما أسرع بالرحيل كان ذلك أفضل.

وكانت ميزي قد أغلقت عينيها، ولكنها فتحتها عند سماع كلمة من
السير كلود، إذ قال لمسز بيل:

- أطلقها!

فصاحت مسز بيل:

- مستحيل! مستحيل! مستحيل!

وأحست ميزي بذراعيها تزيدان من اعتصارها.

فكرر السير كلود بمزيد من الشدة:

- أطلقها.

وكان ينظر إلى مسز بيل، وفي صوته شيء ما. وأدركت ميزي من

تخفيف شدة تطويق الذراعين لها أن مسز بيل شعرت بهذا الشيء،
فنهضت ببطء من الأريكة، ووقفت الطفلة هناك وقد ارتدت نهباً للهمود
وتوزع المشاعر. واستطرد السير كلود:

- أنت حرة. أنت حرة.

وعندئذ أحست ميزي بدفعة في ظهرها أملاها الحق، فإذا بها وقد
صارت في وسط الحجرة مرة أخرى نهباً لكل عين ولا تدري أين تولى
وجهها.

وبجهد التفتت صوب مسز ويكس، وقالت:

- أنا لم أرفض التخلي عنك، بل قلت إني مستعدة للتخلي عنك
إذا تخلى هو....

- إذا تخلى عن مسز بيل؟

- إذا تخليت عن مسز بيل. ماذا تقلن في هذا إن لم تقلن إنه بديع.
وجه السير كلود هذا السؤال إليهن جميعاً، بما فيهن السيدة
المذكورة وكان يتكلم الآن في انتشاء عميق كأن عملاً بديعاً من آيات
الفن أو الطبيعة قد تجلى بينهم فجأة، وقد شرع يسترد جأشه على هذا
الأساس من التقدير المرهف:

- لقد وضعت شرطها، في فطنة هائلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه
هذا الشرط. فاشترطت الشرط الوحيد الصائب.

فردت مسز بيل على ذلك الهجوم بقولها:

- الشرط الوحيد الصائب؟

وكانت قد تلقت منه زجرًا قبل لحظة، ولكنها ليست مستعدة أن تتلقى الزخر هذه المرة:

- كيف تقول كلامًا سقيمًا كهذا، وكيف تظاهرها في مثل هذه القحة؟

- ماذا بالله فعلت بها حتى جعلتها تفكر بهذا الإسفاف؟

ووقفت تتميز غضبًا واستنكارًا، وتجيل عينيها المتوهجتين في الواقفتين أمامها، فواجهت ميزي بعينيها تلك النظرات بثبات، مدركة أن هذه هي اللحظة التي تحسب لها أكبر حساب، إلا أن مسز بيل راضت نفسها على توجيه سؤال بالغ الاعتدال إلى ابنة زوجها:

- هل اشترطتِ يا حبيبتي شرطًا كهذا؟

وأحست ميزي أن اللحظة الحاسمة حين حانت لم تكن -على نحو ما- بالغة السوء كما توقعت، وأعان الطفلة أنها كانت تعرف ما تريد، فقد جعلها كل ما تعلمته وسمعته تعرف ذلك أخيرًا، فلئن تريثت لحظة قبل الجواب فما كان ذلك إلا لرغبتها في أن تكون لطيفة. أما الحيرة فقد تبددت أو على الأقل كانت في سبيلها إلى الزوال السريع. وأخيرًا أجابت بقولها:

- هل تقبلين التخلي عنه؟ هل تقبلين.

فقال السير كلود في توسل مفاجئ همس به إلى مسز بيل:

- دعيها لشأنها. دعيها. دعيها!

وفي اللحظة عينها وجدت مسز ويكس وجهة جديدة للكلام:

- أليس حسبك يا سيدتي أنك وصلتِ بها إلى مناقشة علاقاتك؟
وتركت مسز بيل السير كلود غير مكترثة لما قال، فمسز ويكس
استطاعت أن تؤجج ضرامها، فصاحت بها:
- علاقاتي؟ ما الذي تعرفينه أيتها المخلوقة البغيضة عن علاقاتي؟
وأي شأن لك بالحديث عنها؟ غادري هذه الحجرة فوراً أيتها العجوز
البشعة.

فقال السير كلود لمسز ويكس:
- أرى من المستحسن أن تذهبي.. فلا بد لك من إدراك سفيتتك.
لقد خرج من دائرة الموضوع الآن، أو أراد الخروج منها. فهو
يعرف أسوأ ما في الأمر، وقد راض نفسه على قبوله. وما يعنيه الآن هو
الحيلولة دون المشاحنة السوقية وتبديدها.

- هلا ذهبتِ. هلا انصرفتِ بسرعة؟
فقالت مسز ويكس بعزم راسخ:
- بأسرع ما تريد -ومعي الطفلة. أما من دونها فلا!
وقالت مسز بيل بما يشبه الصراخ:
- إذن لماذا كذبتِ عليّ أيتها الشيطانة؟ لماذا قلت لي منذ ساعة
إنك تخليتِ عنها؟

- لأنني كنتُ يائسة منها. لأنني حسبتها تركتني.
والتفتت مسز ويكس إلى ميزي قائلة:

- لقد كنتِ معهما، في صلتهم. أما الآن فعيناك مفتوحتان،
وسأخذك!

فصاحت مسز بيل وهي تثب وثبة ضارية وتجذب بنت زوجها
جذبة عنيفة:

- لا. لن تأخذوها!

وقبضت على ذراع ميزي، وأتمت حركتها الغريزية، فدارت بها في
وثبة أخرى متجهة صوب الباب، الذي كان السير كلود قد أغلقه لحظة
ارتفاع أصواتهما، وأسندت ظهرها إليه، وأبقته مغلقاً وهي تندد بمسز
ويكس تدفعها بعيداً عنها، في ثورة انفعالية متناقضة:

- لن تأخذوها. ولكن ارحلي أنتِ، فهي ستبقى مع أهلها بعد أن
تتخلص منك.

- أنا لم أسمع في حياتي كلها بشيء فظيع كهذا!

وكان السير كلود قد خلص ميزي من يدها وظل ممسكاً بها أمامه،
واضعاً يديه بلطف على كتفيها وهو يواجه المتنازعتين الصابحتين.
وكان احمرار وجه مسز بيل قد هبط، وارتدت شاحبة في غضب رائع،
وظلت تحتج وتطرد مسز ويكس، وظهرها لاصق بالباب لتحول دون
فرار ميزي، فكأنها تريد أن تطرد مسز ويكس من النافذة أو من المدخنة:

- يا لك من لطيفة. «بمناقشة العلاقات» وبحديثك عن «صلتنا»،
وبإهاناتك وما هي صلتنا هذه إن لم تكن حب الطفلة التي أضحت واجبنا
وحياتنا، وهي التي تربط بيننا عن كذب مثلما جمعت بيننا في البداية؟

فقالت ميزي في نوبة من اللهف:

- أعرف هذا. أعرف هذا! أنا التي جمعت بينكما!

فندت عن السير كلود أغرب ضحكة وقال:

- لقد جمعت بيننا فعلاً! أنتِ جمعت بيننا!

وراحت يدها تعلوان وتهبطان برقة فوق كتفها.

وسيطرت مسز ويكس على الموقف بحيث كان في جعبتها قول

خشن توجهه لكل منهم، فقالت لتلميذتها في غيظ:

- هاك! أرايت!

وقالت ميزي لمسز بيل في إلحاح:

- أتقبلين التخلي عنه؟

فسألتها تلك السيدة باستنكار:

- أتخلي عنه لكِ «أنتِ» أيتها الملعونة الصغيرة؟ ولهذه الشيطانة

المخرقة العجوز التي ملأت ذهنك الصغير البشع بالشر؟ هل كنتِ

مرائية صغيرة فظيعة طوال تلك السنين التي ارتضيت لنفسك العبودية

فيها كي أجعلك تحبينني، وانخدعت فحسبتك أحببني؟

فردت عليها ميزي في ارتباك بدا أنها تحسبه مجدياً:

- أنا أحب السير كلود. أحبه.

واستمر السير كلود يربت عليها، فكان كلامها بمثابة رد على ذلك

التربيت، وقال بأغرب هدوء ممكن لمسز بيل:

- إنها تكرهك. تكرهك.

فجعلها هدوءه تتلظى وصاحت:

- أنظاها في موقفها وتسلمني للإهانة؟

- لا. كل ما هناك أنني أؤكد أنها حرة. أنها حرة.

وحملت مسز بيل، وصاحت:

- حرة في أن تتصور جوعاً مع مثل هذه المتسولة المخبولة؟

فردت عليها مسز ويكس:

- سأصنع لها أكثر مما صنعتِ أنتِ في أي وقت مضى. سأعمل

إلى أن تبلى أصابعي حتى عظامها!

وشعرت ميري في يدي السير كلود اللتين لم تزالا فوق كتفيها

بشيء من الاستسلام، وأنه نظر من فوق رأسها نظرة خاصة إلى مسز

ويكس، وسمعتة يقول:

- لا حاجة بكِ إلى هذا. فلديها مواردها.

فصرخت مسز بيل:

- موارد؟ موارد؟ تلك الموارد التي سرقها أبوها الدنيء!

فابتسم وأوماً برأسه إلى مسز ويكس قائلاً:

- سأستردها. سأستردها. سأسترجعها هذا.

فكان لذلك وقعه المخيف على الصديقة الأخرى، فانفجرت

صائحة وفي عينيها دموع حارة:

- لم أتحرّ أنا هذا الأمر ولم أجد إلا هباء؟ إن قسوتك عليّ لا يمكن
تصورها.

فكلمها برقة شديدة تكاد تصل إلى التملق:

- ستتحرى المسألة مرة أخرى. سنتحراها معاً. إنه هباء فعلاً،
ولكننا نستطيع أن نجعله يدفع المبلغ، أو نجعل أيدا تدفعه. فكري في
المال الطائل الذي ينعمان به الآن!
وضحك واستطرد:

- لا بأس. لا بأس. لا جدوى من الكلام. لا جدوى منه. لم نستطيع
استمالة فكرها إلينا. فهي في الحقيقة مخلوقة فريدة في نوعها. لسنا
كفئين لها. لا!

ومرة أخرى انطلق يضحك، فصاحت مسز بيل:

- لسنا كفئين، وتلك الدابة كفؤه؟

وفي هذه اللحظة ساد الحجرة سكون مطبق، وتولى السير كلود
الرد على السؤال بأن اتجه بالطفلة صوب مسز ويكس، فما درت الطفلة
إلا وهي بجوار تلك السيدة، وهي قابضة على ذراعها بشدة. وكانت
مسز بيل لم تزال تحرس الباب، فقال السير كلود أخيراً:
- دعيهما تمران.

ولكنها بقيت هناك؛ ورأتهما يتبادلان النظرات، ثم رأت مسز بيل
تلتفت إليها قائلة:

- وأنا أملك الآن يا ميري. وهو أبوك.

فتنهدت مسز ويكس في سخرية فلسفية هادئة، وقالت:

- هذا هو الحال الذي وصلنا إليه!

واستمرت مسز بيل في مخاطبة صديقتها الصغيرة، وكان جهدها في سبيل التعقل، والحنان واضحًا:

- إننا نمثل كما تعرفين مستر فارانج وزوجته السابقة. وهذه المخلوقة لا تمثل إلا الادعاء والأمية. إن القانون في صفنا.

فتهكمت مسز ويكس بها غاية التهكم:

- القانون. القانون. أفضل من هذا أن تدعي القانون يدلي برأيه فيك!

فألح السير كلود على صديقتها بشدة بلغت حد التوسل:

- دعيهما تمران. دعيهما تمران.

بيد أنها لبثت متعلقة بميزي:

- أتبغضيني يا عزيزتي؟

فنظرت إليها ميزي بعينين جديدتين، ولكنها أجابتها بما أجابتها به سابقًا:

- هل تقبلين التخلي عنه؟

وتريثت مسز بيل في الرد، ولكنها عندما أجابتها كانت نبيلة في ردها:

لا ينبغي لك أن تحدثيني في مثل هذه الأمور!

وبلغ من اضطرابها واستفظاعها أنها بكت. أما بالنسبة لمسز
ويكس، فكان إلحاحها محل استنكار لتجرده من الكياسة، فصاحت
بصراحة:

- ينبغي أن تخجلي من نفسك!

وتوجه السير كلود بضراعة أخيرة:

- أسمح بوضع حد لهذه الفظاعات؟

فثبتت مسز بيل عينيها فيه، وراحت ميزي ترقبهما. وأردفت مسز
ويكس قائلة لمسز بيل:

- يجب أن تكوني منصفة له، لقد كنا -أنا وميزي- متعلقتين على
الدوام به، وقد أظهر لنا مدى حبه لنا. إنه يتمنى أن يرضيها، بل وأحسبه
يتمنى أن يرضيني أيضًا. ولكنه لم يتخل عنك.

وظل زوج أمها وزوجة أبيها متقابلين؛ تحت عين ميزي الواعية.
ولم يسبق لملاحظتها أن غاصت إلى أعماق مما غاصت في هذه اللحظة.
وأخيرًا قال السير كلود لمسز بيل في عزم:

- نعم يا عزيزتي. أنا لم أتخلَّ عنك؛ وإن أحببت أن أتخذ من
صديقتينا الماثلتين هنا شاهدين، فلا مانع عندي من أن أتعهد لك بأنني
لن أتخلَّى عنك. هاك!

وعلقت مسز ويكس على ذلك بلهجة تراجيدية:

- إنه لا يستطيع أن يتخلَّى عنك!

فهزت مسز بيل محياها الجميل ناظرة حولها، وهي منتصبه القامة

في اعتداد برغم هزيمتها، وقالت ساخرة:

- إنه لا يستطيع!

وصاح السير كلود مرددًا في مرح، بحيث أفلح في إنقاذ الموقف
بصورة رائعة:

- إنه لا يستطيع! لا يستطيع! لا يستطيع!

وفهمت مسز بيل أن لا جدوى، بيد أنها لبثت ثابتة على موقفها،
فقالت ميزي لمسر ويكس:

- هل يفوتنا اللحاق بالسفينة؟

فقالت مسز ويكس للسير كلود:

- نعم. ستفوتنا السفينة.

وحدقت مسز بيل بميزي وقالت:

- لست أدري ماذا أقول فيك!

فقالت ميزي للسير كلود:

- وداعًا.

وأجابها السير كلود:

- وداعًا يا ميزي.

وابتعدت مسز بيل عن الباب وصاحت بميزي:

- وداعًا!

ثم اخترقت الحجرة وتوارت في الحجرة الملحقة بها. وتوجه

السير كلود إلى الباب الآخر وفتحه، وكانت مسز ويكس قد خرجت.
وتوقفت ميزي عند العتبة، ومدت يدها لزوج أمها فتناولها واستبقاها
برهة، والتقت أعينهما التقاء من فعل كل منهما للآخر أقصى ما في
وسعه؛ وقال مرة أخرى:

- وداعًا.

فقال له ميزي:

- وداعًا.

ثم لحقت بمسز ويكس.

وأدركتا الباخرة التي كانت على وشك الإقلاع، وأسهرت بهما
عبر الخليج، فألفيتا نفسيهما على ظهرها لاهتتين فزعتين بحيث
مكثتا نصف الرحلة مشغولتين بتهدئة نائرة انفعالهما.. وهذا انفعالهما
ببطء، وبصورة غير تامة. ولكن عندما أحاط بهما البحر الهادئ في
منتصف المانش، وجدت مسز ويكس لديها الشجاعة على أن تعود إلى
الموضوع، فسألتهما:

- أنا لم أنظر ورائي. فهل نظرت أنت ورائك؟

فقال ميزي:

- نعم. ولم يكن هناك.

- ولا في الشرفة؟

وتمهلت ميزي برهة، ثم قالت ببساطة:

- لم يكن هناك.

ولزمت مسز ويكس الصمت هنيهة، ثم قالت أخيراً:

- لقد ذهب «إليها».

فأجابتها الطفلة:

- أوه. أعرف هذا.

فرمقتها مسز ويكس بنظرة جانبية، إذ لم يزل لديها موضع للتساؤل

عما كانت تعرفه ميزي.



